

شاهدة ربع قرن

عايدة الشريف

الهيئة المصرية العامة للكتاب

شاهدة ربع قرن

عايدة الشريف

اهـــداء

الى والدى العالم الأزهرى ، اذ لولا سماحته واستنارته لما التحقت بمعهد الفنون المسرحية ـ قسم النقد ـ ولما انفتحت على ساحة الفكر والأدب والفن ٠

الى والدتى التى تفهمتنى بعفويتها وغفرت بطيبتها كل حماقاتى واستوعبت ببساطتها ما كان يموج فى نفسى من الثورة على التقاليد والتمرد على السائد والمألوف خلال دراستى المتلازمة فى كلية الحقوق ومعهد الفنون المسرحية ٠

« رحمهما الله رحمة واسعة »

المؤلفـــة

لـــــماذا .. ؟

من مذكرات شاهدة ربع قرن

وأنا أجيب على هذا السؤال أجدنى مدفوعة للبوح لكم بحقيقة قد تثير عجبكم .. فحواها ومغزاها : اننى لم أعد نفسى للكتابة يوما .. ذلك أن حلمى الأوحد فى الحياة كان مجرد ان أكون رسامه . غير أنى بالموازارة وجدت نفسى منذ وعيت مشدودة من الأعماق لمعايشة مجالات الفن والفكر والأدب لأسباب لا نهائية لا أستطيع اكتناه أبعادها السحيقة المتداخلة فى نفسى .. قد يكون التذوق الفطرى لدى ، كما قد يكون بغية الغيبة والفرار من واقعى أما خاطر الكتابة عنها ولهـــا فكان أبعد شىء يخطر حتى على أحلامى .. أبوح بهذه الحقيقة وفى تلافيف حياتى علامات وعلامات قد تشرق لكم وتبرق اذا قرأتم ما كتبت فى هذا الكتاب ، منها انه لم يسبقنى أحد فى العائلة للكتابة فى هذه المجالات .

ولكن حدث وأنا أتابع هذه المجالات ان لاحظت وكأن أصحابهـــا يتساءلون دواعى ومبررات متابعاتى ومناقشاتى اياهم وبأى حق تكون .. وكان هذه المجالات السامقة قد ضاقت كما النوادى التى يكتب على أبوابها (للأعضاء فقط) ولم يكن ما لاحظت محض ظن منى .. ذلك انى وجدت منهم من يسألنى الكتابة عن كذا أو عن كيت وكأنه يمتحننى .. وعندما كتبت .. وجدتنى أسائل نفسى هل كتبت لأقسم وأشهد لهم ولنفسى (*)

(*) وفى اللسان ان الشهادة خبر قاطع . تقول (شهد) على كذا من باب سلم .. وقولهم اشهد كذا اى احلف و (شهد) له بكذا اى ادى ما عنده من الشهادة . فهو شاهد والجمع (شهد) مثل صاحب وصحب وسافر وسفر وبعضهم ينكره .

ان هذه المتابعة كان لها مردود فى نفسى ٠٠٠ أو هكذا يجب أن يكون لكل لمسة رنين ؟ ٠

والحق أن بعض المساءلة كانت من باب الود والعشم ٠٠ فالمخرج الشهير صلاح أبو سيف وكنت أعمل معه ابان كان رئيسا لمؤسسة السينما بادرنى يوما بقوله : غير معقول الا يكون لك انتاج ما الى الآن ، وكنا فى عام ١٩٦٣ ٠٠ ثم أردف أن كثيرين من النـاس عندما يرونك فى العروض الخاصة وقد تحلق بك الزملاء يسألوننى : من تكون ؟ هل أجيبهم بأنك مجرد عضو لجنة قراءة بالمؤسسة أو كاتبة برامج تليفزيونية ؟ أشعر وأنا أجيب بأن هذا لا يعبر عنك ٠٠ فاعملى شيئا ولو سيئا نعرفك به ونلتمس لك العذر حتى عن رداءته ٠

دفعت الى هذا البوح لا للحقيقة فقط ٠٠ بل لهدفين نفعيين لى أولهما ان أحدد مكانى بين من يكتبون على الساحة ٠٠ واننى منهم على جنب ، والآخر لأفسر به ما قد يصادفك من تعبير اننى لا أكتب الا بدافع أو بتكليف أحيانا يكون على وجه التخصيص أى عن شىء أو شخص ٠٠ وأخرى على وجه التعميم ان يطلب منى أن أكتب لجريدة أو مجلة ما يعن لى والسلام ٠٠ وربما أيضـــا لأجيب عن تســاؤل أواجه به أحيانا وهو : لماذا أنا غير مشهورة ؟ والتى سجلها لى كثيرون فى رسائل اعجاب بما أكتب ومنهم الأستاذ حسن التل ــ رئيس تحرير جريدة اللواء الأردنية ٠٠٠٠ بعد ان أعاد نشر بعض ما كتبت وسجلت من « بورتريهات » الشخصيات فى مجلة الدوحة القطرية ٠٠ أما شفاهة فهى تأتى لأغلب من قرأ لى ٠٠ وأراد التعرف على بعدهـا ٠٠ كالأسـتاذ بشـير الهاشمى من اتحاد الناشرين العرب بطرابلس ٠٠ بل قد يقاطعنى كاتب فحل كالطيب صالح لأننى لم أجمع هذه الصور فى كتاب وربما لهذا فعلت !

لم أستجل ما ذكرت آنفا للمباهاة بقدر ما استفزك ــ عزيزى القارىء ــ لقراءة هذه الصور بالذات ٠

وربما حمل هذا البوح أيضا الاعتزار عن القصـــور فى الأسلوب والمنهج الذى يكتسب أولهما بالمران بعد الشخصية طبعـا ٠٠ وثانيهما أى المنهج الذى يكتسب من زحم وتنوع نتــاج البيئة والأجواء العائلية الطبيعية التى ولدت بهـا كما يحدث لدى أغلب الكتــاب ٠ وقد تعاظم رضوخى للكتابة لعدم تمام حلمى فى أن أكون رسالة الى درجة اننى صرت أستفذ نفسى لها كلما أدركنى الخمول النفسى والاجتماعى والفكرى أو الاحباط !

بعد ذلك أفيق لأقول لكم عن (شـاهدة ربع قرن) ثم (لماذا ٠٠ هى لماذا) فعن الأولى نفسها ٠٠ أقول اننى كتبت هذه الصـــور والمشاهد

التى تطالعكم فور تقليب هــذه الوريقــات حين استلهمتها عــام ١٩٨٢ ابان اقامتى وعملى بالكويت ٠٠ وعندما بحثت فى ذهنى عن عنوان جذاب يضمها استقر بى الرأى على عبارة (من مذكرات شاهدة ربع قرن) والآن وأنا أكتب المقدمة وأحدد الفترة الزمنية التى حوت ما كتبت ، أجدنى الهج يا سبحان الله فقد كانت التسمية صدفة كالقصد العمد ، ذلك أن عام ١٩٨٢ حين بدأت كتابة هذه الصــور كان تماما لربع قرن بالضبط ٠ قضيته فى بحر الفن والفكر فى مصر وعشته وعايشته فى أجواء المثقفين والمبدعين ٠٠ تسلمنى موجة لموجة ٠٠ فى دوامة لم أتمكن أبدا من الخروج منها ، حيث بدأ هذا الموج يصخب عام ١٩٥٧ مع التحاقى بالدراسة العليا بمعهد الفنون المسرحية ليلا وكلية الحقوق نهارا ، واللذين أفضيا بى الى عوالم الفن والفكر فى مصر خلال عصورهما وتألق نجومهما ـ ومن عبث الأقدار ان النقاد أيامها كانوا يطلقون على هذا الرواج والازدهار كونه مجرد اغراق أو تظاهرات ! ٠

الخط الثانى أو العامل الثانى على الأصح هو تواجدى فى الكويت ، كواحة فئت تحت ظلالها من وهج القاهرة وجذبت زيولى السابحة فى بحورها ثم تفاعل حنينى اليها على انسـياب شريط ذكرياتى عنها بمهل وروية جعلتنى ــ ربما ــ التقط الكثير من تفاصيلها التى كانت ستختفى على وأنا فى دوامتها قريبا من شخوصها وأحداثها ٠

وعلى ذلك فانى أستطيع القول : أنه لولا هذا الهدوء والاغتراب فى الكويت ما استطعت انجاز ما أقدمه من شهادات ٠٠ كما أقول أيضا : لولا هذه الزخــيرة المترقرقة داخـلى ٠٠ ما وجـــدت مـــا أنجزه مع غيره فى هذه الهـــدأة ٠٠ وأشـــعر وأنا أجمعها الآن ٠ ببرود شديد للتمايز بين الفترة الدافئة التى كتبت عنها وعن شخصياتها والصقيع والزمهرير الحادث الآن من بوار هذه المجالات وهمودها عن التألق والسموق فى الأيام الخوالى أتحسر على ذكريات الفترة القصـــيرة للاستراحة ما بين فصول مسرحيــات المسرح القومى فى الستينيات ٠٠ حواراتها الخصــبة وشخصياتها المتألقة ودفء التواصل بين أجيال المثقفين ٠٠ أتحسر على ساعات المتعة والترويح بمتحف الفن الحديث لسماع الموسيقى أو لندوة فى الدار أو حتى لاســتعارة كتاب ٠٠ نعم ٠٠ كان زمن اســتحلاب رحيق الثقافات والفنون العظيمة بلا مقابل وبلا عنت الثقافة العظيم لمدة طويلة ٠٠ فالمبنى نفسه كان ذا تاريخ عريق ، فقد كان بيت هدى شعراوى احدى زعيمات ثورة ١٩١٩ ٠٠ كان يهيىء لك ان الموسيقى اذ تصدح تتخلل جنبات المبنى الأرابيسك فتجعلك على وشك ان تخلع قدميك تأدبا واحتراما لهذا الترف الفنى ٠٠ ولا أحدثك عن الحديقة التى كانت تحيط بالقصر بجمالها وبكارتهــا والقها وسحرهـــا المفقود فى أيامنـــا هذه ٠ لقد

هدم هذا الصرح الثقافي دون سبب معلوم أو ملح ، بدليل أن أرضه على جادة شارع شمبليون المطل على ميدان التحرير مازال يبابا ... ويهيىء لى أنهم سيقيمون مكانها جراجا عاما للسيارات كما فعلوا بأرض دار الأوبرا القديمة ، وأخاف اذا يأس المسئولون فى علاج النشع الحادث بالمسرح القومى – لأنه كما قيل لى من زمن بعيد قد صممه مهندسه على ان يلامس بدرونه مياه بحيرة الأزبكية فيحدث الرنين النقى المطلوب للمسرح، ومن المؤسف ان شركة عثمان أحمد عثمان عندما أخذت على عاتقها اصلاح المسرح ردمت هذه البحيرة مما جعل المياه ترشح فى المبانى – أخاف ان يلقى المسرح القومى مصير الأوبرا ومتحف الفن الحديث حتى بات علينا أن نقول لأولادنا من بعدنا ..... لتعلموا ان كل جراج عمومى كان يوما ما صرحا ثقافيا وان السيارات بدلا من أن تكون رفيقة الفن طدته .. بل قضت عليه .

ان مردود هذين المثلين البسيطين عميق وحزين فى ذاكرة الجيل الذى عاش تلك الاجواء الفنية والابداعية والتراثية الزاخرة ولم أقل لك الأوبرا ، فقد همس فى أذنى مديرها السابق الشاعر عبد الرحمن صدقى أنه قد تلقى توجيهات عليا بالتوقف عن تكملة كتاباته لتاريخ الأوبرا حتى لا تثير شجن الأجيال التى عاشت أيامها الخالدة أو كان مردودها الثقافى يفوق – فى عرض واحد – عدة ندوات أو عروض هنا وهناك .

لقد كان الربع قرن الذى كتبت عن بعض شخصياته زخم حافل بالأحداث والابداعات الفنية والثقافية والفكرية ونجومه وشخصياته العملاقة – حتى لو اختلفنا مع بعض أعمدتها أو كشف الزمن عن هزال نواحى من فكرهم – حتى لم تدع لى وقتا للسكينة .. أو العكوف على الامساك بفكرة شغفت بها وهى وجود الطائر فى مناشط كثيرة للفن والفكر .. ولا تترك لى بالكاد الا وقت المذاكرة وأداء الامتحان أو العمل الحكومى .

وهكذا فى هدأتى بالكويت تمكنت – كما قلت – بعد طول انتظار من لم شمل ما شغفت به ليكون كتابى الأول (الانسان والطائر قراءة بين العقل والفطرة) وفى انتظار طبعه فى القاهرة (*) ، راح قلمى يسطر هذه الصور .. وكأنى قدمت الانتاج .. ثم أصلته بتصوير من الهمنى مفرداته حتى لا يصفنى الناس بأننى أجيد فقط تصوير من أحببتهم من البشر دون التعبير عما وصلنى منهم وتنامى وجدانى برحيقه .

أما عن الصور الخمسة عشر التى سجلتها هنا فليست كل ما كتبت من الشخصيات بل أستطيع القول ان من كتبت عنهم لم

(*) صدر الكتاب عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

يكونوا فقط هم الشخصيات التى أود أو التى يجب أن أكتب عنهم ان وفاني الحظ وأقلعت عن آفة انتظار تكليفى بالكتابة فى المناسبة الفلانية أو العلانية ، فالسيدة الفاضلة كريمة مختار الممثلة القديرة وحقيقتها (عطيات البدرى) وهى شقيقة المذيعة (عواطف البدرى) كانت أول انسانة أحببتها فى حياتى ـ على سبيل المثال ـ ولم تكن قد عرفت طريقا للفن بعد • كانت زميلتى فى مدرستى وجارتى فى السكن ولم أكتب عنها بعد• وبمناسبة التمثيل أذكر أننى وأنا طالبة بالمعهد كنت (أشبينة) سناء جميل التى سلمتها لزوجها الكاتب الصحفى الأستاذ لويس جريس فى أحد كنائس شبرا • ومازلت بانتظار الفرصة السانحة للكتابة عن هذه الفنانة والانسانة المتفردة •

أما النبعان اللذان جعلانى أسبح داخل عوالم الفن والفكر والأدب والصحافة كلها •• فكان أولهما اننى منذ الصغر وأنا فى صحبة أخى يوسف الشريف فى روحاته وغدواته واستمر هذا الوضع حتى صار هو المحرر الفنى ثم صار محرر الشئون العربية بروزاليوسف •• واذا كان من الممكن الاعتذار له عن عدم الخروج •• فان من غير الممكن أن اعتذر للنبع الأخصب الدكتور محمد مندور •• تتلمذت على يديه وصادقته منذ اليوم الأول لالتحاقى بمعهد الفنون المسرحية قسم نقد وربما عملت جيرتى له فى السكن على مصادقتى لعائلته كلها • فمنذ عام ١٩٥٧ لم يكن الدكتور مندور يذهب الى المسرح أو الجريدة أو حتى الزيارات الخاصة ولو كانت أمه وأبيه فى كفر مندور الا وصحبنى معه •• ذلك ان دورى بعد الاستئناس كان القراءة له وكتابة ما يمليه على من افتتاحيات ومقالات نقدية وكان يطلق على أولا شيخة حارة الروضة وعندما خرجنا الى مؤتمراته وجولاته الانتخابية فى حى الروضة وأخذت أعرفه بالناس أطلق على « شيخة حارة الدنيا » ومن الغريب ان والدى كان خطيب مسجد الروضة الوحيد أنذاك « عبد الرحمن بن عوف ـ المناشترلى » لم يكن يعترض على صحبتى لمندور لأنه كان من قرائه المعجبين باتجاهه السياسى الطليعى أيام الوفد كما ان عربة الدكتور مندور كانت معروفة لسكان الروضة وكان قد رشح نفسه عنها ثم انسحب •• زد على ذلك أننى أثناء عملى بمؤسستى السينما والمسرح تعرفت عن قرب بشخصيات كبيرة •• فبعد المخرج صلاح أبو سيف شرفت بالعمل مع الروائيين الكبار نجيب محفوظ ، وسعد مكاوى ، عبد الرحمن الشرقاوى كما عملت كمديرة للشئون القانونية بالوكالة العربية للسينما أيام كان يرأسها الأستاذ أحمد المصرى (وهو صاحب الدور البارز فى حركة ضباط الفرسان عام ١٩٥٤) •

كما أتيح لى كمراسلة للآداب عام ١٩٥٧ ثم حضور المؤتمرات

الفنية والفكرية التي عقدت في القاهرة والكويت فرصة التعرف على الكثيرين من نجوم الفكر والفن في العالم العربي والغربي وقبل ذلك تتلمذت سواء في المعهد أو كلية الحقوق على أساتذة كبار ٠٠ وربما كان لنشأتي كابنة عالم أزهري في حي تراثي وجذاب وهو جزيرة الروضة ٠٠ دور بعيد الغور في معرفتي المبكرة بفئة الكتبة وما هي الكتابة فأبناء علماء الأزهر يتاح لهم غالبا ـ بحكم انشغال عائلتهم ـ المروق الى مجالات بعيدة عن هؤلاء الآباء وعوالمهم الخاصة المحافظة والمحدودة ٠ كما ان جزيرة الروضة كانت منثورة بكثير من لآلىء الكتاب والمشاهير الذين كنت أراهم في الحقيقة ثم أرى صورهم وأعمالهم في الصحافة ، ففي شارع واحد من جزيرة الروضة هو (الأخشيد) كان يسكن شيخ النقاد محمد مندور ٠٠ والشاعر عبد الرحمن صدقي وأخوه عبد الرزاق وزير الزراعة السابق وكمال الطويل الموسيقار المعروف كما كان يسكن الشيخ عبد الباسط عبد الصمد نفس عمارته ٠٠ وفي منزل واحد أيضا كان يسكن الأستاذان موسى حقي حيث كان يتردد عليه أخوه الأكبر يحيى حقي ـ مع الأستاذ كمال الطويل ـ وأمام منزلهم كان يسكن عالم وكاتب سوري لاجىء سياسي هو خير الدين الزركلي ٠٠ وعلى الرصيف المواجه اغتيل عبد القادر طه أحد الوطنيين المصريين قبل ثورة ١٩٥٢ بيد الحرس الحديدي الموالي للقصر الملكي ٠٠ وعلى ناصية هذا الشارع نفسه سكن أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة ٠٠ وعلى مقربة منه كانت فيلا قوت القلوب الدمرداشية التي سكنها الأخوان مصطفى وعلى أمين والى جوارها معمل سينمائي كان يتردد عليه الفنان أنور وجدي وزوجته الفنانة ليلى مراد ٠٠ و ٠٠ والى جوار منزلنا في شارع الفتح كانت تقبع مطبعة تصدر مجلة اسلامية بهذا الاسم ـ وكان يحلو لي ان أراقب صاحبها وهو ثائر سوري لاجىء هو العالم الجليل محب الدين الخطيب وهو يرص الحروف وكذلك الشاعر على الجارم ٠٠ ثم أحد أشقاء المؤرخ الشهير عبد الرحمن الرافعي واللواء على نجيب شقيق الرئيس الأسبق محمد نجيب والكاتب الثائر خالد محمد خالد ، وكنت وأخواتي نجتهد في ايجاد صلة ما بين أحداث مصر وجزيرة الروضة أو لماذا كانت حادثة كوبري عباس التي انتهت بغرق طلبة الجامعة في قاع النيل ٠٠ أو أن الضبع الأسود بطل الفالوجة كان من ساكنيها وان جمال عبد الناصر عاش فترة من حياته عند عائلة النشار أو ان السادات خطب منها زوجته ٠٠ بل ان تعمير جزيرة الروضة بدأ في اعقاب نجاة سعد باشا من حادثة القصاصين حيث اختار الاستشفاء في أجوائها الخلابة الهادئة مما جذب صفوة زائريه الى جمالها فاستوطنوها ٠

واذا كانت هذه الشخصيات هي الخاص في الجزيرة فان العام

فيها هو أسماء شوارعها التى تحمل أسماء الشخصيات والحقب التاريخية التى مرت على مصر مثل شوارع : (الملك الصالح) ، (الأخشيد) (المماليك البحرية) ، الملك المظفر (قطز) ، (عبد العزيز آل سعود) باعتباره أكبر الملوك الذين حضروا حفل افتتاح الجامعة العربية الذى أقيم انذاك فى قصر المناسترلى !

أما عبق التاريخ منذ الخليقة فيكمن فى الجزء الجنوبى من جزيرة الروضة ، وقد أغلق على حديقة واسعة تسمى حديقة المناسترلى — وهو أحد وزراء أسرة محمد على باشا — ٠ هذه الحديقة التى جعلتنى سحرها وألقها أتصورها محور الكون كله ، بل اننى ما قرأت فى التاريخ بعصوره الا وتصورته فى هذا المكان ، فيها مقياس النيل الذى قيل لنا انه بنى من أيام الفراعنة والتى كانت نشرة الأخبار فى طفولتى وصباى تنتهى بتعبير : « وقد سجل مقياس النيل بالروضة ارتفاع النيل كذا ٠٠٠ » فكنا نهلل نحن أطفال العائلة وكأن أسماءنا تذاع على الملأ ٠ ومن الغريب أن بجانب هذا المقياس نبتت أشجار أفقية على النيل قيل لنا ونحن صغار ان هذه الأشجار هى سلالات الأشجار التى رسى عليها مهد موسى عليه السلام عندما ألقت به أمه فى اليم ٠ وعندما سألت والدى ان كانت هذه الواقعة خرافة ، أكد حقيقتها مستشهدا بالآية (٥١) من سورة (الزخرف) (ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) ٠ اذ ان تفسير موقع الأنهار التى كانت تجرى من تحت أقدام فرعون يشى بمكان قصره وهى فى الغالب جزيرة ٠٠ ومن المصادقات العجيبة أن تكتشف آثار فرعونية عند تجديد بناء مقياس النيل خلال الأربعينيات !

ان هذا كله مجرد لمحة خاطفة لهذه الحديقة الفواحة وقصر المناسترلى العظيم ٠٠ واذا كان وصفها الدقيق قد احتل فصلا من كتاب « وصف مصر » الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية فان وصف جزيرة الروضة ممزوجا بمشاعرى تجاهها قد يحتل مجلدا ، ومن الغريب اننى وأنا صغيرة كنت أرسم بعضا من مشاهدها وعوالمها غيابيا ثم أسرح فى روائى عبقرى يسجل عبقها وشخوصها الأسطورية التى تعيش فيها ، الا يحتمل ان هذه الذكريات والأحداث والشخصيات — وان كانت قبل ربع قرن ايحاء استمر يواتينى من مجتمعى ويلقى بشرارة الفن فى نفسى فلا تزال تتوهج كلما مر الزمن واسترجعت ذكريات النشأة والتكوين ٠٠ ربما !

مجلة الآداب البيروتية
.. ورحلة البحث عن الذات

عشت مضيعة لزمن طال .. دون أقرانى الذين هيأت لهم ظروفهم المعيشية أن يسيروا في طريق واسع ممهد متواز مع أعمالهم ، وكنت أعلق هذا الفشل على شماعة الظروف غالبا . اذ لم يكن لى حجرة خاصة في بيتنا ألملم فيها شتات نفسى وأفيء فيها لأرسم الطريق الذى أسير فيه .

ومع قيام ثورة ٢٣ يوليو .. بدأ حلم إن يكون لى حجرة خاصة يتحقق .. وذلك ان عبد اللطيف بغدادى عضو مجلس الثورة وكان وزيرا للاسكان قد نادى بأن تهدم كل المنازل التى تغلق الشوارع حتى تمتد على خط مستقيم . ولما كان منزل جدى الذى نعيش فيه له أوصاف هذه البيوت حيث كان يقف سدا حائلا أمام امتداد شارع المنيل الى مقياس النيل . فقد تسلم والدى أخطارا باخلائه كمقدمة لازالته عن الوجود .. فانتقلنا الى منزل فسيح به غرفة خاصة لى .. ورغم تلك الهبة أو النجدة السماوية الا أننى حزنت حزنا شديدا على بيت جدى ومرتع طفولتى الذى كان يجمع شمل العائلة كلها .. أعمامى وأولادهم وعماتى قبل أن يتزوجن .. بل تأكد أمام ناظرى ان كل ما قرأته عن البكاء على الأطلال .. وما كتبه الكتاب عن حزنهم لمفارقة القديم لم تكن محض لحظة أدبية كما كنت أتصور .

ورغم أنه قد صار لى أخيرا غرفة بمنزلنا الجديد .. الا ان تشتتى السابق ظل يلازمنى ربما من طول صحبته .. فكنت متأرجحة هل أسير فى طريق الرسم لأحقق حلمى فى أن أكون رسامة لما اختبرته فى نفسى

خلال دراستى الابتدائية والثانوية ٠٠ أم انعطف الى طريق الأدب الذى شرق وبرق من خلال موضـوعات الانشاء لاسيما وان مدرسـة الرسم (فوزية جورج) قالت لى : لك طريقة ساحرة فى الحكى وهى مقدمة لموهبة الرسـم ، وأكد لى كذلك مدرس اللغة العربية فى الثـانوى (ابراهيم شلبى) الذى أعجب بموضوعاتى الانشائية التى كنت أكتبها فى شكل قصة ، ثم يعيد قراءتها على تلميذات الفصول الأخرى وهو الذى نصحنى ان أتجه لكتابة القصة ، بل وأعطانى رواية تخالف ما كنت أقرأه من روايات رومانسية الا وهى (زقاق المدق) لنجيب محفوظ الذى أذهلنى فيها دقة التصوير لأجوائها وشخصياتها ٠٠٠ وعندما أعجبت بهذا الكاتب أخذت أبحث عن أعماله ٠ فقرأت رواية خان الخليلى وبعدها بمدة قصيرة قرأت نقدا لهـا بقلم الدكتور محمد مندور ٠٠ فبهرت بقلمه وتتبعت أيضا مقالاته ٠

على أننى عندما حصلت على الثانوية العامة وقفت صعوبة ركوب مواصلتين الى كلية الفنون حائلا دون التحاقى بها ٠٠ فكان انعطافى الأوحد الى الأدب لا سيما وقد عثرت فى أحد مقالات الدكتور مندور على اسم (معهد النقد المسرحى) ٠٠ وعرفت ان هذا المعهد على بعد خطوات من منزلى ٠٠ فقد كانت الدراسة فيه مسائية بمدرسة عمرو بن العـاص الثانوية بحى مصر القديمة الذى لا يفصلنا عنه سوى فرع النيل الشرقى الصغير !

ولأنى كنت أريد ان أعوض ما فاتنى من التحصيل بالنسبة لعمرى ولظروف تأخرى عن أقرانى فقد التحقت بكلية الحقـوق صباحا وذلك ان أخى الكبير يدرس بها ٠٠ فقلت لنفسى اذهب مع أخى صباحا ٠٠ أو يشرح لى ما درسه فى السنة الفائتة ٠٠ وفى المساء أذهب الى المعهد ٠

ومن الغريب ان الدراسة بكلية الحقوق هى التى ثبتت أقدامى فى الأدب أكثر من المعهد المسائى الذى يدرس الأدب ٠٠ كيف ؟

ان عثورى على قصـة نجيب محفوظ التى أرشدتنى الى أعماله كلهـا ٠٠ ثم تتبعى لكتابات الدكتور مندور ٠٠ كانا محض اشراقه معرضة للانطفاء والتلاشى ٠٠ قد تجعلنى محض قارئة ٠٠ ولكن صادفنى ما أعطى هـذه الاشراقة البقـاء والاستمرار ٠٠ الا وهى مجلة الآداب البيروتية ٠

فقد كانت لى زميلة سبقتنى الى الالتحاق بكلية الآداب وهى الممثلة المسرحية التى اكتفت بالاذاعة (عايدة عبد الجواد) ٠٠ وكانت قد اطلعت زملاءها المتمرسين بالأدب على قصصى التى كتبتها بتشجيع مدرس اللغة

العربية • وعندما صحبتنى الى كليتها عرفتنى بزميليها وحيد النقاش وبهاء طاهر • ووجدت الأول قد كتب على حاشيتها عدة ملاحظات •• بينما كتب لى الثانى قائمة بالكتب والمجلات التى ينبغى أن أقرأها وعلى رأسها مجلة الآداب ••

وعندما أمدنى وحيد بأعداد منها كدت أطير فرحا بهذه الهبة الثمينة • وأستطيع الآن أن أقول بشكل عام أى بغض النظر عن الاشراقات العابرة التى ذكرتها •• ان الفن والفكر كانا قبل تعرفى على مجلة الآداب عالما غائم الملامح غير محدد الأبعاد • فقد كنت فى هذه الآونة ـ فترة البحث عن الذات ـ شديدة التعلق بما كتبه مشاهير الكتاب الرومانسيين الذين يجيدون صنع الأحلام التى تشبع الاحتياجات النفسية والروحية لفتاة مصرية فى سـنى حينئذ مثل محمـد عبد الحليم عبد الله والمنفلوطى وغيرهم •• وكان الخروج من هذه الأحلام والكشف عن مدى هزالها فى مواجهة واقع حافل بالحياة يتطلب الكثير من الوعى وفتح الأعين والجهد الشاق فى طريق تغييره الى الأفضل والأجمل •

أذكر جيدا اليوم الذى عدت بهذه المجلة الى منزلى وتصفحتها •• فرجتنى رجا شديدا موادها وكتابها •• حتى لأستطيع القول ان هذه المجلة انتقلت بى من تحت ظلال الزيزفون الى ظلام فى الظهر ، فقطعت حديثى مع ماجدولين لتوقفنى وجها لوجه أمام تشيكوف بقسوة تصويره ودقته ، تحرر سيمون دبوفوار ، وشجاعة سارتر •• وكولون وبلسون ولوركا !

افتتاحيات الدكتور سـهيل ادريس ، ترجمات الأستاذ سـامى الدروبى ، قصائد نزار قبانى وأدونيس •• نقد أيميه ايزار •• قصص مطاع صفدى ، وشريف الرأس ، وأعجبتنى كتابة على سعد بشكل خاص لاتساع رقعة تناوله لموضوعه ، رسائل مراسليها من أغلب البلاد الغربية والعربية لاسيما رسالة القاهرة التى كان يكتبها محى الدين محمد •• لقد هدمت مجلة الآداب عندى تماثيل وأقامت أخرى أكثر حياة ومعنى وأخذت مفاهيمى تتحدد بالنسبة للكاتب •• من خلال المقالات النقدية وباب (قرأت فى العدد الماضى) للبحث والقصة والشعر •• ذلك انى كنت ما ازال فى مرحلة البحث عن الذات ، هذه المرحلة التى يكون فيها الكاتب أحوج ما يكون لمن يستهدى برأيه فى اختيار ما يقرأ وما يرفض •• حتى لا يبدد طاقاته •

وبعد ان صارت مجلة الآداب بأبوابها ومقالاتها بوصلتى فى الحياة •• وأخذت أتردد على المكتبات العامة •• التقط منها الكتب التى يتوجب على

قراءتها ٠٠ هالنى ان أجد مجلة الآداب مرصوصة بين المجلات الأدبية فقد كنت فى هذه الآونة أتصورها مجلة يتبادلها الصفوة ، وليست سلعة يستطيع شراءها من يطلب ٠ وبعد ان ارتضيتها هكذا ــ على مضض ــ أصبح يوم صدورها عيد بالنسبة لى ٠٠ اغفر مع قراءة صفحاتها كل ذنوب العالم ، بل أصبحت أيامى انتظارا ليوم صدورها !

وأستطيع القول بعد سنوات طويلة من العمر ٠٠ ان الآداب حملتنى فوق صفحاتها المحلقة وعبرت بى سنوات المراهقة ٠٠ فلم أشعر أو أعانى بعد تعرفى عليها ، بما يعانيه أقرانى فى هذه السنوات ، ولا أعرف ان كان هذا سليما من الناحية النفسية ، وانما هذا ما حدث بالضبط ٠

أما قولتى فى ان دخولى كلية الحقوق ثبتت أقدامى فى الأدب بأكثر ما ثبته دخولى للمعهد الأدبى ٠٠ فيعود الى أننى كنت أهرب من كلية الحقوق لأهجع فى بوفيه كلية الآداب ، حيث كان يتجمع فيه كل يوم ثلاثاء مجموعة من الأدباء والفنانين الشبان الذين تخرجوا والذين مازالوا يدرسون وبينهم الشاعران صلاح عبد الصبور ٠٠ أحمد عبد المعطى حجازى والأدباء بهاء طاهر ، عبد الجليل حسن رجاء ووحيد وعطاء وفريدة النقاش ، عبد المحسن بدر ، كان معيدا فحضرنا أنذاك مناقشته للماجستير ٠٠ سمير سرحان ٠ جلال السيد ، مجاهد عبد المنعم مجاهد ، سمير قدرى ، سليمان فياض ، الشاعر محمد سليمان ، الفنان الموسيقى يوسف السيسى ٠٠ وغيرهم كثيرون ٠٠ وكان الدكتور شكرى عياد يجلس لمحادثتهم بعد فراغه من القاء محاضراته ٠٠ حيث يتحلقه مع من ذكرت زملاؤهم العرب الذين يشاركونهم نفس الاهتمامات الأدبية والفنية مثل محمد برادة من المغرب ، وهانى مندس من لبنان وغالب هلسا من فلسطين والشاعر عبد العزيز صفوت من السودان ٠٠ ومن سوريا ٠٠ من الأردن وكانت الجلسة تضم من الفتيات نجاة ورجاء شاهين ، هدى العجيمى ٠٠ دكتوره سيزا قاسم وعايدة حسنين وصديقتى عايدة عبد الجواد التى دلتنى على أول الطريق لهذا الجمع ٠٠ وكنت أرى فى هذه الجلسة الأدب والفن والفكر كله أو كأن صفحات مجلة الآداب وقد تجسدت حية ٠٠ نفس القضايا والمناقشات التى لا تنتهى حول الوجود والعدم ٠٠٠ التمرد ٠٠ الماركسية ٠٠ التروتسكية ٠٠ اللامنتمى ٠٠ سقوط الحائط الرابع فى المسرح البعد الثالث والرابع للعمل الأدبى ٠ الالتزام السريالية الدادية ، الواقعية ، الاشتراكية ، الأوتشرك ٠٠ القومية العربية ٠٠ حزب البعث ٠٠ الحزب القومى العربى ٠٠ التاريخ

كان يوم الثلاثاء هو الآخر يمثل لى عيدا إذا فاتنى حضوره أشعر إن خسارة كبيرة قد لحقت بى ٠٠

[الولوج الى عالم البدايات]

هذا كله ما فعلته الآداب فى حياتى ، أما بداية مشاركتى فيها فبدأ عندما تصفحت العدد الأخير من عام ١٩٥٧ ووقع نظرى فى باب « قرأت فى العدد » الماضى نقدا بقلم الأستاذ صدقى إسماعيل لقصة « الموجة الأولى » للأستاذ وحيد النقاش .

هلعت يومها .. كيف يساء فهم من عرفنى بالآداب ، وعلى صفحاتها .. شمرت عن ساعداى دفاعا عن رســـولى لهذه المجلة وكتبت وأنا وجلة ـ لمعرفتى ان رئيس التحرير لن يأبه لطالبة مثلى ـ ولكنى كتبت تنفيسا عن غضبى وامتنانا لوحيد النقاش الذى عرفنى بالآداب .

كان اعتراض الناقد على هذه القصة التى كنت قد قرأتها مخطوطة من قبل .. فى قوله : ولا أحسب الرســـالة تكتب فيها الشـــطحات الخارجية والذكريات ومحادثة الذات .. بل ان الرســـالة تبدأ كما هو معروف بعزيزى وتنتهى بكلمة المخلص .

وقد استهللت ردى على ناقد القصة بكلمة لأحد كتاب الآداب فى مؤتمر الأدباء العرب الذى أقيم بالمتحف الزراعى المصرى عام ١٩٥٧ وهو الأستاذ رئيف خورى حيث قال : « لننتج للشعب أدبا كأرفع ما تبلغ اليه طاقتنا فى انتاج الأدب فان لم يفهم الشعب اليوم فهم غدا وان لم يفهم بنفسه اعانه على الفهم هؤلاء الوســطاء الذين نسميهم النقاد وان استعذت منهم بالله فى أحيان » .

وانهيتها بمحاسبة الناقد على قولته ان الكاتب أقحم مرض والدته فى القصة ـ أو الرسالة التى كتبها .. بقولى ان معنى كلمة أقحم كبيرة على هذا الموقف خصوصا ان الكاتب قد رتب عليه نهاية هذه القصة .

ولما كان العدد الأول ـ كانون الثانى (يناير ١٩٥٧) ـ عدد ممتاز عن الأدب والقومية العربية ، فقد قلت لنفسى اطمأنها : ليس هذا العدد المناسب لنشر مثل هذه الخواطر ، ولكنى فوجئت به منشــورا فطرت فرحا .. وآمنت بأن هذه المجلة محقة فى قولتها انها تنشر الرأى ولو جاء من ناقد مبتدىء !

وفى العدد الثالث من سنة ١٩٥٨ ، كررت هذه المحاولة ليطمئن قلبى اننى أكتب شيئا ذا بال .. فقد وجدت ناقدا قرأت له فى العدد الماضى وهو الشــــاعر صـــلاح عبد الصـــبور يعقب على قصيدة (المحروم) للشاعرة ملك عبد العزيز .. وهى زوجة استاذى الدكتور محمد مندور .. بقوله : « قصيدة عذبة تحوم حول تلك الفكرة المأثورة القائلة بأن الحرمان ينضج الفن » . ولم أجد فى هذا القول ما يوفى الشاعرة حقها فى نظرى

أنا على الأقل . وكتلميذة لزوجها وصديقة لها . أمسكت بالقلم مرة أخرى دفاعا عن ملك عبد العزيز ولخوفي أو لترددى من مواجهة شاعر مثل صلاح عبد الصبور .. فقد بدأتها بقول أنا تول فرانس « فاذا لم يستطع الشاعر العظيم ان يعرف ما هو أشعر فمن اذا .. يستطيع » ؟ .

ثم تساءلت : هل كل القراء شعراء عظماء حتى يعرفوا ما هو الشعر ؟ لا أظن بل ان أغلبية قراء الشعر الحديث ما زالوا حديثي عهد به .. وما فتئت عقولهم برعمية في فهمه ولن تتفتح هذه العقول الا اذا روتها كتابات النقاد .

وكنت أرى أن القصيدة موضوع المناقشة ملحمة صغيرة بالفعل جمعت فيها الشاعرة لكل الفلسفات التى يؤمن بها الفنان في تطوره من الضياع الى المعرفة والخلق .. مع الاحتفاظ بعمق الصورة وصحة اللغة ومتانتها .

ولكى أعطى لوجهة نظرى هذه وزنا يجعل الدكتور سهيل ادريس ينشرها كتبت تحت اسمي (قسم النقد والبحوث الفنية .. القاهرة) .

وصح توقعى فوجدتها منشورة بالعدد الرابع (نيسان ــ ابريل ١٩٥٨) فطار لبى واطلعت عليها طلبة المعهد وأساتذته بفخر واعتزاز .

بعد ذلك ١٩٥٩ ظهر ديوان أغاني الضبا ، لنفس الشاعرة .. وكثر جدل النقاد حول بعض قصائده وفي كل مرة ترد الشاعرة موضحة وجهة نظرها .. فيراجعها آخر في بريد الآداب . حدث هذا بالذات حول مطولتها الرائعة (ذكرى جواد حسنى) فقد دارت حول هذه القصيدة العملاقة معركة نقدية بين النقاد والشاعرة .. فقد نقدهـا الأستاذ محى الدين صبحى .. وردت عليه الشاعرة ردا تحليليا ثم تدخل الدكتور احسان عباس في العدد الذى يليه ، وعادت للمدافعة عن القصيدة ، وقد لفت نظرى في تعليق الدكتور احسان عباس على رد السيدة ملك عبد العزيز المنشور في (صندوق البريد) بعنوان (بين الواقع والامكان) عدة أمور أهمها :

أن تصوير شخص يقف ضد جيش جرار ــ في الفن ــ أمر مضحك يحتاج تحقيقه شيئا من المعجزة أو الكرامة ، لا لتكتب له النجاة فحسب بل ليستطيع ان يبقى لحظات في خدمة المعركة . ومع ان هذه الحادثة وقعت بالفعل ويعرفها كل مصرى وما زالت آثارها باقية . فان هناك أمورا واقعية أوردتها الشاعرة على قصيدتها ، واستعاض بها البطل عن المعجزة والكرامة كالصخرة الواقعية التى احتمى بها جواد حسنى والسلاح النارى والارادة الذاتية والأمل في قدوم جيش منقذ .. الخ .

ورغم تلميح الدكتور احسان عباس لهذه العوامل التى ذكرتهـا الشـاعرة .. الا انه يرى في تصوير هذه البطولة اسرافا وخروجا على

الطبيعة البشرية ٠٠ على عكس ما كنت أرى من خلال منطق الواقع الممكن والفهم الأكثر شمولا وتفاؤلا بالنسبة للطبيعة البشرية ٠٠ ولكى ألفت نظر الدكتور احسان عباس ليقرأ ما نشرته جريدة الأهرام فى أواخر شـــهر أكتوبر وأوائل نوفمبر من سنة ١٩٥٩ عن معركة بورسعيد ٠ لأن بها صورا كثيرة من البطولات الفردية والجماعية ٠ لعلها تقنعه بأن بطولة جواد لم تكن حدثا شاذا تشجعت وكتبت شبه مقال نقدى عن الديوان ٠٠ وبمشورة وتوجيهات الشاعرة ذاتها ـ وما يجب على النقاد أن يضعوه فى اعتبارهم ٠ من أن عنوان الديوان يوحى بماهيته (أغانى الصبا) ومن الانصاف لهذا الديوان قراءة القصائد على ضوء التاريخ الذى قيلت فيه القصيدة بالنسبة لعمر الشاعرة النفسى ونضجها الوجدانى ! وهذا لاشك سيكون لنا بمثابة مقياس نتعرف به الى أى مدى كانت الشاعرة مخلصة لقضيتها الشعورية التى ربطت نفسها بها ٠

نشر ذلك المقال فى العدد الثالث ـ آزار (مارس) سنة ١٩٦٠ مع رأى آخر فى نفس الديوان بقلم الشاعر الحسانى حسن عبد الله تحت عنوان (رأيان فى أغانى الصبا) ٠

بعد ذلك قدرت أن حماستى وحبى لأشخاص قريبين منى أتبين من خلالهم نواحى دفاعهم عن أعمالهم لن يوافينى فى ما يجب ان يكتب فآثرت الصمت للاستزادة من العلم ٠٠ ذلك اننى فى هذه الآونة من حياتى كنت قد تعرفت على كثير من الأدباء ، ووقفت على مدى ثقافتهم فى جمع المادة التى توافى الكاتب بالبراهين والأسانيد كلما تعطلت عندهم الحماســـة والحب ٠

وكلما توغلت فى التحصيل كلما زاد جبنى عن الامساك بالقلم ، حتى بعد ان طلب منى ذلك الدكتور سهيل نفسه ، وكان ذلك فى مؤتمر كتاب آســـيا وأفريقيـــا ســـنة ١٩٦٢ فى القـــاهرة ٠٠ وكان مهرجانا كبيرا بالنسبة لمثقفى مصر ولى ٠ حيث رأيت كبار الكتاب الذين قرأت لهم ٠ وكنت قد رسمت لهم صورا كثيرة فى خيالى ، تناثر جزء منها وثبت الآخر ، فالشاعر ناظم حكمت الذى كنت أتخيل من خلال أشعاره فى سجن (بروضة) بتركيا رجل دقيق القد شاحب الوجه ٠ أجده فارع الطول قوى البنية أحمر الوجه كأنضولى أصيل ٠ بل كاد يخلع ذراعى وهو يصافحنى ويضغط على يدى مرحبا ٠٠ أما الروائى الجزائرى كاتب ياسين ٠ فقد تطابقت صورته على ما تخيلته بقده الدقيق ، ولم أكن أتخيل مدى حبه للشراب هكذا فكان يردد : لن أكف الا بتحرير الجزائر ثم عرفت من خلال حادثة غريبة انه ينتمى الى اليسار الصينى المتطرف أو الستالينى ٠٠ فعندما دعا السفير السوفيتى المؤتمر على حفل ٠٠ رفض

كانت مضافحتة .. بل انه تفوه بمرارة : (هل انتهت مشاكل العالم بازاحة رفاة ستالين من جانب رفاة لينين ؟

وقد آذى به هذا الحادث لتركه المؤتمر في أيامه الأولى .. وقد كان زميله محمد خمستي الذى صار أصغر وزير خارجية للجزائر بعد تحريرها على عكسه ، كان صارم الالتزام ثم رفيقهم محمد ديب الذى قرأت له بالعربية واكتشفت انه لا يعرف منها شيئا وان ما قرأته كان محض ترجمـــة ؟

شخصيات وشخصيات لبعضهم قرأت ولم أقرأ للبعض الآخر لأنها لم يروج لها بالترجمة فى مصر لا سيما الكتاب الأفارقة وبعض الآسيويين كانت مجرد أقنعة ترمز الى الفكر والفن العظيم ثم فجأة انفجرت بالحياة الانسانية .. ولقد كان على رأس من تعرفت عليهم رئيس تحرير الآداب فعندما دعا الدكتور ثروت عكاشة أعضاء المؤتمر الى عرض للفنون الشعبية المصرية من اعداد فنان الشعب الأستاذ زكريا الحجاوى .. كان جلوسى بالصدفة بجانبه (سهيل ادريس) ـ وعندما تأخر العرض نشأ الحوار بيننا فبعد التعارف وتعريفه بأننى أمددت المجلة ببعض الخواطر .. عاتبته على موقفه من (جانين مونرو) بطلة روايته « الحى اللاتينى » .. ونقلت اليه تعاطفى معه لروح السخرية الانسانية التى تناولت شخصياته وهو نفسه أحدهم اذ تعتبر هذه الرواية ترجمة لشخصيته فى مرحلة دراسته فى جامعة المقاصد الاسلامية ثم السربون ويهيىء لى انه ساير فيها طه حسين فى (الأيام) .. خاصة الجزء الخاص بدراسته الأزهرية . وقد ذهل هو عندما كلمته باسهاب عن الشخصيات التى استشفقتها من وراء تصويره لأبطال روايته (أصابعنا التى تحترق) ومن انه غير وطن البطلة .. وانه ظلم الشخصية التى تصورت أنها رئيف خورى و ... و ... ثم حدثته عن كتابات الآداب مع رأيى فى كل كاتب .. فاستحثنى على الكتابة فورا للآداب بشكل منتظم . ولكننى لم أجد الشجاعة فى ذلك الوقت ان أمسك بالقلم .. تراجعت وأجلت ذلك فيما بعد .

ومرت السنوات الى سنة ١٩٦٦ وكان الدكتور سهيل ادريس فى زيارة للأستاذ نجيب محفوظ الذى أعمل معه .. وسألنى لماذا لم أكتب .. و .. و .. ثم قال ان أجهزة الدولة لشئون الرقابة غير راضية أن يكون مراسل الآداب فى القاهرة هو الأستاذ سامى خشبة .. بل انهم ارتابوا فيما يرسل له من كتابات لدرجة أنهم أنزلوا الطائرة المتوجهة الى بيروت وبهـــا رســالة القـــاهرة .. حتى يتفحصـــوا محتـــوياتها بدقة .. تعجبت للأمر وقلت له ان سامى أكفأ من راسل الآداب من القاهرة فوافقنى غير أنه حائر بين اعجابه وارضـــاء الأجهزة .. ثم ســألنى من تظنـــين

أن يكون مراسل الآداب فى القاهرة ·· فاقترحت ان يكون الشاعر حسانى حسين عبد الله ·

ولما كنت معه ـ أى سهيل ـ قد دعينا الى العشاء لدى الشاعر صلاح عبد الصبور فقد سأل سهيل ادريس صلاحا عن اختيارى ·· فقال رغم اعجابى بقدرات حسانى ·· الا اننى أرى هذا الاختيار جنوحا الى اليمين بعد جنوح الى اليسار ·· بجانب ان منبر رسالة القاهرة خطير جدا قد يتخذ أداة تصفية حساب لكل جانب منهم ·· مع انه لابد ان يكتب هذه الرسالة محايد ولو كان لدى متسع لكتابتها ·· وفجأة وجدتهم يتهامسون ثم أفصحوا الى : لماذا لا تراسلين انت مجلة الآداب : قلت أنا ·· هذا كثير اننى لا أصدق ما تقولون · فقال صلاح : هذه فرصتك فى تجميع قدراتك المشتتة ، وآراءك التى توزعينها على الكتاب فيما يكتبون ·· انها لن تقتضى منك غير التحديد والتنظيم فتحركاتك بين الكتاب سوف تستثمر فى تكليفهم بما تتطلبه المجلة من كتابات واختيارك لمن ينقد العدد الماضى ·· انها فرصة نادرة ·

ولما كنت قد أعلمت صديقى الأستاذ حسانى بترشيحى له لدى الدكتور سهيل فقد استعد لهذا اللقاء ··· غير انى عندما أنبأته بما استقر هو ـ سهيل ـ عليه فقد ثار وفار فى وجهى · كيف تكتبين مثل هذه الرسالة وانت لم تدرسى النحو ولا العروض ولا ·· ولا ·· فكظمت غيظى الا ان صدى هذه الجائحة عاد وتردد فى نفسى وكاد يؤدى بى الى رفض الكتابة ·· غير انى استعدت ثقتى ·· وبدأت الكتابة ·· حتى أصبحت أعرف بين أوساط المثقفين بأنى مراسلة الآداب ·· فحسدتها لأنها أظهرتنى وكأننى ولدت مع هذه المهمة وكأن ليس لى هوية قبلها ·

الالتزام :

أصبحت الكتابة شيئا مختلفا منذ اللحظة التى وافقت فيها على ان أكتب كمراسلة للمجلة ·· فالكلمات تحمل اسم القاهرة · والجانب الذاتى الذى هو محركى الأول يجب ان يتوارى لينفسح المجال للتعبير عن العطاء الذى يمكن ان تساهم به القاهرة فى الدور الحضارى المعاصر وعلى مستوى العاصمة الكبرى من خلال كل ما يغذى وما يعوق ذلك العطاء المتحقق والمنتظر ·

وهكذا خرجت أبحث وأبحث عن كل العناصر المحركة للوجود الأدبى والثقافى فى القاهرة ، لأوصل صوتها الى أخوتنا فى العروبة هنا وهناك عبر منبر الآداب ·

وكنت أحيانا نظرا لحيوية الحركة الأدبية والفنية في ذلك الحين ولعدم قدرتي على تجاهل الأحداث الهامة ، أكتب أكثر من موضوعين أو ثلاثة بجانب رســـالة القاهرة وقد علق الدكتور القط في أحد الأعداد على ذلك ٠

واذا كنت قد كتبت عن (الطائر بين صفحات الفن والفكر) أو كتبت عن شخصية أعجبت بمنطقها في الحياة وبعد غد ربما أكتب مذكرات انسانة فاشلة ـ هو أنا ـ أو كتبت قصة قصيرة ٠٠٠٠٠ أو قصيدة نثرية أو نقدا لكتاب أحب أو ٠٠ أو ٠٠٠٠ فان كل ذلك في حقيقة الأمر مجرد مداخل أعبر فيها عن نفسي التي تمثل (الآداب) جزءا عزيزا منها ٠٠ بقدر ما خدمت باخلاص أساتذتي وأصدقائي من الكتاب والفنانين منذ ما يقرب من نصف قرن عبر رسالة الآداب النقدية التي حرصت أن تظل نافذة بانورامية يطل منها القارىء على أوجه الثقافة والآداب والفنون المصرية !

هل آن الأوان ..
لفتح ملف زيارة سارتر إلى القاهرة

- هل ما اطلع عليه سارتر من فكر أثناء الزيارة ، هو ما جعله يؤيد دولة اسرائيل أم أن هناك أسبابا خفية ؟
- لماذا اشترط سارتر أن يصطحب معه اليهودى « كلود لانزمان » كشاهد على حياد الزيارة ؟ ولماذا لم نشترط نحن شخصا عربيا حين زار اسرائيل لضمان نفس الحياد ؟
- ما هى حدود معرفة توفيق الحكيم بفكر سارتر وبوفوار ولانزمان وتطبيقاتها على حياتهما الخاصة ؟
- ما هو رأى سارتر فى مثقفينا ممثلا فى توفيق الحكيم ؟
- هل جاء سارتر الى مصر ليقول رأيه فى معالجة توفيق الحكيم لقضية المرأة ؟
- من هو المفكر المصرى الذى رأى توفيق الحكيم ان حضوره . كان سيجعل من زيارة سارتر زيارة موفقة ؟

وبعد فقد فشلت زيارة سارتر الى القاهرة سنة ٦٧ ، ثم مات الرجل فلماذا نفتح الملف ؟ والجواب لا على سبيل الذكرى والذكريات ولكن

حتى نتدبر بعد ذلك مواقفنا ونعيد حساباتنا ‥ لدرء أخطائها بعد ذلك مع مفكرين آخرين وفى ظروف مواتية بالقطع مختلفة ‥

لقد أتيح لى أن أرافق سـارتر ومرافقيه فى زيارته الى القاهرة كمراسلة لمجلة الآداب البيروتية ، بل ان الدكتور سهيل ادريس رئيس تحريرها أوكلنى لتوجيه الدعوة لسارتر ورفاقه لزيارته فى بيروت ، ولقد تسنى لى بفضل ذلك ان أكون قريبة منه ومنهم وأن أتابع كثيرا من لقاءاتهم بالمجاميع فى اللقاءات المفتوحة وحواراتهم المنفردة مع المفكرين ، وأن أستمع الى بعض آراء سارتر فى هؤلاء وأولئك ·

والحق أن الصديقين عبد الملك خليل والمرحوم وحيد النقاش قد ساعدانى كثيرا سواء فى توجيه بعض الأسئلة ، أو ترجمة بعض ما يسقط من كلماتهم حتى أتابع الحديث ‥ فلقد كان عبد الملك رفيقـا ملازما للمجموعة السارترية وكان يسرد لى دائما ما فاتنى من وقائع بسبب عملى الحكومى انذاك ‥ يحثنى باستمرار على التشجع فى التحدث مع الضيوف بأى لغة ، حتى لا يظنوا أننى مراقبة لتحركاتهم وملاحظاتهم لصالح جهة ما ، لا سيما وأنهم كانوا يعتبرون كلمة « مرسى » كشكرا ، التى تنطلق منى عفويا تشى بأنى أتكلم الفرنسية بطلاقة ، لعدم معرفتهم أن المصريين يستعملونها كالعربية سواء بسواء ·

كتبت تغطية لهذه الزيارة لمجـلة الآداب ‥ ولكنها لم تنشر لى حينها لأن هذا الحين قد تصادف مع نهاية زيارة سارتر لاسرائيل ‥ وتصريحه بتأييد وجودها ، مع حق عودة اللاجئين الى ديارهم · « وكالعادة عندما يمسنا ضر نغضب وننصرف « ‥ حيث الحكم التعتيم على أخبار سارتر من وقتها ‥ ولم تتابعه الصحافة بعد ذلك بالشكل المطلوب حتى غابت عنا التحولات التى حدثت فى أفكاره مثل امتناعه عن توقيع البيانات التى تؤيد دولة اسرائيـل ‥ وبذلك نقـول مع القـائل : « ان مزمارا يجمعنا ‥ وعصا تفرقنا » ·

وأذكر أننى عندما شرعت فى كتابة هذه الزيارة ، عانيت كثيرا من القفز فوق موضوعات وآراء كانت تصدم القارىء فى أساتذته الكبار الذين نكن لهم ولآرائهم تقديرا كبيرا ولتصوراتهم مهـابة واجلالا · فما بالكم لو تجاسر من كان فى وضعى صاحب سن حديث وقدرات عقلية متواضعة بالبوح بها فى حينها ‥ ولكن مرور ثلاثة عشر عاما على هذه الأحداث عملت كثيرا فى كشف ملامح هذه المهابة والجلالة التى نحيط بها كثيرا من هؤلاء المفكرين · وعملت كذلك أيضا على زوال الحرج السابق لدى فى تعرية أفكارهم ومواقفهم ·

والحق أن هذه الزيارة قلبت كثيرا من أفكارى عن بعض مثقفينا

وعن سارتر رأسا على عقب ، كنت أظن قبلها مثلا أن لقاء مهما كزيارة سارتر ستجعل توفيق الحكيم ينفض عن نفسه الميول الانعزالية التى تشكل أدبه • والتى ألح اليها البعض من الأدباء العرب ؛ ويبدأ بجدية فى التعرف على فكر الزائر الفيلسوف وتطبيقاتها على حياته •• كنت أظن أن لويس عوض صاحب الثقافة الموسوعية النادرة ••• التى لا يشوبها الا ايمانه السريع بأفكاره بشكل قاطع وشهوة اطلاق التعبيرات المدبجة ولكن ذلك لم يحدث بالنسبة للرجلين معا • كنت أظن أيضا أن العلاقة الثلاثية بين سارتر وسيمون ولانزمان محض مواقف أدبية ، عاشوهـا كتجربة حياة •• ولكن هذه الزيارة أكدت أن هذه المواقف تنسحب على أدق آرائهم وكل مواقفهم السياسية والاجتماعية •

فمن أين أبدأ •• وهل أكون متفقة مع هذا الانقلاب أن أبدأ من النهاية ؟ ولكن اذا كانت النهاية محصلة لبدايات فكيف يرتب القارىء مفردات الموضوع بعد أن انعكس السرد ؟ لنترك الموضوع يأخذ مجراه الطبيعى •

دعـــوات وتســـويف :

زار سارتر القاهرة فى مارس سنة ٦٧ • واستمرت هذه الزيارة ستة عشر يوما • ولم تكن هذه الزيارة الا آخر الدعوات التى وجهت اليه من القاهرة وسوف فى تلبيتها تسويفا بدعوى تشككه فى جدوى التجربة الاشتراكية المصرية •• والقائمين على تطبيقاتها من قبل فئة من الشـعب وليست كل الفئات المتوجب المشاركة فيها • وقد استمرت دعوات القاهرة تلاحقه خاصة وأن موقفه المبدئى لم يمنعه يوما من الوقوف مدافعـا عن مصر فى وجه العـدوان البريطانى الفرنسى الاسرائيلى عـام ١٩٥٦ •• حيث وقف مهاجما حكومته بقوله : ان فرنسا ذهبت تنقذ قناة السويس وتقتل شعبا ، هذا الشعب الذى قررت أن تقتله ليس الشعب المصرى وانما الشعب الفرنسى نفسه ، فليس من حق أى رئيس لحكومة فرنسا أن يجرد الشعب الفرنسى كله من شرفه فى حب السلام » ، ثم تأييده لمصر عندما دخلت اليمن حيث آكد وقوفه بجانبها بقوله : « فى رأيى أن مصر قد ساهمت بمســـاندتها لثورة اليمن بأكثر من البلاد ذات الحكومات الاشتراكية ، مثل حكومتنا الفرنسية أثناء الحرب الأسبانية بغض النظر عما كانت عليه ارادتنا أو امكانياتنا وقتذاك •• لقد جاء موقف مصر أكثر حسما وأشد أصالة من الوجهة الثورية من موقف حكومة ليون بلوم أثناء الحرب الاسبانية ، هذا كله بجانب متابعة مصر لتأييده لكل المظلومين والجوعى فى العالم أجمع ومساندته لكل الثورات التحررية فى العالم وبينها ثورة الجزائر ، الى فنزويلا ، وفيتنام وكوريا »

وهناك سبب آخر وراء تسويف سارتر فى قبول الدعوات التى وجهت اليه اثر كل موقف رجح فيه كفة مصر ، ألا وهو معرفته أنه مع تلبية أية دعوة لمصر سيكون مطالبا بابداء رأيه فى النزاع العربى الاسرائيلى . وهذا بالطبع كان واردا لدى المصريين عندما وجهوا الدعوة الأخيرة الملباه فى شكل زيارة صحفية من جريدة الأهرام ومن مجلة الطليعة بالذات التى كان يرأس تحريرها الأستاذ لطفى الخولى .. وباسم توفيق الحكيم كأكبر مفكر سنا وقدرا كما رأت الأهرام . فبالرغم من أن العرب قد قرأوا من سنة ٤٦ الى وقت زيارته لمصر دراسة سارتر « المسألة اليهودية » وتأكدوا أنه لم يوفق فيها ، لأنه تصور أن طرفى القضية هما اليهود والنازية ، أو الذى يضطهد والذى يقع عليه الاضطهاد أو المعادى للسامية واليهود .. ومع أن تصور المسألة اليهودية على أنها علاقة ثنائية تصور صحيح فهو تصور مبتور ناقص .. لأن القضية لا تقتصر على المجال السيكولوجى فقط ، أو المستوى الثقافى فحسب بين فرد وآخر .. وانما لها جذور تاريخية وأسباب اقتصادية واجتماعية كان لابد أن يتنبه اليها سارتر .. وربما كانت الدعوة لاكمال هذا النقص البين الذى يتيح له بعد ذلك اكمال هذه المسألة .

كان الأستاذ لطفى الخولى المشرف الفعلى على الزيارة قد صرح بأنه قد وضع زيارة سارتر ودبوفوار ولانزمان الى الجمهورية العربية المتحدة التى تتم لأول مرة فى اطار محدد ذى هدفين :

● معايشة التجربة المصرية الثورية التى يقيم بها الشعب العربى المصرى تجربته الاشتراكية لأول مرة فى هذه المنطقة من العالم ، والتعرف على الكفاح الذى يخوضه هذا الشعب بقيادة الثورة المتمثلة فى الرئيس جمال عبد الناصر .

● أن سارتر ورفاقه قد طلبوا بأنفسهم أن يتعرفوا على المعلومات الدقيقة عن القضية الفلسطينية فطلبوا زيارة منطقة غزة ــ كانت غزة تابعة للاشراف المصرى ــ حيث تمت الزيارة قبل النكسة بشهرين للتعرف على مشاكل اللاجئين ومعرفة الحقيقة من كل جوانبها .

ولهذا فليس خافيا على أحد أنهم سيزورون اسرائيل بعد ذلك التى هى فى مفهومنا ، مفهوم الاشتراكيين ، والثوريين العرب ، فلسطين المحتلة .. ان الرفاق سيتعرفون هناك أيضا على الحقائق والظروف الموضوعية ، لأنهم بكل اخلاص وأمانة حينما نسألهم عن القضية الفلسطينية يقولون « أننا نريد البحث عن المعلومات والحقائق على الطبيعة قبل أن نقول رأينا » . وربما يكون استباقا منى أن أقول ان كلامهم كانت تجانبه الحقيقة ..

ذلك كان الاطار الذى وضعه لطفى الخولى للزيارة ‥ أما الاطار الذى وضعه سارتر للزيارة نفسها ،. فكان ذا شقين أيضا ‥ يتعلق الأول بضمان دعوى حياد مصر عندما وجهت الدعوة ، فاشترط لها أن يصطحب معه اليهودى كلود لانزمان • ويتعلق الثانى بحياده أمام ضميره ـ الذى حسبه متعادلا ـ وطرف الصراع الآخر ‥ فقبل دعوة لزيارة اسرائيل فور انتهاء زيارته لمصر ‥ واذا تركنا زيارته لاسرائيل لأننا لم نراقبها ‥ فهل لنا أن نتساءل عمن هو « كلود لانزمان » هذا الذى فرضه سارتر على الزيارة حتى يضمن حيادها ؟ وهل قرأ المشرفون على هذه الزيارة كل ما كتبته سيمون عن علاقتها بهذه الشخصية وتأثيرها عليها وعلى سارتر أيدلوجيا وفنيا حتى يعاملوه كعنصر مصاحب ـ مهمته تحقيق التعادل ـ وليس كمدعو أصلى ‥ فيبعدوا بذلك تأثيره الذى قلب المرجو من الزيارة رأسا على عقب ؟ خصوصا أن ذلك كان منشورا منذ عام ٦٣ ومترجما بعدها عن دار الآداب التى كانت تملأ اصداراتها رفوف المكاتب والأرصفة المصرية ـ لمن لا يعرف الفرنسية أو الانجليزية •

لقد كتبت سيمون دوبوفوار فى كتابها « قوة الأشياء » بجزئية ‥ كل تفاصيل حياتها مع سارتر ومع كل الذين أحبتهم من « الجرين » الأمريكى اللاتينى ‥ الى « لانزمان » اليهودى الشيوعى ، وذلك بعد ان انصرف عنها سارتر بحبيبته الأمريكية « م » بجانب انشغاله فى أن يبنى أيدلوجية تضىء للانسان وضعه بينما هى تقترح عليه عملا تطبيقيا ‥ فتقول : ان مطمحا كالذى يشغل به سارتر نفسه كان غريبا على ‥ لأنه مشروع يخصه بشكل حميمى جدا ‥ حتى أن واحدا لا يستطيع أن يشارك فيه ‥ ولو كنت أنا هذا الواحد ‥ وكنت أقول لنفسى : (ليس الأمر بعد كما كان من قبل أو أن هناك فى العالم من هم أتعس منى ، ولكنى لم أجد هذه الحقيقة معزية ‥ بل على العكس كان هذا الحزن الدفين داخلى أشبه برنانة تلتقط حفنة من الشكاوى ‥ وكان يأسى يتسلل الى قلبى الى درجة أن يجعلنى أتمنى نهاية العالم) ، لذلك كله عندما ظهر لانزمان فى أفق حياتها أحبته وأسكنته شقتها • وتقول هى فى ذلك : (لقد حررنى حضور لانزمان الى جانبى ‥ فقد قضى أولا على ألوان ضيقى ، ثم أنعش الاهتمام الذى كنت أحمله للأشياء • وذلك أن فضولى كان قد فتر كثيرا • رغم أنه كانت بى رغبة فى أن أراقب وأعمق وأتمم تجاربى القديمة ‥ ولقد كانت هذه التجارب بالنسبة للانزمان ، جديدة • وكان يضيئها بنور غير متوقع ‥ وقد ورد لى بفضله ألف شىء ، ألوانا من البهجة والدهشة • والانفعال والضحك ورطوبة العالم) •

أما عن هوية وأيدلوجية لانزمان فتقول عنه سيمون : ان لانزمان قد حول اتجاه مجلة (العصور الحديثة) حين أصبح مديرا لها الى السياسة ،

(وهو الاتجاه الذى كان قد رفضه الفيلسوف ميرو بونتى المدير السابق لها ، لأن المعارف السياسية .. تتغير بمعلومات غيرها) فقد أثبت التاريخ ان الفرنسيين كانوا هم البادئين فى معركة (بيات بيان فو) مع أن الصحافة قالت العكس فى وقتها . وتقول سيمون أيضا : ان لانزمان كانت له اليد الطولى فى تحويل فكر سارتر الى اليسار المتطرف .

أما ما يهمنا من هذا الشخص فى هذه الزيارة نفسها فهو هذا الكلام على لسان سيمون دبوفوار ، عندما تأكد لانزمان من مقدار الحب الذى تكنه له وعدم قدرتها الاستغناء عنه : (بدأ لانزمان يقدم نفسه لى بشكل صريح فكان يقول أولا : اننى يهودى (اسرائيلى) وكنت أعرف وزن هذه الكلمة ، ولكن لم يكن واحد من اليهود الذين التقيت بهم قد أفهمنى معناها بشكل كامل ، لقد كانوا يصمتون عن وضعهم كيهود على الأقل فى علاقتهم معى .. أما لانزمان فكان يطالب بهذا الوضع .. وكان هذا الوضع يقود حياته . وقد قال لى الدكتور سهيل ادريس كناشر ومراجع لهذا العمل الذى ترجمته زوجته عايدة مطرجى .. أنه الغى عدة صفحات من كلام لانزمان المبهور بما حققته اسرائيل من اصلاحات زراعية واستيطانية .. وتمنياته لها بالمزيد .

حدث وأنا أرافق سارتر والمثقفين في بلدي

ذلك هو المنحى الفكري والسياسي للالتزام الذي انعكس تأثيره بشكل مبدئي على علاقته بسيمون دوبوفوار وبسارتر .. أما تأثيره عليهما خلال رحلتهم الى القاهرة والتي كان المفترض أن يكون عكسيا فهو ما سنتبينه خلال منعطفات هذه الزيارة بعد أن نستعرض تفاصيلها التي تميزت بمبالغات لن نعرف مداها في نفس الرجل وعلى صعيد الواقع الا اذا عقدنا مقارنتين : أولا مضاهاتها بكل الزيارات التي قام بها سارتر نفسه الى أمريكا والاتحاد السوفيتي والصين وكوبا وغيرها حيث عومل فيها كمفكر وجودي محدود القدرة على اتخاذ رأى في كل قضية معاصرة .. ثم مقارنتها ثانيا بالدعوات التي لباها قبله كثير من زعماء ومفكري العالم لمصر مثل خروشوف ، وشوان لاى ونيكسون وغيرهم .. أو مثل جاك بيرك وجارودي وبرناردشو وسمورست موم ، وتوينبى .. حيث عاملناهم كزعماء وفلاسفة ومفكرين في حيزهم الطبيعي .. عندئذ سنعرف مدى المبالغة التي صحبت هذه الزيارة . لقد استقبلته مصر ليس كمفكر وانما كعدة منظمات دولية ملزمة لأرائها وعدم نقضها أو ابرامها ، رفعناه الى أعلى الآفاق .. وعلقنا عليه أعظم الآمال .. وللأسف أعطى هذا الترحيب المبالغ فيه تأثيرا عكسيا ليس على غرض الدعوة فقط وانما على الرجل نفسه حيث كان وجهه يفيض حينا وينفرج بالسخرية أحيانا أخرى لدرجة أنه حينما كان السيد على السمان مدير وكالة أنباء الشرق الأوسط في باريس والذي صحبه الى القاهرة خلال الزيارة ، يقرأ له مانشتات الصحف الحمراء التي نعتته بالبطل والرائد والحر والانسان يصيخ السمع وبينما على يترجم له قصيدة محمد ابراهيم

أبو سنة ، أو موضوعات العدد الممتاز الذى أصدرته مجلة الفكر المعاصر عن أعماله ومواقفه ومقدمه الأستاذ مجاهد عبد المنعم مجاهد التى كتبها تحت عنوان « سارتر ضمير العصر » ، كان سارتر يتساءل بعدها عجبا قائلا : الى هذا الحد أمثل أنا ضمير العصر كله ·· أنا لست حتى ضمير نفسى ·· ثم يطلب ضاحكا من كلود لانزمان أن يتحمل عنه بعض هذه الألقاب ·

ولكى نقدر أن سخريات هذا الرجل لم تكن تنم عن طبيعة عدوانية ، وانما عن تواضع أصيل ·· لنتتبع رحلته وكلماته من بدايتها · فقد أرسلت له طيارة خاصة تقله من باريس الى القاهرة ·· وقبل نزوله منها شكر الطاقم على حسن ضيافتهم ، ثم نزل الى المطار ليجد مؤتمرا صحفيا ، يعلن فيه أنه لم يأت ليعلم الناس أسس الوجودية وانما جاء بهدف التعرف على الطريق العربى للاشتراكية ، ثم تنطلق القافلة الكبيرة الى فندق شبرد·· فيجد احتفالا أكثر بهجة ·· ومندوبه من الجوازات والجنسية حضرت خصيصا لاستلام جوازات السفر وعمل الاقامة والمغادرة وبعد منتصف الليل يقرر سارتر وهو يمسك بذراع الأستاذ توفيق الحكيم أن ينطلق الى الخارج ·· وأمام النيل الذى بهر سارتر بمراكبه البدائية والحديثة الرائحة الغادية يفيض الحكيم فى الحديث عن حياته فى باريس ، ومحاسنها ونهر السين والدون ·

وفى الصباح تنطلق القافلة الى مدينة الفنون بالهرم ·· ومن على مسرح معهد الفنون المسرحية يشاهدا فصلا من مسرحية جزيرة العبيد للمسرحى الفرنسى ماريفو ·· وتحية له يقدمون مشهدا آخر من مسرحيته الشهيرة « جلسة سرية » ويصفق لهم سارتر وهو يقول : لقد أبهجتمونى ·· واننى أتمنى لكم كل توفيق ونجاح ·· ثم يجوس ابهاء المعهد وسط المكتبات وقد رصعها المستقبلون بأعماله الفرنسية والمترجمة ·· أكثر من مرة ·· فمسرحية جلسة سرية التى شاهدها قد ترجمت مرة تحت عنوان (رفعت الجلسة) وثانية (الجحيم هم الآخرون) ، وثالثة (من ثقب الباب) ويلفت لانزمان نظره الى ذاك بقوله لقد أجريت كل هذه الترجمات بدون علمك ·· فينقبض وجه سارتر ·· ثم تنطلق القافلة الى منطقة الحرانية حيث يتجمع فى هذا الحى كثير من الفنانين ·· وكل منهم قد جعل له مرسما · وحين وصل الى منسج الفنان ويصا واصف ·· وقفت أرملة الفنان الراحل حبيب جورجى حماه ويصا واصف ·· تشرح للزوار الطريقة التلقائية فى ابداع هذا النوع من الكليم الذى غزت شهرته أوربا كلها ودبجته أنامل الفلاحين والفلاحات ·· يتهلل سـارتر ويتدخل لانزمان ليوقف هذا الانبهار ·· فيذكرهم بأعمال اليهودى مارك شاجال وبعد ذلك

استقلوا العربات الى سقارة ٠٠ حيث اندمجوا مع شرح الأثرى الفرنسى مسيو لوير ، الذى تابع تطور اكتشاف هذا الهرم على مدى احدى وأربعين عاما ٠٠ وبعد أن تناولوا الغذاء ٠٠ عادوا للسياحة فى حى خان الخليلى وشارع محمد على ٠٠

فى اليوم التالى استقلوا الطائرة الى الاقصر وانطلق سارتر وسط الشوارع والآثار ، وتوقف عند المسلة غير المكتملة والمهملة ٠٠ وسرح خياله وكأنه يقارنها بالمسلة المصرية فى ميدان الكونكورد وسط باريس ٠٠ ولا يهدأ الوفد حتى مع المساء ، فينطلقون الى معبد الكرنك وقد افترشه ضوء القمر ٠٠ فيقفزون هنا وهناك ٠٠ ويبدى سارتر اعجابه بجمال (نفرتارى) زوجة « رمسيس » ويقول أنها تستحق أن يبنى لها رمسيس مثل هذا المعبد ٠ « معبد أبو سنبل » ، وتعلو الطائرة فى اليوم التالى مقلة اياهم الى السد العالى ٠٠ ويطل سارتر ليرى بعينيه معجزة القرن فى أفريقيا ٠٠ ويبدى تقديره البالغ للشرح الوافى الذى قدمه الأستاذ أحمد طلعت للسد العالى ٠٠ منذ ان كان فكرة وحلما يداعب المصريين الى تمامه ٠٠ وقدرته على مقاومة الكوارث الطبيعية والصناعية بما فى ذلك أعتى أجهزة الدوائر الرجعية الاستعمارية فى العالم ٠٠ وبعد ان ينتهى أمين عام الاتحاد الاشتراكى العربى فى أسوان من التنويه بزيارات وفدين فرنسيين لأسوان فى العام الماضى ٠٠ يعلن ترحيبه البالغ بسارتر وسيمون وتشتعل القاعة كلها حماسا وتصفيقا ٠٠ فيتكلم سارتر مع هذه الحشود بحماسة وود ٠٠ وتتكلم سيمون عن حقوق المرأة ٠٠ وعندما يوشك الاجتماع الحافل على أن ينفض ٠٠ يتلقى سارتر رسالة من عمال السد العالى بدعوته لمناقشة مفتوحة ٠٠ ويسر له لانزمان أن الذى وجه الدعوة هو الاتحاد الاشتراكى وأعضاؤه فئة تحتضنهم الدولة ومن ثم لا يعبرون عن الآراء الحقيقية للبلوتاريا المصرية ٠٠ فيميل الى لطفى الخولى لتأجيل هذا اللقاء الى فرصة أخرى ٠ وبعدها يستقل سارتر والأستاذ محمود أمين العالم يخت يشق طريقه بهم فى نزهة نهرية بين الصخور والجنادل ٠٠ ويرفع سارتر يديه ليشير الى روعة وعبقرية هؤلاء المصريين القدماء الذين لم يتركوا حتى الصخور والجنادل الا ووضعوا عليها مقياسا للنيل ٠٠ وعلامة تهدى المسافر عبر الطريق ٠

بعدها شاهدوا فيلما عن الحرب فى فيتنام ٠٠ وينتهز محمود العالم هذه الفرصة ليشير الى الجهود التى يجب أن تبذل من أجل السلام ٠٠ وبأن الوجودية ليست اغراقا فى الذاتية ٠٠ ويتجاذبا أطراف الحديث حول الصراع الصينى السوفيتى ٠٠ وكيف أن الماركسية والاشتراكية قد ولدتا عددا من المتناقضات التى ينبغى على المثقفين تناولها ومواجهتها بجدية وحماسة ٠

ثم يعود سارتر والجمع الى القاهرة • ويبدى رغبته فى اللقاء بطلبة الجامعة • ويعلن عن محاضره له فى المدرج واحد بكلية الآداب ولمعرفة المسئولين أن سارتر لا يحب أن يرى الحرس داخل ردهات الجامعة •• فقد أعفي الحرس من مهمة تنظيم هذه المحاضرة •• وكان لهذا الاعفاء أثر في الغاء المحاضرة أصلا •• ذلك أن أغلب طلبة الجامعة ومن جميع الكليات بأقسامها المختلفة تركوا محاضراتهم وتجمعوا فى المدرج واحد بكلية الآداب •• وعندما حاولت مع الدكتور سهيل ادريس اختراق هذا الجمع •• نبهنا الصحفيون ومعهم الأستاذ على شلش أنه لم يعد فى المدرج مكان حتى لقدم سارتر نفسه الذي حضر مذهولا •• وهو ينظر ويتساءل هل كل هؤلاء قراء مؤلفاتي ؟ لا أظن •• اننى لست فى نظرهم أكثر من موضة •• وهكذا انقاذا لوقت سارتر •• عرج به المشرفون الى مكتبة جامعة القاهرة •• واستقبله مدير الجامعة والمرحوم الدكتور أمين عثمان أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب الذى راح يشرح لهعن المبادىء الوجودية والإسلام •• وعدم تنافض الوجودية مع الاسلام فى كثير من أسسها الفلسفية •• وكان سارتر يرد بمجاملة لا تخفى تعجبه لسرعة طرح قضايا بهذا العمق. فى هذا الظرف الطارىء •• ولكنه ضيق الوقت واستمساك الكل فى مناقشته من جميع الزوايا •• وفى طريق العودة •• لحق به الدكتور سهيل ادريس يحدثه عن ترجمة « نقد العقل الجدلى » الى العربية •• وسارتر يهز رأسه وترتعش رقبته المتهدلة بالموافقة •• ويصل الى العربة التى ستقله الى الفندق مرهقا •• ويغلق باب العربة بالخطأ على أصابع الدكتور سهيل ادريس التى نزف منها الدم • وأمام فشل سارتر فى الالتقاء بالطلبة فى الجامعة •• ووسط محاصراتهم •• نظم له المشرفون لقاء آخر فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة •• فكانت هذه جولته الثقافية الكبرى •• تكلمت سيمون أولا عن حقوق المرأة وكانت قد اجتمعت من قبل بالقيادات النسائية •• ثم تكلم سارتر فكاشف نفسه وطالبها بمزيد من الدقة والحساسية •• ثم وضع المهام على عاتق المثقفين من أجل اكتشاف أوضاع انسانية جديدة •• وفكر لا يعرف الانغلاق أو التعصب •

ويحين وقت زيارة الوفد لمعسكرات اللاجئين •• فيذهب الوفد الى غزة • ويجرى طفل بيده لفة مستطيلة الى سارتر ويسلمها له •• فيفضها تلقائيا •• ويجرى لانزمان اليه

هامســـا كالنزير ليسر في أذنه ·· أن ما بيـــده ليس ســوى علم المقاومة الفلســطينية ·· فيثور ســـارتر ويفور ·· ويجرى وراء المصور الصحفى الذى التقط الصورة ·· التى ربما استعملت كموقف ايجابى لسارتر من المقاومة ·· ويصر على اخراج الفيلم وتعريضه للضوء ·· ويتم له ما يريد ·· ثم يدخل الى المعسكرات والمخيمات ·· ويزور منازل اللاجئين المتواضعة ويتعرف بأم عينه على بؤسهم ·· فيقف آسيا مشدوها بالعيون الحزينة التى تترقب عبر الأسلاك الشائكة الى يوم قريب فى العودة الى منازلها وبياراتها بعد غيبة ثماني عشرة سنة من الضياع والحسرة · تأثر سارتر فأخذ يوجه الأسئلة ويستمع لاجابتها ·· ولم تكن الأسئلة هذه المرة تتناول قضايا المعرفة أو حق المرأة ، أو الوجود والعدم ، أو نقد العقل الديالكتيكى ·· أو أى من هذه المشاكل المجردة الموغلة فى غرابتها عن هذه الأرض البائسة مكسورة الجناح ·· كانت أسئلة تتميز بالمباشرة والمواجهة والحقيقة ·· ربما كان صمت سارتر ازاءها أقوى من كل تعبير أو هى الحزن العميق الذى سبق أن عاناه هو فى بلده أثنـاء الاحتلال النازى ·· ووسط النشيج الانســانى الذى شد أعماق الحاضرين تجهم وجه سارتر وهو يستمع للسيدة عفاف الادريسى المدرسة بوكالة غوث اللاجئين وزوجة وأخت لشهيدين من خان يونس وينطلق الموكب عائدا الى غزة ·· ويسأل سارتر أحد اللاجئين فى غزة ·· هل الفلسطينيون وحدهم الذين سيحررون بلادهم أم أنهم سيطلبون مساعدة الدول العربية الأخرى ·· ويأتى الجواب على لسان عز الدين السقا المزارع بغزة : ان الفلسطينيين أنفسهم هم الذين سيقومون بتحرير وطنهم لأنه لا يخطر ببال فلسطينى واحد أن تدخل الجيوش العربية فلسطين حتى لا تتكرر مأساة عام ٤٨ التى انتهت بالنكسة ·· ويسأل سارتر عن النظام الذى يراه واجب الاتباع عند النصر على الاسرائيـليين ·· وكيف سيعاملون هذه العناصر وهل سيرموهم الى البحر ·· وكان المتحدث من الحماس بحيث فات عليه المنطق قال : سوف ننتصر أولا ثم نحقق ما نراه ·· عندئذ راجعه سارتر وقال : انه لابد لكل ثورة من فلسفة ·· فمن الأفكار تنبع أكبر القوى وأغناها ·· فى هذه اللحظة تنبه لطفى الخولى لهذه الفجوة التى أحدثها الحماس ·· فأوعز لاحداهن بالتحـدث الى سارتر ·· فتقدمت الآنسـة عصـــام الحسينى ·· لتجيب على مخاوفه عن مصـــير اليهود النازحين الى فلسطين سواء من الدول العربية كالعراق واليمن ومصر ·· أو من أى منطقة فى العالم ·· فقالت ستختلف معاملتنا ·· فالفئة الأولى ليس عليها أن تعود الى تلك البلاد العربية ·· لأن فلسطين العربية ستكون لهم وطنا سواء بسواء ·· أما الفئة الثانية فعليهم أن يعودوا الى بلادهم الأصلية لأنهم وقبل كل شىء أوربيون متهودون ·· وليسوا يهودا عاشـــوا فى أوربا ·· أما بالنسبة للفلسفة أو الايدلوجية المتبعة ·· فستكون كأى

دولة نامية ٠٠ لابد لها ان تعبر الرأسمالية الى الاشتراكية مباشرة ٠٠ وبينما هذه الكلمات الناصعة تدخل أذن سارتر من جهة فيهدأ ٠٠ كانت كلمات لانزمان وملاحظاته عما رآه من دفع لطفى الخولى للآنسة عصسام تدخل أذنه الثانية ٠٠ فيعوه الى التعادل ٠ أما سيمون فكانت تراقب هذا المشهد بتوجس ٠٠ ولكن كل ذلك لم يمنع سارتر من التفاعل ٠٠ بل لقد استبد به الحماس برغم محاولة التبريد التى يقوم بها لانزمان « يعلن بأنه لن يذهب لاسرائيل الا بعد أن يتعهدوا له بأنه سيقابل كل العرب الذين يود رؤيتهم ، وبخاصة الموجودين فى السجون ٠٠

ويعود الى القاهرة ليواصل بقية الرحلة ٠٠ فيطلب أن يرى المعبد اليهودى فيلبى طلبه ويذهب الى حى مارى جرجس بمصر القديمة ٠٠ ويتحاور مع الأحبار ويزور الكنائس القبطية ويشاهد الآثار ويقارنها بماشاهده من قبل ٠ ويدعوه المسرح القومى؛ بعد ذلك الى حفل شاى ٠ ثم يقدم له فصلا من مسرحيته الذباب التى ترجمت الى « الندم » تقوم فيها سميحة أيوب بدور (الكترا) ٠٠ وفاروق الدمرداش بدلا من (طارق عبد اللطيف) بدور (أورست) ٠٠ ويقف فاروق الدمرداش فى آخر الفصل ويلقى الى سارتر بكلمة تحية بالفرنسية فيشكره ، ثم يعتلى خشبة المسرح ليهنىء المخرج سعد أردش والممثلين على ابداعهم ٠٠ ثم تدعوه سناء جميل الى حفل شاى وبعدها يعود الى خشبة المسرح ليتوه فى مناقشات كبار النقاد المسرحيين التى لم يعرف لها بداية أو تسلسلا أو نهاية ٠٠ صعد سارتر ودبوفوار ولطفى الخولى وتوفيق الحكيم وفى وسطهم لويس عوض ليحكى نبذة عن تاريخ المسرح العربى وتصر السيدة لليان أرقش زوجة الأستاذ لطفى الخولى على أن يعتلى لانزمان خشبة المسرح ليجلس وسط المتحدثين ٠٠ ويصعد لانزمان مكرها ٠٠ فليس له فى الحديث ناقة ولا جمل ٠٠ ولكنه الكرم المصرى العتيد ٠٠ ويبدأ لويس عوض كلامه ٠٠ فينبرى أكثر من مثقف فى القاعة ٠٠ يلفت نظره الى كثير من المراحل والأسماء التى قفز فوقها أو الذى عاكس مراحلها ٠٠ ويتحير سارتر ٠٠ هل الجمهور أدق ملاحظة من المحاضر ٠٠ ويستمر الدكتور لويس فى الحديث عن المراحل المسرحية من الكلاسيكية الى الرومانسية ٠٠ الى أن ينهيها بحركة سماها « الواقعية الملحمية » ويشد الاسم انتباه سارتر ٠٠ فيتوقف ليسأل عن خصائص وأسس هذه المرحلة ٠٠ ومن هو زعيمها ٠٠ ويقول لويس عوض ٠٠ انه سعد الدين وهبة ويبحث الجمهور عن سعد الدين وهبة ٠٠ ويتوجه الى الميكرفون حائرا اذ كيف وضعه لويس عوض على قمة هذا المذهب الذى لا يعرفه ٠٠ ويردف : ربما يكون الدكتور لويس قد قصد نعمان عاشور ٠٠ وبدوره يذهب نعمان حائرا الى

الميكروفون ليعلن أســـفه ويطالب لويس عوض بأن يشرح ما علناه بالضبط ٠٠ وقد أعطت هذه المواقف المتخبطة بلا شك صورة نقدر أثرها على الرجل ٠٠ وكان ذلك بفضـــل ولع لويس باطلاق الأستـفاء والمعانى كما حدث من قبل فى بحثه حول رسالة الغفران حيث راجعه الأستاذ محمود محمد شاكر في كتابه «أباطيل وأسحار» أو تفسيره لكلمة مطلق امرأة فى مقالة عن الحملة الفرنسية على أنها تعنى حرية المرأة ٠٠ مع أنها تعنى لا فرق بين الأمة والحرة سمراء كانت أم شقراء كما راجعــه فى ذلك الأستاذ عبد الجليل حسن ٠٠ أو عندما لم يجد الهمزة فى شطر بيت وضعه رسام غلاف أحلام الفارس القديم ٠٠ فقال ان صلاح أجرى على الهمزة عملية السنكوب ٠٠ مع أنها فى الواقع موجودة داخل الديوان ٠٠ بينما السنكوب حركة موسيقية وليست شعرية كما قال الدكتور محمد مندور فى وقتها من واقع دائرة المعارف البريطانية ٠

عبد الناصر رجل مطاع :

وربما غيرت زيارة الرفقة السارترية الى كمشيش وجامعة الاسكندرية والنزول فى فندق فلسطين ما تركته تلك الليلة من انطباع ٠٠ فقد سعد عندما رأى الفلاحين يتدافعون نحوه فى كمشيش يهتفون مهللين عندمــا وضع الطاقية على رأسه ووجد طلبة جامعة الاسكندرية أكثر هدوءا وتعقلا ٠٠ والأساتذة أكثر رصانة والطبيعة والفندق أكثر سخاء ٠٠ لذلك كان أكثر انطلاقا عندما عاد الى القاهرة وذهب للقاء السيد على صبرى الأمين العام للاتحاد الاشتراكى العربى فقد أخذ بالطريقة والمنهج الذى طرح به القضايا الفكرية والاجتماعية والســـياسية والحلول الديمقراطيـــة والاشـــتراكية الرائدة ٠٠ ثم ذهب بعد ذلك للقاء عبد الناصر الذى وصفه بأنه رجل سياسة من الطراز الأول ٠٠ لأنه رجل مطاع وحريص ومطلع بحق ٠٠ يحدد الطريق ويختار التطبيق محددا بصفة خاصة ودائمة الجانب السلبى والجانب الايجابى لكل قرار يتخذه ٠٠

هذا ما قاله سارتر عن عبد الناصر ٠ اما ما حدث داخل قاعة هذا اللقاء ٠ ولم يتسنى لى بالطبع معرفته ٠ فشىء يستحق الوقوف عليه ٠٠ كان المفروض أن يقتصر لقاء عبد الناصر على سارتر وسيمون دون لانزمان ٠٠ وفجأة أعلن عبد الناصر ٠٠ أنه لا ضير ان يكون معهم لانزمان ٠٠ وكان عبد الناصر قد حاور نفسه ٠ ورأى أننا أصحاب حق ٠٠ وحقا واضحا لا ينقص منه أى رقيب ولو كان هذا الرقيب هو لانزمان فتمت المقابلة ٠٠ وذهبت فى اليوم التالى الى جريدة الأهرام كى يمدنى أحد بصور هذا اللقاء

حتى أرفقه بموضوعى عن الزيارة الى مجلة الآداب ٠٠ ولكن ما أن هممت بالدخول الى قسم التصـــوير ٠٠ حتى وجدت المصورين والعاملين فى حالة من الوجوم ٠٠ ولما كانوا يعرفون بغيتى فقد همسوا لى بأن طلبى لن يجاب هذه المرة ٠ فسألت بنفس الهمس والوجـل فأشـاروا الى أفلام محترقة ٠٠ نظرت فى أطراف بعض الصـــور لأجد لانزمان وقد ذهب للقاء عبد الناصر برداء غير رسمى « قميص مفتوح » بل انه طوال وقفتهم كان يضع يديه فى جيبه يراقب الحوارات ولا يشارك فيها ٠٠ طرف آخر من الصور جلس لانزمان وساقه فوق الأخرى ٠ بالطبع لم يأبه عبد الناصر الى هذه التصرفات ولكن المشرفين على الزيارة ربطوا هذا التصرف على ما يبدو بتصرفات لانزمان السابقة وعندئذ أدركوا أنهم تسرعوا بموافقتهم على شرط حضوره ، ومن ثم رأوا أنه لا داعى لنشر هذه الصور التى تؤكد أن كرمنا العربى المتساهل تجاه مثل هذه الشخصيات المتعجرفة يورطنا ٠ لأنها تضع الشخصية اليهودية فى المكان الأول « وكأن هذا الوضع يقود كل حياتهم » كما عبرت عن ذلك سيمون دوبوفوار ٠

وهكذا اذاء فشلى فى الحصول على صورة هذا اللقاء ٠٠ عرجت على المكتب المواجه لمعمل التصوير فى الدور الثانى من مبنى الأهرام القديم ٠٠ وهو مكتب الأستاذ توفيق الحكيم ٠٠ وكان سارتر قد زاره فى هذا المكتب من أيام ٠٠ وأهداه الحكيم كل مؤلفاته بالفرنسية ٠٠ وفى اليوم التالى لهذه الزيارة ٠٠ كنت أقف وسط مجموعة من الصحفيين أمام مصعد فندق شبرد ٠٠ ثم فتح المصعد وظهر سارتر وسيمون ولانزمان ٠٠ فتقدمنا نحوهم لكن سارتر قال لنا محذرا : اياكم أن تســألونى رأيى فى أدب توفيق الحكيم ٠٠ ان هذا لا يصح فهو رجل أكبر منى سنا ٠٠ وهو مضيفى الذى وجهت لى الدعوة باسمه ، ومن ثم فلا يصح أن أقول فيه رأيا ٠ ! ٠٠ كانت الكلمات تنطلق من فم الرجل ٠ وهو يرتعش ٠٠ ورقبته المتهدلة تهتز ٠٠ وتعقبها كلمات سيمون الخاطفة كالطلقات تمنعنا من توجيه الأسئلة فى هذا المنحنى ٠٠ وقال لانزمان بعدم اكتراث : ان الأسئلة كثيرة فلماذا تحصروا أنفسكم فى هذا الموضوع بالذات ٠

واذا كان سارتر نفسه أول من قال : « قد يكون الصمت موقفا ٠٠ » فانى قد استشففت من صمته هذا موقفه تجاه توفيق الحكيم وأدبه ٠٠ والذى لم يكن سارتر هو أول من المح اليه سنة ٦٧ ٠٠ وانما سبقه اليه سنة ٣٤ أديبنا الصـــادق يحيى حقى ٠٠ والدكتور مندور من بعده ، والدكتور محمد يوسف نجم أخيرا ٠٠ فقد كتب أولهم فى « مجلة الحديث » بحلب مقالته الشهيرة « توفيق الحكيم بين الخشية والرجاء » بعد أن قرأ « عودة الروح » و « أهل الكهف » فآلمه أن يجد الحكيم قد رفع شعار مجد الفراعنة حتى يثير الأحلام الجميلة لدى الشباب ٠٠ مع أنها بعيدة

عن وعيه ولا تستطيع أن تستفز فيه روح الحداثة استفزازا قويا فعالا ٠٠ وحز فى نفسه أن يكون المدافع عن مصر فى عودة الروح مؤرخ فرنسى ولذلك طالب الشباب بعدم قراءة توفيق الحكيم ٠٠ وقد كتب بعده الدكتور مندور ٠٠ بأن توفيق الحكيم انتهى من حيث ابتدأ ٠٠ وكتب الدكتور نجم ان أدب توفيق الحكيم أدب تلفيقى مستشهدا على ذلك بأصوله الفكرية المستقاة من الأدب الذى كان مطروحا أيام كان الحكيم فى بعثته الى فرنسا ٠

واذا كان هذا هو الرأى الضمنى الذى أبداه سارتر وهو لم يكن من السهل خداعه أو التمويه عليه كل الوقت أو قسره على التصريح بشىء لا يؤمن به مهما كانت دواعى المجاملة ٠٠ الا أنه يكمن فى أعماقه قلب عطوف يرعى من حوله باهتمام وحب كبيرين ، فعندما دعاه توفيق الحكيم هو وسيمون ولانزمان الى حفل عشاء خاص ٠٠ ، انقضا عليه بأسئلة جادة ومازحة وعاتبة حينا آخر يسألونه فيها عن عدم حضـــور زوجته حتى ليتعرفوا عليها ٠٠ ويتظاهر الحكيم بأنه لم يسمع جيدا السؤال لانصراف ذهنه الى الألحان العالميـة ٠٠ فتميل عليـه سيمون لتطوقه بذراعها وهى ترفع صوتها لأعلى ما يتصور ، ولا يجد الحكيم سوى ابداء الاعزاز ٠٠ ثم تغمز لسارتر الذى يلتقط الحديث فيبدى ملاحظه للحكيم عن دور المرأة فى مسرحياته ٠٠ وكيف أنها عملاقة هائلة يتضـــاءل بجانبها الرجل ، ثم يتشجع درجة أكثر فيأخذ على الحكيم بأنه لابد وأن يكون من الناحية النفسية « نرجسيا مازوكيا » ويضحك الحكيم ، ويتلفت حوله ليمنع المصور حتى لا يلتقط صورا لهم ٠٠ لأن سيمون كانت ما تزال تطوقه بذراعهـــا ٠

مشاغبة مع الحكيم :

كنت محملة بكل هذه التفاصيل وأنا أجلس الى توفيق الحكيم ٠٠ وكان يوم أربعـــاء وقد تعود كثير من المثقفين لقاءه فى هذا اليوم ٠٠ فكان فى ضيافته الروائى عبد الله الطوخى والأستاذ الناقد فؤاد دواره ٠٠ الذى كان يردد كلمة الشيخ محمد أبو زهـرة التى يصف فيها احتفـاء المصريين برفقة ســـارتر ، بتعبير : (عجبت لشعب مسلم يصفق لرجل وعشيقته) فانبرى الحكيم مدافعا عن هذه الرفقة من جهل الجاهلين ٠٠ فأدار فؤاد دوارة العارف لما يقوله الشيخ أبو زهرة وجهه وان كان يريد المناقشة من جهة أخرى حتى لا يســـمح لصدر الحكيم بالضيق ٠٠ ولفت نظرى عنـــوان فى الصـــفحة الأخـــيرة بجريدة الأهرام فقـــد كتب الأســـتاذ كمـــال الملاح يقـــول ان د ٠ طه حســـين لم يعرف بزيارة ســـارتر الا من الجرائـــد ٠٠ قرأت العنـــوان بتلقائية لـــم تتفق أبدا مع ما حدث بعـــدها ٠٠ حيث وجـــدت توفيق الحـــكيم وكأنه

البركان فانفجر لتوه ليرميني حمما ملتهبة : وهل يقلب هذا الخبر الحياة رأسا على عقب قائلا : من هو طه حسين هذا ؟ · من أين تنظرون له أيها الشبان ؟ · ما هو فكره في نظركم ؟ · لقد آن الأوان أن تنزلونه من فوق قممكم السامقة ·· ولو كان طه حسين وزوجته الفرنسية يعرفون الواجب حقا بالنسبة لهذا المفكر ، لأرسلت زوجته الفرنسية باقة من الزهور تحية لابنة بلدها سيمون ··· كلمات وتعبيرات ·· ضاق لها صدري ولم ينطلق لها لساني ·· فأنا حين قرأت الخبر بحياد لم أدافع عن طه حسين ولم أهاجم الضيوف ·· وفي وسط هذا الهدير الصاخب دخل الدكتور « حسين فوزي » صمت هنيهة وهو يراقب الحديث الصاخب ورآني مكظومة ·· وفجأة وجدته يقول : على رسـلك يا توفيق على البنت التي تخجل من الرد عليك لصغر سنها ·· واذا كانت هي تخجل فلأصارحك أنا بالحقيقة ·· أليس طه حسين هذا من قلت أنت عنه يوم قدم لك مسرحية أهل الكهف أنه وفر عليك عشرات السنين من الدعاية والاعلان عن أدبك ·· وأنه سبب شهرتك ، ألم تكن أنت نفسك تذهب اليه بميناء الاسكندرية تستقبله بعد عودته من كل مصيف لتحمل له الحقائب وتسنده من الباخرة الى رصيف الميناء ··· أخمدت هذه الكلمات فورة الحكيم فاشاح بيده الى الدكتور فوزي وهو يقول : والله انت كده ياحسين ·· تقلب واطيها عاليهـا ·· ثم نظر يوجه لي الكلام : الحقيقة أنا عرضت على سارتر أن يلتقي بطه حسين وقلت له طرفا من ظروفه « البيلوجية » وثقافته وزوجته الفرنسـية ·· فرد في خجل وصراحة في آن واحد : أنا لا أحب أن أرهق أحدا ، وانني أفضل رؤية الأدباء الشبان عن رؤية من هم في سني أو أكبر مني ·· ، لأن الشبان هم العنصر الصاعد الذي يتدفق بالحياة والقادر على صنع المستقبل ·

واعتبرت أنا هذه الجملة الأخيرة مصالحة لي ·· فتكرر مروري على مكتب الحكيم في كل مرة أذهب لاجتلاب صور الزيارة ·· وفي مرة بدر مني التعبير الذي كان قد شاع بوصف الرفقة ·· من أن الطريق الى سارتر يمر عبر سيمون ، والطـريق الى سـيمون يمر عبر لانزمان ، بل انى سلكت هـذا الطريق لتوجيـه الدعـوة لهم الى لبنـان ·· حيث قابلت لانزمان الذي بدا حزينا أول اللقـاء ·· ثم اعتذر بأن زيارته للقـاهرة مع سارتر وسيمون لم تجيء في الوقت المناسب له · لأن أخته قد قتلت نفسها من أسبوع عقب أزمة عاطفية طاغية وكنت قد عرفت الواقعة بعد ذلك من الأستاذ على السمان وهي أنها كانت تحب المجاهد الجزائري « هـ ·· الابراهيمي » ولكن بعد الاستقلال وقيام هذه الشخصية بدور مهم وحساس حال دون الارتباط بها زواجا ·· ثم قال وكأنه ينفض شيئا عن نفسه : على كل فهذه كانت حياتها وهي حرة في انهائها · استفهمت منه هل هي

ايفلين الجميلة حمراء الشعر التى كتبت عنها سيمون وقالت انهـا قامت بدور استيل فى « الجحيم هم الآخرون » فأكد لى أنها هى ٠٠ ثم تعجب من معرفتى الكاملة لحياة هذه الشخصيات ٠٠ فكانت مناسبة أن ألمح بمعرفتى بعلاقته بسيمون ٠٠ فقال : ان ذلك كان من زمن ولا أظنه مستمرا الآن ٠٠ ثم وعدنى بأنه سوف يعرض أمر الدعوة لزيارة لبنان على سارتر ٠٠ وفى المؤتمر الصحفى لختام الزيارة والذى لم يحضره لانزمان لمرضه ٠٠ قالت لى السيدة ليليان أرقش زوجة الأستاذ لطفى الخولى أن لانزمان يطلبنى ٠٠ وعندما صعدت وجدت مدام سيمون قد سبقتنى ٠٠ بل أمسـكتنى بكلتا يديها المدهون أظافرها بلون فاقع من الطلاء وألجمتنى الدهشة ومنعتنى من الدخول ٠٠ حتى تدخل هى وترى ما اذا كان قد استعد لهذا اللقاء أم لا ٠٠ وأدخلتنى حجرتها وكان العمـال قد حملوا منهـا الحقائب ، فوجدت المؤلفات المصرية المهداه لهم وبينها مؤلفات عثمان أمين والديدى ومجاهد عبد المنعم مجاهد ٠ ذلك أنهـا كانت مكتوبة بالعربية وهـم لا يقرءونها ٠٠ وعندما دخلت على لانزمان ٠٠ واجهته على نحـو لطيف وغير مباشر بمعرفتى أن علاقتهما مستمرة فلا عليه أن يحزن ٠٠ بدليل موقـف سـيمون منى رغم اننى لم آكن أشـكل لهـا أى عـدوان وان هذا الرد منه يعتبر ردا على رسالة د٠ سهيل التى بعث بها الى سارتر والتى ألمح له فيها أنه سبق وحدثه عن ترجمة كتابه « نقد العقل الجدلى » وذكره أيضا بأنه الشخص الذى أغلق على أصابعه باب العربة ٠ وعندما نقلت هذه المحادثة الى الدكتور سهيل فى حضور الأستاذ الشاعر صلاح عبد الصبور ٠٠ تهلل ونصحنى بتسجيل هذه المقابلات فورا ٠٠ بينما لامه صلاح وقال انك زججت عايدة فى معترك صعب ٠٠ » ويا ليتنى كنت قد سجلتهـا أيامها ٠٠ فى حينها ٠٠ ذلك أنى أشعر الآن أننى أكتب الخطوط العريضة للزيارة السارترية بعد ثلاثة عشر عاما على زمانها !

الوقـــورة دوبوفوار :

لقد كنت متأكدة عن طريق ما كتب ورأيته وتأكدت منه من أطرافه ٠٠ بأن العلاقة الثلاثية قائمة بين الرفقة ٠٠ ولكن ما أن أتيت بذكرها أمام الحكيم ٠٠ حتى جاءنى مع آخر زيول كلماتى صوته الهادر للمرة الثانية يفزعنى ويفزعنى : كيف تتطاولين أنت على هؤلاء الفلاسفة العظماء ٠٠ الأدباء حجما ٠٠ النصعاء سيرة ٠٠ هل هم أناس عاديون حتى يتخوضين انت فى هذا السن فى سيرتهم هـكذا وبهذه الطريقـة المشينة غير الصـادقة أو الأمينة ٠ كان صوت الحكيم فى لقائى به على غير عادته ٠٠ عادة الحكيم

أنه عندما يتكلم خصوصا في السياسة ٠٠ أن ينظر الى يسراه ويمناه بتوجس ٠٠ ولا يتكلم الا اذا اطمأن أن ليس هناك مسجلا — بل كثيرا ما يقول لى : اياك أن تكتبى هذا الكلام والا حرمت عليك دخول مكتبى ٠٠ وعندما دعانى نجيب محفوظ هذا العام أن أدخل معه لتوفيق رفضت ٠٠ غير أنه رجانى ٠٠ لأن توفيقا يداعبه أحيانا كثيرة بأنه قد استحوذ على كل الضيوف — ولكن الظاهر اننى أخرج الحكيم دائما من همسه الى صخبه ربما لجهلى بمواضعاته ٠٠ مع هدير الحكيم فى هذه المرة أتى جريا الأستاذ أحمد بهجت ٠٠ وقف على عتبة الباب ٠٠ استند الى مقبض الباب ليتابع الحديث ، فيوجه له الحكيم الكلام : تعال يا سيد أحمد واستمع لما تقوله هذه الفتاة ٠ هل تصدق أن علاقة ما يمكن أن تنشأ بين السيدة المسنة الوقورة دوبوفوار ورفيقهم الشاب الصغير كلود لانزمان ٠٠ تصور هذا الافتراء ؟ ألا ٠٠ واستمع انها تقول أنه شيوعى ويهودى أيضا تصور يا أحمد وأين سيقف سارتر من هذه العلاقة ؟ ٠٠ عندئذ جاء رد أحمد بهجت : والله يا أستاذ توفيق اننى لا أظن عايدة تتكلم من عند نفسها ٠٠ ويا سيدى الدليل على من ادعى واليمين على من أنكر ٠٠ انتظر غدا وستمدك عايدة بوثائقها عما هو زعم فى رأيك الآن » ٠ هدأ الجدل ٠٠ ولكنه مازال يتعجب : يا أخى انهم عندما قدموا الى الأهرام واستقبلتهم أنا عند المدخل ٠٠ كانوا يصرون على أن أدخل أنا أولا ٠٠ وتكرر ذلك عند الصعود الى السلم بل عند الدخول الى مكتبى ٠ فسأل أحمد بهجت الأستاذ الحكيم : هل تعتقد يا أستاذ توفيق أنك معروف فى فرنسا على المستوى الجماهيرى ؟ رد : الحق أقول لك أننى فى يوم من زيارتى الأخيرة لفرنسا وكان من سبعة سنين ٠٠ ركبت المترو ولم أجد مكانا فارغا ، فوقفت ٠٠ ولكن شابا من الجالسين أخذ يتفحصنى مليا ٠٠ ثم هب واقفا ليدعونى للجلوس فى مكانه وهنا انفجر أحمد بهجت ضاحكا وهو يقول : دائما يا أستاذ الحكيم تفسر الأدب الفرنسى بأنه دليل شهرتك ٠٠ أن لائحة المترو أيضا تحتم على الشباب أن يقوموا للشيوخ ثم فر أحمد بهجت اثر كلماته هاربا !

وفى اليوم التالى ذهبت قاصدة الأستاذ الحكيم ٠٠ أحمل ما استطعت من المذكرات التى سجلتها سيمون ٠٠ سواء « أنا وسارتر والحياة » أو « قوة الأشياء » بجزأيها ٠٠٠ وقد خططت طوال الليل تحت المقاطع التى تؤيد كل ما أبديته للحكيم بالأمس ٠ وجلس الحكيم يقرأ عبارات ومقاطع من حديثها « وفى هذه العطلة كان لانزمان قد قام برحلة الى اسرائيل ٠٠ وعاد الى باريس بعد أسبوعين من وصولى ، والتقى جسمانا فى الفرح ٠٠ وبدأنا نبنى مستقبلنا وكل منا يروى الماضى للآخر ٠٠ وبالرغم من أن لانزمان كان يصغرنى بسبعة عشر عاما ، فان هذا الفرق لم يكن يرعبنا ، وقد

كنت بحاجة الى زمن لألزم قلبي بهذه العلاقة ، لأنه لم يكن واردا أن أستبدل بتفاهمي مع سارتر تفاهما آخر ·· كان الجرين ينتمي الى قارة أخرى ، و (لانزمان) الى جيل آخر : وكان ذلك اخراجا من المحيط كذلك يوازن علاقتنا · كانت سنة تهيئني لأن لا أكون الا لحظة في حياته : وكان ذلك يبرر لي في نظر نفسي ، ألا أمنحه اليوم كل شيء في حياتي ··· والحق أنه لم يكن يطلب مني ذلك ، لقد قبلني جملة وتفصيلا ، بماضي وحاضري ، ومع ذلك فان اتفاقنا لم يتم في لحظة واحدة ·· كانت الأجازات التي كنت آخذها كل عام مع سارتر تطرح علينا مشكلة · أنني لم أكن أريد أن أتخلى عنها ·· ولكن فراقا يدوم شهرين سيكون شاقا علينا كلينا ، أنا ولانزمان ·· واتفقنا أن يجيء لانزمان كل صيف ليقضي عشرة أيام مع سارتر ومعي ·· ولدى عودتنا الى باريس عزمنا على أن نعيش معا ·· وكنت قد أحببت عزلتي ، ولكني لم أتحسر عليها ·

فقرة أخرى من مذكرات سيمون وضعتها تحت نظارة الحكيم تقول

وانتظمت حياتنا : وكنا في الصباح نعمل جنبا الى جنب ، وكان قد عاد من اسرائيل بملاحظات كان يريد أن يفيد منها لكتابة ريبورتاج ·· ولقد حررني حضور لانزمان الى جانبي من عمري ··· وظللت أقابل سـارتر كالسـابق ولكننا اتخذنا عادات جديدة ··· كنت قلقة ·· كنت قد خشيت ألا يرتضي لانزمان علاقاتي مع سارتر ، ولقد كان الآن يحتل في حياتي مكانا كنت أتساءل معه عما اذا كان تفاهمي مع سارتر لن يتأثر بذلك ، ولم أكن أنا وسارتر نعيش بعد العيشة نفسها · فهو لم يسبق له أن استغرق في السياسة وفي كتابته وفي عمـله كما هو مستغرق الآن ، أما أنا فكنت أفيد من شبابي العـائد ، كنت أستسلم للحظات ·· لا شك في أننا سنبقى دائما صديقين حميمين ، ولكن أترى مصيرينا اللذين كانا ممتزجين حتى الآن ·· لن ينتهيا بالانفصال ؟ لكني استعدت الاطمئنان فيما بعد ·· ان التوازن الذي حققته ، بفضل لانزمان ، وسارتر واحتراسي الخاص كان جديرا بأن يستمر ·· وقد استمر » ·

أحداث ، وتفاصيل ·· ذهل الحـكيم وهو يقرأهـا ·· واستعد للكلام ·· لكني أشرت له أن يقلب الصفحات ليتأكد من أن جانب تأثير علاقتها بلانزمان على الجوانب السياسية المذهبية عبر اعترافات سيمون : قد هبطت الى سان تروبيز بصحبة لانزمان ·· وفيما كنا نسير حدثته عن روايتي التي كنت قد أعرته مسوداتهـا ·· وكان له حس نقـدي دقيق ومرهف ·· وأعطاني نصائح طيبة وأفادني بانتقاداته ، وقد بدأت أنزعج منها ، ثم أدركت نقاط النقص الذي كان يثيرها ·· وكنت أحمل هما كبيرا بسبب هذا الكتاب ·· ولذلك فقد قلبته رأسا على عقب ، وحين

أعاد سارتر قراءته في آخر سنة ٥٢ لم يكن راضيا عنه ٠٠ ويقول لى « اشتغلى بعد » ولكن قلقه كان أثقل من تشجيعه ٠٠ أما لانزمان فقد أقنعنى أكثر منه بالمضى والمثابرة ٠٠ كان يقرأ النص للمرة الأولى ٠٠ وكان أشد تأثرا بحسناته منه بسيئاته ٠٠ وهكذا عدت الى الرواية ٠٠ ولكنى غالبا ما كنت أكظم غيظى ٠٠٠ كان العنوان يقلقنى ٠٠ وكنت قد عدلت عن تسميتها « الاحياء » واخترت عن طوع « المشبوهون » لولا أن الكلمة سبقتنى « أريون » الى استعمالها ٠٠ ان الموضـــوع الجوهرى فى الرواية كان التباس وضع الكاتب ٠٠ وكان سارتر يقترح « السحرة » فقد كنا نشبه أنفسنا فيها بأولئك الحدادين والمشعوذين والشعراء الذين كانت المجتمعات الأفريقية تحترمهم وتخافهم وتحتقرهم فى وقت واحد ٠٠ ولكن لانزمان اقترح ولماذا لا يكون المثقفون ؟

كانت « المثقفون » ، أول رواية تتعاطف فيها سيمون مع اليهود ٠٠ ممثلا فى شخص « يحب » ابنة البطلة واسمها « جنفيف » ٠٠ ولكنه وقع فى الأسر النازى ٠٠ وجنفيف هى ابنتها روائيا أى لو كانت قد أنجبت من سارتر ٠٠ وتلت رواية المثقفون التى أيدت اليهود فيها ٠٠ روايتها الأخرى « الصـــور الجميلة » ، حيث جعلت الأطفـال اليهود ممثلا فى الطفلة « بوجيت » يتميزون بنضج يدعو الى القلق ٠٠ وبحاسة مفرطة ٠٠ ولكن بطلة الرواية التى سخطت على البرجوازية الفرنسية ٠٠ تجعـل ابنتها كاترين تستمر فى صداقة برجيت حتى تتحرر من هذا العالم البرجوازى الكاذب ٠

هذا عن أدبها ، أما ثقافتها فتقول : وماذا تراه قد حدث للكتاب الذين كنت قد أحببتهم ، وكانوا ما يزالون أحياء ، وما كان موقفى ورأيى بهم اليوم « رايت » ، و « شتاينبك » و « دوس باسوس » ، و « فوكنر » و « هيمنجواى » وأتناقش مع لازمان بشأنهم فأعيد النظر فى كثير من أحكامى ٠٠٠٠ وعندما وجدت أننى مازلت معجبة بـ « ولا تزال الشمس تشرق » نبهنى الى أنها مدموغة بالعنصرية ٠٠ فالرواية هى عالم صغير ٠ فاذا كان الانسان المعدوم الذكاء والمروءة فى الرواية ـ العالم ـ يهوديا ، واليهودى معدوم الذكاء والمروءة ، فان رابطة من التفاهم ان لم نقل رابطة عالمية قائمة بين هذين الطبعين ٠٠ ثم قال ان هيمنجواى سيد يتوجه الى أسياد ، وليس من قبيل الصدفة أن يكون اليمين قد ضفر له تيجانـا فارهة ٠٠ فلقد صور مجد عالم أصحاب الامتياز ٠

ثم أشرت للأستاذ الحكيم على الصـــفحات التى عقد لانزمان الصداقة فيها بين سارتر والشيوعين ٠٠ وكيف بدأ يعيد قراءة « ماركس ولينين وروزا لوكسمبورج لمتابعة « الشيوعيون والسلام » فقد عبرت عنها

سيمون هكذا « كانت مواقف سارتر الجديدة تملأ لانزمان بالرضى ٠٠ وكان يعتبر كل خطوة يقوم بها سارتر نحو الشيوعيين تقدما ، لأنه كان مقيما كلية وبشكل طبيعي في منظورهم » أما عن نفسي : فأجبرني على أن أقدم حسابات ، في حين أني كنت قد تعودت أن أطلب حسابات ، ووجب على كل يوم أن أناقش ردود فعلى الأكثر تلقائية ، أى ضروب عنادى الأكثر قدما ٠٠ وشيئا فشيئا : قضم ألوان صمودى ، فصفيت أخلاقى المثالية ٠٠ وانتهيت الى أن آخذ لحسابى وجهة نظره ونظر سارتر الجديدة ٠

زيارة الى فاقوس :

قرأ الأستاذ الحكيم كثيرا من الصفحات وظهر عليه التعجب والاقتناع فأصاخت أذنى لأستمع الى رأيه الأخير : أمامنا مئة سنة على الأقل حتى نكتب أو نحيى أصلا مثل هذه التجارب » ٠ فلم أشأ أن أراجعه أو أذكره بثورته على أمس ثم انصرفنا بعدها الى أحاديث شتى وفجأة وجدته وهو العارف بصداقتى للكاتب الفذ محمد عودة كما لو أنه يريد أن يصالحنى به ٠٠ فيقول كلنا نعترف بفشل زيارة سارتر لمصر ٠٠ ولكن هل تعرفين من كان باستطاعته انجاحها ؟ استفهمت ؟ فأردف قائلا ٠ انه محمد عودة ٠٠ لقد كان باستطاعة عودة وحده أن يستل الرفقة السارترية من أيدى المشرفين عليها وكانوا سيطاوعونه ٠ ثم يحلق بهم الى آفاق أكثر جدوى ٠٠ كان سيأخذهم مثلا الى بلدته « فاقوس » ويلبسون الجلباب الريفي ويجلسون تحت شجرة ويتحاورون بحركات عودة وطريقته الأخاذة فيما يعن لهم من موضوعات يصل بها عودة الى مبتغى الزيارة بالطبع ٠٠٠ ووافقت على تصوراته واعتبرت هذا فصل الختام ٠

ولعل القيمة أو الهدف الذى تحقق من الزيارة انها انتهت بتأييد سارتر لاسرائيل ٠ لحق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة الى ديارهم وتشاء الأقدار أن تأتى نكسة الخامس من يونيو ٦٧ بعد الزيارة بشهرين على أننا نظلم الجانب الفكرى والاجراءات التى نفذت فى اطارها الزيارة ٠ بدعوى ان الشخصيات التى صاحبت المفكر الكبير فى معظم جولاته ٠٠ فى مختلف أنحاء الجمهورية العربية وفى غزة بفلسطين كانوا يمثلون فكر الأمة ومفكريها يتحملون جانبا من المسئولية عن النكسة باعتبار أن ليس هناك جيش واحد انهزم عبر التاريخ قبل أن ينهزم فكره أولا ، ذلك أننا خدعنا على المستوى الفكرى لأن سارتر كان قد جاء بشبه فكرة مسبقة غذى استمرارها ملاحظات لانزمان الهينة الشديدة الذكاء والخبث معا فى كل دروب الزيارة ومنعطفاتها ٠٠ ولم يكن المشرفون على الرحلة قد قرأوا شيئا عن ماهية لانزمان وعلاقاته الشديدة الوطأ والتأثير

بالنجم الذى وجهت له الدعوة لزيارة مصر حتى يدرءوا خطره وربما لذلك كانت خديعتنا وتكرارها على نحو أفدح وأشد هولا ٠ فى النكسة لأننا لم نكن قد قرأنا كما قال موشى ديان ما كتبه عن العدوان الثلاثى سنة ٥٦ وانه سوف يكرر نفس خطته العسكرية فى المستقبل ٠٠ ثم ألم نكن ساذجين عندما وافقنا على حضور لانزمان كضمان لحياد الرحلة ٠٠ وعدم اشتراطنا بأن يصطحبه شخص مصرى الى اسرائيل ٠٠ وما الذى أفادتنا به كلمات سارتر المهدئة ٠٠ عندما سافر اليه بعد اعلانه تأييده دولة اسرائيل كل من لطفى الخولى ومحمود أمين العالم ليستفسروا عن سبب هذا البيان فقال لهم : ربما خدعت كالآخرين ٠٠ وعندما انقطع على السمان عن زيارته أو السؤال عنه تليفونيا بعد ما كانت الصداقة قائمة بينهما ٠٠ اتصل به سارتر ٠ كما قال على السمان وقال له : يا على ان موقفك متعنت تجاهى فلو أنى خدعت كانسان فلابد أن تتعلم أنت أن تجزىء الانسان الذى أمامك ٠٠ عليك أن تقبل منه الجانب الذى يعجبك منه ٠٠ وتغفل الجانب الذى لا يروقك فيه !

كيف لا يخدع سارتر عبر سيمون ٠٠ ان من يقرأ ويتأمل ظروف دخول لانزمان الى عالمهما يكتشف على الفور كيف أقحمته يد خفية على حياتهما وعوالمهما ٠٠ اذ كيف يوقف شخص حياته هكذا دون أن يكون قد حسب حساب خطواته واصراره على الفوز بشىء ما ٠ وعلى كل فليس غريبا أن يقع فيلسوف كان ملء السمع والبصر كسارتر فريسة الصهيونية العالمية ٠٠ أو اليد الخفية ــ ولكل عالم هفوة ــ فقد سبق لهذه القوى أن قلبت دولا ونفضت عنها حتى دينها ٠٠ ثم ألم يسبق أن قالت سيمون على لسان سارتر : قد يسقط انسان ما دامت الظروف لا تسمح غالبا بأى تجاوز آخر غير الخضوع !

ولكن سارتر الذى كان يحتقر حيل الحياة ٠٠ لم يكن يستطيع أن يتلذذ طويلا بأن يغطى جموده وسلبيته باحتجاجات كلامية ٠٠ لقد أدرك أنه ، اذ يعيش فى المؤقت لا فى المطلق ، مدعو الى أن يتراجع عن أن « يكون » ليعزم على أن « يعمل » ، وقد عمل فعلا بعد ذلك على نقيض هذا الموقف المخزى تجاه العرب ــ ولا نستطيع أن نقول بعد فوات الأوان فكل الأوانات أصبحت سابقة بعد ما وصلت القضية الفلسطينية الى ما وصلت اليه ــ فقد امتنع منذ زمن طويل عن توقيع البيانات التى تؤيد دولة اسرائيل بينما استمرت سيمون توقعها تحت تأثير كلود لانزمان ٠

ان ذلك كله لا يمنعنا من حساب الخسائر والمكاسب التى حققتها هذه الزيارة ، لقد انبهر سارتر بالآثار المصرية ٠٠ والمشاريع العمرانية فى السد العالى ٠٠ وأعجب بالزعيم جمال عبد الناصر ومساعديه ٠٠ وانتهى

وهو الذى ظل طويلا يشك فى جدوى التجربة الاشتراكية فى دولة من العالم الثالث بأن يقف بين الفلاحين فى كمشيش ليهتف بحياة الثورة الاشتراكية المصرية الرائدة ·· مما يدل أن سارتر قد جاء الى القاهرة بعقلية المفكر السياسى اليسارى المتفائل فى ثورة العالم الثالث وفى مقدمته جمهورية مصر العربية بينما كان عدد من المثقفين ـ على وجه التحديد ـ كانوا يسعون الى سارتر الوجودى العدمى المتشائم ··

أضف الى ذلك ·· عدم معرفتنا الدقيقة للتركيبة النفسية التى كتب عنها الكثير · بأنه عندما ينفعل بشىء أو أثر أو حدث فانه يهب له نفسه تماما ·· فما كان من المستطاع مع هذه السمة أن يستمع الى مناقشات حول نقد العقل الجدلى أو بسؤال عن انقسام اليسار وهو يستمع الى شرح حول السد العالى وقنوات التحويل ·· وما كان فى الامكان ان يثنيه تعب وجهد وارهاق عن متابعة الحركة المسرحية التى انتهت بالتعبير المركب العشوائى ·· وما كان له وهو المهذب أن يراجع الدكتور حسين فوزى وهو يصدمه بكلمات التمجيد الكلاسيكية للشعب الفرنسى ·· الذى طالما حمل له سارتر كثيرا من البغض لا سيما أيام حرب الجزائر وهتافاتهم « الجزائر فرنسية » وكان دائما يصفهم بالفاشست ويقول ان كل انسان فى فرنسا كان شريكا فى الجريمة ·· لأنهم يفيدون جميعا من استغلال المستعمرات ·

ان سارتر بمثل ما أحب المصريين وجموعهم وحشودهم كانت تحدوه دائما رغبة عارمة فى أن يلتقى بهم مواجهة وبلا وسيط بدليل أنه كان يضيق بشروح المترجمين أوقات زيارته للآثار ·· لأنه كان يحب أن يتأمل وحده ويتلقى الاجابة على ما يريد أن يعرف فقط ··

كان يجب أن تترك الرفقة لتلقائية الاحساس المباشر والمعرفة المباغتة ·· وكان ذلك سيكون أجدى ·· ومن ثم فقد كان الأستاذ توفيق الحكيم محقا فى اختياره لمحمد عودة كمرافق أمثل وبديل للزيارة ··

من هنا يأتى السؤال : من هو محمد عودة ؟

والجواب : فى سياق هذا الكتاب وفى حينه ؟

هؤلاء الكتاب الكبار وأجورهم المتواضعة

« الفكر والأجر **من أصل متنافر** » حقيقة أولى تشد انتباهك فور اقترابك من مجالات النشر فى بلادنا ٠٠ تحل لك لغز المقولة المشهورة « الفكر لا يطعم خبزا » وقد **تخلفت** هذه الحقيقة من مفارقة أغرب من نتيجتها ٠٠ وهى بالرغم من أن دولاب العمل للناشر لن يتحرك الا اذا أمده الكاتب بالمادة التى تدور به ، وبما أن الناشر لن يتوافر لديه مردود ما أنفق كاملا على ما نشره حال توزيع الانتاج فى السوق من ثمن الورق وأجر العاملين التى لا تحتمل تأجيل الدفع أو تسويف الأجر ٠٠ فان الكاتب وحده بما أوتى من سعة أفق يستطيع التدبر والانتظار ٠

تنافر حادث من المفروض أن يكون تجاذبا ٠٠ أعداء يجب أن يكونوا أصدقاء واذا كان هذا التمايز قد خلف كثيرا من الطرائف ٠٠ فانها طرائف تثير التأمل بعد الابتسام ، ولا تصل الى الضحك الذى كالبكاء ٠ لذلك نجد أن أكبر كتابنا أكثر وعيا لهذه الحقيقة وتداركها ٠٠

فالدكتور طه حسين لم يكن يكتب أو يتحدث فى الاذاعة أو فى التليفزيون الا بعد **اقتضاء** أجر مجز ٠٠ طلبت منه الاذاعية المشهورة (آمال فهمى) أن يتحدث لمستمعى اذاعة الشرق الأوسط التى كانت ترأسها فى برنامج أسمته « لغتنا العربية يسر لا عسر » فوافق الدكتور طه على شريطة أن يتسلم أجره قبل التسجيل ، شرحت له آمال فهمى ضرورة أن يرفق نص الحديث باذن الصرف ، فذهبت توسلاتها أدراج الرياح ،.. ولما كانت آمال قد أدرجت هذا البرنامج وسط فقرات شهر

رمضان ونوهت عنه الصحف آنذاك ، من هنا لم تجد أمامها الا أن تدور على الأصدقاء تجمع منهم المبلغ المرتفع الذى طلبه الدكتور طه حتى يتحدث ٠

ذلك كان اسلوب طه حسين فى التعامل مع الاذاعة ثم التليفزيون من بعد مع المذيعة اللامعة ليلى رستم، ولأن دار المعارف كانت قد تعاقدت معه على أن تنفرد بنشر مؤلفاته ، فقد أعدت لنا الصدفة معه شيئا أغرب من الموقف السابق ٠٠ ذلك أنه عندما نشر مذكراته فى مجلة آخر ساعة وهى « ما بعد الأيام » سارع الدكتور سهيل ادريس صاحب دار الآداب بجمعها وطبعا محرزا بذلك قصب السبق ولم يبق أمام سهيل الا التكليف برسم الغلاف ثم التوزيع وقبلهما طبعا موافقة الدكتور طه ٠٠ ! عندئذ سقط فى يد سهيل موضوع أو مشكلة الشراء القطعى لدار المعارف ٠ ولكنه لم ييأس بل أخذ يبحث وينقب فى قانون النشر ويسأل القانونيين عن ثغرة ينفذ من خلالها ٠٠ الى أن عثر ٠٠ يومها ذهب الى الدكتور طه مستبشرا واستهل كلامه بأنه دفع للاستاذ نجيب محفوظ اليوم أجره عن نشر (أولاد حارتنا) الفين وخمسمائة جنيه ٠٠ وردد الدكتور طه الرقم مستعظما اياه (الفين وخمسمائة جنيه) ثم أردف : الدنيا حظوظ ٠٠ فاندفعت الكلمات قفزا فوق لسان سهيل : نحن مستعدون أن نجعلك محظوظا يا دكتور ٠٠فرك الدكتور كفيه ثم نشرهما متمنيا : واحسرتاه ٠٠ على أى شىء تعطينى ٠٠ ؟ رد سهيل لاهثا : عن مذكراتك فى آخر ساعة فسأله الدكتور طه يائسا : ودار المعارف ؟ فقال سهيل لقد بحثت هذه المسألة قانونيا وطلعت منها بأن دار المعارف تحتكر مؤلفاتك أما هذه فمذكراتك والفرق شاسع بين هذه وتلك ٠٠ تأمل الدكتور طه كلماته هنيهة ثم سأله : أمتأكد أنت يا سهيل ؟ ٠ فقرأ عليه سهيل نص القانون فانفرجت أسارير الدكتور طه فرحا ٠٠ ونادى وكأنه يزغرد « فريد » ٠٠ أعطنى الختم من جيبى ٠٠ ووقع فوق عقد الهبة التى سقطت عليه من السماء والذى كان انفراجا لأزمة سهيل أيضا ٠٠ فاستعد لها ٠

لا تحسبن وأنت تقرأ ذلك أن الدكتور سهيل ادريس يوزع الآلاف اثنين اثنين شمالا ويمينا على كتابنا ٠٠ فالحادثتان اللتان ذكرتهما استهلالا ٠٠ لهما ظروف خاصة ٠٠ فأولاد حارتنا هى أول رواية تطبع له خارج مصر وخارج احتكار دار عبد الحميد السحار لأعمال نجيب محفوظ ٠ لاعتراض الأزهر على نشرها فى كتاب بعد أن تدبر مغزاها أثناء نشرها كمسلسل فى (الأهرام) ٠٠ ومذكرات طه لها شبه هذه الظروف وكانت ورطة لسهيل أيضا ٠٠ أما الأجور التى يعطيها سهيل ادريس للكتاب عادة فهى شىء آخر ٠٠ فاذا كان هو من احتضن الشعر الحديث ونحت صورته بتجميع باقة شعرائه من كل أرجاء الوطن العربى ٠ (بدر شاكر السياب) و (عبد الوهاب البياتى) و (نازك الملائكة) من العراق

و (نزار قبانى) من دمشق ثم (صلاح عبد الصبور) و (أحمد حجازى) و (عفيفى مطر) من مصر ٠٠ وبنى بهم خط دفاع قوى لهذا الشعر جعل صداه ينعكس داخل بلاد شعرائه متجاوزا حدود أبيات البياتى التى يقول فيها عن ميلاد شعره فى **الغربة** :

النهـــر للمنبــــع لا يعـــود   النهر فى غربته يكتسح السدود

كان بناء سهيل لهذا الصرح من استقطاب وابراز كثير من الكتاب الشبان قد توازى مع ارسائه لحجر الأساس فى مدرسة الأجر الرمزى فى **النشر** فى عالمنـا العربى ، فقد نقد أحمد عبد المعطى حجازى سبعة وعشرين جنيها وفاء لديوانه الأول (مدينة بلا قلب) وذلك بحجة أن هذا الديوان قد صودر فى مصر بسبب قول حجازى فى مقطع (يا قاهرة ٠٠ يا ذات المآذن الملحدة) مع أن القاهرة هنا كانت تضاهى بيروت من حيث تواضع الأجر ٠٠ وقد وعد سهيل حجازى بأن يعوضه فى المرة القادمة ٠٠ وقد بر بوعده فأعطاه خمسة وأربعين جنيها وفاء لقصيدته (أوراس) وهى عن ثورة الجزائر ٠٠ لأن النقاد أخذوا عليها مقطع (أندلس هى الفردوس المفقود) وهكذا ظل القدر بالمرصاد لحجازى يستتبع عليه لعنات الأجر الرمزى من سهيل ٠

أما صلاح عبد الصبور فقد أفلت من **القدر** ٠٠ فأجزل له سهيل العطاء حيث نقده سهيل بعد نجاح ديوانيه « الناس فى بلادى » ، « أقول لكم » خمسين جنيها ٠ مائة جنيه بطولهم وعرضهم لقاء ديوانه « أحـلام الفارس القديم » ٠٠ ويوم تسلم صلاح هذه الهبة ــ من فتحى نوفل عديل سهيل ومدير **أموره المالية فى القاهرة** كان يريد بهما اكمال ثمن عربة فولكس مستعملة ٠

وعندما جلس كل من صلاح وزوجته يحسبان أجر « أحلام الفارس القديم » من العربة القديمة ٠٠ فوجداه يعادل ثمن الدركسيون أو عجلة القيادة ٠٠ ولا شك أن هذه الأجور انسحبت آنذاك على بقية أصحاب الشعر الحديث أجمعين ٠

نذار قبانى وثورته ٠٠

أسـلوب الرمز فى الأجـر عند سـهيل شىء مجز ، اذا قيس بأسلوب أدونيس «الغرم بالغنم» أى الذى يكسب نشر رأيه عليه تحمل خسارة مجلة «مواقف» النهائية وقد ارتضى أدونيس هذا الأسلوب لأسباب نقره عليها فى كثير من الأحيان أولها أن أدونيس من القلائل فى الوطن العربى الذين يحيون أفكارهم كلما وجد سبيلا لذلك ٠٠ ولما كانت أفكاره توافق بطريقة تكاد تكون متطابقـة مع كل ما يراه الكاتب السـعودى « عبد الله القصيمى » وتوافق ثورة نزار قبانى على نفسه وعلى كل جيله ٠ فقد استهل أول عدد من مجلة « مواقف » باستهلال قال فيه : نلتقى

فی « مواقف » کوکبة أصدقاء تحتضن أصواتنا وأصوات الخلاقین جمیعا انها لذلك حقیقة ورمز تفجر جیل عربی اختبر ما فی الحیاة العربیة من تصدع ·· هکذا تطمح « المواقف » الی ان تکون استباقا · کل استباق ابداع · الابداع هجوم یدمر ما نرفضه واقامة ما نریده ·· تلك هی مواقف انها مناخ للمجابهة ·· وهکذا تنهض « مواقف » انها نقیض القبول بما نرثه أو یرد علینا · والثقافة هنا کفاح ووحدة فکر وعمل · انها الثقافة التی لا تعنی بتفسیر العالم أو الحیاة أو الانسان الا لغایة أساسیة تغییر العالم والحیاة والانسان · انهـا الثقافة ـ الثورة ·· ثم تأتی المقالات تباعا فنجد مقالا متفجرا (لئلا یعود هارون الرشید) لعبد الله القصیمی عن أوضاع العرب الحالیة ·· ثم قصیدة نزار قبـانی « الاسـتجواب والمثلون) ، ومعهما قصیدة (حریة القتل) لافتشنکو آخر الساخطین ، وشحنات متفجرة أخری ·· فی جمیع المجالات والمناشط العربیة ···

جرت هذه الجرأة من أدونیس عدم دخول (مواقف) أغلب الدول العربیة ، ولما لم یکن لدی أدونیس دار للنشر یعوض بها خسارة المجلة کسهیل ادریس فقد اضطر لعدم الوفاء بأجور الکتاب ·· ثم صار هذا حقا مکتسبا ذلك ان المجلة تعثر سیرها لصعوبة دفع أجور المطبعة ·· وفی أثناء ذلك فوجیء أدونیس بنشر کتاب لنزار فی دار نشر یحوی عدة لقاءات أجریت معه علی صفحات مجلة (مواقف) احتج أدونیس ورفع قضیة ·· ولکنه خسرها لأن سهیلا ـ کشاهد ـ انحاز مع القانون الی جانب نزار ـ وأن من حق نزار أن ینشر کل اللقـاءات التی أجریت معه فی أی مکان یختـاره · ما دام أدونیس لم یدفع ولو أجرا رمزیا لنزار ·· **وضاع فی خضم ذلك (دفع) أدونیس بحقه** لأن الأسئلة التی وجهت لنزار ووجهت مسار الحوار کانت من وضع المحررین لدی مواقف الذین أجروا هذه الأحادیث ·· أو **انتوائه** نشر هذه اللقاءات عندما تتسنی له دار للنشر ·

وأمام هذه المشاکل المتفاقمة التی واجهت أدونیس ·· رضخ لنصیحة الأصدقاء فی مناقشة رسالته (الثابت والمتحول) لیصبح أسـتاذا فی الجامعة ـ وهو من قدمت فیه رسائل کثیرة ، شجب فی بعضـها وفاز بالثناء فی البعض الآخر ·· **وکان منها فی فرنســا** ·· کل ذلك حتی یستطیع أن یوفی الکتاب أجورهم ولو رمزیا من مرتبه ·

والرمز کان اول زاد أمدنی به سهیل فی الفترة التی عملت فیها کمراسلة للآداب فی القاهرة سنة ٦٧ ·· فأول وجباته قوله : لتملئی جعبتك بتبر الرمز والرمزیة تنثرینه علی کل مفاوضـاتك مع الکتاب ، فنحن نعرف أقدار الکتاب ومکانتهم العالیة ·· ولکن ظروف النشر هی التی تحتم علینا هذا الاسلوب ·

وحول الرمز والرمزية ، قال الدكتور محمد مندور لسهيل يوما : يظهر يا سهيل أن عملك فى النشر أوقف قراءاتك ولم تعد ثقافتك عصرية . ففزع سهيل وكأن لسان حاله يقول أنا من أنشر سارتر وسيمون ، وكولون ولسن وماركيوز . قال مندور : لان المذهب الرمزى تطور عبر التعبيرية والواقعية .. فلماذا لا تحاسبنا وقفه والأجر فيه يساوى الجهد .. تنفس سهيل الصعداء وهو يضحك قائلا .. والله يا دكتور اننى لا أتخذ من الرمز مذهبا بقدر ما اتخذه أسلوبا .. لأن المجلة تخسر .. ولأنها لا تدخل أكثر البلاد العربية لظروف سياسية ... الخ .

وهكذا ولفشل مندور فى أن يحرك سهيلا خطوة للأمام..اتخذ اتجاهه فلسفة أن يكتب بقدر المدفوع .. ويوما كان يملى على مقالا للآداب .. فتوقف لحظة وسألنى : كم يغطى ما كتبتيه من صفحات الآداب .. قلت له : قد يغطى صفحتين وبجانبهما اعلان صغير .. قال اذن آكتبى هاتين الجملتين .. ثم وقعى .. هذا يكفى بالخمسة جنيهات .. والتفت الى وهو يقول هذه ثقافة أضعنا فى سبيلها المال والجهد والزمن .. فلماذا نبيعها بأثمان رمزية .

ساندوتش للأولاد الخمسة ..

كان هذا أسلوب مندور مع الناشرين اما عن أجهزة الاعلام من اذاعة وتليفزيون وهى أجهزة لا تدفع – لاسيما اذا انتقل المذيع بأجهزته الى مكان المتحدث ومن ثم كان المتحدث هو من يختار مكان ووقت التسجيل فقد ألح عليه الاذاعى البارز طاهر أبو زيد استضافته فى برنامج « مع الشعب » فسأله مندور .. كم تدفع الاذاعة .. قال طاهر (جراتسيا) أى شكرا بالايطالية .. فرد عليه مندور يفتح الله .. وهل اشترى بجراتسيا ساندوتش لأولادى الخمسة .

واذا كان أسلوب مندور هكذا فى أجهزة الاعلام .. فانه كان غير ذلك مع طلبة العلم الذين كان **ينتظر منهم الكثير** .. فقد كان مندور لا يستقبل أحدا يتحسس طريقه الا ونفحه هدية بسيطة ، **كتاب** له أو لغيره .. أشهد بأن ذلك كان سلوكه تجاهى ذلك أنه عند ظهور كتاب ما فى السوق يشتريه مندور .. ولكن المؤلف سرعان ما يهديه نسخة فتكون المشتراه من حقى ! .. كان اذا نظر الى مكتبته ووجد نسختين من كتاب أشار لزوجته الشاعرة ملك عبد العزيز قائلا : نسخة (عايدة). حتى قر فى خيالى أن كل كتاب له نسخة أخرى تصبح من حقى حتى لو كانت فى مكتبة عامة .

أردت أن أجرب هذه العادة لدى أساتذة لى آخرين .. فكنت أواجه دائما بهذه الردود : ان هذه النسخة تكون معى فى غرفتى والأخرى فى

المكتبة ، أو اننى أشرت بالقلم تحت مقاطع من النسخة المشتراة وأحب أن يكون لدى نسخة باهداء المؤلف •

على رأس المتشددين فى أجر كتاباتهم وكلامهم توفيق الحكيم ·· الذى عرف كأبخل أديب فى الوطن العربى ·· فهو يوازن بين مجالات الكسب ·· بين الجهد والسهولة ويختار المكسب السهل كما حدث فى برنامج (بورترية) للمذيع التليفزيونى (طارق حبيب) الذى حكى فيه عن ذكرياته مع أبيه وأضحكنا على بخله ·· كل هذا لأن طارقا (القمه) عدة آلاف من الجنيهات •

وعندما احتفلت (الأهرام) باليوبيل الفضى لنجيب محفوظ فى حفل كبير دعى اليه أكثر أدباء العالم العربى والمستشرقين ، وأتحفوه بكثير من الهدايا القيمة ·· جاء دور توفيق الحكيم فى التقريظ ·· فقام واستل من جيبه كأسا بحجم الاصبع الخنصر ·· وقدمه لنجيب محفوظ قائلا (انه من فضة وانه من حر ماله) وضحك الحاضرون وتسلمه نجيب ممتنا ضاحكا •

نوادر توفيق الحكيم وطرائفه عن البخل وعدم الدفع والأجر المرتفع كثيرة تحكيها شخصيات مصر الظريفة من أم كلثوم الى كامل الشناوى ، وتوفيق الحكيم يسدى نصائحه المالية دائما لنجيب محفوظ ·· فعندما حصل نجيب على جائزة الدولة التقديرية عن (الثلاثية) وكان مقدارها ألف جنيه ·· وكان قد فكر فى أن يبنى بها بيتا مع الألف الأخرى التى تقاضاها من الأهرام عن نشر قصته « أولاد حارتنا » مسلسلا • لم يمنعه توفيق الحكيم من ذلك ·· لكن ظهر أن المقاولين الذين أخذوا من نجيب هذا المبلغ ·· وقعوا فى كمين نصبه لهم بعض المجرمين ·· يومها قال نجيب ساخرا معزيا نفسه : لقد انتقم الجبلاوى لمقتله • والجبلاوى هو بطل أولاد حارتنا وهو رمز الغيب الذى قتله (عرفة) رمز العلم دون أن يقصد ·· وهذا قول يشى بشدة الايمان لدى نجيب محفوظ •

ونجيب محفوظ من أكثر الكتاب تواضعا فى طلب الأجر ·· لأنه ينظر الى نفسه بتواضع ·· لا يأخذ الا ما يراه يستحقه وهو قليل جدا ، وربما كان سبب ذلك أنه كان يتقاضى بعد تخرجه من قسم الفلسفة وتعيينه موظفا فى حسابات وزارة الأوقاف أيام كان الدكتور مصطفى عبد الرازق وزيرا لها ثمانية جنيهات فحسب ! فأصبح هذا المبلغ مقياسه عن الأجر الى يومنا هذا •

يروى المخرج الشهير صلاح أبو سيف أن الممثل فريد شوقى كان يتهيب تجربة الانتاج فى أول فيلم ينتجه « الأسطى حسن » قصة نجيب

محفوظ التى سيكتب لها السيناريو أيضا · كان نجيب قد وصل فى كتابته فى هذه الأيام درجة أحسن سيناريست فى مصر ·· سأل فريد صلاحا : الأستاذ نجيب كم سيأخذ عن القصة والسيناريو ·· لابد أنه سيطلب ثمنا باهظا يفوق ما رصدته للانتاج ، هون عليه صلاح الأمر وكان سيخرج الفيلم قال : انه سينقل لنجيب صورة واقعية لمبلغ الانتاج ، وسيجعل زوجته ـ زوجة صلاح ـ « وفيقة أبو جبل » وهى التى ستقوم بمونتاج الفيلم ·· تستخدم مهارتها فى هذا الفن لتوفير وقت وجهد نجيب فى الكتابة ·· فلا يتقاضى أكثر من مائتى جنيه ·· لم يتخيل أو يصدق فريد رضاء نجيب فسأله بنفسه : أستاذ نجيب كم تطلب كأجرك عن القصة والسيناريو ؟ فرد نجيب بحزم وعلى الفور مائة جنيه ·· أسقط فى يد صلاح وأحرج أشد الحرج خشية أن يتسلل شبه ظن لدى فريد أنه كان سيأخذ الباقى له ·

ومن الغريب أن نجيبا وضع المائة جنيه فى ظرف أعطاه لفريد شوقى أثناء التصوير ·· قائلا : انه لا يستحق هذا المبلغ فقد أفادته كتابة السيناريو فى سرد رواياته ·· والقفز من مكان لمكان آخر ·

أجور نجيب فى السينما بعد ذلك تفوق الخيال ، فحتى سنة ٦٥ لم يكن قد صرف الشيك الذى يستحق عن اخراج روايته (زقاق المدق) التى أخرجت سنة ٦١ ، ذلك أن المنتج رمسيس نجيب ·· كان قد أعطاه اياه وهو بلا رصيد ·· ثم أفلس أيضا · عندما أطلعنى الأستاذ نجيب على هذه الحقيقة ونشرتها فى مجلة روز اليوسف ·· غضب رمسيس عندما قرأ ذلك وعاتب نجيب تليفونيا ·· وضع نجيب سماعة التليفون آسفا وحكى فحوى المكالمة ثم أقسم بأنه لم يكلم أحد الصحفيين بهذا الموضوع يومها قلت له : لا تحلف يا أستاذ نجيب فأنت صادق ·· أنا التى نشرته فجلجلت ضحكته عالية ·

عندما عاد رمسيس نجيب للانتاج تحت اسم ابنه ·· وعد نجيبا بسداد الدين القديم بعد عملية بسيطة من نجيب · هى أن يكتب المعالجة السينمائية للأعمال التى سينتجها رمسيس ·· ويكون بذلك قد ضرب أربعة عصافير برمية واحدة ·· الفوز بمعالجة سينمائية تغنى القصة ·· الاستفادة من اسم نجيب محفوظ فى الدعاية للفيلم ·· خصم المال المدفوع لنجيب من أصول الفيلم التى تخصم من الضرائب ·· سداد شيك بدون رصيد كان يستحق عليه الحبس · وقد فعل نجيب كل هذا عن طيب خاطر فهذه طبيعته ·

نجيب محفوظ ـ بالمناسبة ـ لا يستلم مليما واحدا من غير طريق الكتابة والمرتب والاستضافة من قبل التليفزيون والاذاعة ، حيث يذهب

بنفسه الى استديوهاتها للتسجيل درءا لدخول المذيعين بيته أو صومعته ! دخل عليه موظف من ادارة الحسابات بمؤسسة السينما مسرعا وبيده دفتر ·· طلب من نجيب أن يوقع فى خانة أشار له عليها ·· ورغم سرعة الطلب سأله نجيب : على ماذا أوقع ؟! قال الموظف : ثلاثين جنيها كبدل مظهر ومشروبات لضيوف مكتبك ـ كان يومها رئيسا للجنة القراء ـ التى كنت عضوا فيها ـ عندئذ وضع نجيب غطاء القلم فوق سنه ·· رافضا التوقيع واستلام المبلغ وهو يقول : ضيوف مكتبى هم ضيوفى ·· وعندما أشيع هذا الخبر فى المؤسسة غضب رؤساء الأقسام (أحمد بدرخان) و (موسى حقى) لأن ذلك الموقف يقتضيهم الاحتذاء والا سجل نجيب موقفا عليهم ـ عدت الى هذه الحادثة وأنا أقرأ عن غضب الوزراء لاعادة الدكتور محمد حلمى مراد كل الهدايا التى يتسلمها من رؤساء البلاد التى زارها الى خزينة الدولة ·· لأنه لم يقبل هذه الهدايا الا لكونه وزيرا للتربيـــة والتعليم فى مصر ـ ونجيب محفوظ يرفض أن يحوله طبيب المؤسسة لاخصائى (الأذن) أو (السكر) اللذين يعانى منهما ·· مع أن كثيرا من الأدباء فى المؤسسة يفعلون ذلك ويأخذون الدواء أيضا ·· وعندما نبهته الى أن هذا من حقه قال : ان لى دواء فى بيتى وآخر عند والدتى ، فلا يمكن أن أحمل الدواء كلما ذهبت ·· هل أطلب نسختين من الدواء أم نسخة واحدة الله الغنى ··

ونجيب محفوظ هو الأديب الوحيد الذى يدفع الضرائب قبل أن يضم هذه الأجور الى نقوده الخاصة ·· يدفع الضرائب حتى لو كان النشر فى خارج مصر وهو أمر لم يتعارف عليه الكتـاب ولا تطلبـه مصـلحة الضرائب · لذلك كان دخل نجيب محفوظ يغطى أوجه صرفه بالضبط ·· فهو يدخر أجور الأحاديث الاذاعية والتليفزيونية لقضاء عطلة الصيف فى الاسكندرية ·· وقبل صيف سنة ٦٦ ذهب لاستلام هذا المبلغ المجموع وفعل ·· وما هى الا عدة خطوات بعيدا عن شباك الصرف ·· تحسس بعدهما جيبه فاكتشف أنها قد سرقت ·· واصل نجيب سيره وحكى لنا ما حدث وسألناه آسفين ·· ماذا ستفعل ؟ قال بحزم وقبل أن نجد له حلا : لن أصيف هذا العام ، وهكذا تراجع عن عادة محببة الى نفسه بسبب ظرف طارىء ·

يعتبر الأستاذ يحيى حقى المتواضع الأول مكررا فى الأجر ومكان النشر ، فلقد طالبته الأهرام بالانضمام اليها يوم عزم هيكل على استقطاب كبار كتاب مصر فى الأهرام ·· لكنه استدركهم قائـلا : يا ليتكم قلتم لى قبل ذلك بأيام فقد تعاقدت مع جريدة (التعاون) والتعاون هى جريدة عمـالية ذات توزيع محدود ·· ولكن يحيى حقى يرى أن الكـلام للعمال ضرورة وطنية لا تقل عن الكتابة للمثقفين أو للعالم العربى كله ·· ولم يجد (الأهرام) أمامه الا أن يسـتكتب يحيى حقى أحيـانا من خارج هيئة

التحرير .. وفى يوم أرسلوا له أربعين جنيها ثمنا لمقالته .. فرفض استلامها قائلا : ٤٠ جنيها هذا كثير .. هذه سرقة . واذا كان جمال حمدان (فيلسوفنا الجغرافى) قد اشترط مائة جنيه عندما طلبت منه « الأهرام » أن تكون كتابته لها قطعيا .. فهو محق لأنه أولا يبذل فى المقال ما يبذله فى كتاب ثم أن دخله من الأهرام هو دخله الوحيد .. بعد أن أحجم عن كل الأعمال الأخرى بما فيها التدريس فى الجامعة .. حيث انقطع عن اعطاء دروسه فيها بعد أن مل مجاملات الأساتذة بعضهم للآخر .. دون ان يقدم استقالته ، ولحنكه العميد الذى يعرف قيمة جمال حمدان العلمية .. فقد اعتبر انقطاعه عن الجامعة استقالة .

شروط وضوابط :

كان العقاد فى بداية حياته يتقاضى مبالغ متواضعة عن مقالاته .. وعندما تعطف ومنح الشاعر البائس السليط عبد الحميد الديب مثل أجره فى مجلة (روزاليوسف) كتب فيه قصيدة هجائية مفزعة (لا داعى لنشرها) .

لكن العقاد فى أخريات أيامه وجد أن انتظاره لأجوره المتواضعة والمؤجلة أصبحت عائقا فى سبيل كتابة مقالاته الجديدة ، لذلك وضع شروطا ضابطة تضمن الوفاء بمستحقاته ، هذا عن مقالاته أما عن كتبه فكان يطلب من الحكومة الكثير .. ولأنها تقتضى منه التفرغ والاحكام فقد طلب ألف جنيه ، وأجيب طلبه عن كتابيه (حقائق الاسلام وأباطيل خصومه) « والتفكير فريضة اسلامية » ولأنه كان يطبع كتاب « سعد » سعد زغلول لحسابه الخاص .. ولم يجد ما يدفعه للناشر .. فقد فتح باب الاشتراك للقراء .. وعندما عرف طلعت حرب بهذه الأزمة المالية .. أمر له بسلفة على بنك مصر بلغت خمسمائة جنيه . وفى تلك الفترة عرضت عليه جريدة البلاغ أن يكتب لها .. وكان قد خرج عن الوفد عندما عاتبه النحاس على هجومه لحكومة محمد نسيم لأن هذه الحكومة جاءت بعد فشله فى مفاوضات ملنر .. أجل العقاد هذا العرض ورفض أن يأخذ أجرا وفى جيبه خمسمائة جنيه مفضلا أن يكتب روايته « سارة » وهو فى رغد من العيش ، وظروف تعيين العقاد فى جريدة أخبار اليوم لها نفس ظروف كتابه عن سعد .. فقد حكى لى الأستاذ أحمد بهاء الدين بأنه عندما عرف من أحد الأصدقاء أن العقاد يبيع مكتبته عرض على الأخوين مصطفى وعلى أمين تعيين العقاد فى دار أخبار اليوم .

وللكتاب مذاهب فيما يتقاضونه من أجر على كتاباتهم . فالعقاد عندما استمع للطرائف التى يحكيها صديقه الشاعر عبد الرحمن صدقى عن والده .. ومعرفته بالضائقة المالية التى يمر بها صدقى ... أشار

عليه بكتابة هذه الطرائف فهي جيدة وممتعة واستجاب صدقي ٠٠ لكنه عندما سمع الناس يتندرون بسؤال الأب ــ عبر تلك الذكريات ــ عن جدوى الرياضة التي يمارسها ابنه ٠٠ ورد صدقي بفائدتها في التخلص من الوزن الزائد ٠٠ ثم نصحه الابن بعدم الأكل واراحة جسده من هذا المجهود ٠٠ امتنع عبد الرحمن صدقي عن استكمال كتابة الذكريات رغم شدة حاجته لمردودها المالي ٠٠ بعكس توفيق الحكيم الذي فعلها وهو في غنى عنها ٠

تفسير الطبري :

العلامة محمود محمد شاكر يرفض كذلك أن يستلم أجور الصحافة وأحيانا الكتب ، فقد أعاد لمجلة العربي مائة وخمسين دولارا لقاء رده على الكاتب اليمني عبد العزيز المقالح حول ظلم الدكتور طه حسين ٠٠ كما أنه رفض ثلاثمائة جنيه من الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال والمشرف على اصدار كتبها كأجر عن كتابه «في الطريق الى ثقافتنا» ، ولكنه يتشدد بل ويتعسف في تسلم أجر التحقيق في أمهات الكتب قبل أن يشرع الى عمله ٠٠ لأنه يعرف أن اشتراكات المشترين من الدول والهيئات تصل لدور النشر قبل طبع هذا النوع من الكتب « تحقيق التراث » ، وكان هذا المطلب وراء عدم ظهور الأجزاء الخمسة عشر الأخيرة من (تفســير الطبري) ثلاثون جزءا ٠٠ وأخيرا رضخت دار المعارف لمطالبه ٠٠ ولأنه استنكف مؤخرا عملية التكليف فقد صار يطبع كتبه في مكتبه المدني ٠٠ أو دار نشر الخانجي لأنه يعتبر صاحبي هذه الدور أولاده ٠

ولأن محمود محمد شاكر من أكبر الأسماء التي توزع تراثيا في العالم العربي والاسلامي ــ بعد أن أصبح شيخ العروبة والعربية ــ فقد استغل اسمه مؤرخ سوري يدعى محمود شاكر ليتخيل المشترى أنه العلامة المصري العملاق محمود شاكر الأصلي ٠

انشغل صلاح عبد الصبور ــ أيام كان مديرا للهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٦٨ في الرد على التليفون ــ عندما سمع الدكتور زكريا ابراهيم ــ وكان يجلس في مكتبه ــ يهمس للدكتور فؤاد زكريا أن يتشدد عند خمس مليمات لترجمة الكلمة بدلا من أربع ٠٠ لأن ذلك يراكم مائة جنيه أو أكثر في كتاب (الفيلسوف وفن الموسيقى) تأليف جوليوس بورتنوى وترجمة د٠ فؤاد ذكريا ٠

وفي عام ٨٠ رفض طبيب أن يكتب مؤلفــا لسـلسلة عالم المعرفة الكويتية التي يشرف عليهـــا الدكتور فؤاد زكريا بسبعمائة وخمسين دينارا ٠٠ لأن هذا المبلغ يستطيع احرازه من عيادته خلال أسبوع اذا عاده أربعة مرضى يوميا كحد أدنى بدون ارهاق عقل واعمال فكر ٠

تتداعى الصور لمن يتأملها تباعا ٠٠ فينحاز تلقائيا الى صف الكاتب ٠ لأن الكاتب مثل كل صاحب خبرة يريد أن يأكل خبزا من وراء صناعته ، فقد أنفق عليها المال والجهد وسنى تكوينه لاتقانها ٠٠ ثم ان عمله الفكرى أشد ضراوة على الجسم والنفس من كثير من الأعمال اليدوية ٠٠ فالذى يعمل بعضلاته يساعده الجهد اليدوى على التخلص من التوتر والنوم قرير العين والنفس أيضا ولكن الذى يعمل بعقله ليلا ونهارا ٠٠ بلا راحة اسبوعية ولا أجازة مرضية أو عرضية لا يعرف للنوم ميعادا ولا قرارا ٠٠ لأنه الكف والمطرقة ٠٠ اللحن والوتر !

ان تواضع الأجر فى البلاد العربية الآن ٠٠ بعد أن كان الشعراء والمفكرون يعيشون فى حمى أصحاب المروءة والكرم أيام الجامعة الاسلامية ــ ليدل على أن الفكر ليس ذا بال أمام التجارة والفن التليفزيونى ولا حتى حرفة التمثيل والالقاء فى بلادنا ٠٠ واذا اقتصرنا على فن التليفزيون والمسرح الخاص نجد أن الممثل عادل امام تقاضى ١٦ ألف جنيه عن مسلسل (ابراهيم الطائر) من هيئة التليفزيون المصرى ٠ وليس من شركة انتاج خاصة لدول البترول ٠٠ وهو اشترط أن يرى عربة مرسيدس بيضاء (بالذات) أمام منزله كعربون قبل أن يتحرك من مصر الى الكويت ليمثل مسرحية « شاهد مشافش حاجة » والدكتور غنيمى هلال قضى أربع سنوات يدرس فى السودان ــ الذى لا يناسب جوه صحته ــ ليحصل على سيارة من أى ماركة وأى لون تريحه من عناء المواصلات ٠ وهو عبقرى الأدب المقارن فى مصر ٠ وما حصل عليها حتى وافته المنية ٠

عبد الحليم حافظ كان يترك أجر أحاديثه فى الاذاعة والتليفزيون وكنت أتمنى لو حضر مرة واحدة لاستلامها ، لكنه لم يفعل ، بينما كان القارىء الفقيد الشيخ محمود الحصرى كان يأتى لاستلام أجره ، حيث يتحلق حوله الفراشون والسعاة يقسمه عليهم بلا حساب ٠٠ وهى من المواقف التى زكت انتخابه شيخا للمقارىء المصرية ٠

وبعد ألا تترجم لنا هذه المعادلة المقلوبة بين الأصدقاء والأعداء ٠٠ أو الكتاب والناشرين تعسر مسيرة الفكر الى وجدان وضمائر وعقول الجماهير العربية ٠٠ فكر المستنيرين ومواقفهم الجادة لفهم مسيرة الحياة زمانا ووجودا وأسلوبا ٠ بهدف الاسهام فى حل مشكلاتها كأداة للتغيير والتقدم ٠٠ الأمر الذى يجعلهم ينفضون عن تأليف الكتب وكتابة المقالات الجادة التى لا تطعم خبزا ٠٠ بينما المسلسلات التليفزيونية والأفلام السينمائية والمسرح الهابط وكتب الجنس والغواية تطعم شهدا ٠

ان أى كاتب فى العالم الذى تظلله اتفاقية (برن وجنيف) للنشر يستطيع أن يعيش من دخل كتاب واحد ٠٠ ذلك أن هذه الاتفاقية تحتم الدفع سنويا للكتاب عن كتبهم اذا أعيد نشرها أو ترجمتها أو الاقتباس منها أو اخراجها للسينما والمسرح والتليفزيون أو استعمال مادتها فى أى منشط آخر ٠ حتى لو كان لرسالة جامعية ٠٠ وللأسف لم توقع الدول العربية على هذه الاتفاقية بحجة ندرة ترجمة مؤلفاتنا الى هذه اللغات الأوربية ٠

سألت الأستاذ نجيب محفوظ وقد ترجمت أعماله الى الروسية والمجرية والرومانية و (زقاق المدق) بالذات الى الانجليزية والفرنسية والاسبانية هل توافق أن تترجم أعمالك الى كل اللغات بدون أجر ٠٠ لأننا لم نوقع على اتفاقية برن وجنيف ؟ قال : نحن كدول عربية لن نكسب من دخولنا هذه الاتفاقية ، لأن الأجانب لن يقبلوا على أدبنا كما نقبل نحن على أدبهم ٠٠ ومع ذلك فأنا لا أمانع فى ترجمة أعمالى بدون أذنى وبدون أجر ٠٠ وهذا حدث فعلا عملا بالحكمة السنسكريتية (ضح بالفرد فى سبيل المجموع » وقد استغل أحد الناشرين فى لبنان سماحة خلق نجيب محفوظ تجاه الترجمة ٠ فطبع مزورا أغلب كتبه دون اذنه فى بيروت ٠

قلت له يوما لماذا لا ترفع قضية ٠٠ فنجوم الفواصل مختلفة وهذه قرينة على التزوير ؟ ٠ قال ان القضاء يحتم أن تضبط الكتب فى المطبعة ٠٠ فمن اذا سيذهب الى بيروت لعمل هذه الضبطية ٠٠ ان الوقت الذى تستغرقه هذه العملية غير المأمول نتيجتها تكفى لأن أكتب رواية جديدة ٠

٠٠ وأخيرا جدا الا تشكل هذه المعادلة المقلوبة بين الكتابة والأجر ٠٠ جانبا من أزمة الثقافة فى الوطن العربى ، الذى هو فى أمس الحاجة الى الثقافة والمثقفين خاصة المتفرغين منهم ؟ اذ كيف يتسنى الوقت لمفكر لمقارعة الأفكار بالحجج بينما وقته نهب لانتظار أجر قد يأتيه من هنا ولا يأتيه من هناك كيف تنتظم حياته بل حياة أسرته المعلقة به ٠

مجلة الدوحة القطرية

السنة الخامسة العدد ٥٣

جمادى الثانية ١٤٠٠ هـ / ٨ مايو عام ١٩٨٠م

محمد مندور
المعلم الأب

- جمع مندور بين القابليات الأدبية والأهليات العلمية ومشاعر الأبوه الخالصة ·
- ملكته الرغبة فى الافضـــاء وافادة الآخرين لأنه معلم مطبوع ·
- كان سريع البديهة ·· سمحا ·· وكتبه محاضرات كان يلقيها على تلامذته ·

شغل الدكتور محمد مندور الحياة الثقافية العربية عامة ، والمصرية خاصة أمدا طويلا ، وبث الروح والحياة فى كثير من أبنائها الذين يواصلون رسالة الفكر من بعده ·· ولم نفتقد بفقده الكلمة الأخيرة التى كانت تأتى فى نهاية كثير من المعارك الدائرة فتكون فصل الختام ·· بل فقدنا الحركة النقدية بعامة رغم ان اقطاب الحركة مع مندور مازالوا على قيد الحياة ·

أقول فى بداية هذه الكلمة اننى لا أكتبها لتقييم دور الدكتور محمد مندور ·· فقد حاز على لقب شيخ النقاد وهو فى الخمسين · أو فى كشف جانب من جوانبه الفكرية الغزيرة التى يكمن بعض منها من مؤلفاته الجادة والمتميزة التى أثرى بها المكتبة العربية من « النقد المنهجى عند العرب » الى « الأدب ومذاهبه » ، « فن الشعر » ، « فن المسرح » الشعرى والنثرى

عند شوقى ، وبعده ، النقد والنقاد فى الميزان ٠٠ الى كتابات لم تنشر ، بجانب ترجمته للعديد من الكتب أشهرها « دفاع عن الأدب » « لجورج ديهامل » ، « منهج البحث فى الأدب واللغة » ، « مدام بوفارى » ٠ و ٠٠ و ٠٠

ان هـذا كله يحتـاج الى رسـائل ٠ انجز أحدها ٠٠ الدكتـور محمد براده (المغرب) كأطروحة حصـل بهـا على درجة الدكتوراه من السربون ، وظهرت بعد ذلك فى كتاب قيم عن دار الآداب تحت عنوان (محمد مندور وتنظير النقد العربى) ٠

اننى أكتب هنا فقط تنفيثا عن حزن لا يزال يحتدم فى النفس على ذلك المعلم الأب ٠٠ الذى لم تفتقر الحياة الفكرية وتتطلع من بعده الى مثيل له يملأ الهوة العميقة التى تخلفت فى النفس وعلى مسرح الفكر بفقده ٠

لقد مرت ستة وعشرون عاما منذ غربت شمس حياته ، ظهر خلالها على مسرح الفكر ودروب الأدب شخصيات وشخصيات ٠٠ لكنى لو أوصلت العديد منهم بعضهم ببعض فلن أفوز بشخصية لها هذا العمق والأبوة معا ٠

ذلك أن « مندور » كان من أكابر المفكرين وكان فى الوقت نفسه من الأدباء الحقيقيين مع أنه لم يركب متن الخيال قط ، ومن النادر فى أيامنا هذه أن يجمع الرجل فى شخصه بين القابليات الأدبية والأهليات العلمية ٠ وحتى لو كشف لى المجهر عن شخصية لها ثقافة مندور ونفاذ بصيرته فمن المستحيل أن تعثر على من يجمع بينهما وبين مشاعر الأبوه الخالصة ٠ وفيض أحاسيسه الحانية واستاذيته المطبوعة أيضا ٠

أشعر الآن وأنا أكتب عنه أنه بحق « بابا مندور » المعلم المطبوع وقبل كل شىء ٠٠ فقد صحبته ثمانى سنوات من العمر الجميل سواء فى معهد الفنون المسرحية كتلميذه وبعدها كعارفة لفضله ومكانته ٠٠ أقرأ له وأكتب ما يمليه على بعد أن شقت عليه هذه المهمة لضعف بصره بعد العملية التى اجريت له فى رأسه ٠ وقد قرأت له خلال تلك السنوات بما أخصب عقلى ووجدانى ٠٠ أما الكتابة له فلا أستطيع وضع مدى لما استفدته منها ٠ ويوم فقدته فقدت كل أمل لى فى أن أكون ابنة للمرة الثانية ٠٠ ولقد دخلت الى عالم الأضواء الفكرية والفنية من باب مندور ٠٠ كان خطوى من خطوه ٠٠ ونظرتى مستمدة من نظرته الناقدة حينا الحانية فى أغلب الأحوال ، ولقد أفضى بى هذا الباب الى طريقين أولهما ترجمت من خلاله أمام عينى المفردات التى بلورت العظمة فى شخصه ، وثانيها : وهى أننى عندما وقعت عينى على أساطيل الفكر والفن الذين كنت أقرأ عنهم وأنبهر بهم لم أر الهالات المضيئة فوق رؤوسهم ذلك أن آراء مندور الكاشـفة ٠ عن ماهيتهم قد بددت انبهارى المبهم بهـم ٠

فأخذت أحجامهم حيزها الصحيح ٠٠ كان الواحد منهم يصافح « مندور » فأجده يكلمه بعتاب عابس ٠٠ والآخر يتصبب أسفا ٠٠ وعندما يتركنا خجلا التفت الى بابا أسأله : لماذا كلمته بهذا الفتور ٠٠ ولماذا كان الآخر يدارى خجله هكذا ٠٠ فيفضى الى بأن هذا الشخص ضعف أمام الموقف الفلانى وكذا وكيت ٠

لم تتغير أفكارى عن المفكرين بفضل مندور فقط ، بل تغيرت حياتى كذلك ، ذلك أننى منذ وعيت ٠٠ واختبرت قدراتى خلال دراستى الابتدائية والثانوية وأنا أنوى المضى فى طريق الفن وتشكيله والالتحاق بكلية الفنون الجميلة كما قلت سلفا ٠ وفى يوم من عام ٥٦ قرأت فى جريدة الشعب نقدا بقلم الدكتور محمد مندور لأحد الكتب التى كنت قد فرغت من قراءتها توا ٠٠ فبهرت بآرائه ٠٠ وقلت لنفسى : آه لو ملكت هذه الثقافة الموسوعية وهذه القدرة الفذة على التعبير لكتبت نفس المقال وبترتيب الكلمات أيضا ٠

ومن يومها تتبعت مقالاته وكتبه هنا وهناك ٠٠ وبدأت أحاديثه الاذاعية بجانب مقالاته تخلق لى عالما جديدا ٠٠ وتعرفنى أشياء لم أكن قد سمعت بها من قبل ٠٠ وفى احدى مقالاته وجدته يكتب بحنو وعطف عن رسائل تلامذته فى « معهد النقد » فعرفت أن هناك معهدا بهذا الاسم وشغلتنى فكرة الالتحاق به ٠٠ وما ان حصلت على الثانوية العامة حتى ذهبت اسجل اسمى ٠٠ وكان للمعهد امتحان دخول ٠ وكان الممتحن هو الدكتور مندور بنفسه مع بعض الأساتذة ٠٠ سألنى يومها : أيهما تشاهدين أكثر ، المسرح أم السينما ؟ قلت له السينما فاستفسر لماذا ؟ قلت اننى أستطيع الذهاب الى السينما صباحا مع صديقاتى أو أخى الصغير ٠٠ أما المسرح (ليلا) فيقتضى اصطحاب أخى الكبير يوسف الشريف ٠٠ وهو مشغول دائما مع أصدقائه ومصادره بالشئون العربية فى مجلة روزاليوسف ٠ فقال لى ببساطة : نعم ان الاخوة الكبار دائما أولاد « ٠٠٠ » ولاحظ أنه بتعاطفه معى قد سب أبى فاستدرك قائلا ان ابنتى أيضا تشكو نفس الشكوى ٠ وبعد أن زرته فى منزله اكتشفت أن أولاده أصغر من أن يذهبوا الى سينما أو مسرح بدونه لأنهم أطفال ٠٠ وأنه انما شتم نفسه استدراكا لأنها كانت المرة الأولى التى أشاهده فيها ومن ثم لم أكن أعرف بعد طريقته التلقائية فى التعبير عن غضبه ٠

اكتشفت أسرتى أن معهد النقد هذا ليس الا قسما ملحقا بمعهد الفنون المسرحية ويشمل كذلك قسمين للديكور والتمثيل ، وهو شىء يفوق خيال أسرة أزهرية معظم رجالها مشايخ معممين ٠٠ بل ان أخى الكبير أوحى لوالدى أنه معهد بلا مستقبل ٠٠ ولما كان على أن أستقل مواصلتين لكلية الفنون الجميلة بالزمالك وهذا شىء لا أحبه ٠٠ ولكى أرضيهم جمعت

بين المعهد (ليلا) وبين كلية الحقوق ٠٠ وأخذ على هذا الجمع بأنه من قبيل محاكاة (بابا مندور) الذى كان يجمع بين كليتى الآداب والحقوق لظروف جد مختلفة ٠

امتحانات طه حسين ٠٠

ذلك أن مندور الذى ولد ٥ يوليو سنة ١٩٠٧ التحق بالجامعة المصرية سنة ٢٥ ليدرس الحقوق متمما حلمه الأثير فى أن يكون وكيل نيابة الذى أدرك هيبته وسطوته عندما قدم الى قريتهم كفر مندور منيا القمح « شرقية » للتحقيق فى جريمة قتل ٠٠ ولكن كلية الحقوق كانت تشترك فى السنة الأولى مع كلية الآداب لدراسة الأدب واللغات والتاريخ والاجتماع وعلم النفس ٠٠ يمتحنهم بعدها العميد الدكتور طه حسين ٠٠ فيوزعهم وفق ما يراه من قدراتهم وهكذا عندما استمع الى الدكتور مندور أعجب به ٠٠ ولما عرف برغبة وكيل النيابة عنده ، أقنعه بالالتحاق بكلية الآداب بالاضافة الى الحقوق ٠ كما أقنعه أستاذ الاجتماع بالالتحاق بقسم الاجتماع بجانب قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ٠٠ وظل يمتحن كل عام فى هذين القسمين حتى وصل الى الليسانس فاكتفى بقسم اللغة العربية ٠٠ فحصل على ليسانس الآداب من ذلك القسم سنة ٢٩ وكان ترتيبه الأول مع ليسانس الحقوق وكان من المتفوقين ٠

في سنة ١٩٣٠ عين وكيلا للنيابة كما رشح لبعثة الى فرنسا ٠ فطلق حلمه الأول ٠٠ وفضل البعثة التى تفتح ذهنه على آفاق عالمية ٠٠ وسافر والتحق بالسربون ليدرس الآداب واللغات ٠ وكان لا يكتفى بحضور المحاضرات الخاصة بدراسة الآداب الحديثة والقديمة وفقهها ، بل كان يتابع محاضرات الفلسفة والتاريخ والاجتماع والعمارة وكافة ميادين المعرفة ٠٠ فحصل على دبلوم الاقتصاد السياسى والتشريع المالى من كلية الحقوق بجامعة باريس ٠٠ بعد دراسة لمذاهب الاقتصاد وفلسفة النظم الغربية والتشريع المالى ٠ كما حصل على دبلوم معهد الأصوات بباريس حيث قام بدراسة معملية عن موسيقى الشعر العربى وأوزانه ٠

واذا كانت لمندور تطلعات علمية بذت أقرانه داخل الجامعة وخارجها الا أن غربته فجرت فى نفسه قدرات وطنية أكثر من مستبشيطة وهى احلاله وضع مصر المستعمرة فوق كل تطلع فكرى وعلمى ٠٠ فقد تصادفت سنوات بعثته مع مفاوضات « منترو » لالغاء الامتيازات ٠٠ فكتب عدة مقالات فى الصحف الفرنسية ، ينبه الفرنسيين فيها الى وجوب موافقتهم على الغائها ٠٠ ورد عليه وكيل وزارة الخارجية الفرنسية وكان يرأس الوفد الفرنسى فى تلك المفاوضات وظلت بينهما المناقشات سجالا ، ومن المفروض أن يغبط ذلك المسئولين فى مصر لو انهم كانوا من الشخصيات الوطنية غير البيروقراطية ولكن العكس هو الذى حدث ـ فقد كانت الحكومة حكومة

مكرم عبيد وكان مدير الجامعة هو لطفى السيد اللذين بعثا له بقرار شخصى يعيده الى مصر ٠٠ ولكى لا يتم التشكيك بموقفهم جعلوا سبب سحب مندور لا دفاعه عن حق مصر فى الغاء الامتيازات ٠٠ ولكن بحجة سفره فى رحلة لبلاد اليونان يكمل بها دراسته للغة اليونانية وآدابها ٠٠ وفى أثناء ذلك أوقف مرتبه من البعثة ٠

رفض الطلبة الوطنيون أن يمتثل مندور لقرار العودة ٠٠ الذى يقطع سجاله مع الفرنسيين حتى بعد فشل المؤتمر (١) ٠٠ ويقطع كذلك حصوله على الدكتوراه ٠٠ ولكى يساندوا فى هذا الموقف ، قرروا أن يجمعوا فيما بينهم قدر مرتبه من البعثة من مرتباتهم هم ٠٠ ولما كان فى البعثة طالب من أقرباء زيور يدرس علم النفس ٠٠ وكان هذا الطالب بطبيعته متعجرفا ٠٠ فقد قال لمندور بتعال : خلاص يا مندور نحن سنجمع لك مرتبك ٠ فغضب مندور وثار وفار وكادا يتشابكان ٠٠ وأمام ما حدث رفض مندور العرض ٠ وآثر العودة الى الوطن ليواجه مصيره ٠

وبالفعل وجد الدكتور طه حسين غاضبا عليه ٠ لأنه لم يجعل دراسة الدكتوراه هى هدفه الأول ، وترك نفسه تتفتح على كل الثقافات والفنون التى فتنته ٠٠ كدراسة الفنون المختلفة من عمارة ورسم وموسيقى ونحت الى الاقتصاد والتشريع المالى ٠٠ الى سياحات ثقافية الى اليونان وغيرها ٠٠ ثم الى السياسة ٠٠

رفض الدكتور طه طلب مندور فى أن يمارس التدريس وهو معيد فى قسم العربية ٠٠ كما رفض رئيس قسم الدراسات القديمة الانجليزى الجنسية أن يسمح لمندور بتدريس اللغة الفرنسية أو اللاتينية ٠٠ الا من الخارج تماما كالمدرسين الأجانب الذين كانوا يدرسون فى المدارس الثانوية ٠ وعانا مندور فترة عصيبة من عمره ٠٠ الى أن استدعاه الأستاذ أحمد أمين للتدريس سنة ٤٣ بجامعة فاروق الأول بالاسكندرية وكانت جامعة مبتدئة ٠

وقد سخر مندور من الجامعة سخرية مرة ، بطريقة علمية حديثة حيث قال لهم : أنتم تريدون هذه الورقة التى تسمونها شهادة الدكتوراه اذن اليكم اياها وخلال فترة تسعة أشهر فقط ــ وكان متزوجا وله توأمان ٠٠ ومتغرب أيضا بالاسكندرية ــ عكف مندور على وضع رسالته العلمية العظيمة (النقد المنهجى عند العرب) باشراف الأستاذ أحمد أمين ٠ حصل بها فى سنة ١٩٤٣ على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى ٠ ولتكون المرجع الأول لدارسى النقد ٠

(★) كانت وزارة محمد نسيم من الوزارات التى تولت الحكومة بعد فشل مباحثات منترد منترو ٠٠ وعندما هاجمها العقاد ٠٠ عاتبه النحاس لانه راض عنها ٠٠ فترك العقاد الوفد ٠٠ وعندما شكل النحاس وزارته استدعى الدكتور طه حسين ليكون وزيرا للمعارف وهو الذى عاش طول عمره يهاجم سعد والوفد لصالح الاحرار الدستوريين ٠

فأثبت لجامعاتنا وللدكتور طه أن ورقة الدكتوراه لا تقتضى من مثله وقتا ولا عناء ·

ورغم ذلك فان الدكتور طه استمر يضيق عليه فرص العمل فى جامعة القاهرة ·· الا أنه بعد اقالة طه الأخيرة وبعد مرور سنوات قام مندور بالتدريس لقسم الصحافة ـ قبل أن يستقل بكلية الاعلام ـ كما درس لى بمعهد الفنون المسرحية ـ الذى رفض عمادته أكثر من مرة ·

ومن يوم دخولى المعهد ورغم أن مندور لم يدرس لى فى السنة الأولى فلقد أصبحت شديدة الارتباط به داخل المعهد وخارجه فى الندوات والمحاضرات الأدبية التى كان يحضرها أو يلقيها ، فى أبهاء المسارح وردهات الصحف التى كان يعمل بها ، وقد ساعد على ذلك كثيرا جيرتى له فى السكن ·· مع الكتابة والقراءة كما المحت ·· وكانت فرصة لى أن أقترب منه كثيرا ·· وقد كشفت لى هذه الفرصة الأخيرة علامات وضوح الفكر وصفائه عند مندور · ذلك أنه كان يملى على المقال أو مقدمة الكتاب دفعة واحدة ، لا يقطع املاءه تبديل الا فى النادر القليل ، وكأنه قد نحتها وجسمها فى خياله قبل أن يبدأ فى املائها ·· لذلك فكثير من كتبه التى يرجع اليها الباحث فيجد فيها مرجعا موثوقا به ، انما كانت فى الأصل محاضرات كان يلقيها على تلامذته فى معهد الفنون المسرحية أو معهد الدراسات العربية ·· فالأدب وفنونه كانت كراسة محاضراتى عنده فى السنة الثالثة ، « الشعر بعد شوقى » ، « توفيق الحكيم » ، « خليل مطران » ، « عزيز أباظة » كانت كراسات تلميذه الراحل الأثير ـ يوسف ممتاز · (هو عديل يوسف ادريس) ·

كان الدكتور مندور يلمس حاجة الطلاب الى دراسة تاريخ النقد الأدبى ـ مثلا ـ فلا يجلس الى مكتبه ومن حوله المراجع ـ والجزازات « الفيشات » يخطط للموضوع كما يفعل معظم الأساتذة ·· بل يكون تقديره لهذه الحاجة فقط اشارة أو لفتة لذهنه يبدأ بها العمل ·· بل يتأهب للاقبال على الموضوع ثم يتدفق بعد ذلك وكأنه يملى من كتاب على الطلاب بتلقائية تتعجب لدقتها ، أو كأنما قضى صاحبها فى التخطيط لها وقتا طويلا ·

أما اختلاف طبعات كتبه الأولى مع الثانية والثالثة فمرده أن مندور كان اذا أملى على طلبة فرقة وجاء العام التالى أدخل بعض التغيير على ما كان أملاه ولكن الخطوط العريضة تبقى كما هى · ذلك أنه كان كثيرا ما يضمن محاضراته خواطر تكون قد عرضت له من وحى اللحظة التاريخية أو الاجتماعية أو السياسية أو قبل وقت المحاضرة أو من وحى اللحظة واختلاف مستوى المتلقى ·

أذكر انى كنت أقرأ له يوما مسرحية « شاترتون » لألفريد دى موسيه ليملى على مقدمة لها فى « سلسلة المسرح العالمى » وكانت تصور معاناه يطلها الشاعر فى قصور الأمراء ·· وكيف دفعه عرض أحد الأمراء ليعمل خادما فى قصره الى الانتحار ، وكانت المحاضرة التالية فى المعهد عن ضرورة رعاية الدولة للفن والفنانين · فوجدت الدكتور يمزج بين ما كنا نقرأه بالأمس عن مأساة شاترتون والمحاضرة ربطا تلقائيا مثريا مفيدا · وهذه على ما أظن سمة كل كاتب أصيل كبير ·· ولكى يجعلنى أفيق من ذهولى لهذه المعجزة ـ سـواء فى الاملاء أو الربـط والاستخلاص · يداعبنى قائلا : آه لقد بذلنا فى تحصيل كل ذلك سنوات متطاولة من الجهد والتعب ·· وأموالا طائلة فى الانفاق على الثقافة ، لذلك كله كان مندور يشترط الأجر المجزى عن مقالاته وأحاديثه ليس حبا فى المال كما يتصور البعض ، ولكن احتراما للقيمة المعرفية التى يكتبها أو يذيعها ·

كانت طريقة مندور الساحرة هذه فى القاء المحاضرات تجعل الطلاب يخرجون منها وكأن المحاضرة قد نقشت فى عقولهم وتخلفت فى ضمائرهم ·· مما جعلها تترك أثرا واضحا فى مواقفهم وابداعاتهم ·· لا سيما أسلوبه فى تحليل كل كلمة يرتكز عليها الموضوع الذى يتكلم فيه ·· فاذا سمعت مثلا من يقول : « ان القانون لا يسرى بأثر رجعى الا اذا كان لصالح المتهم » أو « أن الحيازة فى المنقول سند الملكية » أو « أن الشرط الأول لتحقيق التعسف فى استعمال الحق ·· هو أن تكون المنفعـة التى عادت على المستعمل له ·· أقل بكثير من الضرر الذى لحق من استعمل ضده هذا الحق » ·· فستعرف على الفور أنه خريج كلية الحقوق ·· أما اذا سمعت من يقول « ان البحث المجدى هو البحث الميدانى » أو « ان النتائج الموثوق بها هى نتائج التحليل المعملى » فهو خريج أقسام الاجتماع ·· أما اذا سمعت من يتناول الكلمة محللا اياها تحليلا اجتماعيا تاريخيا ـ بالمعنى العادى للكلمة ـ فأغلب الظن أنه من تلامذة الدكتور محمد مندور ·

وأتذكر مثلا أنه كان يحلل لنا كلمة (برومثيوس/اليونانى) فيقول (بروم) تعنى النظر (وثيوس) معناها الأمام ·· أى أنه كناية عن المستشف والذى ينظر بعيدا هو المنذر ·· ويحلل كلمة (برجوازى) فيقول (برج) تعنى مدينة ·· كما نقرأها مثلا (بطرس برج) و (زى) تعنى الانسان ·· فبرجوازى هم الطبقة الثالثة بعد القياصرة والعبيد ·· وتتكون من التجار والموظفين والكتبة والذين يسكنون المدن ·

بساطة الأفكار ··

يقول كل ذلك بأسلوبه البسيط ·· حتى يخيل للسـامع أنه لا يقتضيه جهد أو أنه علامة بساطة الأفكار التى يحملها عقله ·· ولكن

الأمر ليس كذلك ، فانها بساطة لا تتأتى الا للقادرين على استيعاب أصعب المشاكل وأعمق الثقافات • وهضمها حتى تستقر فى الوجدان ويجرى بها اللسان فى كلمات واضحة سلسة •

وما تزال في خيالى صورة « بابا مندور » وهو جالس فوق أزيكته الأثيرة بغرفة مكتبه ، يتحلق حوله جمع من تلاميذه ـ فى المعاهد والجامعات وغيرها من ناشئى الأدب ـ يصغون معه الى زميل يقرأ قصيدة أو قصة أو بحثا •• وبعدها يبدى « بابا مندور » ملاحظاته وتعليقاته فيجذب اليه آذان تلامذته فيصغون فى شغف واهتمام كأنهم يشربون كلماته ، وهو يفيض عليهم من علمه بأسلوبه البسيط العميق !

كنت أظن أن هذه الصفة اكتسبها مندور من عمله الطويل فى مجال التعليم •• ولكن الدكتور لويس عوض يكشف لنا أن طبيعة مندور فى حياته كلها طبيعة معلم وأنه جبل على التعليم وافادة الآخرين ، وذلك فى كتابه (مذكرات طالب بعثة) المكتوب بالعامية • ثم فى مقالته لتأبين مندور •• وعنوانها (وداعا أيها الصديق) والتى نشرت فى صحيفة الأهرام فى تاريخ ٦٥/٥/٢٥ يقول الدكتور لويس : حين التقيت فى باريس بمحمد مندور سنة ١٩٣٧ كنت يومئذ فى طريقى الى مقر بعثتى فى انجلترا : لازمنى مندور يومين أو ثلاثة ليطلعنى على معالم باريس ! فكان ينتقل بى من السوربون الى البانثيوم الى الانفاليد الى نوتردام وغير ذلك من الآثار الباقية ويشرح لى تاريخها ويحلل قيمتها •• وتوطدت صداقتنا وكنت أزوره فى أجازتى •• وأستطيع القول أن مندور هو الذى أيقظ فى نفسى حب العمارة والنحت والتصوير حين كان يطوف بى أبهاء متحف اللوفر أو يقف بى بين أعمدة كنيسة المادلين ليشرح لى الفرق بين العمود الكورنثى والعمود الايونى والعمود الدورى أو يجوس بى خلال نوتردام ودير الباندكين ليروى لى قصة القوس المكسور والزجاج المعشق بالرصاص فى العمارة القوطية أو يحدثنى عن أسس التكوين البيزنطى فى كاتدرائية « السكركير » أو يلهب خيالى بوصف ما رآه من آثار الأكروبول فى « ساموتراك » أثناء رحلته اليونانية : وبغير هذا ما كان يمكن لى أن أربط بين عمارة « التوليرى » وفرساى ولوحات جنسيود ، ورينولدز وموسيقى فيفالدى وباخ وأدب راسين ، عصرا عصرا ومدرسة مدرسة •• لقد ترجمت لى مفردات شرح مندور كيف ان باريس تحس بقلب أثينا وتفكر بعقل روما •• ويقول لويس عوض بعاميته تقبلها مرة وتصدمك أخرى : (ومن غير مندور كنت دخلت باريس حمار وخرجت حمار) •

كانت هذه الصفة التى الصقها لويس عوض بنفسه ، كناية على أستاذية مندور الذى يكبره بتسع سنوات •• هى فصل كل كلام لمندور معه •• وأضرب مثلا لذلك •• اننا يوما من عام ١٩٦٠ انطلقنا فيه من المعهد الى جريدة (الجمهورية) حيث طلب من مندور أن يكتب افتتاحية

عدد اليوم التالى (الأربعاء) وبعد أن أملاها علي وسلمناها الى رئيسى التحرير انذاك موسى صبرى وكامل الشناوى ، دخل الدكتور لويس عوض فسأله مندور عما تم باجتماعهم مع صلاح سالم (الذى كان رئيسا لمجلس ادارة الجمهورية) حول اصدار مجلة (الكاتب) التى كان من المفروض أن يرأس تحريرها د لويس عوض · فقال لويس : لقد تم كل شيء على ما يرام ورصدوا مبلغ مائة جنيه لاصدار المجلة ·· عندئذ نظر له مندور بتعجب وقال (والله انت ···) هل تكفى مائة جنيه ! فاردف لويس قائلا ان هذا المبلغ للكتاب الذين يكتبون من خارج الدار فقط ·· حيث تم فى الاجتماع على أن تصدر المجلة (الكاتب) عن دار الجمهورية ، بحيث تطبع فى مطابعها ويحررها كتاب الجمهورية ·· فأخذ مندور يسخر من ذلك ويكرر وصف لويس عوض لنفسه ، ويستعرض للويس امكانيات كتاب الجمهورية وعدم تناسبهم لمثل هذه المجلة الأدبية الجادة ·· وما تحتاجه من ابحاث دقيقة ، مبينا الخصائص الفكرية لكل منهم ثم توقف عند كامل الشناوى رئيس التحرير وقال : (ماذا سيكتب سى كامل فى مجلة الكاتب ؟ محفوظات ؟) ·

ولا تعنى عبارة مندور عن كامل تقليلا من شأنه أو عدم احتفائه بشعره الذى كان يحتفى به ويقدره ولكنها ربما صدرت عبارته عن حسرة على وضعه كمحرر بالجمهورية قصاصا من استبعاده بدعوى عدم التوقيع فى سجل المؤيدين لثورة يوليو ، عند بدايتها جعلت أعضاء مجلس الثورة لا يكلون له عملا يتناسب مع مكانته الثورية وأنه طالما هاجم الملك ودعا الى تقويض الملكية واعلان الجمهورية ·· ثم صاروا يكلون له أعمالا أقصر من قامته ، وربما تدل مداعبة مندور عن كامل اشـــارة الى ما بينهما من مشاكسات حيث كان كامل باعتباره رئيسا للتحرير يقدم لمندور مقترحات فى شكل كتابة موضوعات جادة ·· وهو يقصد منها المداعبة والتطرف ·· بينما كان مندور يأخذ الأمر مأخذا جديا ، فينفذ المقترحات ويحيلها الى موضوع جدى يخرج منه بأشياء طريفة وأصيلة تفوق ما قصد منها فى البداية ·

أذكر يوما كلفه فيه كامل الشناوى باجراء ثلاثة لقاءات يحتويها مقال واحد الأول مع زوجته الشاعرة ملك عبد العزيز ، الثانى مع توفيق الحكيم والثالث مع المنولوجست شكوكو · وهنا جانب الدعابة ·· وأخذ مندور الأمر بجدية تامة وأجرى هذه اللقاءات الثلاثة · فخرج بلقائه مع ملك بنظرية الشعر المهموس ، أما لقاؤه مع الحكيم فلم يتم فى الواقع بل فى الخيال حيث أن توفيق الحكيم كان كلما ضرب موعدا لمندور فى دار الكتب أو فى جريدة الأهرام ، وذهب مندور اليه لا يجده ، لذلك قال لنفسه أخيرا ·· وماذا ننتظر من رجل صفاته اخلاف الوعد ·· ثم ما هو الجديد

الذى سيقوله توفيق الحكيم ·· ان فكره قد توقف عند التعادلية وزمن الفهم ، وزمن الرواية ، واللغة الثالثة ولعبة الأزمان القديمة منذ عالجها فى سنة ١٩٣٣ فى (أهل الكهف) وهى قضايا بعيدة الآن عن الناس ··· اننى أستطيع توقع كل اجاباته على كل ما كنت سأوجهه له من أسئلة ما ·· كنت سأسأله عن كذا فيجيب بكذا ·· الخ وهكذا كتب اللقاء المتخيل مع الحكيم · أما حواره مع رجل التلقائية الفنان الشعبى المحبوب (شكوكو) فقد أجراه فعلا فى لقاء تم بينهما فى مسرح العرائس الذى كان شكوكو أول من أنشأه فى مصر فى ذلك الوقت عبر فن الأراجوز ، وقد خرج منه مندور بالسر الكامن وراء هذا الفنان المصرى الوحيد الذى كان له آنذاك تمثال شعبى يشتريه الأطفال فى الأحياء الشعبية ، واكتشف مندور أن هذا السر يكمن فى أن شكوكو لم يغن للسلطة ابتداء من عصر الملكية وامتدادا الى عصر الثورة وعهد الجمهورية بل كان اختيـاره التعبير عن روح الشعب المصرى فى السخرية لدرجة أنه قد قلب الأغنية التى شاعت فى أيام الثورة الأولى « مخلاص اتعدلت والحالة اتبدلت » الى (مخلاص اتقندلت ، والحالة اتبهدلت) وكانت نتيجتها أن أوقف فترة عن غناء المنولوج !

زوج من الكناريا ··

وقد أعجب كامل الشناوى للغاية بهذه المعالجة الجيدة للموضوع الذى قصـد منه أن يكون مقلبا مدبرا لمندور فاذا به يحوله لمقال ممتع مفيد ·· وربما كانت هذه هى بداية الصداقة الحميمة التى ربطت بين كامل الشبناوى ومندور حتى توفيا فى سنة واحدة ·· واذكر من ملامح هذه الصداقة الواقعة التالية التى تدل على تفكير مندور بعمق فى صديقه كامل الشـناوى وتفهمه لطبيعته فعنـدما مرض كامل الشـناوى مرضه الأخير وادخل مستشفى قصر العينى ، تحير مندور فيما يمكن أن يأخذه له كهدية ·· ولأنه يعرف أن أصدقاء كامل كثيرون لابد انهم قد غطوا ردهات المستشفى بالزهور وملأوا الحجرة بالحلوى ، اختار أن تكون هديته لكامل زوجا من عصافير الكناريا ، تؤنسه فى وحدته عندما ينفض عنه الأصدقاء ويبقى بمفرده ليلا · يالها من فكرة شاعرية وانسانية متفهمة لطبيعة كامل الشناوى الشاعر والانسان معا ·· لقد كان كامل الشناوى كما ذكر عنه أخى يوسف الشريف فى كتابه (سيرة حياة كامل الشناوى آخر ظرفاء ذلك الزمان) يكره أن يقضى الليـل منفردا ·· وكان هذا الزوج من الكناريا بالفعل هو ما تبقى لكامل فى لياليه الأخيرة ·· وهذا يذكرنا ببغاء كزانزاكى الذى بقى مع شخصية (فيفا توبلبينو) بطلة قصة زوربا اليونانى حتى آخر حياتها ·

كان مندور صاحب صدر يتسع لكل المداعبات التى تصدر عن الكتاب تجاهه ‥ لأنه هو نفسه كان يصدر المداعبات فى جلساته وكتاباته ‥ أذكر أنه نشر يوما مقالا ضمنه رسائل تأييد له عن مقال سابق ‥ فما كان من الكاتب الساحر محمود السعدنى الا أن أفرد للدكتور مندور ملزمة فى مجلة صباح الخير ‥ لمداعبة مندور منطلقا من هذه المقالة ‥ قائلا لمندور انك بنشر رسائل القراء ‥ وكأنك تقول كما يقال فى المناسبات الزائفة ۰ (جامعة كفر البطيخ) فى دولة لوبيا تؤيد مندورا على مقالته ‥ أو أن (كرسى الزايط) يهنىء مندورا على مقالته القيمة ‥ عشرات من النكت المرسومة والمداعبات المنشورة ‥ جعلتنى على طرافتها اغضب من السعدنى الصديق بل أكاد أخاصمه ۰ وفى يوم كنا خارجين مع مندور من دار الاذاعة بعد تسجيل حديث ـ فلمحت السعدنى من بعيد ـ ولم أومىء برأسى لأحييه ، ولكن مندورا لمحه فسألنى : أليس القادم من هناك هو محمود السعدنى ؟ فأجبته بنعم وبنيتى اعلان مخاصمته ، فاذا بمندور ينادى السعدنى ضاحكا ليسأله (ولد يا محمود هل ما يزال كرسى الزايط يؤيدنى) وتعجبت من ضيق صدرى ورحابة صدر مندور ‥ تهلل محمود وجاء يصافح مندورا ۰ وهو منشرح بعفوه عنه ۰ فاحتضنه وقبله ، والتفت يصافحنى ، فقلت له : ليس قبل أن تقبل يد والدنا بابا مندور وعلنا كما هاجمته نشرا ۰ فوضع يده على يد مندور ـ كما هى طريقته عندما يعبر مشكلة شخصية ـ وصاح قائلا : يا ناس يالى فى الاذاعات العربية والعالمية ها هو محمود السعدنى يقبل يد عمه العظيم محمد مندور ثم قبل يده هو لا يد مندور ۰ وهكذا كانت نهاية الخلافات وسوء الفهم بين ظرفاء ذلك الزمان عبر مبادرات الصفح الجميل والدعابات !

لقد أعاد الى ذهنى هذا المشهد ‥ مشهدا آخر لمندور ‥ قبل هو فيه يد أستاذه ، ولكن بوجل وجدية ‥ كنت معه وأسرته فى دار الأوبرا (القديمة طبعا) نشاهد أوبرا عايدة حين سمعنا طرقا على باب البنوار ‥ ثم فتح وأطل علينا الأستاذ فريد شحاته سكرتير الدكتور طه حسين وأسر لمندور أن الدكتور طه هنا ويود لقاءك ۰

وطوال استمرار عرض الفصل الرابع والأخير وأنا أسترجع فى ذهنى الشريط الطويل الكابى ‥ الذى مر بمندور من يوم عاد الى فرنسا بدون تمكينه من الحصول على الدكتوراه ‥ وحسبت فى نفسى أن مندورا سوف لا يأبه لدعوة الدكتور طه ‥ وأننا سننطلق خارج الأوبرا ليشرح لى بابا مندور سبب عدم تلبية الدعوى ‥ و ۰

وما أن أضيئت أنوار الصالة حتى وجدت مندورا يستعجلنا كطفل ينبغى أن يهرع مع الأسرة لتحية الراعى حيث توجه للسلام على الدكتور

طه ٠٠ ولم أعرف طبيعة ما استقر فى نفس مندور فلقد حسبت أن آثار الأيام العصيبة التى عاناها من الدكتور جعلته يخشاه بحيث يصيبه هذا الوجل الطفولى ٠٠ ولكن ما أن وصلنا الى الاستراحة التى يجلس بهـا الدكتور طه وزوجته حتى وجدت مندورا ينكب على يده مقبلا ٠٠ والدكتور طه يمسح بيده على شعر مندور وهو يردد : انك يا مندور لأحب تلاميذى الى قلبى ولازلت ٠٠ ومندور يتشرب كلامه ويعب منه عبا وكأنه طفل برىء يشرب من بحيرة الحب الصافية ٠

ان هذا المشهد أثبت لى سماحة مندور ودلنى على أن قلبه الكبير قادر على نسيان كل ما هو محزن ويحتفظ بكل ما هو مفرح ٠٠ وأدركت كذلك لماذا كان مندور أستاذا كما كان تلميذا عظيما ٠ وهو الذى عاش مرحلة التلمذة بعمق ولذلك أصبح معلما بحق ٠

والأستاذية المشفوعة بالأبوه فى شخصية الدكتور مندور ليست سمة أحسها وحدى بل هى من أوضح السمات التى تتبدى فى شخصيته ، والتى تفرض نفسها على كل من يعرفه ٠ وبخاصة فى الجيل الذى تتلمذ عليه ، ونهل من علمه الوفير ومشاعره الفياضة ٠

كان الدكتور مندور شديد العطف والحب على أولاده الذين لم يلدهم ٠٠ عونا لكثير من تلامذته وغير تلامذته الذين لا يعرفهم خاصة اذا سمع أنهم فى حاجة الى عون معنـــوى أو مادى ٠٠ فكأنه كان يعنى أن العلم بلا عطف يضيع طريقه الى النفوس ٠٠

صديقى المشاكس دائما ٠٠

وقد استطاع عطف الدكتور مندور أن يستل العداوة من نفوس كثير من مخالفيه ويحيلها الى صداقة ٠٠ لقد كان يجتلب ود الناس بيسر وأصالة لأنه صاحب قلب كبير ٠٠ وهو نموذج نادر فى ذلك لا يتكرر فى أيامنا هذه ، ربما كان غيابه وراء هذا التخبط الذى يعيش فيه شباب الأدباء الذين يفتقدون الرعاية والتوجيه ٠٠ وكذا جمهور المثقفين الأدباء ٠٠ الذين يقرأون ويتابعون الندوات أو يشاهدون المسرح ولكن بلا معين حقيقى ومن جهد النقاد الذى ينير طريقهم الى الفهم وتنمية قدراتهم ورغباتهم فى التحصيل الثقافى والفنى الرفيع ويثبت خطوهم ٠

أذكر يوما كنا ندخل فى صحبة الدكتور مندور صحيفة الجمهورية فلمحت د٠ يوسف ادريس طالعا من المطبعة فرجع ، فعرفت أنه ما زال عاتبا على بابا مندور ، ولا يريد أن يصـافحه غضبا من نقده لمسرحيته المعروضة (اللحظة الحرجة) حيث عارض مندور بطل الدكتور يوسف الذى جعل اللحظة الحرجة لا تستنفره للمجابهة ٠٠ بل تحبطه وتمنعه من الاقدام على المعركة بحجة انغلاق الباب الذى يفصله عن أسرته (البورسعيدية)

التى تعرضت للعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وهو وراء الباب ٠٠ مع أنه يعلم أن الباب كان مفتوحا ٠

صعدنا ٠٠ وأملانى (بابا) افتتاحية اليوم التالى ٠٠ واذا بالدكتور يوسف يدخل علينا ٠٠ ينظر لمندور ويوجه الى الكلام : هل تعرفين لماذا عدت الى المطبعة ؟ قلت : نعم لأنك مازلت غاضبا من نقد الدكتور مندور لك ولذا فقد نزلت الى المطبعة لتتجنبه ٠٠ فالتفت يوسف ادريس الى مندور وهو يقول : نعم كنت غاضبا حقا ٠٠ ولكنى نزلت الى المطبعة لا تجنبا بل لأنى بمجرد أن رأيت مندور يهل على حتى تبخر غضبى عليه وعدت لأسحب مقالا هجوميا ـ كتبته ضده من بين فكى المطبعة ٠٠ ثم تعانقا ومندور يقول له : ياولد يا مجنون لا تجعل الخلاف فى الرأى يفسد للود قضية ٠

مع أن العكس هو الصحيح ٠٠ وأن اللحظة الحرجة تجعل الانسان أكثر شجاعة ، وتمثل بالبيت العربى الشهير :

فاذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

وقد روى الشاعر حسانى حسن عبد الله ـ وكان قد خاصم الدكتور مندور مخاصمة شديدة على صفحات مجلة الآداب حول رأى الدكتور فى تجديد عروض الشعر العربى ٠٠ وهو ـ حسانى ـ صاحب ديوان (عفت سكون النار) وكانت تنتمى الى موزون الشعر المقفى حيث روى على صفحات مجلة الرسالة بعد المعركة بعام ـ كيف لقيه بعد الاختصام ، كتلميذ له بمعهد الدراسات العربية فعرف من علمه الوفير أنه أخطأ الظن بعلم مندور الذى يفوق فحول الدراعمة فى هذا الميدان الشعرى !

قال : فى أول زيارة أهدى الى بعض كتبه وكتب على أحدها الى صديقى المشاكس سابقا ـ قلت : ربما تستمر المشاكسة يادكتور ! فتناول كتابا آخر وكتب فى اهدائه الى الصديق المشاكس لاحقا ! ثم استدرك قائلا : ولكن المهم أن تكون المشاكسة فى سبيل الحق ٠ وتناول كتابا ثالثا وكتب « الى الصديق المصر على المشاكسة فى سبيل الحق ٠

وهكذا كانت سماحة الدكتور ودعابته ـ ومن روحه الطيبة وسرعة بديهيته أنه كان يكتب اهداءات كتبه الى مريديه وغيرهم من وحى اللحظة التى هم فيها ٠٠ وأذكر أن الأستاذ الشاعر صلاح عبد الصبور كان يوما عنده وأخذا يطالعان فى جريدة (الأخبار) المعركة الدائرة بين صلاح والعقاد عام ٦١ حول الشعر الحديث وأصالته وكيف أحال العقاد هذا الشعر الى « لجنة النثر للاختصاص » بينما كتب صلاح مقالا تحت عنوان « والله العظيم موزون » وكان العقاد قد خاطبه بعبارة « سى عبده » وكان

الدكتور مندور قد صدر له كتاب جديد أهداه الى صلاح مسبوقا بعبارة العقاد سى عبده !

وهم يومذاك أن يكتب اهداء الى ، واتفق فى تلك اللحظة أن أبدت زوجته الشاعرة / السيدة ملك عبد العزيز اعجابها بثيابى أو شيئا من هذا القبيل •• فكان اهداؤه (الى ابنتى الرشيقة) ولكن السيدة ملك لفتت نظره الى أن كثيرا من الأدباء الأصدقاء يستعيرون كتبه منى ، فاستدرك ولم يتراجع مكملا كتابته (الى ابنتى الرشيقة أدبيا) !

حجازى يرد على الشرقاوى ••

ولأن مندورا كان لا يدع للخلاف فى الرأى أن يفسد للود قضية •• فانه حتى لو غاب عنه أن يدفع بمن لا يأخذون بهذا المبدأ تجاهه •• فان غيره كان يقوم بهذا الدور نيابة عنه بحب ، أذكر يوم صدور رواية يوسف السباعى (طريق العودة) عام ٥٨ وهى عن حرب السويس •• كتب مندور نقدا يسأل فيه يوسف السباعى ــ وهو من الروائيين الذين يكتبون وعين على القلم والأخرى على عدسات السينما ــ لماذا صور أبطاله بهذه الخفة •• ولماذا جعلهم على كل هذا القدر من الاستهانة بالقضية •• وكيف يستطيع ضابط فى حرب كهذه كانت لها آثار بعيدة على الصعيد الوطنى والقومى والدولى •• يقسم وقته بين عشيقته وقضيته المقدسة •

كتب يوسف السباعى ردا عنيفا على مندور •• تلاه نقد أكثر التهابا من الأستاذ الشاعر عبد الرحمن الشرقاوى •• اتهم فيه مندورا بأنه أعمى يدعى الابصار •• وجاهل يدعى الثقافة و •• و ، دفاعا عن يوسف السباعى ، رئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب •

يومها كان الاثنين الذى وافق عيد شم النسيم • وعيد الفصح ، وكنا قد عزمنا قبل ذلك أن نذهب الى أسرة مندور فى منيا القمح •• دخلت صالة بيت مندور •• فوجدته ساهما فسألته ؟ فأعطانى المقال فقرأته وغضبت وأشرت بضرورة الرد عليه •• فردد فى أسى بيتى ابن المعتز :

لى صاحب ان غبت يأكلنى وان رآنى فى الندى سجد
كم قد هممت بأن أعاتبه فما وجد العتاب أحدا

وفى ذلك اليوم أصر مندور على أن نقوم برحلتنا الى بلدته ولا يقطع علينا نزهتنا التى تهيأنا لها فانطلقنا الى كفر مندور حيث آنسته مشاعر البنوة وتقبيل والده له •• وتقبيله هو ليد والدته ــ التى يشبهها كثيرا بأحد أحفادهــا ــ عندما اندفعت للسلام عليه وهى تدعو له بأن يكون مثل عمه محمد دكتورا عظيما يسقط الوزارة ويقيمها بكلمته وقلمه ••

طافت به لمحة حزن وكأنه يقول لنفسه : (كان زمان) ، ولكن مشاعر الحزن زالت بمجرد تقبيله لابن أخيه ٠٠ فطلبت منه أن يبر بوعده في أن يطلعني على مرتع طفولته ٠٠ فقام ٠٠ وقمنا نسير وراءه ٠٠ فأشار قائلا : على عتبة هذه القاعة ولدت حيث كان يوم الخبيز ٠٠ هذا هو سـطح البيت الذى كنت أختبىء فيه لأقرأ بعيدا عن عين والدى الذى كان يخاف على عيناى من كثرة القراءة ٠٠ أنا الذى زرعت هذه الشجرة بعد أول درس تلقيته في فلاحة البساتين ٠٠ كل هذا ووالده يهز رأسه بالموافقة ٠

وفي يوم الاثنين التالى وعلى صفحات جريدة الشعب عام ٥٨ وفي نفس مكان مقال الشرقاوى نشر الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى (ثلاثة وعشرين عاما) آنذاك ـ قصـيدة بعنوان (دفاع عن الكلمة) موجهـة « الى من ماتت كلماتهم ، لأن ضمائرهم ماتت ! » وبنفس وضعه كشاعر مبتدىء ٠٠ استعمل فيها قاموس الشاعر الكبير الذى يهاجمه دفاعا عن مندور ٠٠ أقطف منها المقطعين :

« فخـر »
أنا أصغر فرسان الكلمة
لكنى سوف أزاحم من علمنى لعب السيف
من علمنى تلوين الحرف
سأمر عليه ممتطيا صهوة فرسى
لن أترجل ،
لن يأخذنى الخوف
فأنا الأصغر ، لم أعرف بعد مصاحبة الأمراء
لم أتعلم خلق الندماء
لم أبع الكلمة بالذهب اللألاء ٠
ما جربت السيف على أصحابى ، فرسان الكلمة
لم أخلع لقب الفارس يوما ،
فوق أمير أبكم !

أما عن قاموس الشرقاوى الشعرى فيقول حجازى :

« المبارزة »
هأنذا ألقى فى ثقة بسلامى ،
من طرف حسامى !
هأنذا أبرز لشهير ، أعرف اسمه
أنا مجهول الاسم ، ولكنى أخلع قفازى ،

أقذفه في وجه الخائن لا أعبأ
أدفع في بطن الفرس بمهمازي ،
وأكيل الضرب ، ولا أهدأ
باسم الأرض الخضراء
باسم قرى غنيناها ، باسم الانسان
تلك الكلمات الحلوة ماتت في شفة الخائن
ما عادت فصحى
ما عادت تعصف بالقراء
ما عادت تلد الجرحا
والسيف اذا دخل المعركة الخاسرة تبلد
صار عصا في كف الملحد
وا أسفاه !
انى أبكى ماضيه ، أشفق من حاضره الأسود
انى أرثى اسمه ٠٠٠٠٠

اصلاح المسرح الكوميدى ٠٠

كان الحزن ينتاب مندورا ، عندما يجد انسانا ينشق عن كل مبادىء الانسانية فى سبيل هدف عابر ٠٠ أو مصلحة شخصية وقد مات مندور بسبب همه وكمده هذا ٠٠ فعندما عهد اليه الدكتور عبد القادر حاتم ، وكان وزيرا للثقافة والاعلام سنة ١٩٦٥ مهمة اصلاح المسرح الكوميدى ٠٠ وعجز مندور عن ذلك ٠٠ لأنه كلما أحكم سيطرته على النص ٠٠ واقتدر على عدم خروج الممثلين عليه ٠٠ فان الممثل حينما يجد نفسه على خشبة المسرح ويتجاوب معه جمهور المشاهدين سرعان ما يميل الى اصطناع الحركات المضحكة المسفة والعبارات الفجة التى تخرج عن روح النص ، ولذلك آثر مندور الانسحاب من هذه المهمة التى رأى أنها لن تصل الى نتيجة مثمرة ، فنشر مقالا بهذا المعنى على صفحات جريدة الجمهورية ٠ تحت عنوان (يأست من اصلاح المسرح الكوميدى) ٠٠ وأغضب هذا المقال المسؤولين فى وزارة الثقافة ورفضوا أن يسمعوا من مندور الأسباب التى دعته لهذا الحكم على المسرح الكوميدى مما أحكم دائرة الحزن حول مندور الذى مرت بحياته الكثير من المشاكل ـ فى التعليم ، والسياسة ، والمحاماة ـ وكان يظن أنه سيجد راحته فى مجال الفن فاذا به يجده مليئا بالمشاكل أيضا ، وكان حزن مندور على هذا الموقف هو الذي جعله هدفا للذبحة الصدرية اللعينة التى هدت كيانه والزمته بيته ٠ ابتداء من يوم ٨ مايو ١٩٦٥ ٠

وكنت كلما جلست اليه فى هذه الأيام وتطرق الحديث حول ردود فعل مرضه على أصدقائه وموقفهم كان يسألنى هل مازال لى نفع ! وعندما كنت أغضب كان يشير على بأن نكمل ما كنا قد أجلناه من مراجعة كتاب

الكلمات (لسارتر) ترجمه الدكتور خليل صابات .. وكنت أريد أن أعتذر عن هذا المهمة لكي اريحه من عناء مرضه ولكني ترددت في الاعتذار لسببين أولهما أني كنت قد تخرجت وعينت موظفه ، وخفت أن يفسر بابا مندور رفضي للقراءة والكتابة له بأنني لم أعد تلميذته الأثيرة كما كنت ولم يصبح له دلال علي . والسبب الثاني أن السيدة ملك عبد العزيز رفضت اعتذاري لأنها خشيت أن يفسره مندور بأن حالته المرضية خطيرة فيفزع على صحته .

جلست أقرأ له الترجمة العربية لـ « الكلمات » وهي عن طفولة سارتر والسرد فيها متداخـل متشابك متقاطـع ، وهو يمسك بالنص الفرنسي لضاهاته بالترجمة .. وكانت حروف الكتابة بالفرنسية دقيقـة بحيث استدعت استعماله لعدسة مكبرة مع أنه يلبس النظارة .. واستمرت هذه العمليـة أكثر من سـاعة .. ووجدت أنها تتطلب جهدا ومشـقة مما لا يتناسب مع الذبحة الصدرية اللعينـة التي أصابته .. ولحسن الحظ أو عكسه دق جرس البـاب ودخل الدكتور علي الراعي لعيادته فتنفست الصعداء لأننا سنترك القراءة المرهقة لفترة .. وسأل مندور علي الراعي : ما هي أخباري عندكم ـ يقصد في وزارة الثقافة ـ فقال الدكتور علي الراعي بواقعيته المفرطة : اليوم صدرت توصية بألا تظهر صورتك في التلفزيون أو صوتك في الاذاعة و .. و ثم غادر الدكتور علي بعد فترة . ولكي أنسيه التفكير في هذه الأفكار المزعجة اقترحت عليه استراحة من مراجعة الكلمات ، أقرأ له فيها صفحات الجرائد والمجلات وأغفلت عن عمد مطالعة مجلة الاذاعة . فقد كان بها موضوع تحت عنوان (لا يا دكتور مندور) بقلم محمد جلال فتصورت من هذا العنوان أن المقال يهاجم بابا مندور في وقت هو أحوج ما يكون فيه الى التأييد والرعاية ، ولكنه أصر على أن أقرأها . وما أن بدأت في قراءة هذا المقال حتى وجدت الكاتب يعاتب الدكتور مندور على قولته من انه (يأس من اصلاح المسرح الكوميدي) ، ويتعجب من أن كلمة (يأس) الغريبة على قاموس مندور قد وردت في خاطره وعلى سن قلمه .. وهو الذي خاض أشد المعارك وأعنفها ضراوة ضد الامتيازات الأجنبية في مصر . وضد معاهدة صدقي ـ بيفن ومع الوفد تارة وضده تارة أخرى وفي كل المجالات الأدبية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ويدعوه محمد جلال في آخـر المقال للمضي في طـريق النضـال ويناشده بالاصرار عليه .

تهلل مندور وأبديت موافقتي للكاتب على رأيه .. وذكرت بابا مندور بأقواله عن نفسه وأنه دوما مثل الكرة كلما اشتد الضغط عليها

زادت قفزتها واندفاعها الى أعلى ٠٠ سألنى مندور يومها عن انتاج الأستاذ محمد جلال من القصص والروايات التى لم يقرأها ليكتب عنها (لأنه انسان لم تغره موجة الهجوم على والتنكر لى) ٠

ورغم هذه العبارة المتفائلة التى أراد بها مندور الارتفاع فوق الأحداث الا أنها كانت متناقضة مع ما يشعر به من دنو الأجل ٠ وما كان يقوله من تلميحات عن موته ٠٠ فطوال هذه السنة الأخيرة كنت عندما أعود معه الى منزله ونجد بالصدفة سرادقا ، يلتفت الى مداعبا : ألا تلاحظين أن سرادق المتوفى يقترب شهر بعد شهر نحو منزلى ، الظاهر المأتم القادم سيكون لى ٠٠ كنت أفزع من هذا الخاطر الذى ألم به وأضرب الأرض بقدمى وأجهش بالبكاء ٠ ويضحك هو مواصلا سخريته المرة ٠٠ فيغيظنى قائلا [(ان أبو طوالة) اسم مدافن عائلة مندور قرب منيا القمح] تنادينى يا عايده ٠

ولكى أجعله يكف عن هذه الفكاهة السوداء ، كنت أقول له بأننى سوف أكتب مقالا عن دراما حياة مندور التى بدأت بحلم الطفولة فى أن يكون وكيلا للنيابة ثم انتهت بالسياسة ثم بالفن وسأنهيه بقولى : وهكذا بدأ مندور علمانيا وانتهى قدريا ٠٠٠ فيضحك لكلامى ويحاكيه بسخرية مجيبة « حجر حجنجر ٠٠ فى البحر ينجر » !

قضيت معه جزءا من مساء تلك الليلة الأخيرة ٠٠٠ وغافلته منفلتة حتى أتركه يستريح ٠٠ وما أن وصلت الى بيت صديقة تجاورنى ابثها شجنى وأساى على ما أستشفه من خطورة حالة بابا مندور ٠٠ الا ووجدت أخى الصغير صالح شريف المخرج بالتليفزيون يلحق بى ليخبرنى بالكارثة التى وقعت بغروب شمس حياة بابا مندور ، ولا أعرف كيف جريت فى شوارع الروضة حتى وصلت الى منزله ولا كيف انهرت على جثمانه باكية ٠٠ كل من حولى يشدنى بعيدا لأن التعبير بهذه الطريقة لا يجدى ٠٠ وأقامونى لأستند الى جدار وما زلت بجانب هذا الجدار الى يومنا هذا ٠٠ لقد كان مندور وحده هو الذى يبدد أحرج مشكلاتى ويجعلنى أرى النجوم ، وتشرق فى نفسى الآمال ٠٠ كنت أهرع اليه كلما أظلمت الدنيا فى وجهى وأحاطت بى مشكلات الحياة واخال أنها تخنقنى كأخطبوط وبعد لحظات مع بابا مندور لا أكثر ٠٠ يكون الهم قد انزاح عنى ٠

أتذكر أيام الامتحانات العصيبة ٠٠ وكنت أمتحن صباحا بكلية الحقوق ومساء بالمعهد ، ليس لدى وقت للشكوى والتنفيس ومع ذلك أجد قدماى تصعد بى حيث بابا مندور ٠٠ أقول له محزونة أننى لم أجب اليوم كما ينبغى عن أسئلة القانون الرومانى ٠

وفي بساطة ساحرة ، ينساب رده : كلنا لم نجب كما ينبغي في أول عام عن أسئلة القانون الروماني ٠٠ وتتلاشى غمتي مع نهاية كلمته ٠٠ وأجد صفحة نفسي قد صفت دون كدر ٠٠ وبعدها وقت امتحان المعهد قد يصطحبني معه في عربته لأداء امتحان المعهد ٠٠ وأجيب على الأسئلة كما لم أكن أتصور أن أجيب ٠

لكل ذلك أقول ٠٠ أنه اذا كان د٠ لويس عوض قال : ان مندورا هو الذي عمق احساسي بالجمال وقوى التفاتي الى الجانب الشكلي في الآداب والفنون ٠٠ أقول ان شغفي بالابوة العائدة المتمثلة في شخصه ٠٠ نقلت خواطري من العقل المتردد الى الاقدام والتقدم ٠٠ نعم كنت أضبط قدماي ساعية بي الى بابا مندور ، دون أن أفكر في ذلك أو أتدبر له ٠ أسائلها كيف عرفت الطريق وعقلي عنه شارد ٠٠

مرضت قدماي الآن وتعثرت طريقها ٠٠ لأني أحيا نفس المشكلات لكن الى أين تذهب بي قدماي ومندور لم يعد في عالمنا الآن الا بفكره الأصيل ٠

لقد كنت يوم حدثت هذه الفاجعة أعمل مع الأستاذ نجيب محفوظ في لجنة القراءة بمؤسسة السينما ٠٠ وكان يعرف شدة ارتباطي بمندور ٠٠ وناداني ليسألني عن ظروف وفاته وهو ما زال في سن السادسة والخمسين ٠

فحكيت له عن اصابته بالذبحة ٠٠ وما كان يفعله ويمارسه خلالها من نشاط وما تصل اليه من أخبار معاركه الأدبية والرسمية ٠

فقال نجيب محفوظ متحسرا !! لقد عالجتم الذبحة كما لو كانت انفلونزا ٠

ومن العجيب أن تمر كل هذه السنوات الطوال على وفاة مندور ولا يتذكره بعد طول نسيان أحد من مفكرينا ودارسينا وعلمائنا في مصر أو المشرق العربي بدراسة متوسعة عن هذا الأستاذ العالم الموسوعي ٠٠ ولكن الله هيأ له شابا من خيرة مثقفي المغرب وهب سنوات شبابه في اعداد رسالته للدكتوراه عن مندور ، ويسجلها في جامعة (السوربون) ـ التي أعيد مندور من بعثته لها ـ ويحصل عليها بتفوق ٠٠ ذلك المثقف الشاب هو الدكتور محمد برادة ، وكانت رسالته بعنوان « محمد مندور وتنظير النقد العربي » ٠٠ وقد نشرتها مؤخرا دار الآداب البيروتية ٠

(مجلة الدوحة) القطرية ٠٠ يوليو ١٩٨٠

محمود محمد شاكر

شيخ العربية

ثلاث حركات تلك التي يسلكها الانسان اذا حالت دون رؤيته أفق الشمس الساطعة جبال شماء . فهو اما أن يدور حولها دون أن يجابهها حتى يحقق مطلبه أو ينصهر ليصبح جزءا من هذا الجبل فيرى بعينه ما يراه .. أو يستجمع قواه مرة تلو أخرى ليقذف بنفسه هذا الجبل فيجد لها منفذا .

والحركة الأخيرة هي التي اختارها رجلنا الذى نكتب عنه العلامة الكاتب المحقق والشاعر محمود محمد شاكر ، ذلك لأن عبقريته كما هي عبقرية أقرانه من أبناء جيله بدءا من على أدهم الى عبد الرحمن صدقى قد ولدت وساحة الفكر مليئة بأعمدة سامقة : العقاد ، طه حسين ، المازني ، الحكيم ، مصطفى صادق الرافعي ، مستهدية بشمس زعيم فذ هو سعد زغلول .. فكان أن يمم أدهم ليتخطاهم وذاب صدقي في العقاد وصولا ، أما شاكر فكون نفسه .. وتكثف وتعمق حتى استطاع أن يقذف أحد هذه الأعمدة وهو الدكتور طه حسين بحجر أصاب مرماه ..

هذا هو العالم الذى صورته ورسمت لى خطوطه الأولى وملامحه ، الكتب التي تناولت المعارك الأدبية التي لم أعاصرها لأنها قامت فى النصف الأول من هذا القرن ، مثل كتاب « المعارك الأدبية » للأستاذ أنور الجندى ، والكتب التي قدم لها علامتنا مثل كتاب « حياة الرافعى » للمرحوم محمود سعيد العريان ، « الظاهرة القرآنية » للمفكر الجزائرى المرحوم مالك ابن نبى ..

وقد عرفته من خلال هذا وذلك كاتبا شاعرا ، محققا ثم مؤرخا من خلال مقالاته التى كتبهـا بمجلة الرسـالة عن وحدة مصر والسودان ، أما المفاجأة التى لم أكن أتوقعهـا فهى الناحية السـياسية أو الجانب السياسى الذى اكتشفته من خلال الوثائق التى نشرتها مجلة الطليعـة المصرية والخاصة ببرنامج الحزب الوطنى الجديد لفتحى رضوان وكانت بتوقيع محمود محمد شاكر · وفيها وجدت أنها تضم أول برنامج لحزب سياسى يشار فيه الى تملك الدولة لوسائل الانتاج ·

وقبل ذلك وبعده ·· فقـد تأكد لى أننى أمام شخصية فذة ، وان كانت الكلمات ، التى تتردد عنه على شفاة شعراء وأدباء ·· وعلى ألسنة علماء كثيرين هنا وفى العالم العربى والاسلامى ·· تلقى فى النفس شيئا من الرهبة المبهمة ، عن عالم مغترب حاد التوهج ، لاذع النبرة ، قوى الحجة دائما ·· يقف عملاقا ·· مدافعا عن العرب والاسلام الى آخر مدى !

كل هذا جعلنى أشفق على نفسى من لقائه ·· فقـد قال لى المفكر الجزائرى مالك بن نبى : أنه لو وجد الجاحظ الآن ـ لترك مكانه عن طيب خاطر لمحمود شاكر ·· ولخص لى الدكتور عبد الله الطيب المفكر السودانى رأيه فى ثلاث كلمات انه ··· ضمير لعـروبة مصر ·· وأكد لى العـالم السعودى عبد الله عسيلان : انه ارث العدالة الاسلامية المعاصرة وأنه القلعة والنبراس الذى يهتدى به ·

ولما كنت أيام شغفى بمعرفة هذه الشخصية موظفة لدى الأستاذ نجيب محفوظ فقـد سـألته ذات يوم : هل التقيت بمحمود محمـد شاكر ؟ فقال أنه ـ أى شاكر ـ كان فى زيارة زميلى الأستاذ يحيى حقى أيام كنا نعمل بمصلحة الفنون ، وعندما رحت أصافحه ·· استقبلنى متهللا وهو يقول : نجيب بقيت لك خطوتان وتكتب العربية الفصحى ·· ثم دعانى لزيارته ·· ولكن ظروفى لم تسمح بذلك ·

وقد عشت أتخيل هذا العالم لسنوات طوال لأنه كان فى هذه الفترة من اهتمـامى ·· معتزلا الكتابة لفترة طويلة امتدت من عـام ١٩٥٢ ـ ١٩٦٤ ، وكان قبلها قد اعتزل المجتمع ، وقد عثرت على أسباب اعتزاله المجتمع كما دونها فى أحد كتبه :

« عشت أكثر من أربعين سنة ، وأنا أجاهد هذه الحياة التى أحاطت بى منذ ولدت ، وأبيت أن أقبلها على علاتها ، لأنى منذ بدأت أعقل ما أنا فيه ، رأيتنى أنشأ فى قطيع يساق الى المجزرة ، وهو فرح بها نشوان : رأيت مجتمعا يتمزق وهو ينشق عن كل تاريخه الماضى ·· بخطاطيف قد علقت بلحمه ·· تجذبه من هنا وهنا وهناك ، لا تكاد تدركها الأبصار ،

ولكنها على ذلك خطاطيف ، كنت أجد مغرزها فى لحمى ، وأحس بجذبها فى وجدانى ، يومئذ فزعت فزعا لا يطيق القلم أن يصوره فى أسطر » .

أما عندما نحى القلم من بين أصابعه فقد قال : ليس حسنا أن يعزل كاتب قلمه ، ولكن هذا قدر الله على أن أفعل ، فنحيته عن أناملى لكى أفرغ للقراءة والتفكير .

لكنه فجأة أمسك بالقلم وشرع الى الكتابة من جديد ، يشق به شرنقة الاعتكاف ، ويرد على مقالات الدكتور لويس عوض « على هامش الغفران .. شىء من التاريخ » التى نشرت فى الأهرام سنة ١٩٤٦ .

خلال هذه الفترة .. جلست لأستاذى الكبير المرحوم الدكتور مندور ليملى على مقاله يناشد فيها « الأستاذ محمود شاكر » أن يخفف من حدته فيما يكتبه عن د/ لويس عوض ، ويذكره بعهد الزمالة ورفقة القلم ، وهنا استأذنت أستاذى مندور فى وقفة .. لأعرف شيئا عن هذه الزمالة . فأخبرنى بأنهما ــ شاكر ومندور ــ كانا زميلين فى كلية الآداب ، لكنه تركها بعد احتدام الخلاف بينه وبين الدكتور طه حسين حول منهج دراسة الأدب العربى ، والشعر الجاهلى خاصة ــ كان رأى الدكتور طه هو تعميم الشك فى الشعر الجاهلى وكل ما قيل عن الحياة العربية قبل الاسلام ، وكان رأى شاكر ــ الطالب فى ذلك الوقت ــ هو البدء بدراسة النصوص ذاتها ، ومحاولة ادراك صحتها أو بطلانها من خلال فحص النصوص من الداخل ، وذلك قبل طرح قضية الشك فيها .

وهنا سألت مرة أخرى ، كيف يتصدى التلميذ لأستاذه ، بهذا المنطق العلمى ؟ وبهذه الغيرة المحمودة على العرب ؟ فقال وبصوته شىء من التوريه : انه أصغر أولاد الشيخ محمد شاكر .. ثم سكت .

ودفعنى هذا الغموض الى البحث عن سيرة الأب نفسه .. فوجدت بالموسوعة العربية الميسرة شيئا عنه : محمد شاكر ١٨٦٦ : ١٩٣٩ عالم دينى وقاض مصرى ، ولد بجرجا وتعلم بالأزهر .. شغل منصب قاضى قضاة السودان أربعة أعوام ، ثم عين شيخا لعلماء الاسكندرية فوكيلا للأزهر . وكان من هيئة كبار العلماء ومن أعضاء الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ ، ناصر الحركة الوطنية أيام سعد زغلول ، له مؤلفات وبحوث كثيرة منها (الايضاح لمتن ايساغوجى) ، (من الحماية الى السيادة) ، « القول الفصل » .

وقد وصف شاكر نفسه نشأته فى أحد كتبه فقال : « كان مما قدر الله أن أفتح عينى على ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، وعلى دار تموج بالثوار ، فعقلت من الأمر يومئذ ما عقلت ، ورأيت بعينى رجالا وسمعت بأذنى

آراء ، ورضيت بقلبي أو سخطت ، وأعانتني فطرتي بضرب من التمييز . كان يرج نفسي رجا شديدا وأنا بعد في غضارة الصبا ولم أكد حتى انطلقت أجوب مجتمعا يفور بالمتناقضات ويتشقق بالصراع المر في ميادين مختلفة ، من الدين الى العلم الى الأدب الى الفن الى السياسة .. الى السنن الموروثة . فخضت محنة زماني في أول نشأتي بنفس غضة مجرحة بالتجارب ، وعلمت من أسرار الصراع ما لم أكن أعلم .

وعندما التحق شاكر بأول دور التعليم .. كان جيل « دنلوب » وزير معارف مصر أيام الاحتلال قد انتشر واستوى على سوقه ، وتولى هذا الجيل تعليمهم وصار له رأى ظاهر في سياسة بلاده ، فلما انفجر الأمر انفجارا ووقع النزاع بين الفطرة السليمة التي تسكن في قلوب الشعوب وبين الثقافة المجتلبة التي تضرب على الأعين غشاوة وعلى القلوب سدا صفيقا من الجهل والغطرسة ، قامت ثورة ١٩١٩ بيد أن هذا الصراع فهم على غير وجهه الصحيح ، لأن مهارة المستعمر ودسائسه الخفية ومكره البعيد الغور جعل ظاهر الأمر صراعا بين أحزاب تريد أن تتولى الحكم ، تحت سلطان هذا المستعمر ، مع أن هذا الصراع في الحقيقة ، كان صراعا بين حضارتين ، طال بينهما الصراع دهورا طوالا . وكان صراعا بين العرب ودينهم وآدابهم وثقافتهم وبين أعاجم أوربا ودينهم وثقافتهم .

هكذا نشأ الفتى في تلك البيئة الاسلامية العربية الأصيلة ، يشده اليها ويقربه منها استعداد شخصي يتبلور في الشغف والنهم في كل ما يتعلق بالقراءة والتحصيل ، وقدره على الاستيعاب .. حتى انه كان يتوجه الى دروس الأزهر بعد الفراغ من دروس المدرسة الأميرية الملتحق بها . وكان بالقسم العلمي .. وقد مثل اختياره للقسم مشكلة بعد ذلك .. عندما رغب في الدخول الى كلية الآداب .. ولكن الدكتور طه حسين عميد الكلية آن ذاك تمكن باقتدار من اقناع لطفي السيد مدير الجامعة بالحاقه بكلية الآداب فهو مدرك لعبقرية اللغة .. بعد قراءة « لسان العرب » ، واعادة قراءة كتاب الأغاني مرات ومرات .. بجانب قراءته الواسعة في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ مما أهله لأن يعرف طريق النشر ، ويصبح اسما معروفا قبل التحاقه بالجامعة من خلال بحوثه وتحقيقاته وقصائده .

عندما دخل الفتى اذا الى الجامعة .. دخلها ومعه ثورة الشباب وأحلامه وتهاويله دخلها ومعه كل ما قرأه وسمعه من أدب أمته وتاريخها وأخلاق علمائها وعظمة رجالها .. دخلها ومعه أيضا كل ما كتبه المستشرقون مرجليوت ــ نيلينو ــ جويدى في الشعر الجاهلي . ولكنه عندما سمع

مصغيا الى أستاذه الدكتور طه حسين .. وهيبة الأستاذية تملأ قلبه يردد كلماته التى تشكك فى الشعر الجاهلى .. لم تأسره هذه الكلمات .. بل انقبض قلبه وانبسط . وطفا متن مرجليوت كتابا مفتوحا .. يقرأ المتن بعينه ويسمع الحاشية على المتن بأذنيه ، ولكنها حاشية من نوع مبتكر مبتدع جديد ، مباين للحواشى التى كانت مألوفة يومئذ عند طلبة الأزهر . وتعجب الطالب لعدم ذكر الدكتور طه مرجليوت ولو مرة واحدة على لسانه حتى ينجو من هذا الغول الذى أصبح جاره ، كلما تكلم الدكتور طه فى هذا الموضوع .. لقد أخذته الحيرة مبلغا حتى لم تدع له ولا لقلبه سكينة ، فيسار على الجمر حافيا .. ماذا يفعل ، هو طالب فى السابعة عشرة من عمره ، والدكتور طه فى السابعة والثلاثين من عمره أستاذ وله أبهته وهيبته .. ودارت الأيام والطالب شاكر يغدو ويروح الى الجامعة يسمع يوما بعد يوم وحقيقة معنى الجامعة فى نفسه وهو يتقوض يريد أن ينقض .. وفى خلال ذلك وجد نفسه يقف مجادلا الدكتور طه فى المنهج والشك ، وضرورة فحص النصوص الجاهلية قبل الحكم عليها بالانتحال والوضع أو أنها من الشعر الاسلامى صاغه الرواة فى صدر الاسلام .. وحينما انتهره الدكتور طه ثم استدعاه فعاتبه .. كان جميع الطلبة قد انفضوا عنه الا طالبا من قسم الفلسفة هو محمود الخضيرى : عند ذلك عرفت لم كانت تنويهات الدكتور مندور يوم سألته عن شاكر .

ودارت الأيام وصليل المعاول وهى تضرب فى معنى الجامعة يتردد فى نفسه ــ ويسمع هدة انهيارها .. وبغتة تهاوى كل شىء وهلكت قدرته على الصبر فانقطع عن الدراسة ، واستحضر عزيمته على أن يهجر مصر كلها لا الجامعة وحدها .. غير مبال باتمام دراسته الجامعية .. وعزم على أن يسافر الى مكة والمدينة طلبا للعزلة وتلمسا للحقيقة .. ولم يفلح فى اعادته اليها أستاذه المستشرق نيلينو .. الذى كان يعرف كم هو على حق .. بل انه رد عليه : نعم أنا مقتنع بكل ما تقوله عنى وعن تسرعى وتهورى ومخاطرتى بمستقبلى ، ولكنى لم أكن كما وصفت الا لشىء واحد ، هو أن معنى الجامعة فى نفسى قد أصبح انقاضا وركاما . فان استطعت أن تعيد لى البناء كما كان ، فأنا أول ساكن يدخله لا يفارقه .. وجم نلينو وهو يردد بدهشة : ما هذه الجرأة .. ماذا يعنى هذا الفتى وتحولت الى شاكر انظار الموجودين فى مجلس والده .. وأحس بنظرات عيونهم تنفذ كالسهام فى جميع أعضائه .. وما هى الا لحظات الا وعلق الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله « مؤلف كتاب قصص الأنبياء » الذى استغله أغلب كتاب العربية بقوله : « ان هذا الفتى كان فى رأسه أربعة وعشرون برجا ، فطارت ولم يبق الا برج واحد ، عسى أن ينتفع به يوما ما ، فيسترد الأبراج التى طارت ! » .

وبعد يومين كان شاكر على ظهر الباخرة التي أقلته الى جدة ، فنزلها وشد الرحال الى بيت الله الحرام ، فأدى عمرته ثم عاد الى جدة بعد أيام ، فوجد أول رسالة تلقاها من أبيه ٠٠ وفي آخرها يقول : « زارني في عصر اليوم الذي سافرت فيه الى السويس ، الأستاذ نلينو والدكتور طه حسين، ولم يزد على ذلك شيئا وختم الرسالة ٠

لقد كانت أحد دوافعه عندما ولى وجهه شطر الأراضي الحجازية أن يعيش هذا الجو العربي الاسلامي على الطبيعة وأن يدرس عن قرب طريق النجاة لأمته من خلال استوثاقه لرأيه في الشعر الجاهلي ٠٠ وعاش هناك سنوات كأول ناظر لمدرسة جدة الابتدائية ٠ وهو في التاسعة عشر من عمره ٠

وهكذا نجد أن رجلنا لم يستسلم لظروفه ودرجته العلمية ٠٠ بل انطلق بجرأة يسابق الزمن ، وكأن لسان حاله يقول ٠٠ اذا كان العمالقة ينظرون الى الأبعد ، فان التحليق فوق هاماتهم ، ستجعل الرؤية أثقب والتحديق أشد وأنفذ !

واذا كان قد شارك في صنع شمس عصره وزعيمها سعد زغلول تجارب انسانية وثورة شعبية كثورة ١٩١٩ ، فانه قد شارك في صنع بعض أعمدتها الفكرية ــ كطه حسين مثلا ــ ملامح شخصية سلطت عليها أضواء وألوان وأصباغ ومؤثرات صوتية فانحصر همهم في خلق انطباعات وليس توليد قناعات ٠

وها هو علامتنا يحزم حقائبه ويعود الى أرض الوطن عندما ظهرت قضية تتعلق بمستقبل الثقافة العربية كلها متمثلة في دعوة « عبد العزيز باشا فهمي » لكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ــ كما حدث في تركيا ــ كمال أتاتورك ــ فخاض شاكر معركة من أعنف معاركه وأشدها ضراوة ضد أنصار هذه الدعوة ، دفاعا عن العربية حتى وئدت هذه الدعوة وسكت أصحابها والمتحمسون لها ٠

واندمج علامتنا في الوسط الأدبي ، وخالط أدباء وشعراء ذلك الجيل ابتداء من أمير الشعراء شوقي ، الذي كان يلازمه أياما وليالي طويلة ، الى أبناء جيله ، يحيى حقي ومحمود حسن اسماعيل وصديقه العقاد وزكي نجيب محمود وغيرهم وغيرهم كثير ، وتفرغ للكتابة في الصحف والمجلات الأدبية ٠٠ مثل الرسالة ، والثقافة والمقتطف والبلاغ والزمان ، ولم تصرفه المقالات المتتابعة عن مواصلة العمل في جانب من أهم جوانب حياته ، وهو نشر روائع التراث بتحقيق علمي وفق منهج مستقل معروف عنه تلقاه العلماء بتقدير عظيم وثناء جميل !

ولكن هل تسير الأمور هادئة ؟ لا فكلما أوغلنا فى عالم (شاكر) سوف نكتشف أن حياة هذا المفكر ٠٠ ما هى الا سلسلة متصلة من المعارك الصاخبة ٠٠ فعندما أفردت له المقتطف عـددا خاصـا بمناسبة مرور ألف عام على وفاة (المتنبى) كتب أول دراسـة لشخصية الشاعر من خلال آثاره الشعرية ، واعتبرت فيما بعد مرجعا أساسيا لدراسة شعر المتنبى ٠٠ كما رأينا ذلك فى جميع الكتب التى ظهرت بعد ذلك عن هذا الشاعر وعلى الأخص كتاب الدكتور عبد الوهاب عزام ثم كتاب الأستاذ الشاعر القطرى « ابراهيم العريض ، غير أن هذه الدراسـة قد أثارت معركة جـديدة بينه وبين طـه حسين ، حيث أصـدر الدكتور طـه كتـابه « مع المتنبى » بعد عام واحـد ٠٠ ليرتفع الجدل والنقاش بين الاثنين مرة أخرى ، حول شخصية الشاعر العباسى العظيم ، وقضية الشعر العربى بوجه عام ، وكان شاكر فى السادسة والعشرين من عمره ، وقد أعاد طبع هذه الدراسة مرة أخرى عام ١٩٧٧ مع اضافة جميع مناقشاته مع الدكتور طه حسين وغيره التى كانت سببا فى فتح ملف هذا الجدل مرة خرى ، فلقد كتب الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة فى سبتمبر عام ١٩٧٨ يوازن بين كتـاب المتنبى للدكتـور طه حسين وكتاب المتنبى للأستاذ محمود شاكر فقال معلقا : فانه لشىء محزن أن يصل « اللدد فى الخصومة ــ بين شاكر وطه ــ حدا يجعلنا نسلب طه حسين أخص خصائصه ، ونتجاهل أجمل قدراته ، ونصفه بأنه رجل جاهل وليس له صبر على تذوق الشعر » مما أحزن شاكرا وجعله يرد بعدة مقالات نشرت فى مجلة الثقافة نفسها تحت عنوان : المتنبى ليتنى ما عرفته حيث قال فى طياتها : أما عن مسألتى مع طه حسين فى الجامعة فى ذاتها غير قادرة على أن تنشىء بينى وبين الدكتور طـه (خصومة) وأيضـا ، لم يكن لها ، لا بالفعل ولا بالقوة فى نفسى أو فى قلبى أو فى عقلى ، أو فى شىء مما أكتب أثر يمكن أن يحرك (خصومة) واذا كنت ممن يخاصم الناس على آرائهم ولا ممن يخاصـم الآراء نفسها ، فأولى الناس كان بخصومتى هو مرجليوث نفسه صاحب المسألة ــ وصاحب (حاشية) على هذا المتن ٠٠ أما الدكتور فلم يكن سوى ناقل لهذه المسألة ٠٠ وصاحب (حاشية) على هذا المتن ، لا أكثر ولا أقل ، ولكن القضية التى نشأت عندى أنا ، وكانت محاضرات الدكتور سببا فى نشأتها يوم كنت طالبا عنده فى الجامعة ، فهى « قضية السطو » على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم ٠٠ ثم ادعاء تملكها تملك عزيز مقتدر ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والاستطالة به على الناس ٠ وأبشع من ذلك أن ينكشف أمر هذا الغصب والسطو ٠٠ ويتسامع به الناس ويدل الكتاب والعلمـاء على الأصـل المغصوب كتابة موثقة منشورة ، فلا يبالى الساطى بشىء من ذلك كله بل يزداد جرأة وتيها عن سطوه لم يقل ، وكان ظهور سطوه فضيلة ترفع من

قدره وتنود به فى المجامع ، أما أنا ، مع أسفى واعتذارى ٠٠ فلم أزل أعد هذه المسألة احتقارا للناس أى احتقار وازدراء بهم وبعقولهم أى ازدراء وانزالا لهم منزلة من لايبصر ولا يسمع ولا يعقل ولا يحس ٠

ثم أنهى المقال بالرد على الاتهام الثانى : أنا قلت مرارا لا أحصيها فى كتابى وفى مقالاتى عن كتاب الدكتور طه « مع المتنبى » أن الدكتور طه (لا بصر له بالشعر) ولكنى لم أقل قط أنه (لا بصر له بتذوق الشعر) والجملتان غير متكافئتين فى المعنى ٠ حتى تغنى احداهما عن الأخرى أو تقوم مقامها ٠٠ وأنا أعلم أن أهل زماننا يتساهلون فى كل شىء ، ويتساهلون خاصة فى التعبير ، بلا تحديد ولا تحليل لألفاظ اللغة ٠٠ وكنت أحب لك ـ عبد العزيز الدسوقى ـ أن لاتتابعهم على هذا التساهل ٠٠ ولكنى أعلم أيضا أن هذه هى أيضا احدى السنن التى سنها « الأساتذة الكبار » فغلبت على الناس وعلى السنتهم ، فأصابت منهم موقعا أغفلهم عن حقيقة الفساد الذى يجره التساهل ٠

ولا شك أن هذه اللمحات فى صورة هذا الرجل ـ محمود شاكر ـ تؤكد لنا أنه يعيش منذ شبابه صراعا يكاد يمزقه ، كلما رأى الأمة العربية تنشق عن كل تاريخها الماضى ٠ وتساق الى مجزرة نصبها لها الغرب وهو فرح بها نشوان ٠ ولقد ملأت هذه الحقيقة عالم هذا الرجل قلقا متصلا ، فوهب حياته وكتبه ومعاركه التى خاضها والتى تشعبت طرقها من أجل الدفاع عن أمته العربية الاسلامية وتراثها الحضارى العظيم وجعل طريقه الى هتك الأستار المسدلة التى تحمل من ورائها رجالا فيما خلا من الزمان ، ورجالا آخرين قد ورثوهم فى زماننا وهمهم جميعا كان ـ أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغلبة على عقولنا ، وعلى مجتمعنا وعلى حياتنا وعلى ثقافتنا ، وبهذه الغلبة يتم انهيار الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متطاولة ، وصححوا به فساد الحياة البشرية فى نواحيها الانسانية والأدبية والأخلاقية والعملية والعلمية والفكرية ، وردها الى طريق مستقيم علم ذلك من علمه وجهله من جهله ٠

لقد كتب ونظم وحقق وخاض معارك فى جبهات شتى ليضيق المنافذ التى تتسلل منها الشوائب الفكرية وسد الثغرات التى لا يستهان بها عبر كتبه التى ألفها وتحقيقه للتراث ومنها « طبقات فحول الشعراء » لمحمد بن سلام الجمحى ثم برنامج طبقات فحول الشعراء ، (فضل العطاء على العسر) لأبى هلال العسكرى ، (أبو الطيب المتنبى) عدد خاص من المقتطف ٠٠ وظهر بعد ذلك بكتاب طبعة أولى ثم ثانية (امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع) لتقى الدين المقريزى ، (المكافأة وحسن العقبى لأحمد بن يوسف بن الداية الكاتب) ، (تفسير

الطبرى) فى خمسة عشر مجلدا ، ولا يزال مثلها تحت الطبع ، (كتاب الوحشيات) وهو الحماسة الصغرى لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى ، « أباطيل وأسمار » الجزءان الأول والثانى ، (تهذيب الآثار وتفضيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار) لأبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى ، الى جانب مئات من المقالات والقصائد التى لم تجمع بعد فى كتب ٠٠ وان ظهرت احدى قصائده فى كتاب « القوس العذراء » كل هذا يدلنا أن عالم محمود محمد شاكر ليس من النوع المألوف الذى نقرأ عنه فى صحفنا المعاصرة ٠٠ انه صورة ٠٠ لا بل هو جزء من مجالس العلم القديمة التى يصلنا شذاها عبر صفحات أمهات الكتب العربية ، تلك المجالس التى أضاءت بمصابيح العبقرية العربية أبهاء الفكر متمثلة فى علمائها ورواتها وشعرائها وفقهائها الذين مكنوا لكل ما هو أصيل فى هذه الأرض ٠ وكل هذا قد أصابنى بالرهبة فترة طويلة ، ومنعنى من لقائه ، الا أننى أبصرت بعض الضوء وسط هذا العالم أضاء لى الطريق اليه ، والولوج الى هذا العالم الزاخر الفياض وقلت لنفسى : اذا كان جيل العمالقة قد حال دون وصول هذا الضوء الى من بعدهم فغيم عليهم ٠٠ لكن هذا الغيم كان واحة هادئة للذين أتوا معهم أو بعدهم على اختلاف مشاربهم ٠٠ وقد تجلى كل ذلك فى اعترافاتهم الصادقة ٠٠ فحينما تقرأ السيرة الذاتية للأستاذ يحيى حقى التى تصدرت أعماله الكاملة تجده يقول : وأثناء عملى بديوان وزارة الخارجية وكانت الكتابة بالنسبة لى خاطر غير تام الأدوات ٠ ولكن عندما توثقت صلتى بالبحاثة المحقق الأستاذ محمود شاكر ، وقرأت معه عددا من أمهات كتب الأدب العربى القديم ودواوين شعره ٠٠ ومنذ ذلك الحين ، وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها ، وفى اعتقادى أنها لغة عبقرية فى قدرتها على الاختصار الشديد مع الايحاء القوى ٠٠

وقال لى الأستاذ الشاعر الفحل محمود حسن اسماعيل (رحمه الله) يوم سألته عن تأثير شاكر عليه : لا أستطيع تحديد أبعاد ما حزته من صداقتى لمحمود شاكر عام ١٩٣٦ ٠٠ لقد زج بى الى الشعر الجاهلى وأمالنى مع الشعر الأموى وطوح بى مع الشعر العباسى فأحاطنى لحمه وسداه بالشعر كافة وأستطيع القول أن شعرى قبل معرفتى لشاكر كان نبعا هادئا فجعله بحرا متلاطما ٠ وهاتان الحقيقتان وان دلتا على شىء فانما تدلان على أن هذا العالم يظل نورا لكل ما هو صالح وأصيل ٠٠ وأنه نار حارقة على كل ماهو مستورد ومستعرض ٠٠ كما حدث فى رده على « لويس عوض بكتاب (أباطيل وأسمار) أو كتابه (برنامج طبقات فحول الشعراء » الذى كان فى الأصل رسالة موجهة الى مجلة المورد التى تصدرها وزارة الثقافة العراقية ، تعقيبا على مقال نشره فيها الدكتور جواد الطاهر كنقد لكتاب الأستاذ شاكر (طبقات فحول الشعراء) ٠

كل ذلك وغيره كثير يدل أن هذا العالم لم يغمره فى حياته الا البحث والاستكشاف ·· فاذا حدق ووقعت عيناه على شائبه اندفع كالأعصار لاستلالها من البحر حتى يظل رائقا ، بجانب أنه أغنى المكتبة العربية بكتبه النادرة على حد قول الدكتور عبد العزيز كامل ·

ولعله من الاستطراد أن نذكر أن الدكتور لويس عوض عندما جمع مقالاته المنقوده من شاكر فى كتـــاب : (على هامش الغفـران شىء من التاريخ) اعترف فى مقدمته بأنه كان من الممكن أن يستفيد من ملاحظات شاكر لو أنه كان أهدأ نبره وأخف حدة ·· ولكنه عاد سنة ٦٧ ووجد أن هذه الكلمات لم تشف غله من شاكر ورؤيتـــه فى أمور الحياة الأدبية المعاصرة ·· فصوره فى كتابه (المحاورات الجديدة) على أنه مجـاهد ابن الشـــماع ــ وهو اسم استلهمه الدكتور لويس من قصيدة شـاكر الملحمية (القوس العذراء) وجعله العربى التقليدى الذى يهش فى وجه كل جديد متهما اياه بالسذاجة ·· ويصيح فى وجه كل وارد ·· بأنه من أفعال المبشرين أو أنه مؤامرة صليبية صائحا : « تذكروا بيزنطة هؤلاء هم أعداؤنا التقليديون قولوا معى فلتسقط صولون وأهل صولون » أو اننى سلفى وأفخر بأنى سلفى ·

وبذلك يكون د· لويس ·· قد أنكر قوله الذى كتبه فى مقدمة كتاب (على هامش الغفران شىء من التاريخ » وفشل أيضا فى تصوير شاكر ·· لأنه خلط فى تصويره بين الأصالة التى يدعو اليها عالمنا وبين التقليد الذى يتصوره لويس عوض تجديدا ·

أما رد فعل كتاب شاكر « برنامج طبقات فحول الشعراء الذى هو فى الأصل ردا على الدكتور على جواد الطاهر ، فلم يظهر الا أخيرا حيث نشر مقالا بمجلة الفيصل السعودية العدد (٩٦) ص ٥٥ ·· يعتذر فيه لشاكر ويطلب منه السماح بدأ بقوله : لى رأى أوردته ــ وأورده ــ فى أكثر من مناسبة ، وبحضور أكثر من صـديق · وهو رأى ثابت كان ــ ومازال ــ قائما حيث هو ، ولم يحل حائل دون تثبيته ، لأنه ليس رأيا خاصا لمنفعة خاصة ، وانما هو فى مصلحة العلم وخدمة اللغة ·· واذا كان المثل الذى يوضح الرأى ويوحيه هو الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر و ·· و ·· ان الشيخ محمود محمد شاكر نادر المثال ، ومنقطع النظير فى الباقى من السلف فى فهم النص العربى وتفهيمه ، وفك مغاليقه ، وبلوغ أسراره وينهى مقاله بقوله : أجل اننا ندعو الى أن يتولى الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر تدريس نص الشعر العربى فهما وتفهيما ، خدمة لنا ، وللغة ، وحفظا لتراث يجب أن يبقى ، خدمه لحاضر لاينفصل عن ماض · واذا لم تنتفع به « القاهرة » محاضرا أو أستاذا زائرا فلتنتفع به غير القاهرة ــ والأمة واحدة ·

وعلى الرغم من أني كنت أتهيبه فاني كنت أقدره تقديرا لا حد له وأسعى لمعرفة المزيد عنه ، لايماني بأن ذلك ٠٠ هى الخطوات الصحيحة المؤدية الى اللقـاء الذى أحلم به ٠٠ فعشت تحديه ومراجعته للدكتور عبد الغفار مكاوى على صفحات مجلة المجلة عام ١٩٦٧ حول مفهوم (جوته) للأدب العربى ٠٠ بوجل شديد ٠

وأخيرا وجدتنى بكل الاعجاب والتهيب ، فى الطريق اليه ٠٠ حيث بيته أو مدرسته الفكرية على الأصح ٣ شارع حسين المرصفى بمصر الجديدة وكان اللقاء ، ولقد كان للصديقين محمد عودة والدكتور محمد يوسف نجم فضل تصحيح ما تخيلته يوما ما أنه معمم وذو لحية طويلة ــ وهو الآن ــ ذو لحية الا أنها خفيفة قصـيرة وليس معمما ٠٠ وعلى كل فان هيئته لم تخالف ظنونى عنه كثيرا ، بقدر ما استحوذ على بالفعل وللوهلة الأولى ببساطته الواضحة وتواضعه الأصيل وكرمه بلا حدود !

وأخذ يزيح عنى الخجل والدهشة ببشاشته وطفولته الكبيرة ، حيث حاولت اخفاءهـا بتجوال النظر فى تلك الكتب المتراصـــة التى تغطى جدران البيت كله ، والتى تضم كل ما يخطر أو لا يخطر على البال من كتب الثقافة ٠

وأخذ يزيح عنى الخجل والدهشة ببشاشته وطفولته الكبيرة ، حيث ما كان يريه على والدى من أخبار شجرتنا العائلية العربية ، فاستوضحنى عن البلده التى أتينا منها الى القاهرة ، فقلت : (جرجا) وهنا تهلل وجهه وهو يقول : قطعا نحن أقرباء ٠٠ فأنا أيضا شريف ومن جرجا أيضا ٠ وأخذ يشرح للضيوف وجلساء الندوة ٠٠ أنساب العائلات العربية التى تشعبت فى مصر ، فى تمكن واقتدار ٠

وعرفت ٠٠ بعد توالى الزيارات ، أن وداعته الأولى معى ٠٠ كانت من باب حسن الاستقبال والضيافة العربية ، فبعد أن أصبحت جزءا من مجلس (الجمعة) حيث يفد الأصدقاء القدامى ، والأصدقاء الذين كانوا تلامذة له ٠ عرفت عادة من أشهر عاداته ، اذ كان يصوب حتى السؤال الذى يطرح ٠٠ قبل أن يجيب عليه ٠ سألتــــه يوما عن تراثنا العربى ، فأخبرنى بأن كلمـة تراث تطلق على نتـاج حضـارة بادت واندثرت ثم نتناولها بالحديث ، أما حضارتنا العربية فمازالت مستمرة باقية وليست تراثا ٠ ثم تتعاظم نبرته وهو يشرح أدق التفاصــــيل ، ولا يرجع الى هدوئه الا بعد أن ينتهى من التصويب ، وبيان أوجه الخطأ ٠٠ ورأى العرب فى ذلك ٠٠ ويصبح أكثـــر وداعة ورقة ٠٠ عندما يظهر ابنـه (فهر) ــ الذى صار معيدا الآن بكلية الآداب يحضر للدكتوراه ــ أو ابنته (زلفى) وهى دقيقة التركيب حادة الذكاء ــ تخرجتعام ١٩٩٢ من كلية

التجارة ، ويدل هذا الطبع على ملمح في شخصيته الا وهو أن الفكر الذى احتوى حياته حتى أنساه الزواج ، ولم يتزوج الا أخيرا ٠

(وزلفى) تعيدنى دائما الى مقدمات كتبه التى يستهلها عادة بقول « الحمد لله وحده لا شريك له ٠٠ حمدا يقربنا الى رضوانه وصلاة الله على نبيه المصطفى من أبناء الرسولين ابراهيم واسماعيل ، صلاة « تزلفنا » الى جنتــه » ٠

وعندما رددت اسم (فهر) بشفتى بينى وبين نفسى ، أحاول أن أتذكر مكانه بين أسماء العرب ، قطع والده على تفكيرى : وكأنه يقــرأ ما يدور بخلدى ٠٠ « هو قرشى جد محمد صلى الله عليه وسلم » وهنــا أيقنت أنه فضلا عن علمه الغزير الواسع فانه يتمتع بفراسة قوية ٠٠

وعبثا أحــاول أن أســتأثر به ولو لبعض الوقت من قصــاده ومريديه لأستزيد من تلك الحياة العميقة والغنية المبهرة ، لاسيما وقد قدمت لاجراء حديث معه ٠٠ ويشعر صديقه الدكتور ناصر الأسد بموقفى فيســارع لانقاذى ٠٠ والدكتور ناصر الدين الأسد هو الوزير المفوض بالجامعة العربية يومها وأحد مؤسسيها وهو الآن وزير التربية الأردنى ورئيس المجمع الملكى ٠ بدأ معى بقوله : تعرفت على الأستاذ محمد شاكر عام ١٩٥١ ــ بعد انتهائى من اعداد رسالة الماجستير ، وبداية تحضيرى للدكتوراه ٠٠ وكنت أعرف عنه الكثير ــ الكلام للدكتور ناصر ــ من خلال قراءة مجلة الرسالة ، ومن كتابه الذى أصدره عن المتنبى ، وكان بيته منذ زمن بعيد كعبة للقصاد من العلماء والأدباء وطلبة العلم والمتأدبين ، والعجيب أننى منذ زيارتى الأولى له شعرنا معا بهذه الرابطة الخفية التى تجمع النفوس والعقول ، حتى أننى قبيل مغادرتى لداره أبدى رغبته لى فى أن تستمر المودة بيننا ٠٠ ومازالت مستمرة عميقة عمق الصداقة بين اثنين ٠ وقد أفدت من هذه المجالس ٠٠ مالم أفده من مجلس علمى آخر فى جميع مراحل حياتى لا أستثنى من ذلك مرحــلة دراستى فى الجامعة ، ولقد مرت على هذه الدار أوقات كانت تمتلىء فيها بطلاب العلم الذين يفدون الى القاهرة من مختلف البلاد العربية والاسلامية ٠

وأذكر أننا فى بعض تلك المجالس كنا نقرأ على الأستاذ شاكر كتبا من أمهات روائع أمتنا ، ولن أنسى طريقته الفذة فى شرح (الأصمعيات) وهى مختارات من الشعر العربى ، وانتى أستعمل كلمة شرح مجازا هنا ، لأنه لم يكن شرحا بالمعنى المتعارف عليه ، بل كان احيــاء حقيقيا لهذه المختارات ، وكأن محمود محمد شاكر هو الشاعر الذى انبثقت منــه القصيدة ، فكان يغوص فى أعماق وجدان الشاعر ويستخرج كوامنــه ، ويعيد تركيب أبيات القصيدة : بحيث تحس نبض كل كلمة فيها وبالاطار

العام للصورة الفنية والوجدانية التى كانت تختلج فى نفس الشاعر ــ ومازلت أحتفظ بالكراسات التى دونت فيها بعض ما كان يقوله فى تلك المجالس ·· وهذه الكراسات أعود اليها من حين الى آخر فأجد فيها ثروة لا تنفد ولا تنضب من عمله وعمق فهمه لأمهات روائعنا الخالدة » ·

وقد تحققت من كلام الدكتور ناصر عندما قدمت الى الكويت حيث سمعت من الدكاترة (يعقوب مرزوق وعبد الله الغنيم) ·· والأستاذ صالح العثمان مدير ادارة تعليم الكبار ·· وجمعه ياسين أحد رجال التعليم الذى تحول الى السياسة والأستاذ جاسم المطوع رئيس تحرير جريدة الوطن وغيرهم كثر نفس كلمات الدكتور ناصر وبنفس ترتيب الكلمات أيضا عنه · وان كانوا أضافوا أن الأستاذ شاكرا لم يكن يتجلى الا بعد فترة من المداعبات الطويلة لنا ·

وأستطيع أن أقول ان العطاء الفكرى الأكبر لهذا العالم لم يكن من خلال الكتابة ، بقدر ما كان من خلال تلاميذه المنتشرين على الأرض العربية وأصدقائه وعارفى فضله ومكانته ·

وتجرنى الذكريات الى صداقته العميقة للرافعى وتقدمه لكتاب المرحوم محمد سعيد العريان (حياة الرافعى) ، ثم دفاعه عن الرافعى ضد أحد تلاميذ العقاد يومئذ وهو المرحوم سيد قضب ، مما جعل العقاد يظل لمدة طويلة يعتقد فى تعصبه للرافعى حتى اكتشف فيه بعد صداقتهما حرية الرأى وموضوعيته الصارمة التى جعلته أكثر انصافا للعقاد من بعض تلاميذه · وتوطدت صداقتهما واستمرت حتى غادر العقاد عالم الأحياء ·

وقد تأكدت لدى موضوعية شاكر ، عندما بدأت أتصفح كتبه وأعرف طريقى اليها ببساطة ·· لمحت يوما على أحد الكتب اهداء من المرحوم اسماعيل مظهر له ·· فتكشفت لى مدى المودة التى ربطت بين رجلين أحدهما ــ محمود محمد شاكر ــ المتدين والآخر ــ اسماعيل مظهر ــ المتحرر فى فكره ·· وليس ذلك بغريب عليه فهو يأنس الى الناس على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية ولا يخلط بين العلاقات الشخصية وتعارض الآراء ، ويحتفظ بتقديره الكامل للآخرين مهما كان خلافهم معه فى الرأى·

قلت يوما للأستاذ شاكر اننى فى طريقى اليك قابلت الدكتور عبد الغفار مكاوى وعرضت عليه أن يحضر معى فقال : أأذهب لزيارة من جعلنى أعاف الامساك بالقلم لمدة سنتين ·· قال شاكر : كان يجب أن يحضر معك ·· فلا يفل الحديد الا الحديد ·· عندئذ لاح فى خيالى صورة شرارة متطايرة حدثت نتيجة ارتطام محمود شاكر بالأستاذ عبد الله القصيمى الذى كتب كتاب (العرب ظاهرة صوتية) فهمست بها الى تلميذ

شاكر الشاعر الأستاذ حسانى حسن عبد الله فنهانى عن احـداث مثل هذا اللقاء الذى لن يتم أصلا ·· ولكنى عنـــدما أفصحت بهذه الرغبـة للأستاذ شاكر قال ولماذا لا تصحبيه معك ·· انه رجل فاضل ·· كتب أعظم كتاب عن الشيعة ·

واذا كنت لم أحقق هذا المطلب لنفسى ·· فقد حققت مطلبا آخر أكثر منه جدوى ·· فقد اصطحبت له يوما اثنين من أقرانه عبد الرحمن صدقى وعلى أدهم فكان هذا المشهد :

تكلمنا فى موضوعات شـــتى ·· ثلاثة أطراف ثقافتهم متباينة وكذلك طباعهم واهتماماتهم ·· وفجأة على غير ميعاد توقف الحديث عند جمال الدين الأفغانى ·· وجدت ثلاثتهم يتساءلون فى نفس واحد عن شخصية هذا الرجل ·· واذا بالأستاذ يحيى حقى يطرق الباب ·· يدخل ·· يستفهم عن موضوع النقاش ·· وبعده يقول : من الغريب أن هذا الرجل نزل الى بلاد كثيرة مصر ·· فرنسا ·· تركيا ·· روسيا و ·· و ·· وفى كل مرة كان سكنه هو حارة اليهود ·· وهذه الأحيـــاء ذات تلافيف فى العادة تحفها أسوار !! كما اسرائيل الآن بين الهضاب ·· ثم يستدرك الشاعر عبد الرحمن صدقى قائلا : ان مذكرات ابن أخيه عنه ذكرت ان هناك شهرين من السنة كان يغيب فيها الأفغانى عن خريطة الوجود المعروف لدى عارفيه والمتحلقين حوله · ويثنوه الأستاذ على أدهم قائلا : أعتقد أن الأفغانى كان عميلا ماسونيا ·· ثم دلل على ذلك بذكر شذرات من حياته ·· ان السلطان عبد الحميد لم يضـع له السم فى علاج أسنانه التى كان يشـكو منها الا بعد أن عرف علاقته المريبة بهيرتزل ·· فقـــد كان الشقاق بين الأخير والسلطان عبد الحميد على أشـــده ·· واندفع شاكر يتساءل بعد طول صمت راقب فيه حجج الحاضرين فقال : لماذا تحتارون وتتلمسون اننى أقول لكم ببساطة ان هذا الرجل الأفغانى حاول مع الشيخ محمد عبده اغراء والذى بالانضمام الى الماسونية ·· وكلنا نعرف ما هى الماسونية وماذا كانت أغراضها ·

ودعانى ذلك الحديث الى استرجاع ما قرأته عن الأفغانى وعن ميلاده وجنسيته غير المعروفة ·· قالوا مرة أنه ولد فى ايران ، ومرة أخرى قالوا فى العراق ولكن من أين أتى اسم الأفغانى ؟ · مع انه ليس منها أى من أفغانستان ·· ولماذا خصص له الأفغان ميدانا وخصصوا له جامعة ؟ ·

هل كان الرجل خدعة ·· هل ملابسه ولحيته كانت من قبيل التنكر ·· أسئلة بحثت لها عن اجابة لدى من توسمت فيهم المعرفة ·· فتباينت أجوبتهم ·· فحول ماسونيته مثلا قال لى البعض لقد كان للماسونية فى وقت الأفغانى دور وطنى ·· وقال البعض الآخر لم يكن للماسونية يوما ما

دورا وطنيا وانما نظام يتدرج الى أعلى يبـدأ من سفح العميان ·· أى الذين لديهم شهوة لاعلاء شأن أمتهم وبالتمسك بأديانهم ·· وكلما ارتفع الرجل منهم درجة يكون قد فقد بعضـا من حماسه ·· الى أن يصبح طوع بنانهم يوجهونه حيث يشاءون ·· وان لهذه الجمعية السرية ٣٣ درجة لا يصعد الى الدرجات الثلاث الأخيرة سوى الصهاينة ·

وقد قادتنى الصدفة بعد أيـام ·· الى زيارة الأسـتاذ ابراهيم المويلحى حفيد المويلحى الكبير وابن المويلحى الصغير ــ كاتب أو مؤلف (عيسى بن هشام) فى حلوان ·· فلفت انتباهى فى أحد جدران الغرفة جزء من الطلاء جديد عن بقية طلاء الجدار ·· يشى بأنه كانت هناك صورة قد انتزعت منه · وعندما سألت صاحب الدار ·· أكد لى ظنونى وقال : بالفعل لقد كنت أعلق لوقت قريب صورة جمال الدين الأفغانى بجانب صورتى والدى وجدى ذلك الرجل الذى لجأ يوما الى بيتنا بينما كان يتعقبه بعضهم بالحجارة وآويناه آنذاك ·· ولكن بعد احالتى للمعاش ·· وطال زمن الفراغ أخذنى السأم الى الاطلاع على صندوق ظل مهملا سنوات كثيرة ·· فتحته وقرأت بعض أوراقه التى تحمل أسرارا كثيرة عن مرحلة الأفغانى أو نهايات الدولة العثمانية ·· وبعد اطلاعى على أسرار الأفغـانى ·· وتكشف أمره من خلال ما كتبه جدى قبل موته ·· ندمت على ما قدمناه من معروف لذلك الرجل الذى لايستحق ·· فقمت بنزع صـورته من على الجدران وقذفت بها بعيدا ·

واذا بعدت أنا عن الحقيقة الشائكة لشخصية الأفغانى ·· فانى قد فزت أخيرا ·· بأن قوة تكشيف الحركة الأخيرة من الحركات الثلاث للانسان اذا حالت دون رؤيتـه أفق الشمس الساطعة جبال شماء ·· تستطيع لا أن تقذف الجبال أمامها ·· بل الشمس المشعة نفسها ·· أى أن اجتماع شاكر وصدقى وأدهم بل ويحيى حقى لم تصل لقذف الجبال العملاقة من العقاد والمازنى الى طه حسين والرافعى وتوفيق الحكيم بل رمت أستاذهم المشع أيضا جمال الدين الأفغانى ·

واذا استللت محمود محمـد شاكر من بين هـذه الرفقة وهـذه القضايا لأكمل موضـوعى عنه ·· فانى أذكر أن ما حظيت به طوال صحبتى له ·· يفوق كل ما ذكر وعرف عنه ليس من زاوية العلم ·· ولكن من ناحية ايمانه فقد صاحبته وأسرته فى رحلة لحج بيت الله ، فرأيت كيف يتحول العملاق الى طفل يرتجف من لقاء الله عز وجل · لقد كاد بكاؤه الطفولى يخرجنى من انغمارى بالجو الأثيرى الذى رسمته المناسـك ·· وخرجت منه بالفعل ·· عندما جمع الأستاذ شاكر وهو فى شدة بكائه الوجل ، أوراق التلبية من بين أصابعنا ·· ليشطب بقلمه فوق تلبية زائدة

عن المتوجب ٠٠ فدلت هذه الفعلة منه على أن الانغمار الروحى لم يبعده عن طبعه الذى جبل على الاســـتواء وتصحيح أى اعوجاج ٠ وكأن هذا الرجل يحس بقلب المؤمن ٠٠ ويتصرف بعقل المفكر ٠ فى أى موقف ٠٠ ولو كان موقف التلبية لله عز وجل ٠

وعندما وصلنا عائدين الى الكويت ٠٠ تبدى جانب آخر من شخصه الثر ٠٠ وكيف كان يتألق وسط خلصائه وأحبائه ومريديه ٠٠ وتصادف وجودنا مع وجود صديقه الشاعر العربى الكبير محمود حسن اسماعيل الذى تقدم يحيى صديقه العلامة الكبير ويستحلفه ألا يترك موقعه متصديا كعادته لأعداء ثقافتنا وعروبتنا عبر قصيدة له أذكر مطلعها :

وأراك أنت بكل لج موجهـــا
والهادر المشبوب فى شـــلالها
وأراك أنت عليمها وكليمهـــا
والجاذر الشبهات فى استدلالها

والشاعر هنا ٠٠ استطاع أن يرسم باقتدار الملامح الأساسية فى صاحب عالمنا هذا محمود محمد شاكر ٠٠ الذى يعيش منذ شبابه صراعا لايزال يحتدم فى نفسه ويملأ عالمه قلقا متصـــلا ٠٠ وكأنه بسبب علمه الواسع الغزير وتوهج فكره يشقى بهذا العلم ، وبغيرته التى لا حد لها على انتمائه للأمة العربية وتاريخها ٠ ويتمزق على طريق لايكاد يعطى الأمل فى الخروج من هذا التمزق الفكرى ، ولعله لم يجد مخرجا من ذلك كله ــ وقد عجز أن يشد بمفرده عصور الازدهار القديمة الى الحاضر ، أو يدفع بالحاضر الى مستقبل يحلم به ويتمناه ــ الا أن يحيا على بينـــة من الأمر وحده ٠٠ وليس من سبيل أمامه سوى أن يفيض عطاؤه الفكرى فوق كتبه فيشحن بروحه روح تلامذته وأصدقائه المنتشرين على الأرض العربية ٠

وهذا هو ما عبر عنه فى مقدمة قصيدته الملحمية (القوس العذراء) : وقد بلغنا رسول الله عن ربه بلاغا يضىء لكل حى نهج حياته ، ويمسكه عليه هدى فطرته ، اذ قال : ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ، وقال : ان الله كتب الاحسان على كل شىء ٠٠ فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ٠ واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته ٠ فانظر الى أين كتب الله علينـــا أن نبلـغ اتقان ما تصنع واحســـان ما نعمـــل ٠

كل هذا يؤكد لنا أن العلامة محمود محمد شاكر ليس مفكرا عاديا وانما هو طراز نادر من المفكرين لا يرى الا الاحسان فى كل شىء والحقيقة

الخالصة فى كل مكان ومجال ٠٠ مما يدعونا الى القول : « ان هذا العلامة كان ضياؤه سينير أسطع لو أنه ولد فى عصر غير عصره ٠

وقد يذكرنى قائل : (انما يقاس الانسان بعصره ٠٠ لأن لكل عصر ظروفه الخاصة ٠٠ فلو وجد الآن أديب كان لامعا فى عصر من العصور السابقة فقد لا يحقق مكانة كالتى حققها فى السابق ٠ والعكس أيضا صحيح ٠٠ لأن الحياة فى تطورها وجدليتها منطق آخر ، فنحن نوافقه على هذه الحقيقة المبدئية ، ولكن نضيف اليها بظهور ما يخالفها ٠٠ لأن هناك عوامل تلعب دورا خطيرا فى حياة الشهرة والوصول اليها ، مثل وسائل النشر والاعلام والتحيز والانتساب الى حزب من الأحزاب ٠

لذلك نعود لنؤكد قولنا ان محمود محمد شاكر ، لو وجد فى عصر سابق أى عصر من نطلق عليهم العمالقة ٠٠ لاستطاع باقتداره أن يمحو آفة الاستسهال التى استشرت على أيدى هؤلاء الكبـــار ٠٠ فلا تكون هدفا لطرح هذه الآفة اللعينة فلا نتزلق كما هو حادث فى عصر الديسكو وكل ما هو هش ومزيف فى عصرنا هذا ٠٠ ولتسلحنا بما ينجينا من هذه السهولة الفجة ٠

مجلة الدوحة القطرية

العدد ٦٠ صفر ١٤٠١ ديسمبر ١٩٨٠ م

يحيى حقى
هذا العاشق لعروبة مصر

ان سعادة الأمة العربية هى فى حب أبنائها وشوقهم لها وذوبانهم فيهـا ، وأن الخصب والنماء لا يتأتيـان الا من تجانس الذرات واتحاد الحبات ، ولو تجمد قاع المحيط وسطح البحر لما أينعت الشطآن ..

وقد استوعبت الأمة العربيـة بسمو أهدافهـا ، كثيرا من الأمم والشعوب ، ثم كان تاريخ الأمة وتراثها عاملا هاما لاذابة هذه الفوارق بين هذه الأمم والشعوب ، حتى تسير الأمة العربية الى ساحة ــ سعادتها ، وأن تشرق بكل ما هو مضىء .

هذا ما حدث على مر العصور وتداولها ، حيث ذاب فيها الكردى والمجوسى والفارسى والرومى ، والأرمنى ، عربهم الاسلام وجمعتهم اللغة العربية فنظموا بها الشعر وألفوا بها الكتب فى شتى المجالات : الأدب والنحو والتاريخ والطب والفلسفة . وتنوعت بذلك المعارف ونتاج القرائح ومختلف الطبائع والآداب وانتقل الكثير من أساليب اللغات الأصلية لهذه الشعوب الى العربية دون تعمد أو قصد .

وقد استمرت هذه الصحوة فى تقدمها دون توقف أو هبوط ، لأن ذلك كان ضرورة لنشر هذه الأهداف السامية واستمرارها .

واذا تتبعنا كيف تذوب هذه القطرات الجديدة فى محيط الأمة .. عرفنا أن الحب كان بابها الذى منه دخلت ، والذوبان طريقهـا الذى به التحمت .. وهو ما تم فى حياة فناننا الصادق المتواضع المحب لهذه الأمة

(يحيى حقى) الذى ولد فى ٧ ـ ٥ ـ ١٩٠٥ ، صاحب « عطر الأحباب » ، « صح النوم » ، « قنديل أم هاشم » ، « خليها على الله » « أم العواجز » ، « البوسطجى » ، اناس فى الظل ٠٠ الخ ٠

وعلى الرغم من نشأته فى أسرة ذات أصل تركى ترعرعت فى أحضان المجتمع المصرى ٠٠ ومن الطبيعى أن يدور فى نفسه الصراع بين التركية التى جبل عليها والعربية التى انتمى اليها ٠٠ الا أنه كان على بينة تامة بأبعاد هذا الصراع ٠ وقد هداه هذا الى طريق النجاة ٠٠ الذى هو نفسه نقـاط اتفاق الأمتين ألا وهو تاريخ هذه الأمة وتراثهـا ثم ضـمهما الى صدره بحب واستطاع أن يحسم بها هذا الصراع ٠ ويقف بصدق الى جانب العربية ، فالعرق الحديث يجب أن يكون أشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد ٠ وانتباها لنضاله وجماله الذى هو كفء له ٠

ان ايمان يحيى حقى وحبه لهذه الأمة ٠٠ جنبه التخبط والضياع ٠ فنجا من التناقضات التى يمكن أن يتعرض لها رجل ـ هذه نشأته ـ فى هذا الموقف ، ووصل به الى نوع من السلامة النفسية التى شق على الكثير من أقرانه ـ ذوى الأسلاف التركية ـ الوصول اليها وقد حقق له ذلك الكثير من وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة ، وعاونه على ممارسة الفن وهو متحرر من مختلف العقد الموروثة والمكتسبة ٠

عناصر الذوبان

وقابلية ذوبان يحيى حقى فى العربية ترجع الى عناصر عدة ، منها تدين والدته وغرامها بقراءة القرآن الكريم ، وفتنة والده بالشعر العربى وخاصة المتنبى ومكتبة أخيه الأكبر العربية ؛ وانتاج عمه طاهر حقى فى القصة والمسرحية ثم عمله فى الصحافة ٠ بعد توغله فى محافظات مصر من الاسكندرية الى الصعيد ٠ وأحاطه كل ذلك بسياج من التواضع ، والخلق الاسلامى القويم ، التى لم تشعره يوما بالتباين بين حياته المنزلية بتقاليدها التركية وحياته فى مختلف مجالات المجتمع المصرى ٠

أما اذا وقف فى طريقه قيد لا يرتاح اليه وجدانه ، أو حد من انطلاقه الفكرى ، عمل جاهدا على تطهير نفسه منه بروية الفنان المحب على مهل ٠٠ فعندما عانى من التزمت التركى الذى تعود عليه ٠ والاتجاهات المصرية غير المتوارثة ٠ لخضوعها لتيارات متضاربة يغلب عليها روح الانتقـام ، ولا تتورع عن أن تلجأ الى الغدر والخداع وتخلط بين سفك الدماء والجريمة وبين العزة والكرامة ٠ تجده يجاهد فى سبيل معرفة الشخصية المصرية التى تشمل فحص النماذج البشرية واستعراض اللوحات الفنية وابداع القصص الدرامية ٠ واذا كان هذا لعلاج روحه ٠٠ فانه قد أغنى أرواح قارئيه ٠ أو اذا كان زيت « قنديل أم هاشم » قد أضاء طريق إسماعيل

ـ أحد أبطال حقى الذى يمثله ـ وجعله يهز شعبه هزا عنيفا ويقول له : تحرك ·· فقد تحرك الجماد · فان ضوء القنديل قد أنار ما حوله ، وجعل ناسه يتوقفون عند كثير من منابع الخير فى هذه النماذج ، وما هى الشوائب التى تسللت اليها وعكرت صفوها ·· وهو أخيرا سر هدوء النبرة فى أدبه وتواضع وجمال الهمس فى شخصه ·

وعندما داعبته الكتابة بالعامية · تلهفا فى أن يكون أدبه صادقا عن المجتمع · عاد وتحول بدافع غريزى الى الفصحى ·· لأنها القادرة على بلوغ توحيد الأمة العربية ·· ولكن كما قال هو فى أحد أحاديثه الصحفية ـ ان الكتابة عنده كانت خاطرا غير تام الأدوات ، لكنه عندما تعرف على العلامة المحقق محمود محمد شاكر ، الذى استطاع أن يفتح أمامه الطريق بقراءة متصلة لذخيرة ضخمة من التراث العربى ·· كشفت له عن روعة البيان وأسراره ·· وجعلته يؤمن بأن العربية عبقرية فى قدرتها على الاختصار الشديد مع الايحاء القوى ·

سمعته بعد هذا التحول يشكو ـ وهو المحب للمطربة اللبنانيـــة فيروز ـ لأنها تشدو بالعامية التى لا يفهمها كل العرب ·· وهذه خسارة كبيرة لفنهـــا ·

الباب الضيق

يقول يحيى حقى : اننى ممن يدخلون معبـــد الفن من أشد أبوابه ضيقا وعسرا · وليست هذه الشترارة بزواره ، لهذا كنت من المقلين ، أسمعهم يعيبون هذا على ، كأنهـــم يطلبون منى أن أكون من المدلسـين ·· يكفينى الصدق ·

ومع هذا فان عمرى القصـــير فى الفن ـ انـه مجمـوع لحظات عابرة ـ قد جاوز نصف قرن ، وأحمد الله على ذلك · لأن هذا الطول أتاح لى أن أشهد فى نفسى تحولا عجيبا · ولولاه لما شهدته ·

لقد اكتفى حقى بالصدق · عوض لذة البوح بلذة المراقبة ، وكأنه على حد تعبيره شاهد واقف على جنب ، يطل على شىء عجيب يحدث أمامه ويحاول فهم سره ، ثم لا ينقضى عجبه منه ، الفن بهذا المعنى هو النغمة لا الوتر ، الزهرة لا البستانى النشوة لا قينه ألحان ·

مكنه الوقوف على جنب ـ من سماع أى خلل مهما همس وقعه ·· ودفين الروح مهما غارت أبعادها ·· فالانسان لايستطيع أن يلاحظ الشىء وهو منغمر فيه · لأن الجزء المنفلت من الانغمار هو الجهاز الذى يتيح الملاحظـــة ·

من هذا المكان المحلق استطاع يحيى حقى أن يسمع خبطة الريشة وصرير القلم على وتر أوراق أقرانه الأتراك المتمصرين ، الذين حسموا موقفهم من الصراع بين المصرية والتركيـــة بالعنف والخطابة • فأصبح انتماؤهم دون فاعلية ايجابية • حيث أن العنف والصوت العالى ، يترك - غالبا - جذور المشاكل تستشرى فنراه يتساءل بعد قراءة أدب أحدهم فيقول : لا أدرى لماذا استشف فى كتابات محمد تيمور - رغم خفة دمها وميلها للدعابة - نغمة حزن دفين • وكأن يحيى حقى يريد أن يقول ان آثار مشاعر الغربة الأليمة ، رغم كل ذلك الحب لمصر وللمصريين ، قد أظهـــرها الوعى الباطن فى تلك النغمة التى تئن بحزن دفين •• كما أنه لم يستطع أن يجزم بصدق ما قيل أن ولى الدين يكن أحب العرب حبا خالط الروح ، وجرى الدم فى العروق ، أو كمـــا قال هو عن نفســه : أنا عربى الأدب والقلم ، عربى النزعة ، ومن أبغض العربى فأنا مبغضه •

وكان ليحيى حقى عذر فى عدم التصديق ، بعد أن اغتال ابراهيم الوردانى وهو مصرى رئيس الوزراء بطرس غالى الذى تجرى التركية فى عروقه ليقول : قالوا قتل أخد الباغين بطرس غالى ، قلت قتل مصر ، كل قطرة من ذلك الدم البرىء عند الله أجرها ، وعلى الانســـانية والقرن العشرين عارها •• ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم ؟

والفقيد الذى قال عنه (يكن) انه مظلوم لم يكن الا تركيا خان عروبته الجديدة ، وترأس محكمة دنشواى التى جنت على مواطنين أبرياء من بنى جنسه - الجديد - ، ثم ساقهم الى ساحة الاعـــدام متملصا من وطنية ادعاهـــا خطابة لا تمثلا ، وهكذا حق ســـماع يحيى حقى لخبطه الريشة وصرير القلم على وتر أوراق أقرانه • وكانت دليله على اثبات ثغرة فى انتمائهم الى عروبة مصر • فالمؤمن المتفانى ليس من طبيعته رفع الصوت بل ان عمله هو الذى يدل عليه •

وقد تبين ليحيى حقى أصالة الشخصية المصرية عن طريق تحليلاته الفنية وكان الفن أداته فى تبصير الشخصية التركية المتمصرة على حقيقتها فى أعماله الفنية الأدبية • (دمعة فابتســـامة) ، (ناس فى الظل) ، (السلحفاة تطير) ، (صح النوم) ، (الفراش الشاغر) • فحلل دورس ، وكشف عن كثير من هذه الملامح التى توضح خبايا دخائلهم ثم اثباته أمامهم بالبرهان • ان انتماءهم جاء وكأنه الانتحار الروحى • فحق على يحيى حقى ألا ينبههم أو يحذرهم فقط بل يهددهم ويرهبهم بمصير مرعب بشع أيضا • ويجبرهم على الامتثال طواعية للظروف الاجتماعية الجديدة - المصرية - التى تستحق الذوبان • عن طريق الود والتعاون والاتصال والوصـــال والتضحية والعطاء والبذل والسخاء • ذلك لمن أراد النجـــاة والبعد عن التخبط والتورط والارتباك •

ان نجاة يحيى حقى وتشربه لمصريته العربية على مهل ، ثم الكمون والتحلق فترات أخرى • جعل صفحة نفسه تصفو وتشف فتعكس الخلل فى مصرية لا الأتراك وحدهم بل فى مصرية وعربية الكثير من المهاجرين الآخرين أيضـــا • فرغم معرفة العـــالم العربى لفن نجيب الريحانى • بأنه فن مصرى خالص صادق ، قد انبعث من قلب مصر ودل عليها وترجم عنها وأرخ لها • وأن الريحانى هو مصر ، ومصر هى الريحانى • الا أن استقراء يحيى حقى لمسرحه وأفلامه أوقفه على أن الريحانى لم يحسم بين عراقية لا يعرف دينها بالضبط • وشامية يدعيها أحيانا • ومصرية عربية كمصير أخير ، فلم ينفعه بعد ذلك فهمه لكثير من عادات وعجائب طبائع النفوس المصرية • ولا تأثره بظروف مصر السياسية والاجتماعية ، لأن يسلك الطريق الذى يخدم الفن الأصيل •

فعندما فكر الريحانى فى تكوين فرقة مسرحية ، كانت فرقته تقتبس من المسرح الفرنسى الرخيص ، وحتى تبدو النماذج المقتبسة أكثر مصرية وأكثر تطورا فى معالجة حياة مصر •• أورد لها شخصيات هامشية من هذه الحياة كشخصية (كشكش بك) وهو نموذج للفلاح المصرى الغنى فى بداية تعامله بالأوراق البنكية • وعندما ارتاح من اضحاك الناس على هذا المسكين فى كل المجالات ، ومجه الناس • تحول الى شخصية (الأفندى) • وهو الانسان الذى كان الحلم يرشحه لمجاراة التطورات الاجتماعيـــة ، فصوره انسانا ممزقا بين الشرق والغرب وســط مجتمع يسوده التفكك والضعف والتخاذل •

كل ذلك آلم يحيى حقى الذى يؤمن بأن النماذج المصرية لا تنحصر فى الشخصيات المنحرفة ـ بقدر ما تتمثل فى الشخصيات الايجابية التى تتقدم وتتطور • والذى يقصر انتاجه على النماذج الأولى فقط هو أجنبى طارىء تخدعه بعض المظاهر فيتصور أنه يعرف مواطن الأمور فى الشخصية المصرية •

وهكذا أرجع يحيى حقى كل ما فجره الريحانى من ضحك وقهقهة إلى تأثيره الأخير فى اعاقة شعبه عن فهم امكانياته فهما صحيحا ، فاظهر كيف عملت هذه الأعمال على بلبلة كثير من المعانى التى تبث الضعف والعجز واليأس فى كثير من الأرواح •

الخشية والرجاء :

أما ما تنبأ به هذا الكاتب العظيم بحق ـ يحيى حقى ـ فهو ما جاء بمقالته التى كتبها لمجلة الحديث الحلبية عام ١٩٣٤ بعنوان « توفيق الحكيم بين الخشية والرجاء » وكان الأستاذ يحيى يقضى عامه الأخير فى استانبول كدبلوماسى مصرى هناك لأن هذه المقالة بجانب تصويرها لنزعات الحكيم

النخبة تؤكد عروبة ومصرية يحيى حقى ، حيث كتبها الرجل فى تركيا وطن أجداده الأوائل أيام عنفوان الحركة الكمالية ، وبينما هى تثير تقلبات فكرية ونفسية الأتراك نجدها تشعر (حقى) بالغربة لاسيما وقد قرأ (عودة الروح) و « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم ·· فلم يجـــد فيهما ما يشفى غليله الوطنى ويشبع اتجاهاته العربية المصرية الصاعدة اشباعا قويا ·· فعاب عليهما تغلب الميول الفردية دون الميول العامة التى تعبر عن روح هى روح الشعب المصرى بكل طوائفه · الذى كان يمر بمرحلة نضال سياسى واجتماعى واقتصادى يحتاج أكثر ما يحتـــاج الى عوامل تقوى فيه نزعة الجهاد حتى يستطيع أن يتغلب على مختلف أنواع المصاعب · وليس فى حاجة على الاطلاق لتقوية النزعات الصوفية التى قد تدعو الى الهرب من المسئولية الوطنية بدافع من الأنانية ·

لقد آلم يحيى حقى أن يجد توفيق الحكيم قد رفع شعار مجد الفراعنة حتى يثير الأحلام الجميلة لدى الشباب · مع أنها بعيدة عن وعيه ولا تستطيع أن تستفز فيه روح مصر الحديثة استفزازا قويا فعالا · أما ماحز فى نفسه فهو أن يدافع عن مصر فى عودة الروح رجل فرنسى · لكل ذلك اعتبر يحيى حقى (عودة الروح) ، (أهل الكهف) لتوفيق الحكيم أعمالا خطرة على شباب مصر ·· وأن الأدب المناسب لهم هو ما يكتبه الأقوياء الذين سلموا من وساوس الخشية · وتكون روحهم مزيجا من الكبرياء والتواضع وخليطا من الحلم بالآمال والشعور بالواقع الملموس · ينظرون الى السماء ولا ينسون أن أرجلهم فى الطين ·

وعاش يحيى حقى وكله نفس مترقبة لتبرة صدق تشرق من هنا أو تبرق هناك ·· فاذا لمست نفسه هذه حلقنا مع حلو كلمته الأثيرة : سعيد أنا بحياتى فى عصر يعيش فيه مندور · قالها عن الدكتور مندور ، وعن نجيب محفوظ · وسعد مكاوى وفؤاد زكريا وجمال حمدان وقبلهم عن محمود محمد شاكر ·· ولا يخجل عن قولها فى كاتب ناشئ يشعر يحيى حقى أن عطاءه لمصر سيكون صادقا نافعا ·

لذلك كله ، فنحن لانكاد نلمح أى احســـــاس يجعلنا ندرك أن يحيى حقى مختلف عن أى مواطن غيور على عربيته · بل نلحظ عليه الضيق والتأفف اذا لمح أحدهم من قريب أو بعيد الى أصله التركى أو شكك فى أصالة انفعالاته وعمق تجاوبه مع الحياة المصرية العربية ·

ملحق جريدة الوطن

الثلاثاء ٢٩ يناير ١٩٨٠

تابــع

يحيى حقى

هذا العاشق لعروبة مصر

بعد نشر موضــوع يحيى حقى « هذا العاشق لعروبة مصر » فى جريدة الوطن الكويتية واستقر بى المقام فى القاهرة أصــبحت زيارتى الاسبوعية للعلامة محمود محمد شاكر بمناسبة لقائى دائما بالأســتاذ « يحيى حقى » وكان قد قــدم اســتقالته من مجلة المجلة ، وانكمشت خطواته فى المجتمع ، سألته : هل قرأت ما كتبته عنك ؟ أجاب : قرأته ولم يعجبنى ٠٠ ! استفهمت لماذا ؟ قال : لأنــك جعلت « التركية فى شخصيتى هى المحور الذى دار عليه موضــوعك) ٠ فقلت له : غريب على الرغم من أن ما كتبته لم يكن الا تحقيقا لمقولتك عن سعادة الانسان٠ (٠ ولا ولوج الى ساحة السعادة الا من أحد أبواب ثلاثة : الايمان والفن والحب٠) ٠ سحبته على ســـعادة الأمة العربية فى ثلاث مقالات ، مثل فيها صـــديقك محمود محمد شـــاكر باب الايمان ، ومعالجة التراث احتلت باب الفن ، وذوبان تركيتك فى المصرية يمثل الحب بابه الثالث ٠ وكان هذا الحوار الموجز بمثابة فتح باب المشاكسة التليدة بين العلامة محمود شاكر وصديقه يحيى حقى على مصراعيه ، اذ قال شاكر ليحيى : وهل تنفى أصلك الشركسى يا شركسى ؟ : ضحك الأستاذ يحيى والحاضرون معه ، وهو يقول : على رسلك يا محمود ٠٠ فانا أحيانا أذكر تركيتى بقلبى أو على لسانى ، ولكنى لا أحتمل سماعها أو قراءتها من غيرى ٠ وعلق أحد الحاضرين مطيبا خاطر الأستاذ يحيى فقال : منذ العصر القديم وشأن الأمم كافة مزيج من أصلاء وغرباء ، لا تدرى من أحقهم بوصف الوطنى ، ومن أحقهم بوصف الغريب ، اذا مضى عليهم جيل أو جيلان ٠ وازدف آخر : « ذلك أن فكرة الوطنية لم تنشأ بمعناها الحديث الا حين نشأت فكرة الحكم بالحق والحكم لمصلحة المحكومين ، فقد أبطلت الانسانيــة

طويلا قبل أن تخترع الديمقراطية أو الوطنية » • وبرغم ذلك استمرت مشاكسة العلامة شاكر لصديقه يحيى ، التى يتصورها الغريب نقدا • ويعرف الخلصاء كم تحمل من الود الذى استمر بينهما قرابة نصف قرن • لم يفلح حقى بكل الطرق من تهدئتها ولو فى حضور من لايعرف عمق الصداقة بينهما • فالأستاذ يحيى لايكف عن القول شفاهة بأن الأستاذ شاكر هو الذى علمه سليقة اللغة ، ويرددها فى كل مقابلاته الصحفية والاذاعية والتليفزيونية ، بل قد استحوذت هذه العلاقة الوطيدة بينهما على اللقاء من أوله الى آخره ـ كما حدث فى مقابلة الأستاذ يحيى التليفزيونية مع السيدة ليلى رستم ـ مما جعلها تتوجه بعد اذاعة هذه الحلقة للقاء الأستاذ شاكر ليكمل ما قاله يحيى حقى • ولكنه اعتذر لها ، بل ان الأستاذ يحيى أثبت هذه العلاقة فى سيرته الذاتية « أشجان عضو منتسب » حيث قال : وأثناء عملى بديوان وزارة الخارجية توثقت صلتى بالمحقق البحاثة الأستاذ محمود شاكر ، وقرأت معه عددا من أمهات كتب الأدب العربى القديم ودواوين شعره •• ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها ، وفى اعتقادى أنها لغة عبقرية فى قدرتها على الاختصار الشديد والايحاء القوى » • ومع أن الأستاذ يحيى (١٩٠٥) ـ يكبر الأستاذ محمود (١٩٠٩) ـ بأربعة أعوام • فما ان يسأل يحيى محمودا فى العربية الا ودعابة محمود : مالك أنت والعربية أيها القولى « أى من مدينة قولة » • وهى مشاكسات ان دلت على شىء فانها تدل على البراءة الطفولية لشاكر والسماحة اللانهائية عند حقى •

ولكن هذه الجلسة على ظرفها تركتنى وأنا فى حيرة : « لقد كان الأستاذ يحيى حقى معجبا بما أكتب ، ويوما قال لى مشجعا بعد قراءة موضوع لى : انك تشكلين الخرساء » فشكرته •• فقال : هل تعرفين ما هى الخرساء ؟ قلت : تقريبا • ولأن الأستاذ يحيى يحب اللفظ الحتمى وليس التقريبى ، فقد أردف : : انها قطعة الخشب الصماء التى ينقش عليها الفنان فتتجلى موهبته ، فما الذى حدث فى آرائه بالنسبة لكتاباتى ياترى ؟ !

هل ذكرى لتركيته هى سبب رجوعه عن رأيه فى كتاباتى •• أم أنه وصل الى العمر الذى يجعل من وصل اليه يغضب أو يفرح لأوهى الأسباب •• لا سيما والأستاذ يحيى يحيا مع زوجة ليست فقط فرنسية فى أواخر عمرها فى الغربة ، بل انها مريضة أيضا •• وهذا وذاك يمثل الثمالة الأخيرة والمرارة لمن هى فى وضعها من الزوجات الأجنبيات ، فتعكسه بدورها على المحيطين بها باعتبارهم المسئولين عن هذه الغربة • وربما عاد ذلك الى احساسهن بدنو الأجل وتفكيرهن فى المقام الأخير •• لاسيما وهن لم يعتنقن الاسلام • ولم يندمجن فى المجتمع لسبب أو لآخر !!

لقد لاحظت هذا الملمح فى حياة كل من تزوج من أجنبية كالشاعر عبد الرحمن صدقى ، والأستاذ حسن مراد مصور ومخرج جريدة « مصر الناطقة » والدكتورين حسين فوزى ولويس عوض ٠٠ ولأن هؤلاء الأجنبيات لم ينجبن أيضا ، فانهن قد وجهن جل حنانهن واهتمامهن الى الطيور والحيوانات الأليفة ٠ ولهذه الكائنات تبعات جسام يتحمل الزوج نصيبا منها راضيا أو صاغرا ٠٠ فمنذ وقت قريب كان من واجبات الأستاذ يحيى مثلا ٠٠ مرافقة زوجته الى مصفف الشعر ٠٠ على أن يتولى هو فى هذا الوقت اصطحاب الكلب للنزهة ٠٠ ذلك أن الزوجة الغربية لا تتساءل مثل قريناتها الشرقيات « هل آخذ زمنى وزمن غيرى » كذريعة لعدم اهتمامها بهندامها فى الشيخوخة ، بل هى تهتم به مادام بها عرق ينبض ٠٠ زد على ذلك أنها لاتقوم بعمل البيت منفردة ، بل تشرك فيه زوجها مهما كان مقامه أو انشغاله ٠٠ لا سيما تقديم وجبة وقهوة الصباح ٠ فكل من ذكرت أسماءهم هم الذين يعدون لزوجاتهم قهوة الصباح مع الفطور ٠ برغم أنهن لا يعملن ٠ وقد أفلت الدكتور طه حسين من هذا الواجب اليومى لعدم ابصاره ٠

والبيوت التى صاحباتها أجنبيات ليست مفتوحة دائما على مصراعيها للضيوف ٠ فالصديق الذى حجز عند الطبيب وفى انتظار كشفه ٠ يخطف قدمه لزيارتهن ٠٠ لا ٠٠ للزيارة وقت معلوم محدد مسبقا بالتليفون ، بل انهن يحددن أو يحبذن لأزواجهن من يصادقونه ممن يعرفون لغتهن الأجنبية ٠ ولأنهن يصحبن أزواجهن فى الزيارات ولا يفوتهن التأفف اذا أقبل أزواجهن على الأكل الشرقى بعد ان اعتادوا المسلوق والمايونيز والكاتشب والمستردة ٠ فنجد صراخهن يعلو ويجلجل ٠٠ هذا كثير ٠٠ هذا مضر ٠٠ اياك أن تشكو بعد ذلك ٠ وهذا كله ان مر مر الكرام فان ما لا يمر هو الاكثار من التحدث بالعربية ٠ أما الويل فانه يكمن اذا تشبث نكتة مصرية لا يلتقطنها مهما تعلمن العربية ٠٠ عند هذا تختصرن الجلسة باشارة الى أزواجهن بالقيام ٠٠ والأريب منهم والأشجع من لا يلتفت فى هذه اللحظات ناحية زوجته ٠٠ وان كان سيتلقى جزاءه فى البيت ٠٠ منا يذكرنى بكلمة جدتى ٠٠ « اللى ما يتجوزش من ملته يموت بعلته » وقد مات كل من ذكرتهم من أسماء قبل زوجاتهم على هذا النحو من الخيانة ٠

وأنت عندما تزورهم فى هذه البيوت يقودونك الى تنصيص الحوار بينهم وبين زوجاتهم ٠ فالأستاذ يحيى يلفت نظرك الى لوحات زوجته وخزفياتها وتماثيلها ٠٠ ويقول لك : انظر الى حساسية يدها ٠٠ وشفافية ألوانها ٠٠ ان « جان ميرى جيهو » فنانة قديرة ٠٠ أوقعنى فنها فى حبها ٠٠ ومن أجلها تركت السلك الدبلوماسى لأعمل فى وزارة التجارة

والصناعة مديرا لمصلحة التجارة الداخلية ·· وبرغم ذلك فلا أجد (جان) قد انتشت أو ابتسمت لهذه التوددات ، بل أجدها تشيح بيدها قائلة : « لاحظى زوجى يحيى كلامه كثير » !

ولأن لزوجة الأستاذ يحيى حقى — خاصة — أولادا من زوج فرنسى — أما هو فليس له سوى ابنة واحدة من زوجة سـابقة هى « نهى » الأديبة الكسولة ، وان كانت لها أعمال تليفزيونية منها مسلسل « اللقاء الثانى » — فان زوجته تفرض عليه أن يسافر شهرين على الأقل كل عام لزيارة أولادها مما يكلفه الكثير الذى يضطر معه للترجمة · وفى سفرته الأخيرة معها للعلاج عام ١٩٩٠ لم يكن مع الأستاذ يحيى الا ما دفعه ثمنا لتذاكر السفر ·· ولكن الله عوض امتثاله لطلب زوجته المريضة بجائزة الملك فيصل فى القصة القصيرة ·· حيث وصلته بشارة هذه الجائزة وهى ماتزال تحت العلاج ، فأرسل بخطاب شكر الى الملك وهيئة الجائزة كبديل عن حضوره من فرنسا لاستلامها ·· ولأن هذه السفرة قد طالت ، فقد سألته بعد عودته : « يهيء لى أن قدر الجائزة قد ضـاع فى علاج « جان » ·· فقال لى مندهشا ·· « تعرفى أننى لم أدفع مليما فى العلاج ·· لأن « جان » موظفة فرنسية قديمة وكانت بالطبع تدفع التأمينات ·· ومن ثم فان التأمينات تشملها فى أى مرحلة عمرية ·· بل ان طبيبهـا الخاص شكرنى فى آخر زيارة له ، على أنهم اختصوه بشرف علاجها ·

ولهذا العمر الذى بلغه الأستاذ يحيى بعد أن شرق وغرب فى أرض مصر والعالم ، وحياته مع غربية لاتقدر الظروف ، بجانب دقة تكوينه — الذى يسخر هو منه كثيرا فى كتاباته — فقد ذهبت صحته ، أو توهم ذلك كما يداعبه دائما صديقه العلامة محمود شاكر · ذلك أن يحيى ما ان يشكو من أى شيء الا وانبرى شاكر لتفنيدها بل واثبات عكسها ·· ثم يردف ان الألم ليس فى المعدة ، وانما فى مكان آخر ويشير الى رأسه ، ثم يسأله ما هذا الذى تدخنه ·· وليس تساؤل شاكر اعتراضا على تدخين يحيى ، بل على نوع ما يدخنه وليس معنى ذلك أن شاكرا ليس مدخنا بل هو مدخن عريق · ولكن الفرق بينهما أنك فى استطاعتك تقـدم سيجارة لشاكر ·· بينما لاتستطيع هذا مع يحيى لأنه يشعل السيجارة من سابقتها وأحيانا يدخنهما بدون منقى (فلتر) ·

والأستاذ يحيى للعلم كان منذ وقت قريب من المغرمين بحل الكلمات المتقاطعة ·· فقد يتصل بأحدهم يسأله : ألا دللتنى على خمسة رأسى من أربعة أحرف تبدأ بلام مثلا · وزوجته كانت هذه اللعبة هى التى أعلمت أو دلت الأستاذ يحيى كم وهى فطرة — فالأستاذ يحيى كما أقول عنه دوما مثقف شامل اذا جاز هذا التعبير ، فهو أولا يقرأ بعدة لغات ، والعربية

فصحى وعامية ــ وان كان ليس ضليعا بهـــا ٠٠ حيث ورد وهو يتمثل بمقولة شعبية هي « كل غربال جديد له شدة » فكتب « وله تعليقة » بدلا من « شده » ، والفرق بينهما كبير ، ثم التركية التى تعلمها عندما عين فى استانبول وسكن عند أقربائه لأنه لم يكن يعرف منها قبل ذلك ســوى ألفاظ السب والاستهجان الى جانب اتقانه الانجليزية والفرنسية فى مصر ، ومن مكتبة أخيه الأكبر « ابراهيم » ، ثم الايطالية خلال عمله فى روما ٠ ويقول فى ذلك « وكنت قبل وصولى الى روما قد قرأت عن الحضارة الغربية وفنونها وآدابها حتى كدت أتلف مقلتىَ ٠ دراسة كبار الرسامين فى صور لهم فى الكتب لا فى المتاحف ٠ ولذلك ان فاتنى طول الاستماع الى الكونسيرتات والأوبرات ــ حتى عن طريق الاســطوانات ــ فاننى كنت أوشك أن أعرف كل شىء عن حياة كبار الملحنين فى تاريخ الموسيقى ٠ أعرف أسماءهم وأعمالهم وظروف تاليفها ٠ كنت خبيرا فى الرسم وأنا أعمى ، وخبيرا فى الموسيقى وأنا أصم » ٠

ويكمل بتواضعه المعهود فيقول « كنت (رايدر دايجست) لمكتبة كبيرة ، لا أزيد أنا الآخر عن أن أكون كتابا ــ فى حجم كتاب الجيب ــ مدفونا فى مخزن مظلم لا يرى النور ، وفى بطنه علم كثير ٠ وكان خيرا لى ــ وهذا شىء لم أدركه الا فيما بعد ــ أن أقرأ نصف أو حتى ربع ما قرأت ثم أذهب الى المتاحف وأستمع الى الموسيقى ضعف ذهابى واستمتاعى » ٠

وشيئا فشيئا صار الأستاذ يحيى لا يقرأ ولا يكتب الا اذا وجه من يسهل عليه عملية القراءة ، أو يكتب ما يمليه عليه ، ثم صرح بعد ذلك أنه اعتزل الكتابة فى الصحف والمجلات ٠٠ وبدأت هواية سماع المذياع تحتل حيزا أكبر فى حياته ، لاسيما وقد تبرع بمكتبته الضخمة الى جامعة المنيا ٠٠ كرد لتحيتها وتقديرها له بمنحه الدكتوراه الفخرية التى يستحقها عن جدارة ٠ ولكن اذا كان هو قد صرح باعتزاله الكتابة ، فان رؤساء الصحف والمجلات ولله الحمد لم يابهوا لهذا التصريح فيحرمونــا من كتاباته الفنية ، بل راحوا يلاحقونه فى كل مناسبة ٠ ومع كل تجديد للأبواب يلاحقونه باغنائنا بآرائه ثم جاءت اللفتة الكبرى الرائعة من هيئة الكتاب بعد ذلك بتحقيق حلم قرائه باصدار المجموعة الكاملة لأعماله ، حتى يتمتع من لم يعاصر كتاباته الأولى ؛ فوجدنا بين أيدينا فجــأة ثمانى وعشرين مجلدا ، استهلتهم باشهر أعماله لدى الجمهور « قنديل أم هاشم » مع سيرة ذاتية كتبها هو بنفسه ٠

يخايلنى ان هذه الأعمال جاءت لنا كتعويض عن المسافات الطويلة التى تمر بين مقال وآخر له ٠٠ فانها أظهرت لنا كم كان متواضعا حين قال فى سيرته : « اننى ممن يدخلون معبد الفن من أشد أبوابه ضيقا وعسرا ،

وليست هذه الشرارة بدوارة ، لهذا كنت من المقلين ، أسمعهم يعيبون هذا علي ، كأنهم يطلبون منى أن أكون من المدلسين ، يكفينى الصدق » •

فثمانية وعشرون كتابا بين الرواية والقصة واللوحة والنقد والمقال والدراسات الأدبية والفنية والتاريخية ، ليست قليلة حتى لو لم نذكر ترجماته لمسرحيتى « الطائر الأزرق » (ملترلنيك) و (دكتور كنوك) « لجول رومان » ، وروايات « تونيو كروجر » (لتوماس مان) ، و (لاعب الشطرنج) لستيفان زفايج ، و « البلطة » لميخائيل سادوفيانو ، وسيره — الكسندردماس التى كتبتها « اديث سوندرز » بعنوان « الأب الضليل » بالاضافة الى كتاب « القاهرة » (لدزموند ستيوارت) كما قام بمراجعة ترجمة عدد من المسرحيات العالمية التى أصدرتها وزارة الثقافة •

وأهمية هذه المجموعة الكاملة أنها تلقى أضواء على جوانب كثيرة فى كتابات يحيى حقى كادت آفة النسيان أن تطولها ، فعادت هذه الجوانب تسطع لاسيما الجانب التاريخى فى ذكريات الحجاز عن فريقى المخابرات الانجليزية اللذين بسطا نفوذيهما على البلاد العربية ، وبلغ ذروته ابان الحرب العالمية الأولى وأعقابها • أولهما فريق « لورانس » ، « رونالد سفورز » و « كلايتون » و « شكسبير » (هكذا كان اسمه) كان كل واحد منهم فى حقيقة الأمر ملكا متوجا ، ولكنهم بنوا عن عمد شهرة لورانس ليكون نجمهم المتألق الذى يجدد ذكرى زعيم هذا الفريق — الليدى ستانهوك — التى كانت تحيا حياة الملكات فى جنوب ولاية سوريا فى أواخر الامبراطورية العثمانية — وكان هذا الفريق يقف الى جانب الشريف حسين •

أما زعيم الفريق الثانى « جون فيلبى » الذى لقب بالحاج عبد الله فيلبى ، والذى كان يتقن من لغات الشرق الهندستانية والأوردية والعربية ، لا العربية الفصحى فحسب ، بل لهجات قبائلها • فباللهجة النجدية كان يتحدث الى المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ، وقت أن كان نديمه وأمين سره ، مع أنى حضرت (والكلام ليحيى حقى) مجلس الملك فلم أفهم عنه — أنا العربى المسلم — من قوله الا ثلثه • ويسترسل الأستاذ يحيى فى وصفه « فيلبى » فيقول : هذا الرجل له هدف يتلبسه ويلح عليه فينسى من أجله الحر الجهنمى — فى الحجاز — والعرق اللزج وكل شكوى أخرى من شكوانا السخيفة هذا الهدف هو بناء صرح الامبراطورية ، ولا بأس من أن يقيم الى جانب هذا الصرح قصرا يسكنه فيلبى ذو اللحية الزرقاء (كناية عن دهائه) وقصرا يسكنه فيلبى المستشرق ، وقصرا يسكنه فيلبى الرحالة جواب الصحراء الذى خبر فيها بنفسه كل كثب وبئر وكل

ذرة رمل وحجر ، وكل حيوان يدب أو يمشي وكل طيف من أطياف ألوانها البديعة في الشروق والغروب ، وكل دمدمة للجن فيها ، وكل دوي وصفير للرياح ، بل انه سجل في كتابه كأول انسان اجتاز صحراء الربع الخالي وصفا دقيقا لطبقات الأرض فيها .

ويعلق الأستاذ يحيى على هذا بقوله « نحن العرب المسلمون لانعلم شيئا عن الجزيرة العربية ، والذي نقرأه في الشعر الجاهلي نقرأه وعيوننا عمي ، ويجيء رجل من بلاد الضباب ، لا لغتنا لغته ، ولا ديننا دينه فيجوب هذه الجزيرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، لايبالي بالأهوال والأخطار ثم يسجل ما يراه وينشره للناس ، وهو عالم أن الذين سيقرأون كتابه من المتكلمين بالعربية قلة تعد على أصابع اليدين ، أو الذين سيفهمون منهم ما يقرأون قلة تعد على أصابع اليد الواحدة .

وينبئنا الأستاذ يحيى بختام جولة الفريقين فيقول : « الجواد الذي راهن عليه فيلبي هو الذي فاز أما الجواد الذي راهن عليه لورانس فقد خسر وخرج من الميدان .. ولكن فيلبي لم يسطع من ذلك سطوع نجم لورانس ، فما أن توطدت العلاقة الرسمية بين ورثة الملك سعود والحكومة الانجليزية الا وصدر بلاغ من الديوان الملكي بمكة يعلن أن الحكومة السعودية طلبت من المستر فيلبي - لا من الحاج عبد الله فيلبي - مغادرة البلاد بعد أن أنذروه مرارا بعدم المساس بأي موضوع لايخصه ، ولم يذهب فيلبي الى انجلترا لأنه كان سيعيش غريبا ، بل بقي في لبنان الى أن مات . وقد شاهدت وأنا بالكويت زوجة فيلبي .. والظاهر أن فيلبي كان قد تركها في سبيل خدمة الملك عبد العزيز حيث يتوجب على الجاسوس ألا تكون له روابط عائلية ، فقد تركها بين الكويتيين وهم شديدوا الاحتفاء بها .. وقد أسموها أم عبد الله .. وهو الابن الذي أشار الأستاذ يحيى لهروبه من بيروت الى موسكو ، وقد كتبت عنها موضوعا (أحبوا العرب فكتب لهم طول البقاء) .

ولا يفوت الأستاذ يحيى أن يسجل بداية الكشوف عن البترول في الجزيرة العربية .. وكيف بدأ سرا عام ١٩٢٩ أو قبلها بقليل حيث كتب : ففي الباخرة « ثالوري » التي أقلتني الى جده لقيت رجلا هولنديا يقيم في جده . وقد أشهر اسلامه وتزوج سيدة فاضلة من أهل جدة ، فاذا به يأخذني على جنب ونحن لم نتعارف بعد معرفة وثيقة ، ويطلب مني سرا أن أضع جهازا له بين أمتعتي ليخرج من الجمرك السعودي دون رقابة ، وقال لي : انه جهاز معد للكشف عن البترول ، وأن ادخاله للبلاد غير محرم ، لكنه يخشى أن يعبث به رجال الجمرك السعودي فيفسدوه .. وقد وقعت فجأة في حيص بيص ، وحرت ماذا أفعل ، وكان خليقا بشباب

غير مثلى أن يستجيب لهذا الرحالة ، لكن لحسن الحظ أنفت أن يستغلنى هذا الرجل هذا الاستغلال السخيف فرفضت طلبه » ٠

وليست الأنفة فقط هى ما جعلت يحيى حقى يرفض طلب هـذا الغربى ٠ بل هو اعتزاز بمصريته وعروبته ، التى جعلت الاباء والشمم يواكبا كل مواقفه تجاه الغرب ٠ فلا يخضع له على المستويين الانسـانى والثقافى ــ كما فعل كتابنا بدءا من الطهطاوى الى توفيق الحكيم وحتى يومنا هذا فيمن أسـموا أنفسـهم أصحاب الحداثة ــ اسـمعه يهمس فى أذنك عن مشاعره أول ارتطامه بالثقافة الغربية ، أو سفرته للعمل بايطاليا فيقول : « فكان يخيل لى قبل وصولى أننى اذا حللت بروما سـأسجد على الأرض لألثمها ، وأتمسح بأعمدة كنيسة بطرس وأرقد على سـلم الأوبرا ، ولكن عبثا بحثت عن هزة قلبى ، عن أثر الانبهار ٠٠ شتان فى الرحلة الى روما بين رجل يجيئها من الشمال ومعه تركة ثقيلة من مخلفات همجية ٠٠ وبين رجل يجيئها من الجنوب ، هو من أبنـاء الشرق ، فى جعبته كنز ثمين من حضارة كانت لاتقل عن حضارة أوروبا ، ومن ثقافة ان اختلفت عن ثقافتها فهى لاتقل عنها شمولا ، ولا قدرة على التملك وعلى اثارة الاعجاب والولاء » ٠

لذلك لا يفوت الاستاذ يحيى فى مجلد « عشق الكلمة » أن يهمس فى أذن مستوردى المذاهب الغربية فيقول : « ان المذاهب الأدبية ليست مجرد أفكار تنقل وتستعار من كتاب أو من أفواه النقاد ، بل هى نتاج تحولات اجتماعية بكل ما فى هذه الكلمة من عناصر سياسية واقتصادية ومكتشفات علمية ونمو حضارى ٠٠ فان الكلام عن المذاهب الأدبية عندنا ينفصل فى بعض الأحيان عن هذه الحقائق » ٠٠

يحيى حقى اذن يحب مصر بعبلها وربما لعلاتها ، فهو لا يحب فقراء الريف أو الأحياء الشعبية فقط ، بل يحبها برغم غياب التناسق والنظام والنظافة حتى فى المقابر المصرية ، بل يفلسفها فى مواجهة المقابر الغربية المرصوفة بشكل جميل ٠٠ تتسلق عليها الزهور المختلفة الألوان ، وكأنها حدائق متداخلة تنتهى بكنيسة رائعة فيقول فى قصة الموت والتفكير : « من رسالة الى صديق (مجموعة الفراش الشاغر) » : « أنا ؟ لو أردت رأيى الحقيقى لقلت لك : ان قبورنا على ما فيها من عدم النظام والترتيب هى فى ذوقها أرقى بكثير من الذوق الغربى ، بل نحن فهمنا الحياة والموت أكثر مما فهموهما و ٠٠ و ٠٠ ومتى كان الموت يعرف نظـاما وحدودا أو ترتيبا ما ؟ ٠ أى الحقائق وأى النظم وأى الترتيبـات تستطيع أن تقف برهة أمام الموت الا أزالها بأنامله ، وهو نفسـه هادم كل النظم ، القاضى على كل الترتيبات ٠ الحقيقة التى لا فوقها حقيقة أخرى !

. أى سوء ذوق وخرق فى الرأى أن تجمع بين قبر وحديقة ؟ أى فن أكثر من أن ترى الهوة التى يتردى اليها جميع الأحياء فتبنى حول حافتها سياجا من الزهور • بل أى تأثير تستطيع أن تكتسب لنفسك اذا دخلت مقبرة من هذه المقابر التى تمتدحها (حديقة قبر أو قبر حديقة ؟ ان إعتزاز الأستاذ يحيى بكل ما هو عربى ومصرى فى مواجهة الغرب لتشهد بمصريته الصميمة وعروبته الخالصة ، ولو أنه غير ذلك ـ أى تركى ـ لسجد للأوجه المقابلة ـ أى الغرب ـ ولفعل ما فعله كمال أتاتورك حين ولى ظهره للعرب والاسلام ، ولوقع فى أحضان الغرب وكتب العربيـــة بحروف لاتينية •

وليس عجيبا أن تكشف المجموعة الكاملة للأستاذ يحيى عن جوانب كثيرة فى شخصيته الموسوعية ، فقد بدأ الكتابة وهو فى السادســـة عشرة ، اذ ولد فى بيئة تعشق القراءة ، شغوفة برشـــاقة اللفظ ، تتنبه لزلة اللسان مهما كانت طفيفة ، تؤازرهما قدرة من الانطوائيـــة •• وهذه الانطوائية وان كانت من أسرار تكثيف ابداعات الأستاذ يحيى ، فهى أيضا تمثل الجزء الذى انفلت من الانغمار الكامل فى البيئة المحيطة ـ مصر ـ ومن ثم تمكن من ملاحظتها ، بل تذوق ملاحتها وحلاوتها •• ويتمثل ذلك فى أن عباقرة العامية المصرية هم من لم تكن العاميـــة لكنتهم الأصليـــة كبيرم التونسى الذى يبدو من اســـمه عدم مصريته أو من غير العـــوام •• كصلاح جاهين ومحمود تيمور • ذلك أن الالفة تميت الملاحظة ، واعتقد أن مقولة ان الانسان يحتاج لجزء منفلت من الانغمـــار حتى يلاحظ به المحيط من حوله هى اجابة لسؤال الأستاذ يحيى حقى فى سيرته : ـ « أما الظاهرة الغريبة التى أحار كثيرا فيها وفى تحليلها وأنا أتأمل حياتى وانتاجى ، هى أنى وان كنت من أصـــل تركى قريب ، فانى أحس بانى شديد الاندماج بتربة مصر وأهلها ، وفى بعض الأحيان يرجنى هذا الشعور رجا عنيفا •• ومعرفتى باللغة العامية المصرية وتعبيراتها تفوق ما حصلته منها مباشرة • قد يكون ذلك راجعا الى الفطرة والاحساس غير الواعى ، ولعل هذا الحب هو الذى يميل بى الى استخدام بعض الكلمات العامية فى كتاباتى برغم أنى من المهووسين بالفصحى » •

ولا ننسى أنه الى جانب صغر عمره وهو يمسك بالقلم •• وسط عائلة مثقفة ، وسفرياته الكثيرة داخل مصر وخارجها ، عمل على توسيع المساحة الثقافية التى تحرك وسطها اذ يقول : « لا قياس عندى لعمرى الا بهذه اللحظات القليلة النادرة ـ تواضع منه ـ التى نهض فيها عرق من روحى مهتزا بجذل قدسى عند التقائى بالفن ، متلقيا ومعبرا • قمة هذا الجذل عند التقائى بالشعر والموسيقى ـ على قدم المساواة ـ ثم النحت ، ثم التصوير • ثم العمارة • لست أدرى أين أضع بينها لقائى برشاقة

الانسان في فن الباليه . يعلو كل هذا جذل اللقاء بفن أعظم وأجل .. فن الطبيعة وجمالها ، لو أفضت فيه لاحتجت أن أكتب مجلدا ضخما .. لحظات قليلة نادرة ، ولكنني عرفت بفضلها طعم السعادة وحمدت ربي عليها حمدا طويلا لا ينقطع » ، والمجموعة الكاملة قبل أن أنسى ليست جديدة علينا نحن محبي وقراء الأستاذ يحيى فقط ، بل هي جديدة عليه هو أيضا ، فهو يستبشر كلما لامست يده سفرا منها ، بل قد سألني بعد ظهور أولها : « هل لاحظتي في قصة (السلحفاة تطير) أن البطل الحقيقي هو الراوي ؟ وأن القصة انتهت حيث بدأت ؟ رغم أن الأستاذ فؤاد دوارة ثبت هذا المعنى في الهامش ، ويوم ظهرت ترجمته لرواية « لاعب الشطرنج » : هل تتذكرينها ؟ قلت ان الاطار الخارجي لها ظهر باخرة ، والبطل سجين لا يحب لعبة الشطرنج و .. و .. فانشرح متمتما هذه هي ..

لقد كان في ظهور هذه المجموعة الكاملة فرصة متاحة لأن أتحاور مع الأستاذ يحيى حولها . أو قل على الأصح لأثبت أن رؤيتي لشخصه لاتنطلق من فحوى ما كتبته عنها أو عن تركيته .. قلت له يوم ظهور أول سفر قنديل ام هاشم : لم آكن قد انتبهت يوم قراءتها في الماضي لهذا الهامش الذي صرحت فيه من أين استقيت صرخة اسماعيل بعد أن هوى بعصاه على القنديل فحطمه وتناثر زجاجه : « أنا .. أنا .. أنا ؟ » وكيف أنك « مكثت أكثر من أسبوع أبحث عن الكلام الذي ينبغي أن ينطق به اسماعيل في هذا الموقف ، وقد أحسست أنه يجب ألا يزيد عن لفظ واحد ، يكون هذا اللفظ معبرا عن الأنين وعن الرغبة في البوح .. وفي الاستعطاف .. وفي تأكيد الانتماء .. وبينما أنا حائر في البحث عن الكلمة المناسبة اذ تذكرت نصا كنت قرأته عن حياة الفيلسوف الألماني « نيتشه » وبقى منه في ذهني أنه حين أصيب بلوثة الجنون هبط من بيته الذي كان يقع فوق قمة جبل مرتفع وهو يصرخ : «أنا .. أنا .. أنا .. ؟» . وعندئذ أدركت أن هذه هي الكلمة التي كنت أبحث عنها ، لأنها تجسد كل المعاني التي طلبتها ، خاصة وأن حرف النون فيه نغمة الأنين . ولعل الذي قادني الى تذكر هذا النص أن « اسماعيل » في هذا الموقف كان هو الآخر قريبا من الجنون » .

واذا كان الأستاذ قد أنهى هذا الهامش بقوله : « وهكذا يتأكد في اعتقادي بأن الذي يضفي على النص الأدبي قدرا من قيمته هو اشارته الخفية الى أعمال أدبية أخرى ممتازة .. فكأن للأدب كيانا متكاملا اشترك في تشييده كل من سبقونا ومن يعاصروننا من كبار الكتاب في كل اللغات » .. فاني أقول له كم أنت متواضع أمين ، فكثير من الكتاب يستقي ممن سبقوه الكثير ولكن دون أن يشير الى المنهل .. بل انني فكرت في

كتابة مقال عن تعبير واحد يتكرر فى أعمال كثيرة ·· دون ذكر المنبع مثل جملة الملك ريتشارد فى مسرحية « ريتشارد الثالث » حين تكأكأ حوله الأعداء : « مملكتى مقابل حصان » ، ونسج على منوالها « أروين شو » فى مسرحيته « موتى بلا قبور » على لسان أحد الجنود الذين رفضوا الدفن حين قال « حياتى مقابل سيجارة » ، وعلى لسان الفتى مهران عندما أراد حرق أوراق تدينه فقال « مملكتى مقابل عود ثقاب » و ·· و ··

مرة أخرى أقول له « والله يا أستاذ يحيى ليس من فهم المصرية خيرا منك لا سيما فى اعتقاداتها فى الحسد والتفاؤل والتشاؤم والقلق من الحذاء المقلوب ·· و ·· و ··

لدرجة أنى قلت له اذا كان الأستاذ نجيب محفوظ خير من صور الهيكل المعمارى للتركيبة المصرية فانك صورت كيف التصقت كل لبنة بأخرى فى هذا المعمار · واذا كان « حسن فتحى » مهندسا بيئيا عالميا ، فأنت محلل نفسى عالمى لكل أنماط البشر من الأفارقة والغربيين والعرب والمسلمين الذين قابلتهم فى رحلاتك المنصبية ·· ويسعد لذلك بقوله « والله انك أسعدتنى » · وأحيانا يحدث العكس تماما بشكل يشف ليس من نبراته أو ملامحه بل بلفظه أيضا ·· أتذكر أننى فى مكالمة واحدة زل لسانى مرتين بتلقائية يحبها هو عندما قلت له رأى الأستاذ نجيب محفوظ فيما كان يكتبه فى جريدة التعاون وأنها كتابات تسمق على فكر العمال التى تصدر من أجلهم أحيانا ·· فاذا كانت الموضوعات التى عنونها ب « من فيض الكريم » رغم ارتفاع مستواها الفكرى قد تكون صالحة لأنها تتكلم عن مناسبات دينية قد يحترمها القارىء ويجلها وان لم يفهم أبعادها السحيقة مثل « لماذا أنا سعيد لأنى ولدت مسلما » أو « فى مولد الرسول » و « دعاء » و « رمضان كريم » و « من وحى ليلة الرؤية » أو « هل هلالك » · الا أن موضوعات أخرى مثل « أسلوب عف رقيق » التى تكلمت فيه عن رأى « فرانسوا مورياك » فى مخاطرة بل حماقة كتابة السيرة الذاتية ، أو « وجه الورقة وظهرها » ، التى تكلمت فيها عن رأيك فيمن يكتبون للشعب عن الشعب ، واستشهاداتك بقصة تاييس لأناتول فرانس (وعلو الكعب) وتشبيهاتك من شكسبير واليوت وسارتر ، « وبين الهواية والاحتراف » و « من الخاص الى العام » المنشورة فى مجموعة « عشق الكلمة » والتى تحدثت فيها عن الرسائل الجامعية طولها واعتماد الدارس فيها على تلخيصات الكتب وليس الأصول ، وعدم ذكر من سبقوه فى بحث نفس الموضوع و ·· و ·· ولا يتشفع لها المقدمة التى تقول فيها : « هذا الكلام قد لا يعنى الا فئة خاصة فى المجتمع هى وحدها التى تهتم بها ، لولا أنه يتضمن نفعا لنا جميعا ، لما اثقلت به على

قراء التعاون ، فمن حقهم على ألا أحدثهم الا بما تتعلق به مصالح عامة الناس . » • أو خطابه للكتاب الذين يتصورون أنهم يخدعون الشعب ب « وهمت وأخطأت » ، هذا الشعب الكادح تحسبه بسيطا وهو ليس بالساهل ولا بالساهي ، ينضحك على عقله بقطعة حلاوة وهو أذكى منك • انك قد تفهم « سارتر » ولكنه يفهم الفوله •• تعال أحكى لك حكاية « تولوستوى » يوم أن ضاق ذرعا بالفرق بين حياته ومبادئه التى ينادى بها و •• و •••

قلت كل هذا ولم أسمع أى رد فعل من الأستاذ يحيى ففطنت أننى أغضبته فغيرت الموضوع بأن نقلت له فحوى مكالمتى مع الأستاذ فؤاد دوارة المغرم صبابة به ، وكيف أن غيريته أبت ألا يكتب حتى مقدمة لكل مجلد من مجموعته الكاملة ، برغم أن الأستاذ محمد روميش من المغرمين من أيضا قد كتب مقدمة « خليها على الله » وحدها • وأن الأستاذ فؤاد دوارة قال لى : أنه لم يكن مغرما بك أيام عمله معك بقـــدر ما أغرم بك •• وهو يجمع هذه المجموعة من مظانها •

عندئذ فقط سمعت الأستاذ يحيى حقى يقول : « ألاقيها منك النهاردة من أين •• من عدم رضاء الأستاذ نجيب محفوظ عن كتاباتى فى التعاون •• أم من عدم عشق الأستاذ فؤاد دوارة لى أيام عمله معى ••لا••لا•• » •

وأنا لا أتعجب من رد فعل كلامى على الأستاذ يحيى •• استحسانا أو استهجانا •• وانما اتعجب لأن رد فعله حاد جدا سواء بالفرح أو الغضب حتى بت أحيانا أتصور أنه لم يغضب مما كتبته عن تركيته •• لأنه وصل الى الثمانين • وانما لطبعه التركى • لا سيما وقد قوم هو نفسه احدى بطلاته « مجموعة الفراش الشاغر وقصص أخرى » من خلال طبعها التركى •• ففى قصة « فلة ومشمش ولولو » قال فى وصف بطلتها : « لم تكن « سرنديل هانم » برغم طيبتها محبوبة من جيرانها ، لأن خلقها التركى الحاد جعلها تصطدم مع جيرانها لأوهى الأسباب ، فهى لا تستطيع أن تكتم تأففها اذا زارت جاراتها ورأت الأثاث مبعثرا متسخا قذرا •• أو شاهدت ولدا يتناول القلة ويشرب دون أن يستعين بالكوب •• ولا تحاذر عنـــد ذلك •• وقد تشيح بوجههـا وتتمتم بصـــوت مســموع : فلاحين « بيسلمونده » أى قذرين كما ترجمها بالهامش ، ولا نريد الاستدلال من هذه القصة غير الطبع التركى ونرفض بقيته حيث علق الأستاذ يحيى على ذلك ب « وأخذت تعتبر نفسها أنها دليل ناطق حى لعدم صلاحية المصريين للحياة ! والمصريون ـ عفـا الله عنهم ـ لا يحبون من أحـد أن يذكرهم بخطئهم ، لذلك انقطعت الصلة بينها وبين جيرانها •• وبرهنت بذلك على أن التركية والمصرية لا تأتلفان » • لا ينسحب هذا الرأى على الأستاذ يحيى ، ـ ربما مرحليا ـ فقد كانت هذه القصة أول أعماله •• أى قبل

أن يقع في حب مصر ، لدرجة انه أنهى سيرته الذاتية بقوله : « وأثناء اقامتى الطويلة فى أوربا كان أكثر ما أحن اليه فى مصر هو احياؤها الشعبية القديمة التى أسمع فى ازقتها كلمات مثل « أجرنها » ، « يا دلعادى » وأعايش تلك الروح الشعبية الحلوة الصابرة التى حاولت تصويرها فى « قنديل أم هاشم » • فى النهاية نستطيع القول أن يحيى حقى هو مصداق لقولته هو نفسه فى محمد تيمور ومحمود تيمور من بعده ، وانك لتحس أن نزعة تيمور فى الأدب مبعثها حب صادق لمصر وأهلها ، وليس من الغريب ـ كما يظن أول وهلة ـ أن الذى يضمر هذا الحب كله ، ويحمل لواء المناداة بالأدب المصرى الصميم ، فتى لا تجرى فى عروقه دماء مصرية ، بل دماؤه خليط من التركية والكردية والاغريقية ، فهى ظاهرة طبيعية مألوفة عند الغير كما عندنا فى أن العرق الحديث أكثر العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباها لفضائله وجماله ، لذلك تراهما حريصين أشد الحرص على تأكيد خبرتهما بعامة الشعب من الفلاحين وفقراء المدن ، وليست العبرة أن يولد الكاتب فى أحضان هذه الطبقات ، بل فى قدرته على الاحساس بها ، وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى » •

ونضيف نحن من خلال معرفتنا بالأستاذ يحيى ـ شخصا وأدبا ـ أن الانسان الأصيل يبقى شىء من أصله بعد اتخاذ هوية جديدة ، برغم أنه عشقها كل العشق •

ولا نستطيع أن ننهى هذا الموضوع الا بتذكير أولى الأمر ـ بما حدث فى أوربا عام ١٩٦١ من ترشيح الكاتب البرازيلى جورج آمادو « لجائزة نوبل » حيث صرح رئيس الجمهورية « جانبو كوادوروس » : ـ ان أوربا مدينة لنا بجائزة نوبل منذ عهد بعيد لنواح مختلفة من نشاطنا الثقافى » •

فما بالنا والأستاذ يحيى حقى وحده يمثل باقتدار هذه النواحى المختلفة من نشاطنا الثقافى وابداعاتنا فى مصر •

محمد عودة

الذى تنبأ بالنهوض من كبوة النكسة

ادرك الأستاذ توفيق الحكيم اذن الكثير من الأسباب الخفية التى وراء فشل الفيلسوف الفرنسى (جان بول سارتر) للقاهرة فى مارس ١٩٦٧ ، وكانت هذه المعرفة قد تمت بأثر رجعى أى مسبقا ـ على يدى ـ وذلك بعد محاولات عنيفة ومشاورات ومداورات بينى وبين الأستاذ الحكيم كان من الصعب ان ينطق بها لسانى فى حينها ، وان كان قد فاض بها قلبى ٠٠ وقد راجعه فى ذلك ـ كما قلت ـ بعض أصدقائه ، كالأستاذ حسين فوزى وذلك بمنطق يسمح به تماثل العمر بينهما ، أو بذكاء وخفة ظل من الأستاذ أحمد بهجت ٠ وهكذا بعد أن تأكد الأستاذ توفيق الحكيم من صحة ما سبق من أسباب حول فشل زيارة سارتر واجهاضها قبل أن تبدأ ، من ثم أخذ يتحين الفرص لمصالحتى ٠٠

كنت حاضرة بمكتبه بمبنى الأهرام القديم ذات مرة مع بعض الكتاب الذين كانوا يقرأون رسالة فيتنام التى أرسلها الكاتب الصحفى الأستاذ محمد عودة الى جريدة الجمهورية ، ومن خلال مناقشاتهم وتحليلاتهم لهذه الرسالة خلصت لى توقعات محمد عودة التى تصل الى حد اليقين بحتمية نجاح هذه الثورة كما جسدها فى سطور رسالته ، وقد ألمحت خلال حديثى عن فحوى الرسالة اشارته الى الاستحكامات العسكرية المقامة داخل المدن الفيتنامية التى كانت على شكل مخابىء موازية لكل الشوارع ، كان المواطنون يلجأون اليها فور سماعهم انذار الهجوم ، وبعد سماعهم لنداء صادر عن صوت نسائى ناعم ، وليس

صوت رجالى خشن ، وكيف أنهم كانوا يقدمون للمراسلين الأجانب وأيضا للمواطنين فى وقت واحد الشاى فى أكواب نظيفة بديعة الصنع ..

وما أن انتهيت من كلامى ، الا وقد علق عليه الأستاذ توفيق الحكيم قائلا : هكذا تشىء شفافية الفنان الثائر محمد عودة عن امكانية نجاح الثورة الفيتنامية فى سطور قليلة ، وذلك لأن الاستحكامات المدروسة تدل على الحرص ، والنظام يؤدى الى النجاح ، وأن صوت المرأة يدل على أن جميع فئات الشعب تشترك فى هذه الثورة ، وأن النظافة ودقة صنع أكواب الشاى تدل على التزام الدقة فى جميع المجالات ، وقد أردفت بأن تقديم الشاى للمواطنين مع الضيوف الأجانب يدل دلالة واضحة وأكيدة على المعاملة الانسانية للمواطنين والأجانب على حد سواء ، ثم أكمل الأستاذ الحكيم ، أننى أقصد أن جميع الأمور تسير فى طريقها الصحيح ، وكل هذا امتلاك لأسباب النجاح بنواحية المختلفة ..

وبعد أن قام بعض الحاضرين من المجلس لمباشرة أعمالهم بالجريدة (الأهرام) ، وجدت الأستاذ توفيق الحكيم قد سرح مفكرا متفكرا ، ثم واجهنى بسؤال وكأنه يسترضينى ، هل تعرفين من الذى كان باستطاعته أن يجعل زيارة سارتر ناجحة ؟ . قلت : من ؟ قال : صديقك محمد عودة ، لقد كان باستطاعته لو أنه كان موجودا بالقاهرة أن يستل الرفقة السارترية من أيدى المشرفين عليها ، وأنهم كانوا سيقبلون ذلك عن طواعية ــ كما يهيأ لى ــ اذ أنه كان سيلحق بهم الى آفاق أكثر جدوى وجاذبية اذ كان سيأخذهم ــ مثلا ــ الى بلدته فاقوس حيث يرتدى سارتر الجلباب ، ويدخل قدميه فى « المداس » الريفى الشهير (البلغة) ، ثم يجلسان معا تحت احدى أشجار الجميز يتحاوران ويتشاوران (على طريقة عودة الأخاذة) عما يعن لهما من موضوعات يسوقها عودة بذكائه المعهود وظرفه وحجته السلسة الى الهدف المتوجب !

وافقت الأستاذ توفيق الحكيم على هذه التصورات رغم مجيئها بعد فوات الأوان ، واعتبرت كلامه لى مصالحة ومراضاة عن طريق محمد عودة ، اذ أن سارتر كانت له رغبة شديدة وأكيدة أن يلتقى بالمصريين وجها لوجه بلا وسيط ، حيث كان يضيق بشروح المترجمين خلال زياراته للآثار المصرية ، وأنه كما ذكرت عنه سيمون دبوفوار ، يحب أن يتأمل وحده ويستوحى الاجابة على كل ما يريد معرفته فقط ..

تلك كانت لمحة خاطفة أردت بها أن تكون مدخلا للحديث عن الكاتب محمد عوده الذى كان غيابه فى فيتنام سببا فى فشل زيارة سارتر للقاهرة فى تقدير الأستاذ توفيق الحكيم ..

ولكن !! ما هى التركيبة الثقافية والفكرية للأستاذ محمد عوده ؟

هل استمر رأى الأستاذ توفيق الحكيم فى الأستاذ محمد عوده كما هو حتى وفاته عام ١٩٨٧ ؟ ولماذا ؟ وما رأى المثقفين المصريين فيه ؟ وما هو الرأى المقابل للقيادات العربية فى شخصية محمد عودة ؟

وأخيرا ···· رؤيتى كشاهدة عيان خلال ربع قرن من الزمان ، تلميذة وصديقة لهذا الانسان العظيم الذى وهب حياته لقضايا أمته من خلال الكلمة الشريفة والموقف الشجاع ··

اذ عبر هذه القضايا وايمانه بها وتناوله لها تبدو أهمية محمد عودة السياسية والثقافية والانسانية ·· ولا شك ان فهم شخصية محمد عوده تحتاج الى عدة طرق لابد أن نسلكها كى نلقى شعاعا على جوانبها المتعددة ، وحتى تكون فى النهاية صورة متكاملة تجسد هذه الشخصية المتفردة ·· ويمكننا اذا أردنا أن نصور جانبا من شخصية محمد عوده من خلال عدسة الأستاذ توفيق الحكيم الذى كانت كتابات محمد عوده عنه تفيض ثناء واعجابا ، سنجد أن الصورة قد تغيرت ، حيث تبدو أشياء وتختفى أشياء ، مما يجعلها فى عين الرائى جديدة تماما ، لدرجة أنه ورد لجريدة الجمهورية التى كان عودة يومها محررها السياسى عام (١٩٧٥) خطاب مفتوح من قارىء ريفى يقول فيه (لقد قرأت مقالات كثيرة منذ زمن بعيد كتبها الصحفى الشهير محمد عوده قال فيها « ان الأستاذ توفيق الحكيم هو الفنان الذى عبرت كتاباته عن ضمير مصر وروحها الوثابة ، ثم قرأت أخيرا كتابا بعنوان « الوعى المفقود » لكاتب يسمى محمد عوده يرد فيه على كتاب « عودة الوعى » للأستاذ توفيق الحكيم » كتب على غلافه : ليس هذا الكتاب ردا على توفيق الحكيم ولكنه دفاع عن الشرف السياسى والثقافى لمصر ، شرح فيه بالنقد المر شخصية توفيق الحكيم مذهبيا وفنيا ، مفندا كل ما ذهب اليه من برجه العاجى الى التعادلية الى لقب عدو المرأة ، الى انتسابه لدار أخبار اليوم ثم الى الأهرام من بعدها والتى كانت تمثل الموقف الرسمى الذى انصب عليه وعلى عصره هجوم توفيق الحكيم فى كتابه (عودة الوعى) ، ثم وصف الكاتب محمد عوده توفيق الحكيم بقوله : لم يكن هناك ابتذال للكاتب والكتابة عامة أكثر رخصا من هذا ···· لكن الرؤية الأعمق ، « كان هذا توفيق الحكيم على حقيقته ومجردا من كل المسوح » ··

ويتساءل المواطن الريفى فى آخر رسالته : فهل محمد عوده صاحب المقولات الايجابية عن الحكيم هو محمد عودة كاتب (الوعى المفقود) ، الذى هلهل الحكيم ؟ ··

كان رد محمد عودة على هذه الرسالة عنيفا مشحونا بالسخط والتعجب الشديد ، وقد أردف مشيرا على مرسل الرسالة بأن يلتفت الى

الزرع والقلع ويترك ساحة الفكر لأهله ٠٠ الا أننى وبعد أيام قليلة من هذا الرد ، تقابلت مع الكاتب الروائى ثروت أباظة الصديق الصدوق لتوفيق الحكيم ، فبادرنى قائلا : أرأيت كيف تمكنت من استفزاز محمد عودة ؟ ، عند ذلك عرفت أن ثروت أباظة هو صاحب الخطاب المفتوح ، وأن عودة أدرك بفطنته وحســـه ما وراءه ، فكان هــذا الرد العنيف والساخط ٠٠ ولو أن ثروت أباظة كتب الرسالة باسمه لكان هذا أفضل وأجدى للحوار ، فان محمد عودة من الذين لا يضيقون بالحوار وانما باللف والدوران ٠

أذكر أننى قلت يومها للأستاذ ثروت : على أى حال فأنا أرى أن عودة الكاتب لم يتناقض مع نفسه ، بدليل أنه استهل كتابه « الوعى المفقود » بالقصة المشهورة للموسيقار الشاب الذى قال للمايسترو الكبير : بالنسبة لتوسكانينى الفنان ، فاننى أحنى رأسى ، أما بالنسبة لتوسكانينى الانسان ٠٠ وخلع حذاءه وانهال عليه » وانى أرى أن عوده الأول هو نفسه عوده الثانى والمحق أيضا من واقعه السياسى ٠٠

واذا كانت صورة توفيق الحكيم بعدسة عودة قد انقلبت رأسا على عقب ، فقد أفضت بنا الى جادة واسعة فى شخصية عودة وتوجهاته الفكرية والسياسة المميزة وأنه التجسيد الحى للناصرية قلبا وقالبا ، فهو لا يطيق أن يمس انسان مهما كانت درجة قربه اليه بالعهد الناصرى ٠٠ فاذا حدث ذلك ، تراه يثور ثورة عاتية عارمة ، ولا يسمح بأى تفاهم ، لدرجة أن المخلصين له والمقربين منه أطلقوا عليه (أرملة الزعيم الراحل) لأنه كان يتحيز لعبد الناصر أكثر من أهله (أرملته وأولاده) ٠٠

ومع أننى لا أتفق معه فى هذا التحيز على طول الخط ، الا أننى أغرى القارىء على سباحة داخل هذه الشخصية التى أكتب عنها من منطلق الاعزاز والاكبار ٠٠

(أ) كتب ومعارك فكرية

عندما نقترب من شخصية محمد عودة عبر كتبه الاثنى عشر وحواراته الفكرية والسياسية الثرية نجدها تنقسم الى قسمين :

أولا : ما كتبه عن الحركات الوطنية التى أقامت عمد دولتها مثل كتابه عن «الصين الشعبية» (*) الذى وافق الرئيس الراحل جمال عبد الناصر شخصيا على نشره كاملا ، حيث أن الرقابة كانت تعترض على الجزء الخامس الخاص بانقسام شان كاى شيك على ماوتسى تونج ، خوفا من أن يكون فى هذا التناول اسقاط على الانقسام الذى حدث فى الثورة عام ١٩٥٤ ، ثم

(*) كتب هذا المقال سنة ١٩٨٠ قبل السماح بتكوين الاحزاب ٠٠

كتاب (ميلاد ثورة) وهو عن ثورة ٢٣ يوليو المصرية ، وكتاب (ثورة العراق) ، الى كتاب (رحلة فى قلب نهرو) ، وكتاب (عرابى المفترى عليه) ، وكتاب (قصة مصر والسوفيت) ٠٠ الذى اشترك فى كتابته مع الأستاذين فيليب جلاب وسعد كامل ٠٠ كما قام بترجمة كتابين فى هذا الفرع ، مثل كتابه عن (ماوتسى تونج) ، و (دع مائة زهرة تتفتح) ، والذى اشترك معه فى الترجمة فيليب جلاب أيضا ٠٠ أو محاوراته الطويلة مع الكتاب العالميين ، مثل حواره حول الناصرية مع الكاتب روبرت ستيفنسن ٠

ثانيا : مؤلفاته التى ترد على افتراءات رآها تجثم فوق حقيقة يراها قد زيفت ، مثل (الوعى المفقود) والذى كان ردا على ادعاءات توفيق الحكيم فى كتابه (عودة الوعى) أو (الباشا والثورة) ، والذى رد فيه على مقالات كتبها فؤاد سراج الدين سكرتير حزب الوفد السابق ورئيسه الحالى ، كتاب « هذا الافتراء على الناصرية والجهل بالماركسية » وهو موجه للدكتور فؤاد زكريا وكل الذين تقلدوا راضين مناصب حساسة فى عهد عبد الناصر ٠٠ ثم هاجموه بعد وفاته ٠٠ وكان الدكتور فؤاد زكريا قبل الهجوم رئيسا لقسم الفلسفة بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس ، ورئيس تحرير مجلة الفكر المعاصر التى تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ثم كتابه عن (عرابى المفترى عليه) ٠٠ الذى أزاح فيه كثيرا من الغيوم التى تلبدت حول تلك الشخصية الوطنية الفذة ٠٠ والذى أطلق عليه الاستعمار لقب « الثائر الفلاح » ٠٠ أى الساذج ، ومن الغريب أن الشعب المصرى الذى قام عرابى من أجله بثورته ، قد استقبله فريق منه بالاساءة اليه يوم عودته من المنفى ٠٠ ويعتبر هذا الكتاب استكمالا لما بدأه عودة فى كتابه « ستة باشوات » ، حيث تناول فى هذا الكتاب الذى ينحو كثيرا نحو الأدب السياسى زيارة عودة للمكان الذى نفى اليه عرابى بسيلان ، وكيف أصبح مزارا الى يومنا هذا ، ويحكى الطفرة الثقافية والاجتماعية التى فجرها عرابى وصحبه فى المنفى ٠٠ مما يدل حقا أن زامر الحى لا يطرب ٠٠ أو لا كرامة لنبى فى بلده ٠٠ أو حتى الشيخ البعيد سره باتع ٠٠

والسؤال الآن هو : هل نكتفى بمناقشة مؤلفاته للحكم عليه أو للتعرف على شخصيته ؟ أقول ، لا ـ ان ذلك لا يكفى دون سبر أغوار معاركه الفكرية ، ومع من خاضها ؟

(ب) الناشئ الثائر

على انه إذا ذهبنا الى تصوير شخصية محمد عودة من خلال ما كتبه المعاصرون له من المحافظين والتقدميين وجدنا أنهم يتشابهون فى رسم جانب من شخصيته ، وهذا الجانب هو (الدفاع عن التراث) ٠

لقد اختاره العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر شاهدا على كتابه (أباطيل وأسمار) الذى ضمنه ردوده المفحمة على مقالات الدكتور لويس عوض « على هامش الغفران شيء من التاريخ » حيث كانت هذه الردود آنذاك تمثل الدفاع عن الأمة العربية والاسلامية خلال فترة كتابتها ··

لقد رسم الأستاذ شاكر فى كتابه ملمحا من شباب عوده فقال : (عرفته منذ كان ناشئا ثائرا شديد الحفاوة بالمعرفة ، مقبلا عليها ، على حيرة كانت تنتابه وتموج به ، وكان معذورا فى حيرته ، لأن زماننا ذاك ، كان ميتة من الأحياء ، من لا يجد فى نفسه شيئا من الحيرة التى تؤدى الى نفض اليد من كل شيء ·· حتى لو بلغ أن يرفض الحياة بفراق الحياة ، لكان معذورا أيضا ·· وأحببته يومئذ ، ولكنه ضل عنى سنوات وأضللته ، ولم أتبينه فى الناس الا بعد سنوات طوال ، ولم تنقص غيبته عنى شيئا مما كنت أحمله له فى نفسى ، مع أنه جاء وقد تغير أمره ، وقد حمدت من أمره شيئا ، وأنكرت أشياء (*) ··

(ج) حول مائدة المعرفة

أما الطرف الآخر وهو الدكتور لويس عوض ، فقد وصف لى محمد عوده عندما سألته عنه فقال : عرفت محمد عوده بعد عودتى من البعثة ، محملا بالأفكار الجديدة ، مبهورا بالآراء الليبرالية ·· ووجدت لدى الشاب محمد عوده زادا من هذه الأفكار نابعا من ارتباطه بأرضه مع روحه المتجددة الفياضة ·· يتجاوز زادى الذى حملته من الخارج ، فارتبطت به وأحببته ·· وكان يتوه منى كثيرا فى شعاب الحياة ·· ولكن الشرارة الأولى التى تركها فى نفسى ظلت تتوهج يوما بعد يوم ·· فعودة صديق عندما يغيب ، صديق عندما يتواجد لنجدة صديق فى ضيق ·· فقد حدث أن هاجمنى بعنف أثر صدور كتابى « المحاورات الجديدة » ، الا أنه سبق أن دافع عنى فى مواجهة محمود شاكر الذى هاجم مقالاتى « على هامش الغفران ، شيء من التاريخ » ··

ومن المعروف أن الدكتور لويس عوض كان قد صور محمد عوده دراميا فى كتابه « المحاورات الجديدة ، أو دليل الرجل الذكى الى الرجعية والتقدمية وغيرهما من المذاهب الفكرية » وهو كتاب صدر فى أوائل عام ١٩٦٧ عقب معركة شبت بين الشيخ محمد الغزالى والفنان صلاح جاهين ، حول وضع المرأة المعاصرة ، هل هو مختلف عن سابقتها ؟ فاتخذه الدكتور

(★) من نافلة القول ، الاشارة الى أن الجوانب التى حمدها شاكر فى عوده ، هى صدقة مع نفسه ، أما التى أنكرها عليه ، فترجع الى اختلاف الرجلين حول تحيز عودة للعهد الناصرى واختلاف شاكر معه ، ثم تقدميه عودة وشاكر المحافظ من ناحية أخرى ··

لويس محزورا لمناقشة التراث ·· حيث تصور اجتماع نماذج بشرية شائعة لأدباء مصر وفنانيها حول مائدة المعرفة بعد أن صنع لكل منهم قناعا باسمه ··

وقد أعطى لويس عوض لمحمد عوده قناع (*) « المخلص الراسى » وشبهه بفالق الشعرة الذى يلمح الفروق الدقيقة بين المذاهب المختلفة ، وبالتالى فهو القادر المتمكن على تصويب مسار الحوار الدائر ، ثم يختفى ليظهر فى معركة حساسة أخرى فكرية كانت أم سياسية ··

ومرة أخرى نتساءل : هل تصلح آراء المخلصين من أصدقاء محمد عوده لفهم شخصيته ؟

اذا تعمقنا فى كشف ملامح صورة محمد عوده من خلال فكره وكتاباته السياسية ، نراه يختلف عن آراء المحللين وكتاب السياسة فى ناحيتين :

أولا : أن ليست لديه أسرار لا يستطيع الحديث عنها أو أن يلمح عنها فى غموض تكون موضع تساؤل لاستجلائها والبحث فى خباياها ··

وثانيا : أن كتاباته لا يختلف ظاهرها عن باطنها ·· فهو يحمل ضميرا لا تستطيع أعتى موجات المناصب والاغراءات اختراقه ·· لذلك يعمل له رجال السياسة ألف حساب لرأيه الصريح دوما فى توجهاتهم ومواقفهم أو تراجعاتهم على البعد ومن دون الاقتراب منهم ··

عوده كما نرى اذن ·· شخصية لها صفات تشبه صفات الضمير ، قد لا تظهر على السطح أحيانا ، وانما تختفى فى أعماق وتتحرك فى مواجهة كل التصرفات الخاطئة والمعوجة على السطح ··

كيف يتأتى لى اذن (كشاهدة عيان لربع قرن من الزمان) تصوير شخصيته هذه أو بعض صفاتها ، لاسيما واننى لم أسع فى حياتى الا لمعرفة ثلاثة معالم فى عالمنا الفكرى عن عمد وسبق الترصد وهى : الأستاذ نجيب محفوظ ، لأننى عندما قرأت له أثناء مرحلة الدراسة الابتدائية والثانوية قصته الرائعة « زقاق المدق » ، اعتبرت نفسى كأننى مكتشفته ، لذلك سعيت الى ندوته الصباحية بكازينو الأوبرا ، كى أتأكد أن اكتشافى يسعى فى الأرض على قدميه كبقية خلق الله ·· والشخصية

(★) من المعروف أن لويس قد أعطى قناع السلفى للأستاذ محمود شاكر وأعطاه اسم مجاهد ابن الشماخ ·· (ابن الشماخ) اسم شاعر نهج شاكر نهجه فى قصيدته « القوس العذراء » ·· ولكن لويس جعله فى كتابه رجلا ضيق الأفق يفخر بسلفيته ازاء كل وارد جديد ··

الثانية كانت الدكتور محمد مندور ،اذ أن اعجابى بكتاباته وأنا فى الثانوية العامة غيرت مسار حياتى الذى كنت قد اخترت له الرسم والتشكيل ٠٠ فحوله الى الكتابة والتفكير ، واعتبرته مسئولا عن أية مشكلة تصادفنى فى حياتى الأدبية أو الشخصية ، وأخيرا العلامة الأستاذ محمود شاكر ٠٠ فعندما قرأت له ، رسمت له فى خيالى صورة عن عالم مغترب شديد التوهج ، فأحببت أن أطابق صـــورته التى كانت فى خيالى على حيـــاته التى يحياها ٠٠

أما الأستاذ محمد عوده ، فقد وجدتنى فجأة صديقة له ، لا أعرف كيف ، ولا أين تعرفت به لأول مرة ، كل ما أستطيع تحديده ، هو أن معرفتى به كانت على عكس معرفتى بالشخصيات الثلاث السابقة التى سعيت اليها ٠٠ أى أننى عرفت شخصيته ، ثم تتبعت كتاباته بعد ذلك ٠٠ وهذا يدلنا على أن شخصية عوده من الشخصيات التى تقف طاغية حتى فوق كتبها ٠٠ حتى اننى أتساءل أحيانا ٠٠ ان كانت هذه الصداقة قد تمت بالصدفة الحسنة أم وفقا لملاحظات علماء النفس حول « عقدة عصاب القدر » تلك التى تهيئها شخصية الانسان الذى تجذبه الظروف لمعرفة أناس يحبهم ويألف صحبتهم ٠٠ ويتنافر مع آخرين فى العمل أو عبر الصداقة لا يحبهم ولا يتوافق مع صفاتهم فلا أمل مع الأيام للألفة معهم !

واذا كانت معرفتى بكل ممن سعيت اليهم قد أكدت فى نفسى أو أضافت شيئا أو أشياء فان ما أضافه محمد عوده الى نفسى هو الالتفات اليومى المستمر الى القضايا السياسية والثقافية عامة ، وخاصة فى وطننا العربى ، والتعرف على بعض ــ ان لم يكن كل أو أهم ــ شخوصها وقياداتها عن قرب أو عن بعد من خلاله ، أى عن طريق حديثه وكتاباته ومنتدياته أو صحبته ٠٠ ذلك أن من خصال عودة أن يعرف أصدقاءه وتلاميذه بعضهم ببعض ، فاذا دعوته يوما ٠٠ فانه يوم تلبية الدعوة يصطحب معه بعض الرفقة ٠٠ فتجد نفسك قد استقبلت معه ضيفا ، يصبح عزيزا عليك بعد ذلك ، ويوما يصطحبك هو ، فتصير أنت هذا الضيف ، على أنك ستصبح عزيزا على المضيف بعد ذلك ٠٠٠ الى جانب كل ذلك ، معرفتى الشخصية ــ من خلاله ــ بالمراسلين الأجانب المهتمين بالشئون العربية والذين يزورون القاهرة ويعتبرون عودة حجتهم ٠٠ حتى أننى بحق ٠٠ أستطيع القول ان عودة كان الوتر الموسيقى الرنان الذى أيقظ فى نفسى إقتحام حلبة السياسة بكل مباهجها ومآسيها فى الستينيات ، ولا أعرف الآن اذا كان التزامى بالأدب مع عدم التزامى بالسياسة راجعا الى ظروف دراستى ، أو بسبب المنبع ذاته ٠٠ أى محمد عودة الذى كان دائما يمزج الأدب بالسياسة ٠

وذلك أنه ظل دوما مغرما بل ومتفننا بمزج الأدب بالسياسة والعكس صحيح !.

كنت أستعد لامتحان الثانوية العامة عام ١٩٥٦ ، وكانت الحرب الجزائرية على أشدها ، وكنت مبهورة ببلد المليون شهيد ، وأتذكر الآن جيدا أن عودة كان دائما يصدمني بأن الصراع الداخلي في ثورة الجزائر عنيف وخطير ، اذ أن أجنحة المقاومة كانت تصفي بعضها بعضا ، مما نتج عنه أن عدد الذين سقطوا برصاص الجزائريين أنفسهم أكثر ممن سقطوا برصاص الجيش الفرنسي ، وكانت هذه هي مأساة الجزائر ..

وفزعت يومذاك من هذا الحديث ، وظننت عوده مبالغا .. وعندما أدرك وقع كلامه في نفسي ، أفهمني الحقيقة بهدوء وبالتفصيل ، وأن هذا يتم لصالح الثورة ، ولتصويب أخطائها ، حتى يأتي النصر قريبا والمسيرة أكثر استقامة .. وقد يلجأ اليه المواطنون اضطرارا ، ولا أدري الآن .. اذا ما كانت دعوة عودة لي وشقيقي الأستاذ يوسف الشريف (محرر الشئون العربية) بمجلة روزاليوسف ، الى حفل بمنزل الأستاذ (*) أمين بشيش المسئول في مكتب حكومة الجزائر المؤقتة بالقاهرة انذاك الذي كان يرأسه (فرحات عباس) بالقاهرة ، كي يؤكد لي صحة ما ذهب اليه في حديثه السابق . أم أن دعوته هذه جاءت عفوا كما هي عادته ..

كان ضمن حضور هذا الحفل الأستاذ محمد الميلي رئيس تحرير جريدة المجاهد الجزائرية آنذاك .. الذي سأله الدكتور يوسف ادريس عن رأيه فيما يكتبه عن ثورة الجزائر في جريدة الجمهورية ، حيث كلما نشر له مقال عنها واتصل بالأستاذ عوده يسأله رأيه ، تأتي اجابته سلبية !! ، وقال الأستاذ الميلي ، انني أتفق مع رأي عوده .. ثم قال ضاحكا ، الحقيقة ياسي يوسف ، أن أفضل خدمة يقدمها كتاب مصر لثورة الجزائر هي ألا يكتبوا عنها ، ذلك أن كل مقال تقريبا يؤدي بحياة مئات من المجاهدين .. ، فاستفسرت مندهشة ، كيف ؟ فالتفت الى وهو يقول : نعم ، هذا واقعنا للأسف ، اذ أن الكاتب مهما حاول الموضوعية في كتاباته ، غالبا ما يميل الى أصدقاء بعينهم أو جناح معين من المجاهدين ، كأن يطنب في الكتابة عنهم ويعلي من مقامهم أو يبرز مواقفهم ، أما الآخرين ، فانه كان يكتب عنهم أو يشير اليهم اشارات خاطفة وكأنه يخص هؤلاء الذين كان يكتب عنهم ، بأنهم كل شيء في الثورة ، ومن هنا تحدث الهزات والفجوات وتتولد الاختلافات في الرأي والمواقف على

(*) نشر هذا الموضوع عام ١٩٨٠ بمجلة الدوحة ، وفي عام ١٩٨٨ وبعدها عاد الأستاذ أمين بشيش الى القاهرة ليتولى مهام سفير الجزائر لدى ج.م.ع. بالقاهرة ...

ساحة الثورة الجزائرية والتى كان من نتيجتها مبادرة القيادات العليا التى تملك الصورة الكلية .. الى بتر المنحرفين تجاه معركة لا تقبل الخطأ اليسير .. ومن هنا أيضا كانت تأتى حساسية وخطورة ما يكتب فى مصر عن الثورة الجزائرية باعتبار أن مصر هى المثل الأعلى للقيادة والثورة فى الجزائر ..

وقد تأكدت من كلام الأستاذ الميلى الذى وافق حديث عوده السابق لى ، وكان ذلك فى أعقاب انتصار الثورة الجزائرية .. عندما قدم الى مصر بعد ذلك الزعماء الجزائريون (أحمد ابن بيلا ، وآية أحمد ، ومحمد خضير) لتقديم الشكر للشعب المصرى لمؤازرته ومساندته للثورة الجزائرية ولقـاء جمال عبد النـاصر .. واننى لأذكر خلال الحفل الذى أقامتـه حكومة الجزائر فى فندق سميراميس عام ١٩٦٧ (١) ، أننى وغيرى كنا نطيل من وقفتنا وحديثنا والتقاط الصور التذكارية مع أحمد بن بيلا مع أنه كان لا يستطيع أن يحكم النطق باللغة العربية فى كثير من المواضع ، بينما كنا غير ملتفتين للحديث مع آية أحمد أو خضير رغم اجادة نطقهما للغة العربية ..

وقد لفت نظرى يومئذ الأستاذ على مفتاحى (٢) ، المتحدث الرسمى عندما همس فى أذنى ألا أخص بن بيلا وحده بالاهتمام اذ لم يكن مشهورا الا بالاسم عندنا ، وألا أترك رفقاءه رغم أدوارهم المتوازية على ساحـة الثورة .. وقد لفتت حكومة الجزائر بعد ذلك نظر الاعلام المصرى عند زيارة جميلة بوحريد لمصر ، حتى لا تكشف الأضواء عليها وحدها .. لأن هناك فى الثورة أكثر من جميلة ، فهناك جميلة بوباشا وهند وفاطمة وأخريات كثيرات من فتيات ونساء الجزائر اللاتى ضحين بكل غال ونفيس حتى انتصرت الثورة ..

لقد كانت كلمات عودة التى قد تصـــدمنا أو نختلف معها غالبا ما تؤكدها الأيام ، وأتذكر أنه فى الأيام التالية لاغتيال صالح بن يوسف زعيم المعارضة فى تونس .. توجهنا فى صحبة عودة لتقديم واجب العزاء الى سكرتير الحزب الأستاذ ابراهيم طوبال الذى ما أن وقعت عيناه على عودة حتى انفجر باكيا وهو يقول : أرأيت يا عودة ما حدث لصالح .. لقد انتهيت من بعده ..

---

(١) سميراميس ، كان فندقا مقاما فى نفس مكان الفندق المسمى الآن باسم انتركونتننتال سميراميس .

(٢) على مفتاحى ، كان أول وزير للثقافة فى أول حكومة للجزائر الحرة بعـد التحرير .

وفى طريق العودة ، أبديت لعوده دهشتي من عبارة (لقد انتهيت من بعده) وصدورها من انسان يفترض فيه أن يكون خليفة صـالح ابن يوسف في قيادة المعارضة التونسية ، واذا به يقول : بالفعل ، انها كلمة عفوية ، ولكنهـا غريبة على زعيم سياسى ، ثم قال متفكرا : وأنا لا أتصور أن ابراهيم قادر على أن يقوم بشيء من أدوار المعارضة ، وأنه عرف من مقتل صـالح بن يوسف أن بورقيبة الداهية استطاع بخبث استخدام بشير رزق العيون سفيرهم فى سويسرا فى تنفيذ حكم الإعدام على صالح بن يوسف صالح أثناء فترة علاجه بألمانيا ، رغم أن عبد الناصر سبق وحذره من السفر فى هذه الآونة بالذات •• ومرت الأيام •• وتأكدت كلمات عودة ، فلم يفلح ابراهيم طوبال فى احراز أية فاعلية للمعارضة التونسية تحت زعامته ، رغم كل ما قدمته له الأنظمة العربية التقدمية من مساعدات •• لقد صدقت توقعات عودة وحديثه السياسى ازاء مستقبل ابراهيم طوبال ، وصدقت أيضا بالنسبة للمهدي بن بركة صديقه الصدوق الذى كان لايفترق عنه طوال اقامته بالقاهرة••وكان عوده يرى فى ابن بركة الأب الروحى للمقاومة المغربية ، وكان دائما يردد وهو يتحدث عن أوضاع الارهاب واغتيال المناضلين في المغرب ومؤكدا على أن الأهداف الشريفة يجب الوصول اليها عبر قنوات ووسائل شريفة •• ومن هنا كانت معارضة عودة لاستخدام المعارضة المغربية لنفس وسائل أوفقير وزبانيته ، وذلك فى اعقاب اختطاف رجال أوفقير لكل من الأستاذين أحمد بهاء الدين ولطفى الخولي من المغرب أثر انتهاء مؤتمر سياسى شعبى كان قد عقد فى الجزائر سنة ١٩٦٤ وذلك بعد أن نما الى علم أوفقير أنهما كانا من ضيوف ابن بركة•• ولولا تناقل وكالات الأنباء خبر اختطافهما ، ما كنا قد عرفنا مصيرهما ••

وأغرب ما كنت أنكره على عوده ، أنه كلما جاء ذكر إبن بركة ، يقول : انه الشهيد الذى انتظر نبأ اغتياله ــ بنفس سلاحه ــ خصوصا بعد اغتيال المقاومة المغربية لأحد السياسيين الذى كان أبا روحيا لها فى الوقت نفسـه •• وبعدهـا أدركت ان واقعية عودة وبعد نظره كانت الاستقراء الأصوب !

أحداث وتوقعات لو تتبعتها ، لاحتاجت الى مؤلف خاص •• ذلك أن سنوات ٥٨ ، ٥٩ وما قبلها وما تلاها ، كانت سنوات امتلأت بأحداث عظيمة فى كثير من بلدان الدول العربية والأفريقية ، مثل قضايا التحرر من الاستعمار وظهور المذهبيات والايدولجيات والأحزاب والحركات السياسية المختلفة •• التى كانت تفتح ذراعيها فى هذه الفترة لتضم أصحاب الحقوق المشروعة •• فكانت مقاهى ريش بشارع عماد الدين ، وايزافيتش بميدان التحرير ولاباس بشارع قصر النيل تغص باللاجئين اليها صباحا ، أما فى المساء ، فكانت المعارك الفكرية تنتقل اما الى هيلتون النيل الذى كان حديث

الافشاء ٠٠ وكافيتريا (نايت آندريه) التي افتتحت بفندق سميراميس لخطف زبائن هيلتون ، وكان يحضرها أمثال : حسين الحلاق « سورية » عبد الوهاب البياتي (العراق) حكم دروازة ، هاني مندس (لبنان) معين بسيسو ، كمال ناصر (فلسطين) ، ابراهيم طوبال (تونس) و ٠٠ وغيرهم كثير ! وكذلك زوجات الزعماء الأفريقيين أمثال فليكس مومى ، وأولاد لومومبا وغيرهم من الثائرين والثائرات من البلاد الأفريقية ٠٠ وكلما تجولت عدة خطوات في وسط القاهرة ترى أمامك العديد من هؤلاء الذين كان يسخر منهم عودة ويسميهم « اللائجين » وذلك كان وصفه فحسب لمحترفي الـكلام منهم ، رغم أنه كان صـديقا لأغلبهـم ، يكلمهم في أخص وأدق قضـاياهم وكان حدسـه لا يخيب أبدا ، وقد حـدث الكثير ممـا كان يتنبأ به ٠٠ ولا أريد أن أنكأ جرحا أو جروحا بحرارته وسخرياته وتوقعاته لنتائج السـلبيات المعيبة في الأفـكار أو الأوضـاع أو الشخصيات ٠٠ ففي هذه الآونة بالتحديد عرف المصريون ما هو حزب البعث ، وما هي القومية ٠٠ والماركسية ٠٠

أذكر أنني قبل عام ١٩٦٧ تعرفت عبر عوده الى الكاتب السـياسي بصحيفة الموند اليهودي المصري الأصل الفرنسي الجنسية (اريك زولو) ، واستمعت لمحاورتهما معا ٠٠ وكانت تدور حول امكانية التعايش السلمي بين مصر وإسرائيل ٠٠ وعندما سألت عودة : كيف سمحت باستمرار هذا الحوار بينكما ؟ قال ضاحكا : لابد أن تعرفي أن اريك هو اليهودي المصري الفرنسي الطيب الذي يحب العرب مثل حبه لليهود وحبه لفرنسا ، وهو كما تلاحظين له ولاءات ثلاثة متناقضـة في الواقع ، ومع ذلك يحلم بالتقاء هذه الولاءات عبر جسر حضاري ديجولي مثالي ٠٠ ويهيأ لاريك زولو خطوط ودعائم هذا الجسر ممتدة عبر ولاءاته ، انه يحلم ، والأحلام لا تناقش ، والأيام بيننا ٠٠

(د) وجهة نظر

اذا كنت قد فرغت من تصـوير هذه الشخصية الفذة للكـاتب الصحفي محمد عودة والتي تختلف بالتمايز عن كتاب آخرين بالانسـجام بين ظاهره وباطنه الفكري ، فانني أقول : ان هناك شخصيات تشدك اليها لأول وهلة ، الا أنه سرعان ما تبتعد عنها ، اذ تبدو لك اختلاف جوانبها ٠٠ والتناقض البين بين سلوك حياتها وأفكارها ومواقفها ٠

أما شخصية عوده ، فانها تبدو عكس ذلك ، فقد لا تشدك اليه هيئته ، ولكن سحر شخصيته يسرى اليك ، فلا تستطيع الفكاك منه مهما

(★) افضل كتابة الاسم بالعربية ٠

كنت بعيدا عنه ·· لذلك فان أول ما يسأل عنه أصدقاؤه وحوارييه عندما يعودون من الخارج أو يكون هو بالخارج : ما هي أخبار عودة ؟ ، حيث أنه كان ملتقى الخيوط الثقافية والسياسية والفنية والاجتماعية فى تشابكها وافتراقها وتمزقها وايجابياتها !

هذه هى الحقيقة التى تجعلك بعد ذلك لا تتعجب من أن عددا من المشتغلين فى مجالات الثقافة والسياسة فى العالم العربى والأفريقى والدولى يعتبرون أن عودة هبة مصر الذى وهبته فارسا فى تلك المعتركات ··

ففى الهند مثلا ، علقت صحيفة (شنكس) الذائعة الصيت على وصول عودة فى احدى زياراته بعبارة : وأخيرا يصلنا عبق مصر ممثلا فى الدكتور عوده ، وهناك طرفة يرويها الكاتب الساخر محمود السعدنى ، اذ يقول : انه كان مع عودة فى مؤتمر بالأردن ، وألح الأستاذ عبد الله الزيماوى أن يبقى عوده الى ما بعد المؤتمر للحوار والمناقشة فى بعض موضوعات سياسية ·· لكن عودة اعتذر لاعتزامه السفر فى الغد ·· وفى هذا الغد ، وقع حادث أليم لطائرة مصرية ·· فلما شاهد الأستاذ الريماوى السعدنى سأله : عودة مات ؟ فرد السعدنى بالنفى ، لأنه لم يسافر على هذه الطائرة ، ومن بعدها يسأل السعدنى كلما غاب عودة عن مجالس القاهرة : عودة مات ؟ حيث تكررت هذه المقولة على شفاه كثيرة ، حتى صارت مثلا على جولاته وصولاته فترات طويلة فى الخارج أو ادراكا لضرورات تواجده والشعور بغيابه وخشية أن يكون قد حدث له مكروه بسبب مواقفه !

كان عودة وما يزال همزة الوصل بين مجالس الأفاضل والصعاليك على السواء ·· بالمعنى الجيد لهذا الكلمة ·· وكان مجط آذانهم وأبصارهم ، بل كان هو البوصلة التى تحرك الحوار يمينا ويسارا ·

أقوال وأفعال وأوصاف تنم عن تلك الشخصية الدرامية التى يملكها عوده بين جنبيه ·· فاذا كانت لكل كاتب سمة مميزة ، فان كل السمات المتناقضة بين الأبيض والأسود هى ميزات عوده ، وتستطيع أن تقول عنه وأنت مرتاح البال ، أنه كان ايجابيا وسلبيا فى آن واحد ، ثائر وفوضوى ، متواضع ومتكبر ، كريم وبخيل ، لاه وجاد ، علمانى وغيبى ·· الى جانب كونه مخلص وغادر حسب الظروف !

بالطبع ، لا تدل هذه الأوصاف جميعها على تناقض ·· بل عن انسجام وتكامل فى شخصيته ، ذلك أن أيا منها تكتب مصدقيتها عندما تتبدى فى اطارها الزمنى وظروفها الموضوعية لأنها تجسد الحقيقة بعينها والمقنعة فى حينها ·· لذلك

يقولــون : يا حظ من جــاء عــــودة معـــه ، ويا ويل من كان عودة ضده .. فاذا الحقت هذا القول بقول آخر قيل أيضا فى عودة .. وهو أن كلماته اللاذعة والساخرة أكثر انتشارا من جريدة الأهرام ، لعرفت سرا آخر من خفايا شخصيته .. فهو يتواجد فى كل مكان وسط مجموعة من الأصدقاء متجددا ومتحمسا دائما وأكثر متابعة للأحداث من جيله ومن أجيال الشباب حديثى العهد فى الدخول الى أبهاء الأدب ودهاليز السياسة .. واذا كان البلبل يغرد .. والزهر يتفتح ويفوح .. فان عودة قليل الكتابة ، الا اذا وجد ما يسعده أو يستفزه ، ديدنه الكلام والحوار ، تجده فى مجلس الصـداقة الحميمة ساخطا أو حامدا وفقا للطقس الذى يعيشه والمناخ النفسى الذى يؤثر فيه ، وسقوط أو شموخ فرســان الكلمة على طريق المناصب وعتبات الحكام ، ودهاليز المباحث والمخابرات ، وتجده فى مجلس الأدب أديبا وشاعرا وناقدا وتشكيليــا وموسيقيا .. وفى مجالس الأنس مفاكها ومحدثا من أظرف ظرفاء زمانه ..

ومحمد عوده عندما يتكلم وينقد ، تتماوج نبراته لتقلد فى كثير من الأحيان ودون قصد من يحكى عنهم .. قسماته المرنة تجسدها ، أصــابعه الرشيقة تؤكدهــا ، وجهه الأبيض المستطيل الباسم الغاضب القسمات ، وعيونه الجاحظة البراقة تتأرجح الى الخارج والداخل ، وكذلك الى الشمال والى اليمين تعطيك صــورة دقيقة عمن يصفه .. فكأنك تشاهد من يحكى عنه أو عنهم مشاهدة العيان ، اعتذاراته واستدراكاته ومراجعاته لنفسه اذا شعر أنه بالغ أو أماله الهوى لرأى عام ، وارادته التى يحكمها فى الانصراف عن هذا الموضوع المثار ، يحدوه الخوف من ظلم الضمير ، ودرءا للتطرف فى النقد والاغتياب ، كل ذلك يؤكد أن ارادته الصادقة تفيض من كلماته ، وأن العزيمة التى تضطــرم فى وجدانه تؤكد أن ما يقوله هو الصدق ذاته ..

هكذا كان عودة الذى عرفته ، يتكلم ويتألم .. يثــور ويهدأ .. يسخط ويرضى سواء كان الموضوع عن كتاب أو مقال أو موقف أو حوار أو انفعال .. فلم أشهد فى مسلك عوده أبدأ ميلا للخروج عما يعتقد أنه الوصول الى الحقيقة فى نظره على الأقل ..

وقد تعودت عبر أخى يوسف الشريف على لقاء الأســـتاذ عودة بين جمع من المثقفين والكتاب فى منزلنا أو فى منـــازل الدكتور مصطفى مشرفة بالمعادى وعبد الرحمن الخميسى وسط القاهرة أو منزل محمود السعدنى فى الجيزة .. وكان دائما على عادته مع أصدقائه وحوارييه يلح فى أن يصحبنا لمسرحية أو فيلم سينمائى أو ندوة سياسية أو مهرجان ثقافى ، حريصـــا على ألا تنفض مجالســـنا قبل وعد محدد للقاء أتى .. وربمـــا لزيارة أصـــدقاء له من القيــادات العربية أو الأفريقية

عن الأحداث السياسية الهامة المطروحة على الساحة وغير الهامة ، فينعجب الصحب من تواضعه الجم وهو يعرض معلوماته وثقافته وخبراته وأظل أنا أمام هذا الجيشان الروحي وأذني الى فمه ساهمة سابحة في كل هذه الخبرات التي عاشها والعوالم التي ارتادها .. أفكر في الذهن الذي لا يكل واللسان الذي لا يفتر ، والتقليد الذي لا يضاهي ، حتي أن صديق شبابه المخرج صلاح أبو سيف عرض عليه منذ زمن أن يقوم بدور كاتب ثائر ملتزم في أحد أفلامه لكنه أخذ الأمر علي سبيل الدعابة لا أكثر ..

ومن ملامح شخصية عوده ، القلق الذي يجعله لا يهدأ ولا يستقر ، فينتقل من مكان ليقفز الى مكان آخر ، حتى قال عنه كامل الشناوى ساخرا (ان عودة يذهب الى الجيزة عن طريق طنطا) .. واذا كان اليمين الليبرالى الوطني قد التقط هذا الملمح في شخصية عودة ، فان اليسار المصرى قد التقط أخرى تتمثل فى قول الأستاذ محمود العالم أحد أعلامه ، والذى كان يردده عندما يأتي الحديث عن عوده بأنه عبقري الافلاس ..

والحق أن هذه المقولة الأخيرة قد جاء فهمى لمغزاهـــا متأخرا عن زمانها ، ذلك أن محمود العالم عندما قالها كنت ما أزال طالبة فى كلية الحقوق أدرس نوعا من مادة القانون التجارى يسمي (الافلاس) ، فظننت أن كلمة الأستاذ العالم تعنى أن محمد عوده المولود فى ١٠ يوليو سنة ١٩٢٠ بقرية جهينة مركز فاقوس ـ شرقية والذى التحق بمدرسة خليل أغا الابتدائيـة ثم السـعيدية الثانوية ، ثم تخرج من كلية الحقوق عام ١٩٤٢ ، والمتزوج ولكنه لم ينجب ، القاطن في جي الدقي باحدى عمارات وزارة الأوقاف ، قد حظي بهذا الوصف ، لأنه نال درجة الإمتياز في علم (الافلاس) ..

لكن عندما سألت الأســتاذ عودة عن مغزى هذا اللقب ، ضحك وقال : ان الأستاذ العالم يقصد شيئا آخر غير ما فهمت ، ينصفني أو يؤرخ لى على درب السياسة تحديدا ، وعندما استفهمت ، قال مبتسما : « الحق أنني عندما تعرفت على السياسة ، تعلمت الاشتراكية في البداية على يدى الدكتور مصطفي مشرفة الذى رأيت فيها بحق منبعا للماركسية المصفاة نبلا ورفعة » !

لقد كان الدكتور مشرفة رحمه الله يبدأ تفسيره للماركسية من رحلة مصر الفرعونية ، فيعيد تحليل هذه الحضارة على أنها تغيير طبقى ثقافى للواقع المصرى ، وكان يستعين في تفسيره هذا بالسخرية الحلوة المرة .. مقابلا اياها بالليبرالية الانجليزية مرات أخرى ..

لذلك عندما تعرفت بعد ذلك على التنظيمات الماركسية المصرية ، ـ يقول عودة ـ وكان معظم المهيمنين عليها من اليهود والأجانب الذين

غابت عنهم روح مصر ·· لذلك صاروا مخلصين للعقيدة على حساب وطنيتهم · من هنا أخذت هذه المعرفة شكل الانقسام بينى وبينهم ، فظهر لى تعبير « عبقرى الافلاس » ·· ثم يردف : لقد كانت التنظيمات الماركسية فى مصر من الدرجة الثالثة ·· تتعلق بالنصـــوص الجامدة والتجارب الغربية المستحيلة والبعيدة عن واقعنا المصرى الذى يحتاج الى تطبيقات خلاقة مختلفة ومستقلة !

واذا كان عوده قد حاز على لقب « عبقرى الافلاس » فى تجاربه مع التنظيمات الماركسية فان معرفته بالدكتور مشرفة أستاذه ومرشده الى مناهل الاشتراكية ، قد استمرت الى آخر حياته ·· حيث ظلت صداقة عوده لأستاذه متينة ومتصلة رغم كل محن أستاذه الصحية والأسرية والنفسية التى تعرض لها وهو ما يؤكد أصالة عودة ووفاءه لأساتذته وأصدقائه وتلاميذه ··

والدكتور مصطفى مشرفة هو الأخ الأصـــغر لعالم الذرة النابغـة الدكتور على مشرفة (الذى قال عنه أنشـتاين ، انه أضـــاف لنظرية النسبية) ، وكان صاحب دار للنشر ، وله مؤلفات كثيرة ، أشهرها روايته الأدبية الرائعة « قنطرة الذى كفر » ، وكان يرحمه الله مصـــابا بشلل الأطفال ، وقد عقد عودة أواصر معرفية بين مشرفة وسفارة الاتحاد السوفيتى بالقاهرة ، حتى يمكنه العلاج فى موسكو عندما تدهورت صحته ·· حتى أن وفدا من المركز الثقافى السوفيتى قد انتقل الى بيت الدكتور مشرفة ليعرض عليـه أبرز العروض الســينمائية الدرامية والتســجيلية ، ولا أنسى فى يوم من عام ١٩٦٢ ابان احتدام الخلاف التطبيقى بين الاتحاد السوفيتى والصين ، وكان عوده قد عاد من زيارة للصين ، فكتب عن الصين بجريدة الجمهورية عدة مقالات مقرظة لتجربتها الاشتراكية غاية فى الروعة ، كانت اضافة لها وزنها الى كتابه الشهير عن (الصين الشعبية) الذى صدر عام ١٩٥٥ ·

جاء عودة فى هذا اليوم لزيارة الدكتور مشرفة لاستطلاع رأيه فيما كتب ، عندئذ شاهدت عودة فى هذا المشهد ، وقد ارتج عليه ، عودة يهم بالصعود على أولى درجات السلم الموصل من الحديقة الى ردهة الفيلا ، عندما فوجىء بالمستشرقين السوفيتيين «بلاييف وبرامكوف» مراسلى جريدة برافدا ·· فتحلقا حوله وكأنهما يأخذان بخناقه ، وكان بلاييف يضع يده على كتف عودة الذى استند الى الجدار ، بينما برامكوف يعاتبه على مقالاته التى أشاد فيها بالصين ، وقال كيف أنت على هذا المستوى من روعة الكتابة ودقة التحليل فى هذا الوقت بالذات والصينيون فى منعطف خلافهم مع السوفييت ، ويردف بلاييف : ان الاتحاد السوفيتى يا أستاذ عودة يعتبرك من أصدقائه الذين يفهمون مواقفه فى الشرق الأوسط ·· وكان عودة

وسط هذا الحصار والاحراج يرد مبتسما ومطيبا خاطرهما بكلمات لا تخرج عن حيز المجاملة وحسن اللقاء ، دون التنازل أو الاعتذار عما كتبه وكان مقتنعا به آنذاك انه حق !

(هـ) أطول يوم فى التاريخ

واذا كانت شخصية عودة الرحبة قد مكنته من مصاحبة جميع الأطراف ، حتى المتناقض منها فكرا ، والمتصادمة سياسيا ، باعتبار أن الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية ٠٠ فانه وبسبب هذه الصفات التى تجسدت فى نفسى الا أنها ترجمت فى الوقت ذاته معنى التعبير الذى كنت أسمعه ، ولا أدركه « أطول يوم فى التاريخ » والذى فهمت كنهه وأبعاده يوم معاناتى النفسية ٠٠ وكان يوم الخامس من يونيو ـ حزيران عام ١٩٦٧ ٠٠

فى هذا اليوم كنت أباشر عملى المعتاد فى لجنة القراءة بمؤسسة السينما ، وكانت وقتها برئاسة الروائى سعد مكاوى والشاعر عبد الرحمن الشرقاوى ٠٠ وفجأة سمعنا صوت الجماهير الهادر فى الشوارع المحيطة بنا ، عبد الخالق ثروت ، وعدلى ، وشريف ، فنظرت من النافذة لأستطلع ما حدث ، فسمعت أولى البيانات العسكرية عبر الميكريفون ، وصوت أحمد سعيد يوالى اذاعة بياناته المحرضة ، عند ذلك استأذنت وانصرفت ، ومشيت فى الشوارع حيث كان المواطنون يتجمعون حول أجهزة الاذاعة المسموعة منها والمرئية ٠٠ صوت أحمد سعيد يبشر بالنصر ويزف البشرى ، ثلاث وأربعون طائرة ٠٠ ثم تأتى بشائر النصر ٠٠ سنصلى المغرب فى تل أبيب ولا أعرف كيف ؟ ولا لماذا لم يتسرب هذا التهليل الهادر الى نفسى بارتياح وتفاؤل ٠٠ واصلت السير حتى شارع طلعت حرب ٠٠ وفى موازاة مقهى ريش لمحت الأستاذ محمد عودة،منهارا على أحد مقاعدها وحيدا ٠٠ فذهبت اليه أستفسر عن حاله وحالنا فى الحرب ؟ وهل سمع هذه البيانات ؟ لم يرد ، وانما سألنى عن وجهتى ٠٠ قلت : ذاهبة الى جريدة الأهرام ـ وكانت لا تزال فى باب اللوق ـ لأعرف التفاصيل ؟ قال وصفرة شديدة تجتاح بياض وجهه ، وقد احمرت عيناه وكأنها مجهدة لم ينم من أسبوع : لقد توقفت الحرب وانتهت ، كان الوقت بالتحديد الحادية عشر والنصف صباحا ٠٠ هلعت ، كيف ؟ حارت الكلمات على لسانه وكأنه قد فقد النطق ٠٠ ثم قال: هل تتذكرين حديثى مع بلاييف وبرامكوف ؟ قلت : نعم ، يوم قلت عنهم انهم الجناح المناصر للعرب بين كتاب الاتحاد السوفيتى ، قال : نعم ، لأنهم لعبوا دورا كبيرا فى تغيير الموقف السياسى والايديولوجى لبلدهم تجاه مصر ، واتجاهنا نحوهم أيضا ٠٠ كنا نرى أننا لا بد أن نحارب

اسرائيل ، وننتهي من مشاكلنا معها ٠٠ وكانوا يقولون لا ٠٠ انها مغامرة ٠٠ عليكم أن تديروا معركتكم مع اسرائيل سياسيا وبلا حرب ٠٠ وقد حدث أن تم بالفعل اتفاق بين مصر والاتحاد السوفيتي ، وآخر بين اسرائيل وأمريكا ٠٠ وتكون هذه اللعبة الكبرى ومدخل أمريكا للقصاص من ثورة يوليو وعبد الناصر !

قلت بنفاذ صبر ، عندما أدركت انه يصرفني عن كلماته الصاعقة التي استهل بها حديثه ، « أتذكر هذا كله ، ولكن ماذا حدث اليوم ؟ ، قال : لقد سمعت مثلك هذا التهليل الجماعي وخلاصته ، أننا سنصلى المغرب في تل أبيب ٠٠ فاتصلت ببريماكوف تليفونيا في الصباح الباكر لكي أتشفى فيه ومن أقواله السابقة ٠٠ فرد على ببرود وأسى ٠٠ وعندما سألته عن معلوماته عن هذا النصر ٠٠ قال : « مر على بالبيت » ، فذهبت اليه على الفور ، وما أن دخلت ردهة مسكنة ٠٠ حتى وجدت جمعا من المراسلين السوفيت وقد انكفأت وجوههم على أيديهم ٠٠ وكأنهم في مأتم ، فصحت فيهم بتشف : « هل سمعتم ما حدث ؟ ، وقال أغلبهم في صوت واحد وبالانجليزية (٠٠٠) مأساة كبرى ٠٠ وقبل أن يصل التعبير الى نفسى فيطفئها ٠٠ أخذني برامكوف بعيدا عنهم ، ووضع يده على كتفي بعطف الصديق وهو يعبر عن مرارة الاتحاد السوفيتي ازاء ما حدث قائلا : عودة ، انتهى سلاح الطيران المصرى ٠٠ وتوقفت الحرب قبل أن تبدأ » ٠٠

أتذكر الآن جيدا أن عودة قال لى ذلك وقد شاب صوته رنة حزن عميق ٠٠ وسمعته يهذى بعبارات مبهمة غير مترابطة ، لقد وقفت الحرب ٠٠ انها هوجة عرابى تتكرر ٠٠ سيحاكم وينفى كثيرون وتحتل مصر ٠٠ سنرى عبد الناصر بالكاكى وراء المتاريس يقود الميليشيات ٠٠ خمس وسبعون سنة تمر وغير مسموح لمصر أن ترفع رأسها ٠٠ من هو خنفس الجديد الذى هزم عرابى من قبل وعبد الناصر من بعد ٠٠ ثم وهن صوته حتى أختنق وتلاشى ٠٠

تركت عودة ولا أكاد أصدق ما يقول ، وكنت قد وصلت الى جريدة الأهرام ٠٠ حيث وجدت أغلب الصحفيين قد تركوا مكاتبهم وتحلقوا يرقبون ماكينات التيكرز وهى تدور بالأخبار ٠٠ وكان أول الأخبار الكابوسية ، حول سقوط العريش ٠٠ وخرجت من الأهرام ، ولكن أين أذهب ، وهذه الأخبار قد أناخت كاهلي وعصرت نفسى ، سعت بى قدماى الى شارع الشيخ ريحان الموازى لشارع الأمة حيث مجلة الكاتب ٠٠ وهناك وجدت الأستاذ أحمد عباس صالح رئيس تحريرها ، وعبد الجليل حسن سكرتير التحرير ، ورسامها سعد عبد الوهاب يتناقشون حول صحة أخبار بشائر النصر ٠٠ ويأتى الكتاب تباعا وكأنهم على اتفاق ٠٠ الكاتب

والمخرج الاذاعي بهاء ظاهر ، الكاتب وأستاذ الجامعة عبد الغفار مكاوى وما أن دخل الأستاذ نبيل الهلالى المحامى والسياسى ، حتى بادره عباس صالح بالسؤال : ألا تلاحظ أننا لم نسمع فى البيانات العسكرية المتتالية شيئا دقيقا عن أعمال سلاح الطيران المصرى ؟ أين سلاح الطيران المصرى ؟ ٠٠

جلس نبيل الهلالى متأملا ومتفكرا ثم قال : اننى مثلك أسأل عنه ، ولو أن هناك بعض الأخبار المطمئنة تقول ، ان سلاح الطيران المصرى موجود فى يوغوسلافيا ٠٠ وسيظهر فى الوقت المناسب ٠٠ تخير الجمع ، وأنا أتخوف الادلاء بما قاله لى عوده منذ قليل حول هزيمتنا المبكرة ٠٠ وانفض الجمع فى حـــيرة ٠٠ ولكن الى أين أذهب بحملى الثقيل ٠٠ الى المنزل اننى سأنهار ٠٠ ولم يكن لى بد الا السير ٠٠ ومشيت على قدمى الخائرتين الى شارع نوبار حيث منزل الشاعر صلاح عبد الصبور ٠٠

كان صلاح أيضا لا يصدق ما يذاع ، قلت له : أننى كنت فى جريدة الأهرام قبل مرورى على مجلة الكاتب ٠٠ قال : وأنا أيضا ، وقدمت الآن قبلك ٠٠ وأشار بطرف خفى بألا أفصح بشىء مما عرفته فى الأهرام جلسنا وأمامنا أربع علب من السجائر ٠٠ زوجته السيدة (سميحة غالب) تتعجب من الوجوم الذى حط على ٠٠ وجدتنى لأول مرة فى حياتى أتناول سيجارة ثم أخرى بشراهة منقطعة النظير ٠٠ أقف فى شرفة الدور التاسع حيث شقتهم ، فأجد أن رأسى تغلى وتكاد أن تنفجر ، أخبط بكلتا يدى ٠٠ أكاد أرمى نفسى من عل ، قالت لى السيدة سميحة زوجته مندهشة لحالى الذى لا تعرف سره ٠٠ لماذا تفعلين فى نفسك كل هذا ؟ وليس لديك أحد فى الجبهة أنا لى أربعة اخوة فى الجبهة ولا أفعل مثلما تفعلين ٠٠ آه ، بماذا أجيب ؟ ما يهمنى الآن ليس اخوتى ، ان همى هو مصر ، « كيف أقولها » ، اننى عاجزة عن البوح ٠٠ وقررت أن أذهب الى منزلى ، أنهار به ٠٠ وخرجت أهذى فى الشارع وليحدث أى شىء بعد ان وقعت الطامة الـــكبرى ٠٠

هناك وجدت أخوتى وأخواتى فى حالة من الفرح ٠٠ كان الوقت مساء والمذيعة سميرة الكيلانى تقرأ نشرة الأخبار ٠٠ وسمعتها تنطق فى نهـاية احـدى البيانات العسكرية ، « ولم تعد احـدى طائراتنـا » ، ووجدتنى أقول فجأة وبصـــوت عال ، احـدى أم كل ، ويفزع أخـوتى ويؤنبونى على ازعاجى لفرحتهم : كيف تقولين مثل هـذا الكـلام ؟ ان سميرة الكيلانى قد أذاعت الآن رقمى تليفون غرفة عمليات وزارة الداخلية حتى يستطيع المواطنون أن يبلغوا بواسطتهما عن مثيرى الشغب والفتن ٠٠ قلت لأهلى ، فلتفعلوا ، وتبلغوا عنى فأى مكان سيكون سواء ، ما دامت مصر قد احتلت ، وكنت فى غاية من الانفعال الهيستيرى حتى تصـــورت

العائلة أنى جننت ، أو أن فى بيتهم جاسوسة ، وذلك لعدم ادراكهم للواقع الأليم الذى حل بالوطن العزيز مصر ..

مرت أيام ثقال ، وكأن مصر قد صارت جثة هامدة ، وخلت نفسى فى كابوس ثقيل يجثم على صدرى ، وتصورت أن مصر أصبحت جرداء ، وأنه لن ينبت الزرع فيها مرة أخرى ، ذلك هى مصر المخدوعة ، كما تصورت أن الضحكات قد غرقت فى اتون الحزن ، وأنه لن تقام أية أفراح فى بيوت مصر ، وأن عملية الزواج والانجاب قد انتهت .. مرت أوقات وأنا لا أعرف مع من أتكلم أو الى من أستمع .. وازداد احساسى بشعور الأسى .. فقد غاب عودة عنى أو ربما قبع فى منزله سجين جدرانه وفاجعته !

فى يوم ٩ يونيو كنت أزور الكاتبة السودانية خديجة صفوت بفندق (دى روزس) بشارع طلعت حرب ، حيث قدمت مع زوجها وأولادها الى مصر ، وحضر عودة الينا فى هذا اليوم وهو فى حالة يرثى لها من الأعياء ، وكان مهمل الثياب مشتت الفكر تائه النظرات ، وان كانت روحه لا زالت وثابة ، والسخرية الحلوة التى تظهر عليه وهو فى أمر وأعتى المواقف المحزنة لا تفارق فمه ، لا أعرف لماذا كان الجو مكفهرا .. أشعر دائما أن للطقس ظلاله على المواقف الحساسة فى حياتى .. يتشربها أو يعكسها ..

استمعنا جميعا الى خطاب التنحى الذى ألقاه عبد الناصر بنفسه عبر الاذاعة المسموعة والمرئية ، بوجه مكظوم وصوت محموم فاق فى فظاعته يوم أن ألقى خطاب الانفصال عن سوريا و .. لم نكمل جلستنا هبطنا الى الشوارع تائهين محزونين ، ورغم أن عوده وقد اختنقت فى حلقه العبارات واحتبست فى عينه الدموع ، الا انه فاجأنى بقوله : استمعى معى .. هناك صوت ، بل أصوات تتجمع وتتصاعد الى عنان السماء مختلطة بالظلام وتراب الأرض الطيبة مصر ، تقول : يا بو خالد ، أنت القائد .. وأصيخ السمع ، ويوحى لى أننى أسمع بالفعل ما يقوله لى عوده .. ولم تمض سوى دقائق معدودة من خطاب عبد الناصر حتى سمعنا صدى دوى المدافع المضادة للطائرات .. ومع ذلك ، استمر عوده يسمع نفس الصوت ولا أعرف كيف سمعته ؟ ومتى ؟ هل سمعت الصوت مع عوده أم بعده ، وفجأة شاهدت بالفعل جموع الشعب تخرج من كل مكان كالنمل الى شوارع القاهرة قادمة من الشقوق والكفور والنجوع ومن كل ربوع الوطن !

ورغم سخطى على الموقف ككل ، وعلى حالة مصر البائسة المحيطة .. الا أن عودة بتصرفاته العفوية الطفولية قد بدد من أساى وحزنى ، اذ كان

يردد بفرح وأمل « نعم عبد الناصر تنحى ·· ولكن كى يصنع شكلا جديدا من عبد الله النديم ، ملائما للظروف الجديدة ، عبد الله النديم العسكرى ·· سنوزع السلاح ·· فى كل مكان ميليشيات ·· محطة اذاعة ·· جريدة فى كل موقع ·· ولن يستسلم عبد الناصر أبدا صدقينى ، وسوف يبدأ مسيرته من جديد ضد اسرائيل والامبريالية ··

لقد جعلنى عودة عبر تلك الكلمات أتخيل فيه أحد الانسانيين القدامى أو الجدد الذين قرأت عنهم ولا يعرف اليأس طريقه الى ارادتهم ·· لقد كان عوده كما عرفته دائما ، يخلق الأسس الأخلاقية التى ترضيه ، وتشبع روحه ·· ينقب فى خياله وفى نفسه حتى يعثر فى مفردات التراث على شىء يبنى به جسرا من التوافق والانسجام يؤدى به الى المصير الذى يحبه لمصر ولعبد الناصر الذى آمن بقيادته عن سبق اصرار واقتناع ، ويدل رد فعل خيال عوده بجانب كونه انســانا متفرد الشــخصية والموهبة ·· على أنه السياسى المحنك المؤرخ والمناضل الذى يرسم خطط المواجهة المطلوبة للموقف الصعب المفروض على بلده ·· كل ذلك فى لمحة بصر ·· ولحظة خطر ·· بلا تراخ ولا سفسطة !

(و) فقير هندى أسطورى

واذا كان يحق لى أن أتكلم عن محمد عوده ، فاننى أقول بلا زيادة أو نقصان ·· انه الوطنى الحر ·· المثقف الملتزم بقضايا أمته ، الذى يعرف واجبه ودوره بين الأجيال التى جاءت بعده ، فهو لم يبتعد يوما عن مقهى ريش الذى يجمع شتات المثقفين والثائرين من كل الأنحاء ، يناقشهم ويحاورهم ، يسخر منهم ويسخرون منه ·· ودائما ما يجد الحل لكثير من مشاكلهم قدر الطاقة ·· ينتقد أعمالهم ، ويستمع الى نقدهم لأعماله ··

لم ينغلق عوده عن معرفة أنمــاط الناس أو المذاهب والتيــارات الفكرية ، ورغم أنه من أكابر كتابنا ، الا أنه لم يتكالب على منصب صحفى أو رسمى قط فى الوقت الذى تبوأ تلاميذه أرفع المناصب الصـــحفية والرسمية ··

لم يقتن عودة ســـيارة فى يوم من الأيام ·· ويوم عرض عليه قريب شراء سيارة ، اشترط عوده على هذا القريب أن يقوم بتجربة هذا اللون من الحياة أولا ، ووافق القريب على ذلك ، وانقطع لعوده كسائق ، رغم كونه أستاذا بالجامعة ، وبعد أسبوع من التجربة على الحياة الجديدة ، عادت الى عودة عبقرية افلاس من نوع جديد ·· وحالت دون مواصلة هــذا اللون من الحيــاة ، فقال : ان هذه الحيــاة ــ مع الســيارات ــ لا تناسبنى ·· فلن أشتريها ·· لأننى لا أستطيع الحياة الا بالسير على

قدماى وسط أبناء بلدى ، أشعر بهم وأحس بنبضهم وأشاركهم مجاهدتهم للزحام ومشقة المواصلات العامة والتاكسيات الخاصة أو المشتركة ومتعة الحديث عن أحوال البلد مع سائقيها ٠٠ ووقف مشدوها أمام كل المغريات التى كانت تعرض عليه للعمل والثروة فى مشارق الأرض ومغاربها دون أن يعانقها !

سألته يوما عن الفترة التى عمل فيها مذيعا فى اذاعة الهند العربية ٠٠ بعد أن ترك العمل بالمحاماة ، وكيف عاشها فى الهند بعيدا عن مصر — فقال ، لقد اجتزت هذه الفترة كمدمن الدخان عندما يقلع عنه ٠٠ كنت (خرمان مصر) وأضاف ، لم أكن أستطيع البقاء فى الهند لولا أننى أحببتها ، لأنها بلد كمصر ، ذات حضارة عريقة ، وظروفها الاقتصادية والسياسية متشابهة ٠٠

محمد عودة كما يعرفه المخلصون من أصدقائه ، لا يستقر طويلا فى مصر ، وهو على حد دعاياتهم ، حائز على اقامة فيها ٠٠ اذ أنه ككل محب ، شديد المخاصمة مع واقعها القدرى وظروفها الصعبة ، ٠٠ الا أنه سريع المصالحة اذا ما شعر بالحنين اليها وأن لديه الكثير مما يعطيه لها من فكره وقلمه وتجاربه من واقع رؤيتها من بعيد !

ومن ملامح الأصالة فى عوده ، أنه مولع بمواساة الآخرين ، والمشاركة فى محناتهم وأزماتهم ، يبادر بالتهنئة لأفراحهم ومسراتهم ككل مصرى أصيل ، وهو اذا ما دعى الى مأدبة أو حفل أنس وبهجة ، وسمع أثناء ذلك عن انسان مريض أو فى محنة سواء ممن يعرفهم أو لا يعرفهم ، فانه كان يترك الوليمة أو الحفل رغم حبه لذلك اللون من الحياة ويذهب عن طيب خاطر لعيادة ذلك المريض أو الوقوف الى جانب من هو فى محنة أو أزمة أو حاجة الى المواساة الحانية ٠

أذكر ، أنه كان مدعوا لمؤتمر فى الجزائر سنة ١٩٦٠ ، وعندما سنحت له الفرصة وتقابل مع الرئيس بومدين ، لم يستطع أن يكبح مشاعره المشغولة على صديقه ابن بلا وكان رهن الاعتقال ، فسأل عن مصيره ، وكأنه استشعر الخجل والحياء فى أن يكون موجودا فى بلد صديقه القديم ابن بيلا ، ولا يسأل عنه فى محنته ٠٠ وكان لهذه البادرة أثرها ، اذ اختفى عودة من المؤتمر فى اليوم التالى بعد ان تعقبه تقرير أمنى كتبه مسئول اعلامى كان شاهدا على حواره مع بومدين !

وقد سألت سفير الجزائر بالقاهرة الأستاذ الأخضر الابراهيمى بعد هذا الحدث ، وكان بمؤتمر فى الكويت ، ماذا فعلتم بعوده ٠٠ فقال : اننا لم نفعل شيئا ، فنحن نقدر مشاعر الصداقة ٠٠ ولكن ابعاد عودة

تم بناء على توصية أو توجيه من السـفارة المصرية بالجزائر الى عوده نفسه .. ربما لاستشعارها بحرج أن يتدخل مصرى فى شئون الجزائر الداخلية .. وعندما سألت عودة : « أين الحقيقة فى ذلك ؟ » قال : « الله أعلم » ..

كان عوده بالفعل من الشخصيات التى استطاعت أن تحوز وتملك كثيرا من صفات الأستاذ المعـلم الذى يتحلق حوله الكثيرون من الذين يبحثون لهم عن مكان فى الوسط الأدبى والصحفى والسياسى فقد كان عوده يصطحبهم معه فى روحاته وغدواته ، حتى ليشاع عن غرامه بهذه أو تلك ، وعندما يلمح له الصحب عن ذلك ، فانه كان يرد السخرية بسخرية مثلها ، وأنه يثقفها ويحذرها من الذئاب .. وللقارىء أن يقف بنفسه أمام شخصية عودة باعتبارة كاتبا مشـهورا ، والشـهرة كثيرا ما تجنى على صاحبها بما يحاك حولها من نوادر لا تمت للحقيقة بصلة ..

ولا شك أن القارىء بعد كل ما تقدم عن عوده ، يتساءل ، ومعه الحق كل الحق ، أين عودة من كتاب الأدب والسياسة ؟ .. ونقول انك اذا أردت أن تضـبط عوده بين أولئك وهؤلاء ، فلابد من الرجوع الى كتبه .. فستجد أنه صاحب ملكة أدبية من طراز رفيع ، كما تجلى فى كتابه « سبعة باشوات » ، أما تحليله السياسى المخلق الذى لا يفتقر الى البديهية أو الشعور والنبوءة والالهام فانه ينساب هادئا وتلقائيا فى نهر تفكيره العميق ، كمـا يظهر فى كتـابيه « الصـين الشـعبية » ، و « فى قلب نهرو » حيث أنه عقد مقارنة بينهما .. فأرجع نجاح الثورة الأولى الى التحام الوطنية والماركسية .. لأن الكونفوشيوسية تعاليم أخلاقية أو دين بغير اله ، وعكس أسباب ارتطام واصـطدام الوطنيين الهنود بالماركسية ، لأن البوذية والبراهمية دين بالله .. ومن هنا كان صدام البوذيين والبراهمية مع الفلسفة الماركسية ، ولم يتم الالتحام .. وبينما قضت الصين على الأفيون والذباب والدعارة والمجاعات ، وحققت الطعام لكل الأفواه .. لم تستطع الهند الى الآن أن تقضى على الفقر أو المرض .. لأسباب سبق لعودة أن شرحها فى كثير من كتبه وكتاباته !

فمن ينشد محمد عوده .. فلينشده فنانا ، يكتب السياسـة أو يجنح الى الأدب .. فهو جدير بالاصغاء والاقبال عليه فى هذين المجالين ، ولا تثبت هاتان الصفتان بدعواه هو أو دعواى .. بل الحكم العدل فى مثل ذلك يكمن فى موقف الرأى العام العربى من مؤلفات عودة الواسعة الانتشار ــ وقد كان عودة أشهر من كتب بشـهادة جيله .. وقد توقفنا على شبه تأكيد على مكانته المرموقة عندهم .. فبه وبالمئات من جزئيات خصاله ، تجده محبوبا ــ كما قلت ــ فى وسط المحافظين ، مرحبا به فى

أوساط التقدميين ·· وقد ترى الأجيال القادمة فيه أكثر مما رأى هذا الجيل: همزة الوصل بين الثقافة العربية وثقافات أوربا والعالم الثالث ، وبين القديم الراسخ التراث ، والجديد المتوثب الى صنع المستقبل الأفضل ، بين اليأس والرجاء ، بين النضال وحتمية النصر لكل قيم الخير والحب والعدل ··

(ى) تحولات الحيـــاة

كتبت الموضـــوع السابق عن محمد عودة عام ١٩٨٠ بمجلة الدوحة القطرية ، حيث كنت أقيم بدولة الكويت منذ عام ١٩٧٥ ، وقبل هذا التاريخ ، كنت فى باريس ١٩٧٣ ، حيث قضيت بها عاما واحدا ·· أى أننى لم أكن قد جالست عوده منذ مدة طويلة ··

وعندما عدت الى مصر ، جالست عوده ، فوجدت أشياء قد جدت ، وأخرى قد اختفت وذلك بفعل الأيام وتوالى السنين وتغير الأوضاع ·· فقد أصبح عوده قليل الصبر ·· ضيق الصدر ·· ساخطا من أقل وأتفه الأشياء ··

وربما كانت هذه الصفات الجديدة على عودة من مخلفات رحيل زوجته وتلميذته دون أن تترك له ذرية تؤنسه أو ربما لاقامته طوال حياته فى مسكن صغير جدا ·· كان يعتبر اقامته فيه مؤقتة الا أنه ظل فى المسكن حتى يومنا هذا ·· أو ربما لتحول كثير من تلاميذه الى أصدقائه يحاورونه ويناقشونه فى ندية أو تطاول ·· دون أن يضع فى حسبانه مقولة « ان كبر ابنك أخيه أو خاويه » وربما لأن زمان الردة قد جرف فى تياره بعضا من الرموز التى أحبها وأكبر فيها مواقفها الوطنية والقومية الشريفة فصار لا يغفر لهم الهنات والشطحات الفكرية ومن بينهم صديقه الصدوق المرحوم الدكتور يوسف ادريس الذى خاصـــمه فى آخريات حياته ، وأنا شخصيا رغم صداقتنا الوطيدة والبعيدة رفض أن يقرأ كتابى الأخير « الانسان الطائر » بدعوى انى وقعت فى براثن الميتافيزقيـــا والغيبيات ·· وربما لرحيل بعض من أحبابه تباعا ·· ولن أنسى أسى عودة ولوعته حين عاد من جنازة صديقته الفنانة التشكيلية العظيمة انجى رشدى ·

يبدو ذلك التغيير بجلاء ·· لا سيما اذا انعطف الحوار العقيم نحو عبد الناصر عندئذ قد يضطر الى قلب الطاولة ساخطا منفعلا بشدة حتى لو كان المحاور أو المناقش أقرب من عودة الى عبد الناصر أو رفيق كفاحه أو عضوا فى تنظيم الضباط الأحرار ·· كالأستاذين لطفى واكد ومجدى حسنين ·· والشاهد ان تمسكه بمواقفه المبدئيـــة انعكست رغم جملة المتغيرات السياسية التى شهدها الوطن العربى والعالم على مواقفه الحادة

أو القاطعة .. ومن ذلك نظرته الى ثورة الشعب الأفغاني ضد الحكم العميل للاتحاد السوفيتي سابقا ، حيث أنه كان متعاطفا مع الاتحاد السوفيتي .. ومن هنا لم ير آنذاك ان شعب أفغانستان كان على حق في ثورته تلك ..

بجانب ذلك كله .. تكشفت مع الأيام أن قراءاته للتاريخ العربي ومتابعاته للتراث الاسلامي جارت عليها اطلاعاته الدؤوبة للفكر المعاصر والتراث العالمي والمتغيرات التي طرأت في شتى ربوع المعمورة على نحو غير متوازن أو بأكثر مما كان من قبل .. الى جانب موقفه من الناس ، حين يتخذ قرارا أو يتبنى موقفا أو رأيا في أحدهم اذ نادرا ما يتراجع عنه حتى لو ثبت خطأ ذلك القرار أو هذا الرأي .. وكأن لسان حاله يقول لم يبق في العمر متسعا للمراجعة والتصحيح والصفح الجميل ..

لكن في كل الأحوال ما يزال عودة بين أقرانه وأبناء جيله من الكتاب والمفكرين رمزا ناصعا للضمير الوطني والقومي الحي وكل ما هو عادل وشريف يستحق الدفاع عنه حتى التهلكة أو الموت ·

مجلة الدوحة القطرية

العدد ٥٧ ذو القعدة

١٤٠٠ هـ سبتمبر ١٩٨٠

جمال حمدان

.. أو لقاء المستحيل

جمال حمدان هو فيلسوفنا الجغرافى كما يرى بعض تلامذته .. وان اعتبره آخرون فيلسوفنا فى التاريخ السياسى .. وهو الوحيد الذى يلقب بالجغرافى الكامل فى العالم العربى وثالث جغرافى كامل فى العالم كله .. ذلك أن جمال حمدان استطاع بقراءاته الواسعة المحيطة أن يصل الماضى بالحاضر ، وتمكن فى كتاباته أن يزاوج بين الجغرافيا والتاريخ .

أمر لا خلاف عليه بعد ذلك أن أكون شغوفة بكتاباته مولعة أكثر بالتعرف عليه ، وكنت حيال التعرف عليه كسولة أو مترددة .. أقول لنفسى يوما ما سأصادفه فى ندوة أو مهرجان .. فى استراحة مسرح أو فى مقر احدى المجلات أو الصحف .. فأعبر له عن رأيى فى كتاباته المبهرة وسأقول له كم هو عاشق صبابة لمصر و .. و .. وسأستفهم منه عن كذا وكيت .

لكن كل آمالى فى هذا اللقاء وذلك الحوار تناثر بعد هزيمة ٦٧ ، ففى تلك السنة كلفت كمراسلة لمجلة الآداب (البيروتية) أن أرجوه فى كتابة مقال عن هذا الحدث وما أن تحركت للبحث عنه أبلغه هذا الرجاء ، حتى وجدتنى أدور فى دوامة موارة الخروج منها أى الوصول اليه مستحيل لا يدرك كالعنقاء والخل الوفى .

قيل لى بمختلف التعبيرات وبعيدة أشكال « لن تحققى مطلبك لأنه اعتزل » ولأن المفاجأة شلت حركتى فقد تصورت أنه اعتزل عطاء وتبتلا فى حب مصر .. بعد عشقه الطويل لها عبر كتبه العديدة .. و .

ذلك أن كثيرا من العلماء والكتاب كتبوا كثيرا عن جغرافية مصر كالدكاترة حسين مؤنس فى (مصر ورسالتها) ، وحسين فوزى فى (سندباد مصر) وشفيق غربال فى (تكوين مصر) والأستاذ العقاد فى مقدمته لكتابه عن (سعد) ولكنهم أبدا لم يستطيعوا أن يبلغوا بها ذروة فكر وتشخيص الدكتور جمال حمدان الذى قال عنها : فرعونية هى بالجد ولكنها عربية بالأب ، بجسمها النهرى قوة بر ، وبسواحلها قوة بحر . تضع قدما فى الأرض وقدما فى الماء . بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى ، برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم ، بموقعها على خط التقسيم التاريخى بين الشرق والغرب .. تقع فى الأول ولكنها تواجه الثانى وتكاد تراه عبر المتوسط ، تمد يدا نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب ، توشك بعد هذا كله .. أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر مختلفة .. وصارت مجمعا لعوالم شتى ، قلب العالم العربى ، وواسطة العالم الاسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى] .

وبعد هذا جميعا كيف لا أكون جوابة عالمه ، المفتونة بكل ما كتب عن وطنى وهو من عشق مصر ، وقال فيها ما قال . وتكلم واصفا ، فاذا بكل ما أعطى هو الشعر المصفى ، الذى يفوق ما ترنم به سليمان فى نشيد الإنشاد .

ان جمال حمدان يبدو لى كمن يهدىء من روع حبيبته الفزعه مصر من شراسة الاستعمار .. فيقص عليها تاريخها فى العالم وحضارتها الخالدة . ويهدهدها بأن شراسته هى مقدمات احتضاره وتشنجات النزع الأخير .. ولكى يعمق وعيها أكثر يعود بها الى الوراء ليكشف لها : « أنه ليس صحيحا أو دقيقا أن الاستعمار ــ كما يرتبط فى بعض الأذهان ــ ابن القرن التاسع عشر أساسا ، ولا هو من نسل البيئات البحرية وحدها ، وان كان الاستعمار البحرى من أبرز عناصره ، وانما الاستعمار قديم قدم الانسان ، ثم يؤكد لها .. أنه اذا كان الاستعمار يمثل الطرف القوى ، فقد كان التحرر بدوره ظاهرة تاريخية ، ومن اللحظة التى تأرجح فيها بندول الصراع ، كان أمر مقدورا أن تطوى صفحة « الجغرافية الاستعمارية » التى هى من صنع علماء الغرب نهجوها ، ونموها ، ووضعوها فى خدمة ساستهم واحتكاراتهم وجنرالاتهم لتتحول الى حفريات الجغرافية التاريخية ، وأن تبزغ جغرافية جديدة تماما ، هى جغرافية التحرر ، كفصل حى فى نظام عالمى وفكرى جديد !

ولأن حب جمال حمدان لمصر مبصرا .. فقد دفع عنها أقوالا كادت من تكرارها أن تلتصق بها فى مثل قول المتنبى : « وماذا بمصر من المضحكات ؟ ولكنه ضحك كالبكاء » ولم ينكر فى دفاعه عن مصر كأى

مؤرخ محايد أن الطغيان والبطش من جانب والاستكانة أو الزلفى من جانب آخر انما من أعمق وأسوأ خطوط الحياة المصرية عبر العصور ، كما أنها فى الحقيقة النغمة الحزينة فى دراما التاريخ المصرى •

فقال للمصريين : (لا ينبغى لنا أمام هذه الحقيقة أن نخجل أو أن تأخذنا العزة فنهرب أو نكابر ، كما أن من الخطأ أن ندع هذه العقدة التاريخية تترسب فى نفوسنا ، بل لابد أن نجابهها بالتحليل العلمى والتشريح الموضوعى لنرى الى أى حد هى ظاهرة ظرفية مؤقتة رغم طول ما أزمنت •

وبقدر ما دفع عن مصر من أقوال متجنية ، فانه قد أرجع كثيرا من عيوبها الاجتماعية مثل المركزية وغيرها الى مركزية مصدر الماء (النيل) والذى يمكن التغلب عليها ببناء السدود وحفر الآبار •

أقوال وأقوال تطمئن مصر فتشرح لها حقيقة معادلة القوة فى تراكيبها كدولة وأمة ، فتظهر العلاقة بين أرضها وناسها •• وبين نيلها وفلاحها ، وجهتها التاريخية وتوجهها الجغرافى •• حقيقة العلاقة بين عروبتها وفرعونيتها ، دورها العربى الرائد ومكانتها العالمية المتفتحة ، ومراكز قوتها ومواطن الضعف فى الجسم الوطنى ، وخطوط الحركة ، ومجالات التقدم الممكنة كما تخرج من بين مقوماتها ومعوقاتها ، وموقفها بالنسبة للعالم والعرب ، وأبعاد الوجود المصرى فى الزمان والمكان ، فى الحضارة والثقافة •• وكذلك فى السياسة والاقتصاد •

ها هو يلفت نظر المترجمين والقراء الى أخطاء الترجمة التى تضر بمفهوم الاسلام فى تعبيرات من قبيل نقل كلمة الاستعمار التركى ، كما هى الى العربية ــ وكما قال مصيبا ــ من المفروض أن يختلف هذا المعنى لدينا ، فالدولة الاسلامية لم تكن تنظر الى الخلافة العثمانية فى تركيا نظرة الشعب المستعمر الى دولة مستعمرة فالاستعمار له شروط وأبعاد •

ها هو يوضح أن استقرار المسلمين فى الوديان ــ فى البلدان التى تحوى الجبال والوديان (كلبنان والحبشة) لا يرجع الى عدم ميل العرب للصراع الذى تحتاجه المناطق الجبلية ، ولا هو عود الى البداوة الأولى ، ولا ايمان بأننا الى الأرض نعود •• بقدر ما هو ظاهرة تاريخية • فان احتكاك العناصر الاسلامية بشعوب هذه المناطق •• كانت القوة فيه والغلبه للعناصر الاسلامية ، فاختارت أخصب البقاع وأكثرها عطاء وهذا طبيعى •

لقد نذر جمال حمدان نفسه وقدم كل ماكتبه عن مصر وشقيقاتها العربيات فى نفس اللحظة التى تجابهه فيها مد الحقد الاستعماري والغدر

الصهيونى ٠٠ انه لم يملك ككل عربى الا أن يشـــير بوجوب أن يتفقد العالم العربى ذاته ٠٠ يبدأ فى مراجعة حساباته قوة وضعفا وأن يقوم أهدافه ، ويراجع خططه وأسلحته لتكون تلك المعرفة بالذات سلاحا فكريا فى نضالها القدرى البطولى الشجاع ٠

ينعطف على اليهود ليفند قولهم (بأن العرب واليهود الصهاينـة الموجودين الآن أبناء عمومة من الناحية العنصرية ، يبرهن على أن يهود اليوم ليسوا يهود الأمس البعيد ، الذين كانوا ساميين حقا ٠٠ أما هؤلاء فهـــم أخلاط من أمم شتى تغلب عليهم الدماء الأوربية بجنسياتها المختلفة ، انهم أوربيون يهود وليسوا يهودا أوربيين وفارق كبير هذا وذاك ٠

بل انه ينبه أصدقاءنا الأفريقيين الى تعبير اســتلابهم (بالخروج الأسود) يجعل اليهود يراودونهم بأن خروجهم كان كخروجهم من مصر ٠٠ كما ردد السويديون من قبل بأن هجرتهم وخروجهم الى الأرض الجديدة (أمريكا) قبل أن يكتشفوا ثروات الغابات فيعودوا الى وطنهـــم الأم السويد ٠٠ هو نفسه خروجهم الى أرض الميعاد وفق رؤيا الصـــهيونية الســـوداء ٠

هكذا تكلم جمال حمدان ٠٠ فوضع جغرافيا التحرر ، جنب وبعد جغرافية الاستعمار ، ومن كان يستطيع أن يقول ذلك الا جغرافى من أبناء أفريقيـــا ٠٠ عربى مخلص غاص فى أعماق التاريخ ليأتى بلب الجذور متفاعلة مع الأرض والجغرافية ٠٠ فقد تكون الجغرافيا صـــماء ٠٠ ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها ٠٠ واذا قيل بحق ان التاريخ ظل الانسان على الأرض ، فان الجغرافيا هى ظل الأرض على الزمان ٠

لقد فسرت لى كتابات جمال حمدان ما جاء فى ســـورة السجدة : « الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ٠٠ يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يـوم كان مقـــداره ألف سـنة مما تعدون » من أن الالهام والفكر يهبطان علينا من عل ، ولكن الانسان كما خلق من طين ٠٠ فان حل مشكلاته ينبع من الأرض ، والجغرافى هو أقرب الى هذه الأرض وهذا الواقع ٠

لذلك كله رأى بعض تلاميذه أنه فيلسوف جغرافى بينما رآه البعض الآخر فيلسوف التاريخ الانسانى لا يزاوج فى كتاباته الجغرافيا بالتاريخ فقط ٠ بل بينها وبين الاقتصاد والسياسة والانثروبولوجيا فى اسلوب أدبى فذ ، وروائى وملحمى أيضا ٠٠ بحيث لاتشعر وأنت تقرأ فى كتبه انك تقرأ الجغرافيـــا التقليدية فى مثل تعبير « حار جاف صيفا ٠٠ دافىء ممطر شتاء » عن طقس مصر ، أو عن (الشيلم والشوفان) كمحاصيل

بلد من البلدان ٠٠ انه عندما يكتب عن بلد ٠٠ فانه يبرز شخصيته الاقليمية وهو شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الأقاليم ٠٠ لايقتصر على حاضرها وانما يترامى بعيدا عبر ماضيها ٠٠ وخلال تاريخها ٠٠ لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن أن تتعرف على الفاعلية الايجابية للاقليم ٠٠ وعلى التعبير الحر للشخصية الاقليمية ٠

لقد حقق كل هذا فى كتابه الفذ « شخصية مصر ٠٠ دراسة فى عبقرية المكان » وفى (اليهود أنثروبولوجيا) ، و (استراتيجية الاستعمار والتحرر) ، (أنماط من البيئات) (المدن) و (قناة السويس) ، (بترول العرب) ، (استراتيجية العالم الاسلامى المعاصر) و (دراسات فى العالم العربى) ، و (دين أوربا) ، و (أفريقيا الجديدة) ٠٠

ظلت مقالاته فى الصحف والمجلات تلقى الاقبال والاهتمام قبل ٦٧ وبعدها ٠٠ مقالاته المتتابعة الفذة فى (نهضة أفريقيا) ، (الطليعة) (الأهرام) و (الجمهورية) ٠٠ وبينها (قضية فلسطين والموقف العربى) ، و (فلسطين ومحاور الاستعمار) ، و (معركة العودة) ، و (الاستراتيجية النووية) ، « بيان ٣٠ مارس مرحلة تغيير وانتقال » ٠

كتابات تدل كلها على أن صاحبها يواكب أحداث حياتنا ٠٠ يتفاعل مع ذراتها الى حد الذوبان ٠٠ ورغم أنها تلقى أضواء كثيرة هنا وهنا وهناك فان الرجل ـ يوم كلفت بأن أرجوه الكتابة ـ كان قد ابتعد عن المجتمع بل وكف عن الذهاب الى الجامعة رغم رجاء رئيس قسم الجغرافية فى استبقائه ٠٠ ثم عميد الكلية بل مدير الجامعة ٠٠ وظل هذا الوضع ثلاث سنوات ، ثم اضطروا فى النهاية الى اعتباره مستقيلا ٠

هذه هى الخلاصة التى خرجت بها من رحلة البحث عنه ، وان كانت تفاصيلها أغرب ٠٠ لقد وضعتنى رحلة البحث عنه فى تجربة مثيرة ومغامرة لم تخطر لى على بال ٠٠ واذا بى أمام بحر عميق تتلاطم أمواجه فى عنف ، وتغلف شواطئه الأسرار ٠٠ لكننى بالرغم من كل شيء لم أحجم ولم أنصرف ٠٠ استعنت بفضولى وتسلحت باصرارى ٠٠ وأخذت فى الغوص والتعمق صوب القاع ، وطفوت بعد جولتى هناك مرة أخرى ٠٠ أتنفس الصعداء ٠٠ وأنا أتأمل ما بيدى من أصداف ثمينة مليئة باللؤلؤ ٠

لقد تصورت فى البداية أن معرفة عنوانه شيء هين اذا أنا اتصلت بالمجلات أو الصحف التى يكتب لها ٠٠ وعندما فعلت قالوا لى : لن تستطيعى رؤيته ٠٠ فعليك أن تكتبى رجاءك بالتكليف بمهمة اقناعه بالكتابة على الآلة الكاتبة ٠٠ وارساله بالبريد على عنوانه ٢٥ شارع أمين الرافعى بالدقى ٠٠ وتكتبى عنوانك ورقم تليفونك ٠

كتبت له كما نصحت ·· ولكن اعتذاره وصلنى تليفونيا وكان المتحدث مكلفا من قبله ·· وفحوى اعتذاره أن مثله لا يكلف بكتـــابة موضوع يطلب منه انما كتاباته هى فيض لما يشعر به ويحس بضرورته ·· اذا فالرجل يضن حتى بصوته على محبى كتاباته ، الشغوفين لمعرفة رأيه ··

قلت لنفسى متعجبة ·· اذا كان جمال حمدان قد التزم بفـكرة « أندريه جيد » « يجب ألا يعنى الانسان بأن يظهر ، وانما المهم حقا هو أن يكون » فماذا قدم لأبناء شعبه الذين لايعرفون القراءة والكتابة وهم الأغلب ·· واذا قال هو محتجا بأنه لا يحب أن يعرض نفســه على الناس ·· نقول من واقع ما حدث لنا سنة ٦٧ وما سمعته من الآخرين ان الناس هم الذين يبحثون عنه أحيانا ليتســـلم شيكا بثلاثين جنيها وفاء لحقه فى طبع فصـــل « عبد الناصر والانسان العربى » من كتاب « عدم الانحياز والاستراتيجية » الذى وزع على جميع لجان الاتحـــاد الاشتراكى ·· ومثل هذا المبلغ مقابل محاضرة لمعهد الدبلوماسيين ·· بل انه عندما كلفته لجنة التراث بتحقيق كتاب « الادريسى » اعتذر واقترح عليهم أستاذا بجامعة الاسكندرية ·· وقبلهـــا اعتذر عن دعوة لحضور مؤتمر بليبيـــا وزيارة للسودان ··

يوما فيوما تتعاظم الرغبة فى معرفة هذا الانسان الظاهرة اللغز فالانعزال موقف تتشـــابك عنده الخطوط ، لا ســـيما وانعزاله مبتور الصلة تماما بالمجتمع ·· فعلى قلة المعتزلين فى حياتنا المعاصرة ·· فاننا نرى معتزلاً كمحمود محمد شاكر شق شرنقة الاعتزال بمبادرته للرد على مقالات لويس عوض عن رسالة للغفران للمعرى ·· ثم وافانا بعد ذلك بأسباب اعتزاله ·· نسمع بمعتزل آخر للمجتمع ولكنه يسمح للمقربين اليه أن يغشـــوا منزله ، يسمعوه نبض الشـــارع الذى لا يستشف من الصحف ·

سألت ا لجغرافيين الذين يعرفون الدكتور حمدان ·· فقال لى الدكتور عبد العزيز كامل (رحمه الله) « انه زميل عزيز على ·· وجارى فى السكن أيضا ·· ويوم عرفت بقراره فى الاعتزال زرته ولم يكن قد أحكم اغلاق أبوابه بعد ، ورجوته أن يلجأ الى ان أراد أى خدمة من دهاليز الحكومة أو ·· أو ·· وكان وجهه لحظتها يقول انه لن يفعل) ·

طلبت من الجغرافى السودانى الأستاذ عبد الله زكريا ــ وكان قد تردد على بيته أيام اشراف الدكتور جمال على رسالته للماجستير ــ أن يصف لى منزله : فقال انه منزل بسيط الى حد التواضع ·· وأنه سكنه من قبل أن يذهب الى البعثة بانجلترا ·· حيث يحتوى البهو على ثلاثة مقاعد ··

لا يزين الجدران الا اعــلان عن شركة خطوط انجليزية للطيران وباقى الجدران مكسوة بمكتبة تحوى كتبا فى شتى المجالات ٠

قال لى آخــر عن أسرته : ان له أخا موظفا كبيرا بوزارة الأوقاف وهو عالم فى التراث ، وشقيقا آخر أستاذ فلسفة اسلامية بجامعة ليبيا ــ وآخر مجندا ، ورابعا هو صاحب محلات « سنجام » قرب شارع شريف ٠٠ وأنه لايزور الا والدته وفى وقت معين هو مساء الخميس ٠

عندما عثرت على أحــد كتب الهــلال بعنوان (القاهرة) تأليف ديزمونت ستيوارد وترجمة يحيى حقى ، وكتب له المقدمة جمال حمدان تحت عنوان (القاهرة الكبرى ــ دراسة فى جغرافية المدن) قلت حل اللغز اذن عند الأستاذ يحيى حقى ٠٠ ولكن هذا الأمل سرعان ما ذاب لحظة سؤالى الأستاذ يحيى عنه ــ حيث أفصح لى بأنه ذهب لتكلفة جمال حمدان بهذه المقدمة خمس مرات ، ولم يلقه الا بعد اجراءات ورجاءات حتى نجح فى المرة السادسة ٠

نقرأ المقدمة فنتأكد من كلام الأســـتاذ يحيى ــ أن جمال حمدان سجل فيها ــ أنه لم يكتشف أن يحيى حقى هو المترجــم الا بعد قراءته لنصف الكتاب ٠٠ وكان يتصور فى النصف الأول أنه المؤلف الأصــلى للكتـــاب ٠

وهذا يدل على أن جمال حمدان وان كان قد التقى بالأستاذ يحيى الا أنه كان لقاء مقتضبا لم يتخلله حوار مستفيض ٠٠ هذا رغم أن الأستاذ يحيى من المعجبين به ٠٠ بل انه وجد فيه أقدر من يقدم لترجمته ٠٠ بل أضــاف لى عنه ٠٠ أنه ذواقة كبير للفن ومصور ٠٠ وعازف أيضا ٠٠ وأديب لايحيى بعض كلمات العربية ، بل ينحتها ويعطيها الوجود أيضا ٠

عندما أفصحت للأستاذ حقى عن قرارى فى اقتحام عزلة الدكتور جمال حمدان وزيارته ٠٠ أشـــفق على من التجربة لســـابق معرفتـه بالتجارب الأخرى الشبيهة التى فشلت ٠٠ ولكنى واصلت السير فى رغبتى ٠٠ فقد كنت مع صديقة بالقرب من منزله ٠٠ فصعدت معها السلمات القليلة المفضية الى شقته فى الدور الأول ٠٠ وأخذنا نقرع على بابه بكل قوتنا ٠٠ فلم ينفتح الباب حتى بعد مرور دقائق خمس متواصلة ٠٠ لقد شعرت لحظتها أننى لست أمام باب شقة ٠٠ انما أمام حصن حصين ٠٠ ومن الغريب أن كل من مر بنا كان ينصحنا بمداومة القرع ولكن لا مجيب ٠

ولكى أفيق من هذه الصدمة ٠٠ وأزيح عن نفسى شبهة الاتهـــام بالفشل رحت أسائل نفسى وأتذكر ٠٠ هل منى أحد قبلى بما منيت به من

الفشل ؟ وسرعان ما تذكرت تجربة أستاذى الكبير المرحوم الدكتور محمد مندور ·· عندما كلف بكتابة حوار مع توفيق الحكيم ·· وفشل في لقائه ·· حيث كان الحكيم يضرب له ميعادا تلو الآخر ولا يلبى أحدها ·· فقد جلس الدكتور مندور متسائلا : وما هو الجديد الذى كان سيدلى به الحكيم ·· وراح يتصور الحوار ·· لقد كنت سأسأله عن كذا من انتاجه ، فيجيبنى بكيت مما كتب ·· فليس هناك جديد عنده ·· وهكذا تم الحوار من جانب واحد لكنى عدت أقول لنفسى ·· ان تجربتى جد مختلفة ·· اذ أن مندور أجاب على الأسئلة المتخيلة من واقع كتب الحكيم ·· ولكنى هل يحق لى أن أصف جمال حمدان من واقـع ما كتبه عن وصف مصر مثلا فأقول : « والذى تراه هو أننا ازاء حالة نادرة من الأقاليم والبلاد ·· (أستبدلها بالأشخاص) ·· من حيث السمات والقسمات التى تجتمع فيها ، وكثير من هذه السمات تشترك فيها مصر أو (جمال) مع هذه البـلاد أو (الورى) ولكن مجموع الملامح يجعلهـا مخلوقا فريـدا فذا حقيقة ·· فهى بطريقة ما ، تكاد تنتمى الى كل مكان دون أن تكون هناك تمـاما » ·

تأملت هذا التشبيه والتبديل وتسـاءلت هل يفى بالغرض ·· عندئذ وجدت أن سخطى قد انجـاب عنى ·· لاسيما وأنى تذكرت قولة جمال حمدان المتواضعه فى مقدمة كتابه شخصية مصر : وليست هذه أول دراسة من نوعها فى مصر بطبيعة الحال ، وان حاولنا أن تكون وافية دون اطناب ، كذلك لايمكن لمثلها أن تكون نهائية أبدا ·· ولكننا نأمل أن تلقى من الضوء مثلما تنفث من الحرارة على شخصية من أغنى الشخصيات الاقليمية وأكثرها ثراء وتعددا فى الجوانب والأبعاد ·

انه اذا رجل متواضع اعتزل لأسباب أقنعته ، فالمتغطرس لا يعرف الاعتزال ولابد أنه عبقرى أيضا لأنه أضفى رداء العبقرية على مصر ·· فعلماء الجغرافيا العالميين قد اعتبروا (شخصية مصر) أكثر الكتب ثراء فى الدراسة الاقليمية فى الأدب الجغرافى العالمى بأسره ·· فمنذ أن بدأت نظريات الجغرافية الاقليمية الحديثة فى أواســط القرن الثامن عشر لم يستطع عالم جغرافى أن يبرز شخصية الاقليم مثلما فعل جمال حمدان فى شخصية مصر ·

ومع كل هــذه الحقــائق الجغرافيــة المتألقة التى تبرز عبقرية المكان فى أى بلد يتنــاوله الدكتور جمال حمدان بالكتــابة ·· وكل الشهادات له من علماء الجغرافية العالمية ·· فانى قد حضرت مناقشـة دكتوراه فى جامعة القاهرة ·· اعتمد الممتحن فيها على آراء الدكتــور جمال حمدان ·· فما كان من المناقشين الا أن انتهروه قائلين : كيف تعتمد

على من يسمى نفسه بالجغرافى وقد أحكم رتاج منزله على نفسه ٠٠ أين التحقيق ٠٠ أين ٠٠ أين ٠٠ مما جعل الممتحن يبدو وجلا لايجيب خائفا ٠٠ فرد خاطرى بدلا عنه : يا لقوة الزملاء الذين لم يكتفوا بأن ترك لهم مسرح الجامعة يصـــولون ويجولون فوقه ٠٠ بل راحوا يحاربون حتى كتاباته وابداعاته فى عزلته لنقص وعدم وفاء « فى نفس يعقوب » !

وها قد وجدتنى قد بدأت حديثى عنه ثائرة على عزلته ٠٠ وانتهيت بعد أن ضمنى عالمه ٠٠ أحمد له هذه العزلة ٠٠ وان كنت أشفق عليه منها ــ لأنى أعرف أن عزلته مفيدة لنا نحن قراءه والعارفين لفضله ! ٠٠

تكفينا اذن كتاباته ٠٠ فيجب فعلا ألا يلتمس الانســان رغبة فى الظهور فالأسماء فى التاريخ ليس لهــا أهمية ــ المهم فى التاريخ هو الأعمـــال ٠

ملحوظ : نشر بعض من هذا الموضوع بمجلة الاذاعة المصرية عام ١٩٧٣ ٠٠ وعندما كنت أكتب متتابعات ومذكرات شاهدة ربع قرن بمجلة الدوحة القطرية خــلال اقامتى بالكويت طلب منى رئيس تحرير جريدة الوطن أن أكتب متتابعات مثلها عن شخصيات مصر الأدبية والفنية التى صادفتها أو لم أصادفها ٠٠ على أن تكون مركزة ٠٠ ولذلك بدأتها عام ١٩٨٠ بالدكتور جمال حمدان وكنت بالطبع متأثرة بما كتبته عنه فى البداية ٠

لقد كان فضل المقتطفات ــ التى نشرتها من هذا الموضوع من قبل ــ انها فتحت أمامى أبوابا كثيرة أطل منها على شخصية جمال حمدان نفسها ٠٠ ذلك أننى بعد نشرها كنت كثيرا ما أصادف بعضا من عارفيه فيبادروننى : لم نكن نعرف اهتمامك أو متابعاتك للدكتور جمال ٠٠ اذن لكان علينا ان ننبهك الى كذا وكيت ٠٠ كطريقة مخصوصة لقرع بابه ٠٠ أو ترك رسالة أسفله ٠٠ أو أشرت اليك بمصادر لآراء له لم يضمنها كتاباته المنشورة بعد أو تتصل بسبب اعتزاله أو ٠٠ أو ٠٠

قال لى أحد زملائه فى الجامعة ٠٠ ان سر اعتزاله يرجع الى مثاليته الخالصة فقد كان لا يطيق رؤية المتزلفين ٠٠ وكان يكظم غيظه من تزلفهم الذى يظهر مثاليته وكأنها صلف وغطرسة ٠٠ ولكن غيظه فاض ووصل الى حد الاعتزال بعد أن كلف بالتدريس بجامعة القاهرة فرع الخرطوم مناوبة مع زميل آخـر كان قد حاضر الفصــل الدراسى الأول ٠٠ ولكنه عندما ذهب الى هناك اكتشف أن زميله قد حاضر مقـرر الفصل الدراسى الثانى وليس الأول كما قال ٠٠ حقا ان تدريس كلا المقررين غير مستعص على من فى ثقافة جمال حمدان ولكنـــه شــعر أن زميله هذا وهو من

المتزلفين تلاعب به أيضا وهو لا يحب ذلك ·· فعاد من السودان على بيته وأغلق رتاج بابه ·· وحدث أن الجامعة بعد سنوات اعتبرته مستقيلا ·· ولم تقبل أن ترفده ·· لأنهم يعرفون أن التاريخ سينصفه ويدينهم ·

ولكن المرحوم الدكتور عبد العزيز كامل عاد يصحح هذا المفهوم فقال : الحق أن كلا الأستاذين جمال وزميله المناوب له ·· كانا ضحية أستاذ ثالث يقول هو عن نفسه انه لا يعرف النوم الا اذا أتى بوقيعة ·· وانه ان لم يجدها فانه يوقع بين ابنته وزوجها ··

قال لى آخر من معارفه ان الدكتــور كان رساما ومصورا ، وآخر قال انه كان يوما متزوجا ·· ورغم أنى كنت أعرف من الأستاذ يحيى حقى أن له صوتا قويا من طبقة (التينور) الا أن أغرب ما سمعته عنه أنه كان ينوى الغناء ·· بل أنه حزن عندما عاد من البعثة من انجلترا ليجد أن عبد الحليم حافظ قد ظهر واشتهر ·· وهو كان يطمع فى اعتلاء هذا العرش ·· هكذا همس لى صديقه المخرج التليفزيونى محمد البشير وكان ذلك عام ١٩٧٢ بهذه الحقيقة على استحياء وأنا بالطبع لا أبغى الاساءة الى عالم ، جليل ، فالغناء ليس عيبــا فقد ذكر الشيخ أمين الخولى فى كتابه بسلسلة أعلام الفكر عن مالك ·· أنه سمع يوما شخصا يدندن بأغنية كانت معروفة أيامه ·· فما كان منه الا أن فتح شباك منزله ·· وصحح للمدندن اللحن ·· وعندما طلب منه الأخير اعادة اللحن تأسف مالك ·· وهو يقول · لكى تذهب للنــاس وتقول لهــم ان مالكا يغنى ، وليس ببعيد قول الشافعى : ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من جرير · وقال الأستاذ أحمد بهاء الدين يوم سألته عن صداقته للدكتور حمدان قال : الحــكاية انه حـدث يوم أن مرضت ـ المرض قبل الأخــير طبعــا ـ ومنع الأطباء عني الكلام ومن ثم الزيارة ·· وبعد انتهاء هذه الفترة الحرجة أنبأتنى زوجتى أن موظفا مخلصا لدى ـ ربما استكشفت ذلك من بدلته القديمة التى تخلفت عن الموضة ـ قديمة التصميم ـ كان يأتى يوميا فى ساعة محددة للسؤال عن صحتى بأدب شديد ·· ثم يرجوها ابلاغ سلامه لى ·· وعندما استفسرت عن اسمه ؟ قالت : جمال حمدان ·· شــهقت وقلت لها ·· انه الدكتور جمال حمدان الذى ·· والذى ·· كان عليك أن ترحبى به جدا ·· وتسأليه أن يدخل ليستريح ·· واعتذرت ديزى ·· وعندما حان وقت قدومه استقبلته بكم هائل من الترحيب ·· وسألته التفضل بالدخول ،لكنه اعتذر كعادته وطلب منها ابلاغ سلامه للأستاذ بهــاء ·

ولأن طرفا من هذا الموضوع نشر بالكويت بعد مبادرة (كامب دافيد) فقد قال لى الأستاذ مصطفى نبيل (رئيس تحرير مجلة الهلال الآن) ··

وكان يعمل وقتها مع الأستاذ أحمد بهاء الدين بمجلة العربى ، انه كان بسبيل قضاء أجازة بالقاهرة فحمله الأستاذ بهــاء رسالتين أحدهمـــا للدكتور جمال حمدان ، والأخرى للأستاذ محمد حسنين هيكل ٠٠ وعندما ذهب لتسليم الرسالة الأولى ٠٠ وجد الدكتور حمدان فى حالة يرثى لها ٠٠ لحيته قد طالت ومنزله عاثت الفوضى فى أرجائه وهو يضرب كفا بكف فى أسى قائلا : عجبا على هذه المعاهدة التى قلبت نظريات التاريخ والجغرافيا معا وتعاظمت نبرته الناقمة على من أبرمها الى حد تمنى معه أن يكون (أوزوالد) الذى قتل كنيدى ٠٠ ثم يســتدرك ولكن كيف لى بقدرة التصويب ٠٠ وحتى اذا كانت لدى هذه القدرة فالسادات لا يجوب الشوارع بسيارته فعربة السادات لا تسير بالشوارع وانما يستعمل الهليكوبتر فى انتقالاته ٠٠ ويهيىء الى أن مصطفى هو الذى لفت نظره للملاحـظة الأخيرة ٠

وفى اليوم التالى ذهب مصطفى لتسليم هيكل رسالتــه ٠٠ فوجد البون شاسعا بين حال الرجلين ٠٠ مما جعله ينبىء الأستاذ هيكل بالحال التى عليها جمال حمدان ٠٠ وما إن سمع هيكل الاسم وهذه الحالة التى وصل اليها حتى طلب من مصطفى أن ينزلا فورا للقاء جمال حمدان ٠٠ طلب مصطفى من هيكل التريث لأن جمال حمدان لابد أن يعرف بطريقته من سيزوره ومتى و ٠٠ و ٠٠ ولكن هيكلا لم يأبه لهذه الذرائع ، ورضخ مصطفى وركبا سيارة طراز « بى ام دبليو » وذهبا الى شقة جمال حمدان ليمكثا أكثر من ربع ساعة يدقان جرس منزله ٠٠ ويدقان بابه بل أبواب جيرانه يسألونهم ان كان قد خرج ؟ وعندما ينفون ويؤكدون وجوده مع اطفائه لنور منزله ٠٠ يستقطب هيكل أطفال الشارع فأخذوا يقذفون الحجارة معه تلو الحجارة على شقته فى الدور الأرضى ٠٠ لم يهـدأ هيكل ولم ييأس حتى فتح جمال حمدان أخيرا باب شقته ليجده فى مواجهة مع محمد حسنين هيكل بلحمه وشحمه ٠٠ دعاه بالطبع للدخول ٠٠ وسرعان ما استأذنهم ليحلق لحيته التى توغلت حتى يفيق ليجاورهما ٠٠ دخل هنيهة ـ فالتفت هيكل لمصطفى يسأل أين سنجلس ـ ثم عاد جمال ليعتذر لهما بأنه أقلع عن عملية الحلاقة ٠٠ لأنها ستستغرق وقتـا طويلا ٠٠ عندها طلب منه هيكل أن يخرجا الى مكان طلق اعتذر الدكتور حمدان بدعوى انه مريض ٠٠ فألح هيكل بأن هـذا أدعى للخـروج الى منزله واسـتدعاء طبيب ولكن جمالا تشبث بعدم الخروج فرضخ هيكل لكن عبر سـيل من الأسـئلة المتتالية التى وجههـا له : قلت عن المصريين كذا وكيت ٠٠ فما رأيك وأنت تراهم الآن بعد ابرام هـذه المعـاهدة التى تعرف أبعادها وأصداءها ٠٠ قلت وقلت فما الذى حدث بالكون ٠٠ استمع الدكتور حمدان مليا لأسئلة هيكل كما لو انهـا طلقـات رصاص

•• ومع حيرته من تدفق الأسئلة قال : على رسلك فأنا أيضا فكرت وفكرت فوجدت أن المصريين ــ ربما ــ عاشوا السنوات الأخيرة ــ بعد النكسة ــ بين نارين نار العرب الذين لا يمدون لهم يد المساعدة •• ونار اسرائيل التى لم ينتصروا عليها •• فوقعوا فى أسر الأخيرة •• ولم يحركوا العرب أو لم يتحرك العرب على حد قول مصطفى نبيل الذى شهد اللقاء ! •

بعد ذلك تبادل جمال الوضع مع هيكل فبدأ يسأله : لماذا تركت وضعك فى الأهــــرام ــ وكأنه يقول وأنت أبو الهول ــ ولماذا ولماذا ؟ مما يشى حقا بأن جمالا كان يحترم ويعظم هيكلا بشكل كبير !

ويقول مصطفى ان هيكلا أمام حالة جمال حمدان المتواضعة ماديا •• يسأل مصطفى ان كان جمال يقبل كتابة كتاب عن موضوع أو زاوية خاصة فى مصر لدار نشر أمريكية كلفته هو نفســــه بكتابته ــ أى هيكل ــ فمنعه مصطفى أن يعرض على جمال مثل هذا العرض لأنه موسوس أن تكون المخابرات الأمريكية تترصده •• فاحجم هيكل عن هذا العرض •

قبل توجهى لتسليم هذا الموضوع وما كتبته من تعقيب عليه اذا بى التقط من أمام باب شقتى جرائد الصــباح يوم ١٨ ابريل حيث كانت صــور جمال حمــدان بالصفحة الأولى وفوقها (مصرع جمــال حمدان فى حريق بشقته •• ران الحزن على وأنا أردد قول جدتى : أحيانا تكون الحياة كالأشغال الشاقة آخرها الاعدام » بعــــدها •• بدأت فى تلقى مكالمات التعزية فيه ممن يعرفون اهتمامى به ، وبعد فترة امتثلت للأمر الواقع ، وبدأت أتصفح الجرائد لأعرف تفاصيل الحادث •• ومن الغريب أننى وجدت فى جريدة الأهرام اشارة لموضوع أجراه معه محرر من مجلة الشباب وكان قد استعان بالبواب فى قرع باب الشهيد حتى انفتح وتمكن بعد ذلك من اجراء الحوار معه •

اذن فما سمعت من أصدقائه أن هناك طريقة معينة تجعله يفتح باب شقته كانت حقيقية ، والأغرب من ذلك أنه فى داخل الحوار ما يؤكد على ما قيل لى عنه وما استشففته من مسيرة حياته ، بل ما كان يستشعره هو ذاته •• فمثلا عندما سأله المحاور عن كيف يمضى وقته داخل جدران مسكنه ؟ أجاب :

وقتى كله مخصص للقراءة ومتابعــة اصــــدارات الكتب الجديدة وأتفرغ للكتابة عن كذا •• وكذا •• ومن المشروعات التى كنت أتمنى أن أنجزها هى اعداد كتاب عن الفن •• ولم يتم ذلك حتى الآن لأســــباب اقتصادية تتعلق بتكلفته ، وقد تدهشون لأننى أفكر فى الكتابة عن الفن رغم أننى لا أجيد كتابة النوته •• فأنا سميع أطرب لصوت عبد الوهاب ، وأم كلثوم ، وصوتى أنا نفسى •• وكنت زمان أغنى أغانى عبد الوهاب فى جلساتى الخاصة مع الأصدقاء •• وما زلت أتابع الحركة الفنيــة بعد

عبد الوهاب ، وأم كلثوم ، لكن الساحة الفنية خلت تمـاما بعدهما ٠٠ وأتعجب من الأصوات التى يسمعها الناس) اذا فكتابه المأمول عن الفن كان عن الغناء خاصة ٠٠ ذلك أنه ذكر أنه لايعرف كتابة النوتة ٠٠ ثم انه ذكر عبد الوهـاب وأم كلثوم ونفسه ، ولم يذكر عبد الحليم حافظ ٠٠ فهل يؤكد ذلك ما قيل لى عن حزنه بعد عودته من البعثـة وظهـور عبد الحليم حافظ الذى كان يتمنى هو أن يأخذ مكانته ؟ ربما ٠٠ وربما ٠٠

من الأسـباب التى استشعرناها ـ طـوال بحثنا عنه ـ عداؤه للجغرافيين الذين هضموا حقه فى الترقية وفى ٠٠ وفى ٠٠ قولته فى نفس الحوار : (وتمنيت لو علقت فوق باب شـقتى لافتة تحمل عبارة (ممنوع دخول الجغرافيين) ثم اجلاله لهيكل حيث قال فى معرض نقده للصحفيين وألاعيبهم حين استدرك قائلا (لكن هذا لايمنع من وجود قمم فى الصحافة وعلى رأسهم هيكل الذى أعتبره أعظم صحفى فى العالم) ٠

أما الأسباب التى استشعرها هو وتعتبر ترجمة أو استقراء لما حدث بعد وفاته فهى قوله : (المجتمع المصرى غريب فى تناقضاته فهو لا يعرف بعبقرية أحد الا بعد وفاته ، فتظهر أفضاله ، ويتم الحديث عنه والاعتراف بفضـله) ٠

وقد تحققت هذه الغرابة مع جمال حمدان ذاته ٠٠ فبعد أن كان الجغرافيون وغيرهم لا يعتبرونه جغرافيا ٠٠ وانما هو انسان يكتب من منزله دون تحقيق ٠٠ وجدناهم بعد وفاته يؤكدون كيف أن جمال حمدان استشعر عن بعد تضاريس مصر دون أن يعتمد على أحدث ما توصلت اليه التكنولوجيا ٠٠ وأنه رآها وسمعها بعين العالم وضميره اليقظ ٠٠ ثم انفجر الاعلام وفى مقدمته الصحافة بهدير من المقالات عن طفولته ووقت نبوغه حيث كان السادس على الثانوية العامة ٠٠ وكيف أحب ؟ ومن قبلته ومن رفضته ؟ ٠ ومن هو الأستاذ الذى دفعته ألاعيبه للاعتزال بالاسم ٠٠ وتعاظمت نبرة الصـحافة فكان كتابه (شخصية مصر) ٤٢٠٠ صفحة المعتمد فيه على ٢٤٥ مرجعا عربيا ٧٩١ مرجعا أجنبيا ٠٠ دون كتبه جميعا هو المنارة التى يجب أن تهتدى بها مصر لتخرج من ظلامها الى نورها ٠٠ وبعد الصحافة استيقظت الاذاعة ثم التليفزيون ليؤكدا أن حل مصر يكمن فى دراسة كتب جمال حمدان ٠٠ ياسبحان الله ٠ حقا ان المجتمع المصرى غريب ومتناقض كما قال الشهيد ٠٠ فهو لايعترف بعبقرية أحد الا بعد وفاته ٠٠ فتظهر أفضاله ويتم الحديث عنه والاعتراف بفضله ٠

ولعل هذا وذاك يدعونا لتصـديق مقولة ذلك الراحل العظيم من أن الشعب المصرى لا يحتاج الى ثورة سياسية ولا ثورة اجتماعية وانما يحتاج بالدرجة الأولى للثورة على نفسه ٠

أمل دنقل
شاعر عاش بعد وفاته
أو هذا الشهاب الذي هوى

أمل دنقل ، اذ استرجع ذكرياتي عن شخصيته وطبيعتها من خلال صداقتي له ، أجد أصداءها تموج في مخيلتي وتهدر • ولكن على رسلي أقول : ان زخم هذه الذكريات سريع التداعي معرضه ولاشك للتناثر ، ومن ثم فلابد لها من اطار يبرز صورتها ليشع تكاملها • وحبذا لو كانت أبعاد هذا الاطار هي فكره وطبقته الاجتماعية موصــــولتين بلمحة عن شخصيته التي ألممت بها من خـــلال معرفتي له عن قرب •• وبعد هذا الاختيار يبقى اعمال نوع من التعاكس فيما بين هذه الأبعاد ، حتى نتوصل الى رسم صورة عامة لطبيعته المتفردة • فمن خلال شخصيته قد نستدل على طبعه الذي فطر عليه ، ومن خلال فكره نستدل على طبقته التي نشأ فيها •

هناك أناس تتذكر جيدا اليوم والمناسبة التي عرفناهم فيها ، وهناك آخرون تشعر وكأنهم ولدوا معك فصاروا جزءا في كيانك • وأتصــور أن الصنف الأول هم أخاديو الطباع ، وهم اما أن يكونوا على أســيل من الرقة أوشــدة من العنف ، بعكس الصنف الثاني الذي تمتزج الرقة فيه بالشدة •

وأمل دنقل كما أرى على الأقل من الصنف الأخير ، فالظاهر منه هو كثافة الأشــواك ، والخافي فيه هو خرير الرقة • وفي ظني أن هذه الأشواك نمت على ظاهر شخصيته من كثرة ارتطامه بخذلان من حوله • وفعل تكرار هذا الخذلان على تثبيت هذه الأشـــواك بأكثر من وتد حتى

صارت خصيصة فى شخصيته ، يستشعر بها أى هجوم ـ باعتبـار أن الهجوم أنجح دفاع ـ وقد لازمته هذه الميزة حتى أخريات أيامه ٠

حكى لى القصاص أبو المعاطى أبو النجا ، أنه لكى يعود أمل فى مرضه ، فضل أن تكون الزيارة خارج المستشفى ، فاصطحب أمل الى بيت الدكتور عبد المحسن بدر بالمعادى ـ وهو الراعى الذى اختاره أمل لرعايته وقت مرضه رغم أنهما لم يكونا أصـدقاء قبل ذلك ـ وهو من جعل أملا يرضخ فلا يرد مساعدة الأصدقاء فى محنته !

يقول الأستاذ أبو المعاطى : ان أملا كان فى هذه الجلسـة متوهجا متيقظا ، وهجوميا كعادته حتى مع النساء ، لدرجة أن أطباءه مع الساهرين معه ، ظنـوا أن جسد أمل قد دافع عن نفســه فطرد المرض اللعين ، ولم يفطنوا أن هذا الوهج هو ما يسبق الخمود ٠

وجدتنى أعـرف أملا منذ أن اسـتقر فى القاهرة ، يتردد على بين الفينة والأخـرى فى مقـر عملى الذى تنقلت فيه بين مؤسستى السينما والمسرح ، وسواء أكان ذلك بشوارع عرابى أو سليمان أو عبد الخالق ثروت ـ وهو مسرح غدوات أمل وروحاته ـ فهو يمر على مرة ليقرأ لى آخر قصائده ، أو يقترض منى كتابا أو خلافه ، أو يطلب منى تذاكر مجانية للمسرح أو السينما ٠

أما اذا تصادف مروره على مع انتهاء العمل ، فانه يوصلنى سيرا الى أن استقل المواصلة التى تعيدنى الى بيتى ، فى هذه المسافة ـ قصرت أم طالت ـ نصادف فيها كثيرا من أدباء مصر وشعرائهـا وصحافيها ٠ فما يكاد أمل يراهم حتى ينشب الحوار بينهم ساخنا لاهبا ، اما بسبب انتاجهم أو مواقفهم الأدبية أو السياسية الأخيرة التى لا تروقه أو ٠٠ أو ٠٠ وعندما تنتهى هذه المعارك الفكرية على كل الصعد ، أسأله ونحن نكمل مشـوارنا : لماذا كل هذا الهجوم الشرس ؟ فيقول : « ان أصبعى ليس تحت ضرس أحد منهم » ، قلت له مرة : أنا مثلك يا أمل ولكنى أسبق هجومى بابتسامة وأتخير الظروف لمراجعتهم وليس هكذا على عرض الطريق ، فقال : لا لست مثلى فلك أخ اسمه يوسف الشريف ٠ أذهب اليه بمجلة روز اليوسف وأقول له : ان عايدة تهاجمنى و ٠٠ و ٠٠ قلت له لا عليك سيأتى لى يوسف لينصحنى بحديث شريف ، فيقول « يا عايدة وجدت أملا يتراجع عن سيره منزعجا يسألنى : أحقا تنظرين الى من هذه الزاوية ؟ » فضحكت مطيبة خاطره : « أضحك معك حتى تدرك رد فعل قسوتك على الناس » عندئذ عادت الطمأنينة الى وجهه فقال : انك تشاهدين وهكذا اعترف فى التحقيق العلانى و ٠٠ و ٠٠ فأعرف أن أملا يتسرب الى

الناس من عيونهم ، لأنه يطلب مثاليـــة أهل الصعيد فى كل انسان ، ولا يغتفر ما يحول بينها من جسام الأمور أو الظروف ! ٠

لذلك فأمل يراقب نفسه ويحاسبها بشدة حتى لا يأخذ عليه أحدهم أى مأخذ ، والحق أنا لم أمسك عليه أو سمعت غير ما أفصح به هنا ٠ وقد تهيأت يوما أن أسمع ما لا أعرف ولكن سرعان ما أحبط تهيئى لتلك اللحظة ٠ فقد ذهبت يوما الى نادى القصة لأتابع ندوة ، وتأخر عاقدوها ودفع الملل أو كلمة لم أسمعها من الأستاذ الناقد ابراهيم فتحى الى أن يغرس أمل أشواكه فيه ٠ وبدأ كل منهما يفتح دفاتره للآخر ٠ وظننتها ستكون معركة تاريخية بين اثنين من صعاليك مصر وأدبائها الفطاحل ـ بالمعنى الجيد لكلمة صعلكة ـ ولكن تدخل الأستاذ أبو المعاطى أبو النجا بين المتعاركين حال دون اشتعالهـا ٠ فقد تأبط أملا وانسحبا من ساحة المعركة ٠

السؤال اذن : كيف هبطت أفكار أمل من طبقته وظروفه الشخصية ؟

الشاهد اننى عرفت أملا وهو ينحو الى جانب الاشتراكية من حيث وقوفه ضـد ظلم الانســان والبلاد ٠ وهو لم يجلس مرتديا (الروب ديشمبر) فى شرفة فيلته المطلة على النيل وبين أصابعه الرقيقة « كاتلوج » المذاهب السياسية والاجتماعية يقلبه وهو يدخن سيجارة ٠٠ حتى يختار منها الاشتراكية لأنها تلائم قوامه الفكرى ٠ وانما الاشتراكية كانت وليدة ظروفه !

ولأن بعض كراسى الأدب كان يتربع عليهـا آنذاك ، الستينـات وما بعـــدها ـ بعض اليمينيين من أمثــال د ٠ رشـــاد رشـــدى ويوسف السـباعى ، أولهم لا يطيق حتى مجرد رؤية الاشتراكيين ٠ وثانيهم يهوى استمالتهم درءا لأذاهم ، ومن ثم فقد أراد يوسف السباعى أن يستقطب أملا الى جانبـه ٠٠ باعطائه وظيفة فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ربما لأن سخريات أمل من المسئولين كانت تنتشر فى أجواء القاهرة ومنتدياتها بأسرع من الضوء ٠ فهو لم يكن يهمد عن الحركة أو يكن عن القفز من مكان الى آخر بجسده النحيف وصراحته الموجعة ولسانه السليط ، لكن أملا ظل مترددا فى قبول هذه الوظيفـة الى أن استفزه لقبولها جمع من أصدقائه ٠٠ فاستسلم ٠ غير أنه لم يستقر فيها طويلا ٠٠ خوفا من حدوث الاستقطاب فيمسكه عليه أحدهم ، أو يصبح اصبعه تحت ضرس أحد على حد قوله ، وهكذا ترك الوظيفة مفضلا الجوع مع الحرية ٠

أتذكر الآن عن أيام جوعه وحريته هذه أنه مر على فى عملى ، وكان

يوم أربعاء • وعندما اتجه ناحية مواصلتى المعهودة •• قلت له اننى لست عائدة الى منزلى اليوم بل سأذهب الى بيت العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر بمصر الجديدة • وعرض على أن يصحبنى اليه لأنه فى شوق الى معرفته ، وحاولت أن أثنيه لأن الأستاذ شاكرا لم يكن يعرف حتى بذهابى اليه • وعندما لاحظ بذكائه ترددى قال فى وضوح : بصراحة أنا جائع وأعرف أن لدى أستاذنا شاكر دائما طعاما شهيا •• وظننته يمزح فقلت : ليكن ذلك يوم جمعة وقت الزيارة الاسبوعية لتلامذته ومريديه ، وكان « الأتوبيس » قد وصل فى هذه اللحظة فاندفعت الى داخله مودعة اياه على عجل •

وعندما وصلت بيت الأستاذ شـــاكر حكيت له ما دار بينى وأمل فاذا به يثــور فى وجهى ويبــدى أشــد الأسف ويلومنى بعنف على عــدم اصطحابه • ثم جلس مهموما متفكرا فى ذكر أمل لجوعه الذى لابد فى ظنه أن يكون صحيحا •• ثم قال زافرا حزنه : كيف يجوع أمل وأنا أعرف أن والده الشيخ دنقل وهو بلدياتى كان يملك أرضا •• وفى رغد من العيش • ولحظتها فقط عاد لى زمن الفهم ، فاذا بالندم يطن طنينا مؤلما فى نفسى لأنى لم أصطحبه معى •

فى زيارة أمل لى بعد هذا الموقف قلت له مشاكسة : « لماذا أنت دائما مفلس وجائع والأستاذ شاكر قال لى ان والدك قد ترك أراضى شاسعة• فرد بأسى : ان الأستاذ شاكر لا يعرف أن والدى تركنا قصرا وعين عمى وصيا علينا •• فكان الحادث المعهود • أن يأكل الوصى مال القصر •• فحزنت وقلت أهدئه : لابد أن الله انتقم منه بعد ذلك •• فقال : بل على العكس فمازال أسطول عرباته لنقل الركاب من الصعيد الى الجيزة يهدر جيئة وذهابا ويقذف بالملايين الى خزائنه !

تلك اذن كانت وضعية أمل دنقل الاجتماعية ، والتى تؤكد لنا أنه ينتمى الى الطبقة الوسطى • واذا كانت هذه « البرجوازية » قد صنفت من قبل علماء الاجتماع على أنهـا ذات طبيعة معينة يغلب على أفرادهـا التذبذب والتردد فى مجالات الحياة ، والانتهازية فى قليل أو كثير من المواقف التى يتعرضون لها ، غير أن جبلة شخصية أمل التى جبلت على الكرامة والاعتزاز مع بيئته الصـعيدية المنضبطة على القيم والمبـــادىء الراسخة ، ومع ما حدث لأسرته من عمه ، وقلة حيلته وهو فى العاشرة وأخته فى الثامنة وأخوه الأصغر فى الخامسة •• لا شك أن هذه العوامل مجتمعة قد فعلت فى نفسه شيئا ما معاكسا لنظريات ومقولات رجالات الاجتماع حـول الطبقـة المتوســطة • وتدلنـا على أن هذه العـوامل وبسببها قد أحدثت أشياء استقرت فى روحه وخارج روحه • فخلقت فى نفسه ذلك الأثر العميق الغور الذى دفعه لتأمل أوضاع المغلوبين على أمرهم

من أمثاله ، فأكد بذلك أن الاضطهاد مشكلة المستضعفين لا الجناة . لذلك كان شعر أمل فى أغلبه بالمرصاد لكل الجناة وعلى جميع الأصعدة الخاصة والعامة . وتلازم شعره وموقفه الفكرى دون تباعد أو انفصـــال عن مجريات حياته الخاصة .

ولعله تحت تأثير هذا التأمل المرير ضاق صدر أمل بالاستقرار فى البلد التى ولد واضطهد فيها . فهو قد ارتحل عنها الى القاهرة ومنها الى السويس ثم الاسكندرية ليعود الى القاهرة مرة أخيرة .. فقد دله الترحال الى أن القاهرة أشد هذه المدن التصاقا بروحه الاجتماعية والسياسية ، انتقل اليها رجاء فى ان ينشر شعره من جميع المنافذ الاعلاميـــة تارة ، فى المنتديات والمقاهى ان عز النشر . وبالطبع تصدى رجال الرقابة بكل جبروتهم وقسوتهم ـ فى عهده ـ للشاعر الشاب وأفكاره الجريئة وشعره الحر الذى يفضح به كل السلوك المعوج ويعرى به كل الأنظمة فوجد أمل بعد هذا المنع . أنه لن يبلغ أسماع الناس اذا هو أقام على هذا العناد ، فنسعى الى أن يعدل من تكتيكه ، فكتب قصيدة عمودية نال بهـــا جائزة المجلس الأعلى للفنون والآداب للشعراء الشبان لأقل من ثلاثين عاما ـ وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، يقول أمل عنها : كنت أريد أن أحصل على اعتراف رسمى بأن الذين يكتبون الشعر الحديث يستطيعون أيضا كتابة القصيدة العمودية .

وتذكرنى هذه الحادثة .. أن أملا مر على يـوما بلجنة القراءة فى مؤسسة السينما ليقرأ على آخر ماكتب وهو بالشعر الحديث ، وكان زميلى فى العمل وسماع القصيدة هو الشاعر حسانى حسن عبد الله . الحائز على جائزة الدولة عن ديوانه (عفت سكون النار) والذى صدره على الغلاف بتعبير (من الموزون المقفى) : وعند انتهـــاء أمـــل من قراءة قصيدته عبرت له عن روعتها ، فالتفت أمل الى حسانى يستوضحه رأيه ، فرد حسانى قائلا : اننى لم أسمع شيئا ، وهذا الرد يرتد بالطبع لشعار ديوانه (الموزون المقفى) . فزعت عندما سمعت زميلى يتفوه بهذا الرأى المجحف الظالم . ووضعت يدى على عينى بتوقع أن معـــركة ربما يدوية ستشتجر بين أمل وحسانى . ومن العجيب أننى عندما أنصت فى وضعى هذا لم أســمع أى انفجـــار . بل نقاشـــا هادئا بين حسان الذى أمسك بالقصيدة فى محاولة لوزنها وتقفيتها ، ومحاولة أمل استردادها منه بحجة أن لديه ميعادا حان وقته .

كشفت لى هذه الحادثة عن حلم طباع أمل ، وربما تكافل الصعايدة فكريا . واحترام صغيرهم لكبيرهم . وبالتأكيـــد لأن أملا كان واثقا من شعره حرا كان أو موزونا مقفى . فقد كان أمل الشاعر الوحيد من جيله

الذى كان لا يغضب منى اذا رددت شعر غيره أمامه فى مناسبة أو أخرى ، كان لا يقول لى كغيره : متى اذن ترددين شعرى ، فهو لم يكن يستعجل المجد ، وأيضا لأنه لايريد لشعره أن يكون مجرد وسـادة يغفو عليها المحبطون أو يتأسى به الحزانا الذين يرددون الحكم الشعرية · ولكن كان يريد بشعره أن يكون قذيفة فى مواجهة الصمت واللامبالاة !

أذكر أيضا يوم نشرت الأهرام صورة مقابلة أحد الشعراء للرئيس السادات · فقلت لأمل : أرأيت كيف انحنى السادات وهو يسلم على (···) فرد ساخرا : طبعا لأن هذا الشاعر ولد وقد ختم على قفاه ختم السلطة · أما اذا عيرته بانتشار قصائد شاعر عن صلابة مدينة السويس وصمودها فانه يجيب : طبعا لأن لدى هذا الشـاعر ثلاثة عشر فدانا واستراحة على البحر فى السويس ·

ومن اجلال أمل لمن هم أكبر منه سنا من أى مكان وليس لصعيدى فقط ، أنه عندما أهدانى المرحـوم فتحى الرملى ـ أمامه ـ روايته (الضياع) أشار على أمل أن أكتب عنها لمجلة الاذاعة ، ففعلت ، غير أننى عندما شاهدت أملا بعد نشرها بادرنى قائلا : مقالتك ليست جيـدة · ففزعت وسألته عن السبب فأوضح لى أنه يوم أشار على بالكتابة كان يتوقع الرقة فى قلمى عن زعيم ولى مجده فقلت له : ولكن الأستاذ فتحى الرملى كتب فى مقدمة روايته أنه لايريد أن يكتب عنه أحـد للمجاملة ، فقصدت بمآخذى اثبات جديتى وليس مجاملتى ·· فقال أمل : ماذا كنت تنتظرين أن يكتب على كل حال أنا عندما أشرت عليك بالكتابة كنت أتوخى منك الحذر · فلا تحسبى أن أملا شاعر رافض من عبث ، ولكنه شاعر رافض من الحزن ، حزن لأن حال الانسان هو ما يراه الرجل البصير الذى يلتفت حوله فلا يرى الا كل ما يشقى ويبعث على الأسى ·

● لحظة أشرق فيها أمل وأبرق ●

أتذكر أن حدثا مهما جعل أملا نجما سينمائيا ، وذلك عندما اختاره المخرج الجاد الراحل شادى عبد السلام ليقوم بدور أمنحتب الرابع أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشر ، الذى غير اسمه فى السنة السادسة من حكمه ليكون (اخناتون) أو الأفق المسرور · فقلت لأمل هنيئا لك النجومية : فقـال : بشفافية ، وأين ميزانية هـذا الفيـلم الضخم ، ألا تلاحظين أنه لم يخترنى الا لكونى فنانا آمل بلا تحقق ·· طمعا ! ·

وقد صدقت نبوءة أمل فى أن الفيلم لن يرى النور ، ولن تنعكس على ملامحه أضواء السينما ، الا أن كاميرات الصحافة عوضته حيث تدافع

الصحافيون يسألونه رأيه في الدور ٠٠ ويصـــورونه من جميع الزوايا ليؤكدوا دقة اختيار شادى عبد السلام ، نظرا للتطابق الذى يكاد أن يكون تاما بين أمل واخناتون ٠ والتى تفصح أن أملا يحمل ملامح فرعونية — فلم يطلق أسم فرعون الا على اخناتون لأول مرة ٠٠ ولو كان أمل سيمثل أحد الشخصيات قبل اخناتون لقلنـا ان ملامحه مصرية قديمة ٠ وبعيدا عن تقمص الأرواح فان أملا ربما كان من سلالة اخناتون ، فقد ولد امل بقرية القلعة جنوب مدينة قنا بأقصى الصعيد ، (وتل العمارنة) مملكة اخناتون التى نقل ملكه اليها فى الصعيد أيضـــا ، وكلا الشخصين أمل واخناتون شاعر ثائر ، فقد ثار اخناتون على ألاعيب كهنة آمون ولقى حتفه بسبب قوتهم لاسيما عندما خذلته أمه (تى) فى حربه ضدهم ٠ ودار الزمن دورات عديدة ٠ وجاء أمل فماذا عمل وهو ليس فرعونا أو ملكا ٠٠ ماذا يقدم وموهبته الكبرى هى أن يقول الشعر ٠ فقاله وهو يعض النواجز سخطا على من يلعب بوطنية مصر وعروبتها وأملا فى تحقيق أمنيته فى أن يستيقظ العرب ويهبوا دفاعا عن أرض أجدادهم ٠ فهلك امل وهلك حلمه فى يوتباه وعالمه المثالى ٠

ويجرنى التداعى لصورة أمل واخناتون الى صورة مزدوجة أخرى بينه وبين الشاعر العراقى بدر شاكر السياب ، خاصـة الوجه والنحافة وضعف البنية ولو أن أملا أطول فى قامة الجسد ٠ لاسيما وقد ربطهما معا الداء والمأساة ٠ فكلاهما نشأ منذ الطفولة باحساس طاغ وحاد بمشاعر اليتم والفقد ، أمل فى أبيه والسياب فى أمه ، وكلاهما من جنوبى مصر والعراق اللذين يتميزان بالبعد عن ترف المدينة ٠٠ وهما معا من الشعراء الذين استخدموا التراث والأسـطورة كوسيلة اسـقاط جيـدة للأحداث الحاضرة ٠ ولكن اطارهما الفكرى اختلف ربما بسبب العمـر واللحظة التاريخية ٠ فقد كانت مخاور شعر السياب هى مشكلات العرب بعد الحرب العالمية الثانية ٠٠ أما قضايا أمل الفكرية فقد دارت حول مشكلة الشرق الأوسط مع الصهيونية العالمية ، لاسيما مراحل ثورة ٢٣ يوليو وانعكاس أحداثها على الوطن العربى وبالذات هزيمة ٦٧ ٠

واذا صنف أمل مع السياب أدبيا تحت باب الشعر الغنائى الا أن الغنائية عندهما ليست للحبيب المجهول ٠ وانما غنائية الرفض الذى ينضح سخطا ومرارة ٠

واذا كان السياب قد وافاه أجله وهو يعالج فى الكويت وليس فى موطنه العراق ٠٠ فقد كان أمل هو كذلك معرضـــا لهذا المصير ، فقد عملت منظمة التحرير الفلسطينية كل الترتيبـــات لأن ينتقل أمل من

مستشفى للسرطان بالقاهرة ، ليعالج فى باريس … غير أن أطباءه لم يروا داعيا لذلك لأن مرضه كان قد وصل ذروته ٠

ولأن أملا كان الصورة الجديدة للسياب ٠٠ فاننا نجده شديد الاهتمام بشعر السياب دراسة وتأثرا ٠٠ ولا أعرف ان كان السبب هو الشبه فقط ٠٠ أم لسكنى أمل طويلا مع الشاعر حسن توفيق ـ بشارع عيسى حمدى شقة ٤ بالعجوزة قسم ثان ـ الذى كان يعد عن السياب وقت سكناهما معا دراستين (أزهار ذابلة وقصائد مجهولة) و (دراسة فنية وفكرية لشعر بدر شاكر السياب) واللتين أصدرتهما بعد ذلك المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ٠

وذكرى لعنوان سكنى أمل مع حسن توفيق ٠ له قصة طريفة ٠٠ كان أمل الدافع لحدوثها ٠٠ فقد اقترض منى حسن توفيق جنيهين ولم يردهما ، وعندما حرضنى أمل أن أشكوه لمديره الشاعر صلاح عبد الصبور ، رجانى حسن ألا أفعل لأنه سيكتب لى بهما وصل أمانة ٠ وفعل ٠ غير أن أملا عندما قرأ نهاية الوصل ، وأنه عند ميسره ٠٠ استفزنى أن أطلب حقوقى من كتب الهيئة من حسن ٠ فقد كانت له اليد الطولى ـ بحكم موقعه كمدير لمكتب رئيس الهيئة العامة للكتاب وهو صلاح عبد الصبور ـ فى اهداء عدد محدود من اصداراتها للمثقفين يفيدوا منها فى كتاباتهم على سبيل الدعاية ٠٠ فدلنى على هذا الموقف الاستفزازى من التوقف على مدى المام أمل بالكتب ٠٠ حيث نزلنا ثلاثتنا الى المخزن وفتح لنا عم محمد البـاب لنواجه بأكداس من الكتب وأخذ أمل ينقب ويختار لى الكتب التى تنفعنى ٠ وعندما سلمنى الجزء الثانى من معجم ألفاظ القرآن الكريم ، قلت : أين الجزء الأول ، فقال : لقد انتهيت من الاطلاع عليه وسأعطيك اياه ٠٠ أتذكر أنه سلمنى أيضا فى هذا اليوم كتاب الفن والمجتمع والتاريخ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ، وقال لى انه كتاب مهم ٠٠ وأيضا كتاب شعر الأحوص الأنصارى الذى جمعه الدكتور عادل سليمان وقدم له الدكتور شوقى ضيف ثم أجزاء تاريخ الحضارة المصرية ، ثم قال أطلبى من حسن أن يدبر لك أجزاء المنتخب من علوم السنة ، قلت له : لكن هذه الأجزاء من اصدارات المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، فأجاب : ولكنها هنا فى هذا المخزن ٠ فطلبتها وغيرها بعد أن دلنى على وجودها ٠٠

تكاثرت الكتب فقلت لأمل كيف أحمل كل هذا ؛ فحملها معى الى تاكسى متوجهة الى منزلى ٠٠ ان حب افادة النـاس ومساعدتهم هى من خصائص أمل أيضا ككل صعيدى أصيل !

ومن الشعراء العراقيين الذين توقف أمل على أشعارهم وحياتهم معا، وليس بسبب الشبه وحده ، الشاعر عبد الوهاب البياتى ، فقد كان

أمل صديقا مزمنا له طوال لجوئه السياسى الى مصر فى الستينيات ·· حيث كان يجمعهما معا توجيه النقد الصارخ لمن حولهم ·· واذا كان أمل ينقدهم مواجها ، فان البياتى كان ينقدهم بعد أن ينصرفوا وربما يرجع هذا بالطبع لشعوره بالغربة !

ومن الشعراء الذين زاملهم أمل أيضـــا الشاعران معين بسيسو وكمال ناصر ، والسودانى الذى اكتشف أخيرا أنه ليبى فتحقق بذلك حلم الوحدة العربية فى شخص محمد الفيتورى وشعره ·· واللبنانى هانى مندس ·· بل وأتذكر أن الأستاذ الشاعر نزار قبانى عندما سألنى المشورة لترشيح بعض الشعراء الشبان ، حتى يصدر لهم دواوين ــ عندما صار له دار للنشر ·· بدأ كلامه على ألا يكون أمل من بينهـــم · ولا أعرف على ماذا يعود هذا التحذير هل لأن أملا لم يصبح من المجهولين ــ أم لأن أملا سخر من شعر نزار··ثم واصل نزار هذا الهجوم، أما الشاعر أدونيس فكان يرسل على عنوانى برسائله الى أمل ·· فكنت أمر على مقهى (ريش) أو (لاباس) لأسلمها له ، أو أتركها لدى الجارسونات فى كل منهما · هؤلاء كلهم ·· بجانب كثير من الشعراء الزائرين فى مؤتمرات الشعر خاصة · والأدب عامة ، التى عقدت بمصر · أذكر فى أحد هذه المؤتمرات كنت أجلس وسـط الشاعرة ملك عبد العزيز والأستاذة سهير القلماوى عندما صاح أمل مهللا للشاعرة روحية القلينى وهى تلقى قصيدتها · مالت على الشاعرة ملك عبد العزيز قائلة ، انظرى لنفاق أمل ·· فاستوضحتها لماذا ينافق أمل · فقالت : انه يهلل لروحية لأنها أعطته منحة التفرغ · فهمست الدكتورة سهير ··ان روحية رئيسة ادارية لادارة التفرغ ونحن الذين أعطينا أملا المنحة ·· فقلت فى نفسى : ومن كان بحاجة للتفرغ أكثر من أمل ·· تعصمه عن الذلل ·· وتجعل شعره أكثر تألقا ·

لم تنحصر صداقات أمل فى الشعراء بل امتدت الى عدد لايحصى من الشخصيات السياسية اللاجئة لمصر من جميع البلاد العربية والأسيوية والأفريقية ·· بجانب أنه كان صديقا لشعراء مصر · من صلاح عبد الصبور الى أحمد عبد المعطى حجـــازى الى ابراهيم أبو سـنة ومهران السيد وأحمد عنتر · مع صداقته للمفكرين فى كل مجالات الفكر ·· أتذكر أننى معه صادفنا فى طريقنا يوما الأستاذ سيد ياسين رئيس مركز الدراسات السياسية لمؤسسة الأهرام ·· وبعد حوار ساخن ــ طبعا ــ سأله أمل هل ترى الدكتور قدرى حفنى ·· رد الأستاذ سيد ·· بأن قدريا غارق فى بحثه عن شخصية الاشكانيزم ·· فقال له أمل : سأمر عليه ليلا ·· فانى شغوف ببحثه هذا ·

وهذه اللمحات الخاطفة تعطينا فكرة أن أملا كان يتنفس الأدب والفن والشعر وكل مجالات المعرفة من كل منافذها وينابيعها · وهذه الخصيصة

قد أطلعته على كثير من الأمور الخافية على غيره ·· بل أكملت له ثقافته الجامعية التى افتقدها ، وبكل الكليات ·· فرأب صدعا كان يؤلمه ، ليس لأنه لم يكمل تعليمه الجامعى ·· بل للحوادث التى انتهت به ألا يكملها ·

وداعا أمل ·· وداعا لذكريات حلوة مخصبة · فقد كنت يا أمل دفقة سخية من زخات الزمن الضنين ·· لكنها دفقة جفت واختفت قبل الأوان ·· كنت فيها كالطبل المدوى ·· يعلو نقره بألم الشعب وسخطه لعدم انفراج أزماته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ·

لقد كنت يا أمل ·· أملا فى اسماع صوت الرافضين فى مصر للعالم الذى صورته له أجهزة الاعلام على أنه عالم السلام مع اسرائيل أو الاستسلام لها !

وبعد ·· ترى هل استطعت من خلال هذا الاطار لهذه الذكريات المتناثرة ·· أن أقول بأن كل بعد من أبعاد هذا الاطار ألقى بظلاله على البعد الآخر ·· وأبرز أملا كانسان ذى طبيعة متفردة صادقة مع نفسها حتى الرمق الأخير ؟ ·

أحسب اننى اجتهدت بحسب معرفتى بأمل عن قرب ·· وأحسب أن الزمن سوف ينصفه أكثر !

ناجي العلي

كما عرفته

هل يتسلى القلب الحزين ؟ أم أن كر السنين يعيد لنا زمن فهم أشياء لم نكن قد تنبهنا لها في حينها ؟ حين تراجف اسم ناجي العلي على قيثارة قلبي الحزين سمعت من يهمس لي : ان اسمه الأول قد خانه وكنيته خلدته ·· سألت كيف ؟ قال ان ناجيا وان نجا من الغدر الصهيوني مرات كثيرة ·· الا أنه لم ينجو أخيرا من الفخ الذى نصبه له كهان القضية · لأنه كفنان شديد النقاء أبى أن يلقي بنفسه في خضم منظمة بعينها أو يسلم نفسه لأحضان شعارات فضفاضة ·· أبى أن يرفع راية غير راية صفحته الباطنية المتسامية في عشق فلسطين ·· وكل المشردين والضائعين ومعذبى الأرض أجمعين ·· لقد علا ناجى بكل هؤلاء متساميا بهم الى صوفية محلقة ·· وظل ملتزما بفنه وما يؤمن أنه حق وآثر العيش في محراب ريشته وقلمه النازف قطرات من دمه متجردا من أي غرض دنيوى عازفا عن الصغائر والمهاترة !

ولأن علو الفنان ونجاحه محسوب عليه ·· فقد عمل أعداؤه على قصف عودة وهو في ريعان رجولته وقمة عطائه الفني فخلد العمل وصاحبه معا ·

تترادف خواطرى · أعرف أكثر من ذلك عن ناجى ·· ولكن ماذا عن رمزه الفنى « حنظلة » ذلك الطفل الفلسطينى اللاجىء بثيابه المهلهلة المولى ظهره أبدا للقراء ·· والذى كان ناجى يرسمه على كل أعماله كتوقيع أول أو اسم ثان ، فيرتد الصوت لى قائلا : اذا أنت حذفت

التاء المربوطة من حنظلة لصار حنظل أو مذاق المر والعلقم ·· ولعرفت عن طريق الحذف هذا سر المذاق اللعين العالق في حلقك منذ وفاته ·

في هذه اللحظة عاد لي زمن الفهم ·· فأدركت لم رفض ناجي طلبنا يوم رجوناه أن يجعل الطفل حنظلة يلتفت بوجهه لأقرانه في العام الدولي للطفل · رفض ناجي ان يواجه حنظلة العالم الا يوم يمتطي جواده الأبيض قاصدا بيت المقدس ·· يترجل عنه ليصعد بقوة المؤمن وعزم البطل فينزع نجمة اسرائيل من على المسجد الأقصى ويضع مكانها (علم صلاح الدين) ·· وينشد له الأطفال :

حتى بلغت سماء لا يطال لها   على جناح ولا يرقى على قدم

وهو ما لم يتحقق الى الآن ·· فمات حنظلة طفلا لم يكمل دورته في الحياة ولم يكتمل أمله وأملنا في النصر المبين حتى نتخلص من مذاق المرارة اللعين ·

بعد أن تجلى لي فهم هذه الأسرار الخفية لاسمى ناجي العلي الحقيقي والفني ·· عدت أسأل نفسي ·· ماذا عن الرسام (عبد الوهاب العوضي) ·· الذي اتخذ خطوط ناجي العلي وشخوصه منهجا له وطريقا ·· فوجدتها تقول لي حلل اسمه ينجلي لك سره ففعلت ·· فوجدت أن الله (وهب) لناجي (عبد) ·· (عوضنا) عنه ·· فجعلنا رسمه اليومي لا ننسى الأصل ·

معرفتي بناجي

ترجع معرفتي بناجي منذ أن حطت قدماي أرض الكويت سنة ١٩٧٥ ووقعت عيناي على رسومه الكابية المؤثرة · أو بالأحرى صرخاته الطاعنة ·· بقسوة خطوطها من الأبيض والأسود ·· رجتني هذه الرسوم رجا عنيفا ·· وكأن الذي أبدعها قد استعمل في رسمها الأسلاك الشائكة المكهربة منزوعة الأغلفة ·· لأنها ما ان تلامس عينيك حتى يصيبك ما أصاب مبدعها وهو يخطها ·

منذ ذلك الحين ذهبت أبحث عنه ·· فعرفت أن ناجيا غادر الكويت الى بيروت خوفا على خطوطه أن يصيبها الوهن من جراء بعده عن أرض المعركة ·· وعمل هناك بجريدة « السفير » ، لم يكن أمامي في هذه الآونة سوى أن أجمع أعماله المنشورة ·· ولا أغالى ان قلت ان ليلى كله كان انتظارا للصباح الذي يحمل لي خطوط ناجي الموجعة ·· التي يجعلني التأوه منها أصرخ في كل من أعرف هل رأيت اليوم رسوم ناجي ·· هل توقفت على مغزاها هل أدركت فحواها ··

طمأنني الصحب أنه أحيانا يزور الكويت .. فرجوت كل من يعرفه أن يعرفوني به .. ثم توسلت للسيد جاسم المطوع رئيس تحرير جريدة الوطن الكويتية التي يرسم لها ناجي من لبنان أن يهديني أحد رسومه الأصلية .. فقال باسما . نحن ندفع عليها نقودا .. وأمام شغفي والحاحي سمح للمرحوم (سليمان الفليحان) وكان وقتئذ سكرتير التحرير أن يحقق لي مطلبي فذهبت معه الى قسم الأرشيف .. وعندما وقعت عيناي على رسوما تلناجي العلي التي لم أكن قد شاهدتها من قبل .. ماتت يدي القابضة عليها .. وقلت لسليمان ان أقوى قوة في العالم لن تستطيع انتزاع هذا الكنز الثمين من يدي .. فتركهم لي سليمان على أن يكون هذا الأمر سرا . وفي البيت أخليت لهذه الأعمال جدارا أسميته « جدار العودة » !

قال لي ناجي بعدما التقيته ان معرفته بي تكاد تتوازى مع معرفتي به .. والفرق هو تواجده في لبنان .. فمع أنه لم يكن يذهب الى جريدة « السفير » الا في أوقات يحددها هو لنفسه ــ لا سيما بعد محاولات اختطافه ــ الا أنه كان اذا صادف في هذه الأوقات أحد العائدين من الكويت .. فيجده يكلمه عني وعن اعجابي بعمله .. فيتعجب .. ثم قال ان تعجبه زاد عندما صادف المذيعة رشامدينة .. لأنها أعلمته بحيازتي لكثير من رسومه الأصلية وما فعلته بها على « جدار العودة » .. واتسعت دوائر تعجبه عندما حضر هو الى الكويت .. لأن أغلب من قابله ذكر له اسمي وما أعكسه عليهم بعد كل مرة تقع عيناي على أحد رسومه من دهشة واعجاب وحزن !

أما لقاؤنا معا .. فقد تم على أرض الكويت ، ففي يوم سعيد رن جرس الهاتف في بيتي وسمعت المتحدث يهمس وجلا .. هل باستطاعتي أن أكلم السيدة عايدة الشريف .. فقلت أنا هي .. قال : أنا ناجي العلي .. فتهلل صوتي فرحا مزغردا رن في أرجاء العمارة ــ سمعه الجيران كما عرفت بعد ذلك ــ أهلا يا أستاذ ناجي فرد بارتباك . وكأنه تراجع عن الفرار من سماعة التليفون : أرجوك يا سيدتي كوني رقيقة بي .. فأنا لست أستاذا ولا ولا .. أنا رجل بسيط .. وعرفت انك مهتمة بعملي وزودني الصحب برقم تليفونك .. وأريد أن أراك وفقا لرغبتك قلت : يا ليت هذا يتم بأسرع ما يمكن .. فعاد وسألني : هل أنت مشغولة الآن قلت : حتى ولو كنت فانني شغوفة بأن أراك قبل كل شيء .. ثم زودته بعنواني .. فما هي الا لحظات تخيلتها دهرا طويلا الا وناجي ماثل أمامي بكل بساطته وعفويته .

جلسنا معا .. أنا أسأل عن تفاصيل ما عرفته عنه ويجيب هو وأحسست في رنة صوته أبعادا أثيرية سحيقة أعادت لي أصداء الأساطير

المبهمة التي كنت أسمعها صغيرة ، أتذكر أني سألته يومها عن حادث اختطافه من قبل اسرائيل مع مجموعة من الوطنيين الفلسطينيين دون أن يعرفوا من هم على وجه التحديد · ثم جعلوا بعض العملاء الملثمين ليتعرفوا عليهم الواحد تلو الآخر ·· وفي اللحظة التي كادوا أن يعرفوا أن بينهم ناجيا ، تجرأت احدى المخطوفات ونزعت القناع الذي يرتديه أحد المتعاونين ·· فحدث هرج ومرج تمكن ناجي أثناءه من الفرار وأخذ يحكي لي كيف يترصده الأعداء ·· والأفعال التي يأتيها وهو يترصدهم ·· وساعد صدق حديثه على ترقرق الدموع من عيني دون أن أدري ·

ومن ذلك الحين أخاف على صاحبي هول الردى وفداحة المنية وعلى حد قول أمية بن أبي الصلت :

تخاف الردى نفسي عليها وأنها
لتعلم أن الموت حتم مؤجل

قد أحكم غشاوته على نفسي وخواطري [ولكم أرهقت في نزع هذه الأسدال عن نفسي لأبدد غشاوتها الملبدة ، لأستعيد اطمئناني عليه أقول لها] ·· ان هذا المجال المجهول المدى لا يمكن أن يضن على بدن ناجي النحيل وقوامه الضامر ، وتقاطيع وجهه النبيل لاسيما أنفه الأشم والتي وان كانت واضحة الا أن الأسى يلفها من أطرافها ، لا يمكن أن يضن القدر بالأنفاس القليلة التي يستمد منها ناجي قدراته الخارقة في الصمود على الحق وثباته الرائع في الاصرار على المبدأ ألا ليت ظني !

ناجي العلي

صديق رائع

اذا سألت عن مباهج العالم وروائعه .. أقول .. ان أهمها صداقة القمم والأفذاذ .. القرب منهم يوافيك بألف شعاع وشعاع .. ينير لك دربك الطويل فى البحث عن أسرار وكوامن عبقريتهم والأعماق السحيقة فى وجدان تلك الشخصيات !

واذا كان قد قيل ان الأسلوب هو الرجل نفسه .. فأنا أقول ان الابداع كثيرا ما يختلف عن مبدعه .. ألم يقولوا : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » ثم ان الانسان أتى أولا للعالم ثم بعد ذلك فكر وتخير ..

ومن يعرف ناجى العلى عن قرب ويعرف تاريخ حياته الخاصة والعامة .. يعلم انه لم يكن مجرد رسام مبدع اخترق حتى النخاع بقضية فلسطين ثم وقفت رسالته عند هذا الحد .. وانما هو رجل اتخذ حياته مجالة الحقيقى لتطبيق آرائه وأخلاقياته ومثله التى رصد حياته كلها قربانا لها .. وأشهد للتاريخ انه عن طريق صداقتى لناجى .. ثبت لى تطابق الأسلوب والرجل معا .. وهو شىء نادر قلما يتحقق فى الفنانين كما عرفته من خلطتى بهم فى زحمة الحياة .. وما قرأته من الترجمات الذاتية للمبدعين أو ما كتب عنهم .

لقد أمدتنى صداقتى بناجى بمفتاح عبقريته .. ففتحت أمام ناظرى كشلال نور ونهر ضياء عرفت على ضوئه لماذا ارتوت نفسى بأعماله فأخصبت حياتى وأغنتنى عن كل المهاترات والعنتريات الفارغة للكهان ..

فصافحت أعماله بعدها بحميمية أحر حسدني عليها من لم يطلع على منابعه وروافده وأعماقه !

وقبل أن يأخذني التداعي والاسترسال أحب أن أعلمكم أن ناجيا جرب في رسومه الألوان ، لكنه أقلع عنها عندما وجدها لا تناسبه ٠ بل تستلبه من نفسه ٠٠ فعاد الى لونيه الأثيرين الأبيض والأسود ٠٠ لأنهما يوافقان طبعه ورؤيته للأشياء ٠٠ لأنه انسان لا يعرف الوسطية أو المرونة أو قل النفاق ٠٠ فالصحيح الأبيض ــ عند ناجي هو الصحيح في كل زمان ومكان ٠٠ والخطأ ــ الأسود ــ عنده خطأ على طول الحقب والأزمان ٠٠ أما بينهما من الصحيح غير الكامل والخطأ المشـوب فهي مواقف متأرجحة يرفضها ناجي ويأباها ٠

وصدقوني انني على طول صداقتي بناجي لم أر فيه ولا في مسلكه أي التواء أو دوران حول الأشياء ٠٠ وانما هو يرمي الى هدفه مباشرة ٠٠ فالخط المستقيم هو عشقه وهواه ٠٠ واخلاصه الممتد للقضية التي يناصرها لا يحول بينه وبينها أي مواراة أو تعرجات ٠٠ وقدراته اللانهائية على الاستشفاف تجعله جهاز رادار قادر على التقاط أي انحراف من مجرد كلمة في مقال أو لمحة في كتاب أو نبرة في صوت انسان ٠

وقبل أن أحدثكم عن تأثير رسومه من الأبيض والأسود على القراء فاني أتوقف عند عملين له رائعين ربمـا لم يـرها أو يسمع عنها معظم أصدقائه ومعجبيه رغم انه كان يعلقهما في مدخل معارضه ٠

وعملا ناجي هذان رسـمهما على مرآة ٠٠ أضافا الى الحقائق التي أبرزتهـا المرآة في مجال الفلسفة بعدا جديدا على مر تاريخ الفلسفة ومجالاتها المختلفة ٠٠ كعلم الوجود أولا ونظرية المعرفة ثانيا وعلم الجمال أخيرا ٠

واذا كان انعكاس هذه الصـورة الفلسفية التي تجمع بين بعدي الواقع واللاواقع ٠ كانت رمزا وتشبيها ينتقل بالقارىء من المنظور الى اللامنظور ٠٠ ومن الظاهر الى الباطن فان عملي ناجي اللذين أشير اليهما ورسمهما على المرآة أضـافا الى ما سبق أبعادا انسانية سحيقة الأغوار الانسان العربي على الخصوص ٠٠ والفرق بينهما ان الصور المنعكسة في الفلسفة يستفيد منها قراء الفلسفة بعامة ٠٠ أما عملا ناجي فلابد لهما من المشاهدة الذاتية الخاصة ٠

أول هذه الأعمال مرآة مسطرة بهيئة الاعلانات التي ينشرها البوليس الاسرائيلي في الأراضي المحتلة بحثا عن المطلوبين من أبطالنا ــ المجرمين

فى نظرهم ـ يكتبون فوقها دائما تعبيرهم الوحيد « مطلوب حيا أو ميتا » فاذا وقف الانسـان قبالتها يشعر ويحس أنه هو ذاته المطلوب حيا أو ميتا ٠٠ فكل عربى متهم حقا فى هذه القضية ٠

أما العمل الآخر فهو مرآة رسم عليها ناجى الأسلاك الشائكة التى تفصل اللاجئين الفلسطينيين عن أرضهم المحتلة ٠ فالذى ينظر فيها يرى نفسه هو اللاجىء فيشعر باستلاب اللاجىء ومشاعره المميتة حتى لو كان هذا الناظر فى بلده ووسط عشيرته ٠

ان هذين العملين وان ترجما بدقة قول الشاعر محمود درويش فى ناجى من « أنه لا يأخذ المخيم الى العالم ٠٠ ولكنه يأسر العالم فى مخيم » ٠ الا أن هذين العملين يعرفاننا لماذا كان ناجى يتوق الى تحريك رسوماته فى أفلام سينمائية كرتونية ليراها العالم فى كل دولة ٠٠ المظلومة والظالمة ٠٠ ويفهمها الانســـان العـادى قارئا أم أميا ٠٠ وهى أمنية عاش ناجى يتوق لها بشدة ٠٠ وانتظارا لتحقيقها كان راضيا صادقا يرسم بخطوطه البسيطة ولونيه الأثيرين الأبيض والأسود ٠٠ هذه الرسوم الفذة التى صارت وجبة صباحية لا يستغنى عنها مهتم بالقضية الفلسطينية وقضية وطنـه الشـانى لبنان وكل القضـــايا التى يتناولهـا ناجى لأنهـا تغنيه عن عشرات المقالات ٠٠ بما تنطوى عليه من تلخيص بارع لذروة الموقف الذى يحيط بتلك القضايا ٠٠ وما ينم عنها من احساس صادق فى مجرى الأحـداث على نحو لا يجعل من ناجى العلى مجرد فنـان يعبر عن انفعاله باسلوب جمالى فقط بل يوحى رسمه بأننا أمام سياسى قدير عليم بمواطن الأمور ٠٠ قادر على النفاذ الى أغوار المشكلات السياسية ٠

لهذا كله كان رسم ناجى أشبه بالشعارات الجيدة التى يلخص بها الزعماء اتجاه حركة الجماهير التى تلتف حولهم ، ولعل ذلك كله هو السر وراء المطاردات التى تعرض لها ناجى العلى فى حياته العملية من صحيفة الى أخرى ومن قطر الى بلد ٠٠ وفى كل واحدة منها كان جمهوره العريض سرعان ما يعثر عليه ليتابع رسومه كما يتبع الملاح فى ظلمـات البحر البوصلة التى تهديه سواء الطريق ٠

لقد زادت هذه المطاردات من محنة ناجى العلى ٠٠ حتى أضــافت بعدا شخصيا الى محنته العامة التى كان يحمل همها فى قلبه سواء فى ذلك محنة الوطن الفلسطينى السليب أو وطنه الثانى لبنان الممزق أو وطنه العربى الكبير الحائر ٠٠ حتى وضعت يد الغدر الآثمة النهاية ، اذ رغم بشاعتها فهى منطقية تماما بالنسبة للدراما الهائلة التى كان يمثلها ناجى العلى كما عرفته بشخصه وريشته ، التى تضاءل أمامها وشحب كثير من التأويلات المتعسفة لما يســمى تعبير الفن عن الجماهير حيث رفع الفن

عند ناجى الى مستوى التحريض السياسى المباشر ... دون أن يفقد فنه نفحة الجمال أو روعة الابداع .

ان هذه اليد الآثمة — كما وصفه البيان العربى الناصرى الاشتراكى الذى ينعى الى الأمة ناجى العلى التى اخترق رصاص مسدسها الجسد النحيل فى شوارع لندن . لم تكن موجهة الى ناجى العلى الشخص قدر ما كانت موجهة الى ما يمثله كرمز فى الوجدان القومى العربى والى ما يمثله من مواقف تعبر عن جموع الشعب العربى الفلسطينى .. وأضاف البيان أن الرد على تلك الرصاصات الجبانة يجب أن يكون بمزيد من الاصرار على كل ما مثلته مواقف الشهيد وأفكاره الوطنية والقومية .

وقال البيان فى ختامه : ان الحزب الاشتراكى العربى الناصرى تحت التأسيس . اذ ينعى الشهيد « ناجى العلى » انما يعاهد روحه الطاهرة أن الناصريين فى مصر والأمة العربية باقون على درب التحرير والوحدة سائرون .

ونقول نحن ان هذه اليد الآثمة لم تفتك بمجرد عدو سياسى . بل حرمت الأمة العربية بأسرها من عبقرية فنية كان يمكن أن تضيف الى رصيدها من الابداع ما يعتبر مدرسة جديدة فى توظيف الفن لخدمة القضايا العامة العادلة من دون سطحية أو تكلف أو ابتذال .

ناجى العلى

كيف جمع بين الرصانة والبراءة

قد يثير التعجب حين أجمع بين هذين الوصفين لموصوف واحد هو ناجى العلى حيث أن الرصانة تكون مع الدربة والاكتمال .. وهى لا توجد مع البراءة فى شىء من عفويتها أو حتى من باب الاعتبار .

أما مع ناجى العلى .. فنقول ان البراءة عنده كانت مظهرا كبيرا من مظاهر الرصانة خصوصا فى فهمه ومعالجته لبواطن السياسة . وذلك أنه كان رساما سياسيا دربا قادرا على تصريف الحوادث بالحسنى والاستنتاج منها بقدر ما تعطيه مقدماتها ولأنه كان بريئا حليما بعيدا عن أفعال الظالمين .

ذلك أن ناجيا ــ رحمه الله ــ عاش غريبا ومات غريبا .. ومن الغرابة أن شمس حياته غربت قبل أن يعرف أو يتأكد كم هو عبقرى .. أثر فى القراء والأحداث فى حينها .. ومن الغريب ألا نعيش نحن الآن هذا التأكيد .

فرغم هذا الكم من المقالات والأشعار التى كتبت تمجيدا لأعماله .. وهذه الأقوال الرائعة التى قيلت فيه وفى شخصه الفذ .. الا انه كان يعتبرها زوبعة فى فنجان ومجرد مجاملة كتاب وشعراء .. وأقوال أعزاء وأصدقاء . يغفو بعدهما ويصحو وكأنه طفل خالى الوفاض عن كل تقريظ قيل فيه أو استحسان .

ولما كان الطفل رغم براءته .. يحمل تاريخ سلالته كما قال فرويد ..

فان ناجي العلي ما أن يضع ريشته فوق أوراقه ·· ليعبر عن الصورة التي يتخيلها للحدث الذي توجه للتعبير عنه ، كما ترمز اليه من خلال ذاته ، ودوافعه وصراعاته ومشكلاته وآماله نحوها الا ووجدنا تلقائيته هذه المعجزة بعينها في تعبيرهـا عن الحدث في أبسط خطوط وألوان وكلمات محققا أبيات البياتي « النهر الى منبعه لا يعود ، النهر في غربته يكتسح السدود » ·

واذا كنا قد تكلمنا عن رد فعل خصال هذه على رسومه وتأثيرها الفذ على القراء فاني أكلمكم هنا عن انعكاسها في سلوكه بين الناس ·· فبعد أن صرت وناجي صديقين فانه كان عندما يحضر من بيروت الى الكويت ·· ولا يجدني في منزلي يظل ينقب ويسأل عن المكان الذي أتواجد فيه فيتصل بي ويشرف من يستضيفوني أنذاك بشرف زيارته لهم ·· وقد عرفت من هذه الاجتماعات والسهرات قدرات ناجي اللانهائية على البراءة والرصانة والارهاص المستشف والبساطة والتواضع الجم !

أذكر مرة كنا مجتمعين بمنزل الدكتور عبد العظيم أنيس ــ وكان يعمل وقتئذ بالكويت ــ وظل الصحب يتحاورون في المشكلة الفلسطينية ، التي أسميناها مشكلة الشرق الأوسط ·· وتنقلب المحاورة أحيانا الى الجدل العنيف ·· وناجي قابع صامت تتجلى على وجهه فقط انعكاسات الحوارات وحدة الجدل ·· وفجأة دعاه الدكتور عبد العظيم أن يدلي بدلوه ·· فراوغته حنجرته ثم نطق : يا جماعة أنا لا أفهم هذه الأفكار العلمية أو النظرية السامقة ·· ولا أستوعب كلام أساتذة الجامعة العظام المحلقة ·· انني رجل بسيط ــ بساطة الأرض المنزرعة ·· هي تنتج ولكن لا تعرف سر النماء ولا تفاعل الجزئيات ــ وبعدها تألق وتصاعدت هامته الفكرية السامقة بعفويتها وصدقها معا ·· فأسكت الجميع وأخذ بمجامع القلوب ·· حتى أن الممثلة محسنة توفيق التي كانت موجودة بيننا انفجرت بالبكاء من روعة منطقه وحسن تصريفه للحوادث والأمور · وقدرته واستنتاجاته مع صدق حديثه الذي انساب في نفوسنا كشلال هادر بالحقيقة حتى يخيل لغير العارف بمواطن الأمور أنها من هين الكلام ولكن في تضاعيفها الأصالة والبراءة كامنة !

عرفت يومها أن ناجيا رجل مبادىء حقا ·· ولكن من طراز فريد فاذا كانت الجموع من حوله تخلص لعقيدة سياسية ولو على حساب قضيتها الوطنية وهي فلسطين فان ناجيا متوحدا مع ذاته يخلص للعقيدة ولكن لحساب وطنه فلسطين ·

أما قدرة ناجي على الاستشفاف فقد تبدت فيه خصوصا ــ عندما كنا بمنزل المخرج أحمد عبد الحليم ــ وكان ناجي يقول له ــ

(انى أشبهك) — وزوجته الممثلة عايدة عبد العزيز متأهبة لتسجيل سهرة رمضانية لاذاعة صوت العرب ·· وكانت زيارة ناجى للكويت خاطفة يعود بعدها الى بيروت ، شعر ناجى أن من بين الحضور بعض الفلسطينيين ممن يريدون أن يتحرشوا به ·· ورغم أنه لا يعرف من هم ولا لأى الفصائل ينتمون الا أنه استأذن وانصرف ·· فحزنت أننى زججت به فى معترك تعافه نفسه ·· فودعته آسفة ·· لحظات وغادر المجلس من كان يرتاب فى أمرهم ناجى ·· فزاد أساى على ذهاب ناجى ·· وفجأة عاد ناجى ·· ليقول : انه كان أشد منا أسفا على المغادرة ·· ولذلك ظل يحوم حول المنزل الى أن رأى من لم يرتح لهم يغادرون فصعد ·

وبدأ التسجيل ·· وفى أحد منعطفاته جاء أحد المتحدثين على ذكر أحد الرسوم الجدارية الملونة الشديدة الاتساع التى رسمها أحد الرسامين الفلسطينيين لمأساة « صبرا وشتيلا » وكان رأيى الذى نشرته عنها أن رسامها كان شديد التأثير فى رسمها بجدارية بيكاسو الشهيرة « جرنيكا » التى كان قد رسمها عقب نكبة هذه المدينة الأسبانية وطنه وهو غائب عنها ·· ولا أعرف كيف وجدتنى أقول متحسرة : حتى أساليب مآسينا نستله من الغرب · يا جماعه ان حال العرب لن تنصلح الا اذا كان منهجنا فى كل أمورنا نابعا منا نحن ومن أرثنا المتوارث بالذات ·· وان رسمة واحدة من رسومات ناجى العلى بلونيها الأبيض والأسود لهى أشرف وأبقى من أوسع جداريه بكل الألوان التى تأثر رسامها برسوم الغرب ·

لم أدرك أننى أتيت باسم ناجى على لسانى فى الحديث ·· أو أنه موجود أو أننى قرظته ·· الا عندما وجدت ناجيا يقفز وسطنا عاليا ·· وكأنه يريد أن يخمش السحاب سعادة ·· تهلل هذا الطفل البرىء ·· لأننى دون أن أشعر وبحميمية الأصدقاء ودواعى التسجيل استشهدت به وبرسوماته ·· وهو من دبجت فيه مئات المقالات وبأقلام المشاهير ·· ومن الأصدقاء وغيرهم ·· ذلك أن ناجيا الرصين البرىء ينظر الى نفسه بتواضع جم ·· بل كثيرا ما قال انه ليس رساما ولا كاريكاتوريا ·· كما يقولون ·· انما هو فقط يخط ما يعتمل فى فؤاده ·

حقا ان أعمال ناجى ليست رسوما كاريكاتورية بالمعنى المفهوم لهذا الفن ·· فهو لم يطل أنفا أو يطل رقبة ·· لا ينبعج الجسم الانسانى تحت سن قلم ناجى أو فرشاته ·· لا يحاول تزويق رسوماته بما يضحك ·· لذلك لا تستطيع أن تصف رسومه هل هى صرخة ·· طعنة ·· هل هى مناجاة صوفية مرسومة أم هى شعيرة اختير من الشعر الخطى ما يناسبها ؟ ·

معان كثيرة ودلالات تستشفها فى رسوم ناجى العلى لكنك حين تنظر وحين تمعن النظر •• تحس بالواقع الفلسطينى ماثلا أمام عينيك •• تشعر بواقع القضية وأرقامها وتعقيداتها المختلفة وقد طرحت نفسها أمامك بقسوة •• وما فعل بها الذين يحركون القضية الى حتفها !

الا رحم الله ناجيا •• وأثابه بقدر ما أسلف وأعان أرملته وأفراخه الأربع الذين تركهم زغب الحواصل لا ماء ولا شجر •• والهم أحباءه الكثر الصبر على احتمال فرقته وحسبه انه خالد بخلود القضايا التى سجل معالجتها •• فلسطين السليبة •• ولبنان الممزق ووطنه العربى الحائر •• وسوف يظل بيننا برسومه محرضا على تحريك هذه القضايا ومخلصا لمسالكها ودروبها من شوائب علقت بها •• ولنا فى بيت أبى العلاء المعرى بعض العزاء •• وكأنه يرثى ناجيا :

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى   وسهد المنى والجيب والذيل والردن

الشاعر :

عبد الرحمن صدقي

عاشق الحياة الأولى .

تأمل الحياة فعشقها .. عرفها فى الجمال فأحبه .. رآها فى أرجاء الدنيا تموج وتتحرك فرحل وراءها ، قرأ عنها فأدركها وتغنى بها فى شعره .. لكنه منذ وفاة والده أصبح يذكر الموت .. فهو لا يطمئن للحياة ولا يثق فى الرجاء ، ولقد كان الموت هو المحرك الأول لعشقه الحياة ونظم الشعر على الرغم من عدم تمنيه الموت ، وعدم الفزع منه .

هذا هو الشاعر عبد الرحمن صدقى .. لقد تأكدت بعد معرفتى بهذا الفنان الرقيق انه من شدة حبه للحياة .. قبلها بنهايتها .. قبلها باقتناع خفى بأن الموت بعده حياة .. فرغب أن تكون الحياة المعاشة استمرارا للحياة المتوقعة .. فأسلم نفسه لشيطان الحب فاتصل فيه النهائى باللانهائى فى نشوة العشق الالهى .. وصارت حياته عشقا فى عشق .

قبل أن أرسم شخصية صاحب هذه الفلسفة ـ بين قطبى الحياة والموت ـ أعود الى بداية معرفتى بها ، والتى تحولت من سنى الطفولة والمراهقة اعجابا عن بعد الى الاكتمال والنضج صداقة ومباشرة .. فقد كان مع أغلب أفراد أسرته بما فيهم الدكتور عبد الرازاق صدقى وزير الزراعة السابق ، جيرانا لنا بجزيرة الروضة .. وعندما وعيت على الدنيا كنت أرى صوره فى المجلات والصحف . وعندما أراقبه من شرفة منزل أقرباء لى مطل منزلهم عليه . بشارع الأخشيد بالروضة كنت أرسم له فى خيالى ألف صورة وصورة .. ومرت سنوات من العمر حتى رأيته

ماثلا أمام عينى أستاذا محاضرا بمعهد الفنون المسرحية . وكان قد ترك مسكنه فى الروضة بعد ان امتلك بيتا صغيرا بمصر الجديدة يعيش فيه مع زوجته الايطالية الثانية .

كنا نتجاذب أطراف الحديث بين المحاضرات .. فأحكى له عما أتذكره عنه واستفسر منه عن بعض النواحى من حياته فيحكى لى فى سعادة وانتشاء ، حتى نشأت الصداقة بينى وبينه ثم تطورت حين تخرجت من المعهد للعمل بالتليفزيون وكان مستشاره الفنى انذاك ، وعندما أحيل الى المعاش كان يدعونى الى زيارته . فأصبحت واحدة من نوافذه التى يطل منها على العالم .

من خلال هذه المراحل المتعاقبة .. أزعم بأننى قادرة على تصوير هذه الشخصية الأدبية التى قالت عن نفسها « لقد عشت أديبا ومت أديبا » وقال عنها العقاد : « انه من أسلم نفسه الى شيطان الذوق اللماح غير مدافع .. وأنه هو الشيطان الذى يلمح مسارب الفطنة الخبيثة بين المعانى والألفاظ ، ولا ينتظر عليها حتى تفيض باليدين وتمتلىء بالشعاع الثاقب من كلتا العينين . فهذه الفطنة الخفية هى الصوفية الفنية التى انتهت به الى عبادة الجمال ورياضة القلب على جوار قريب من رياض الروح » !

واذا كانت معرفتى بالرجل منذ الطفولة الى الاكتمال قد عرفتنى كثيرا بنظرته تجاه الحياة .. الا أن زياراتى له فى بيته بعد أن أحيل على المعاش قد جلت هذه النظرة وأضاءتها أكثر مما عرفتها من قبل .. لقد انفض عنه الأصحاب الذين كانوا يوادونه لمنصبه وليس لشخصه .. فتبدى أمامى على حقيقته الجميلة دون مواربة أو قيد .. فعرفت فيه الوحيد المتوحد بغير سخط أو تمزد .. فها هو يهش لكل زائر .. محتفيا بكل عابر ، وهذا راجع الى أن ايمانه متوافق مع فلسفته الهادئة .. لذلك يمتد له العزاء بألف جسر وجسر ، تتوارد على ذهنه رجع صفحات من الماضى البعيد والقريب ، من غير توقيت ولا ترتيب .. انها صفحات عامرة وغامرة ، لقد أحب كثيرا وبلى الحب العاطفى العميق على مختلف ألوانه وشتى طعومه .. فيذكر لى من أحبهن واحدة واحدة . ثم يشرح لى كيف تتعاطف الانجليزية واليابانية والأمريكية والأفريقية .. ثم يستطرد وهل فى الحياة أمتع من الحب ، المتعة فى أن تكون محبا ، والمتعة فى أن تكون محبوبا والمتعة فى الحب نفسه بفكرته ومعناه وأجوائه ثم يضحك قائلا : هذا هو الحب المثلث الرحمات .

وكثيرا ما كان يسألنى هل تعرفين يا عايدة ما هو أروع عمل قمت به فى حياتى واستفهم فيقول : انه عدم الانجاب .. اننى الآن حر طليق استيقظ فى الوقت الذى يحلو لى .. أدور حول « فيلتى » الصغيرة

صباحا ٠٠ استنشق الهواء الذى لم يشمه أحد قبلى ، أرنو الى البراعم وهى تنفتح ٠٠ أداعب كلابى ٠٠ وأقرأ وأتثائب دون انشغال على ولد نجح أو رسب ٠٠ سافر أم بقى ٠٠ تزوج أم طلق ٠٠ انها الجنة على الأرض حقـا ٠

لقد صنع فى حياته لعدم انجابه تيجانا فارهة من الذهب الخالص الا أنه ندم عليها فكسرها وهو على أعتاب الموت ٠٠ فكأنها كانت فى الواقع محض تعزية ٠٠ تتناقض عما كان يحس به فى أعماقه ٠٠ ذلك أنه عندما عقدت صداقتى معه عبر كنوز مكتبته التى صحبته رحلة حياته الغنية بالفن والابداع يوما بيوم ٠ والتى آثرها بمؤلفاته العديدة ومنها « من الشرق والاسلام فى شعر جوته » ، « بودلير ٠ الشاعر الرجيم » ، « أبو نواس » ، « الحان الحان » ، ألوان من الحب فى الأساطير والحب العالمى ، « من أعلام الأدب الأوربى » ، « عصر القوميات » ترجمة ، « من وحى المرأة » ديوان « حواء والشاعر » ٠٠ وهو كان حين يطوف بى فى أرجاء هذه المكتبة ركنا بعد ركن يفضى الى بخلاصة تجاربه فى لحظات فعند ركن ترجمات القرآن الكريم بكل اللغات ٠٠ أسمعه يقول : ان أحسن ترجمة وضعت للكتاب المنزل على خاتم الأنبياء ، هى ترجمة مولانا محمد على الباكستانى لأنه مسلم تشرب أدب القرآن وسموه فقد ترجم – على سبيل المثال – من سورة الكهف عبارة « ولم أكن بغيا » بـ (لم تكن شريفة) بدلا من لفظة (عاهرة) التى اختارهـــا المترجمون الأجانب ، وهذا ركن شكسبير ٠٠ ويضيف أستاذى الراحل أن أفضل النقاد وأكثرهم شفافية هو الناقد « هازلت » ٠ وعند ركن العقاد ٠٠ كان يشير لى على الرف الذى رصت فوقه « العبقريات » يقول : لابد أن تلاحظى أن العقاد كتب هذه العبقريات بحسه الدينى الذى طغى عليه حينا من الزمن !

وفى القسم الخاص بكتب « التصـــوف » أكد لى مرة أن القديسة (سانت تريزا) اقتبست كثيرا من (رابعة العدوية) ٠٠ وعندما حاولت التبرير بأنهما كانتا من أحباب الله ٠٠ كان رده بالنفى رغم أن الكلمات والتعبيرات واحدة تقريبا ٠

وكثيرا ما وقف بى طويلا وســـط المعاجـــم ٠٠ مئات من المعاجم بالانجليزية والفرنسية والايطالية ٠٠ كان يقلبها الواحد بعد الآخر ليرينى ملاحظاته الهامشية عليهـــا ٠٠ ثم يقول بصـــوت الفنان الهادى المتحسر الأجش : هذه الملاحظـــات أفنيت عمرى ونور عيونى فيهـــا بما يفيد المترجمين الى العربية ، فهل تضيع دون أن يفيد منها أحد ٠٠ واضيعتاه ! زفرها وهو فى شدة الأسى ٠٠

هذه الزفرة – واضيعتاه – التى انطلقت منه عفوية ٠٠ ولكن بعبرة

وحرة على مكتبته وكتاباته المبعثرة هنا وهناك ، ثم ينبعها بأمنيته فى كتابة مجلد ضخم عن ذلك الشاعر الرجيم بودلير ليحل فى المكتبات محل الكتيب الصغير الذى نشره فى ترجمة حياته وأسفاره ٠٠ هذه العبرات على هاتين المشكلتين اللتين أرقتا حياته وهو فى المعاش ٠٠ جعلته يكررها « وهو على أعتاب الموت » ، وهى عنوان مقال توسط ديوانه « حواء والشاعر » كتبها عندما مرت به أزمة قلبية مماثلة للأزمة التى توفى بها الشاعر بعد ذلك !

فى هذا المقال ، نجده يكسر تلك التيجان الفارهة التى طالما توج بها عدم انجابه ٠٠ فيقول فيها : هذه المكتبة لو كان لى ولد يرثها عنى اذن لصانها من الضياع وقام عليها وانتفع ونفع ٠

ثم يقول : « أما كنت أموت أطيب نفسا عندما أرى الى جانب فراشي الولد الذى يكون استمرارا لحياتي وبقائى بما يجرى فى عروقه من دمائى ، وما هو مركوز فيه من شمائلى وطباعى » وعندما قرأت هذا المقطع تذكرت كلمات الأديب الروسى تروجنيف عندما أعرض عن الزواج طوال حياته ثم نادى الشباب بضرورته قبل وفاته ٠

لم يكن كل ما قلته عن الشاعر من الأحاديث العابرة ، بل كان أكثره قضايا وكلمات كان يلفنى بها عندما كان يستقبلنى ٠٠ لقد كان يشركنى فيما يكون قد فكر به أو قرأ طوال أسبوعه أو نهاره دفعة واحدة ـ وهذه على ما أعلم صفة من صفات الوحيد المتوحد ـ فكان يشعر أو يتخيل أننى أشعر أن ما يفكر فيه أفكر أنا فيه مع بقية الدنيا ٠٠ أو كأنه يريد أن يتأكد أن صداقتى معه تقرب أو تتشابه مع صداقة العقاد للمازنى ٠٠ اللذين كانا يصمتان فجأة عن الكلام ٠٠ وعندما يقطعا الصمت ويتكلمان مرة أخرى ، يجدا أنهما عادا الى موضوع واحد ٠

ومن المعروف أن عبد الرحمن صدقى كان من تلامذة العقاد وأصدقائه المقربين ٠٠ وقد كتب له العقاد مقدمة ديوانه (حواء والشاعر) وتوقف كثيرا عند أحاسن مزاياه الشخصية وشعره ٠٠ وكان صدقى يؤكد مدافعا عن نفسه عند ورود الحديث عن تلامذة العقاد ٠٠ بأنه حقا من تلامذته ولكن ليس من تلاميذ يوم الجمعة ٠٠ حيث كان يزوره باقى تلامذته المحبين والمتشددين له الى حد التطرف ٠

يؤكد ذلك وتلك ٠٠ ما يأتى به صدقى من أحكام حول العقاد ٠٠ فانه يقول لى مثلا : ان العقاد كتب العبقريات بحسه الدينى وليس العقلى ، أو أن العقاد كان يقتبس فى أشعاره ممن سبقوه عربا كانوا أو أوربيين كالمازنى تماما ٠٠ واذا كان المازنى قد ووجه بذلك وانفلت منه العقاد فمرجع ذلك أن المازنى الفنان كان يشفق على البيت فيبقى عليه من باب الرحمة

لا يقطع أوصاله ·· أما العقاد بحسه النقدى كان يقوم بتشريح البيت واذابة معالمه فى شخصيته الشعرية الفذة ـ ولكن هذا لا يخفى على الذكى الفطن ؟ ·

وعندما أعظم غنى مكتبتة بالمؤلفات ·· كان يقول : انها أكبر من مكتبة العقاد ·· ذلك أن العقاد كان فى أخريات أيامه قد اتفق مع مكتبة الأنجلو على أن يقرأ الكتاب ويعيده اليها · كما أن العقاد كان يقرأ اللغة الانجليزية فقط أما أنا فأقرأ الفرنسية والايطالية وبعض الأسبانية أيضا ·

وعبد الرحمن صدقى من أكثر الأدباء الذين يثنون على أنفسهم طى الحديث · وفى كل مناشط حياته الأخرى ·· وربما كان مرجع ذلك أنه يفتقد المادح والناقد المنصف ·· فأصبح مادحها ومنصفها ·· وتجد ترجمة ذلك حتى داخل شعره ·· أتذكره مثلا يقرأ لى قصيدة فى أخريات أيامه لم تنشر بعد ·· تحت عنوان « عايدة » بين الشاعر المصرى والموسيقار الايطالى فيردى ·· وكانت أوبرا عايدة تقدم على مسرح الأوبرا المصرية انذاك ·· يقول فيها :

سمراء يا خمرية اللون ... فردى هنا حياك فى اللحن
« عائدة » أنت ولا أعنى ... انى « ردامس » لدى الطعن
« عائدتى » عودى مجدده ... هيهات طيف عابر يغنى
عودى الى مصر كما رجعت ... حوائم الطير الى الوكن
أنظم لك الشعر رخيم الصدى ... جزل القوافى مطرب الوزن
شاعرك العاشق جاز الصبا ... كالنيل قد نز عن وهن
« عائدة » ما زلت حلما ، فما ... تأتين حتى ترحلى عنى
قرى جوارى حرة سمحة ... حسبى الذى أسلفت من ضنى
حسبك بعض العقل عند اللقا ... نجنى ثمار الروح والذهن
من باع عقلا بجنون الهوى ... زفت له عرائس الفن

فهو هنا يقول لبطلة القصيدة · انه سينظم لها الشعر ـ أى شعره هو الرخيم الصدى ، جزل القوافى مطرب الوزن ـ ثم يصف لها ما خفى من مظهره الشيخ ، بأنه وان اجتاز الصبا ·· الا أنه فتى فى حسه وقلبه مهما علت سنه ·

كما تتبدى فى هذه القصيدة سمة من سمات شعر صدقى ·· وهو عدم الاحتفاء بالوزن أحيانا ·· فبجانب أن أبيات هذه القصيدة قد تأرجحت بين البحرين البسيط والكامل ·· الا أن بعض أشطارها مثل « انظم لك الشعر رخيم الصدى » فيه تطويل لا يتمشى مع متفاعلن متفاعلن فعلن وهو الكامل ـ أو مستفعلن مستفعلن فعلن وهو البسيط · وهذا

وذاك يؤكد قول العقاد : بأنه فى سبيل الصوفيــة الفنية يقدم الشاعر قرابينه على المذبح الخالد اذا وجب القربان على حســاب كلمة أو قافية ، أو على حساب فكرة أو عاطفة • ولكن الحساب الذى لا يمسه قيد شعره ولا مقــدار ذرة هو حســـــاب الجمال المملوح فى محراب تلك الصوفية فلا هوادة هنا ولا نقص ولا زيادة ، فى مراسم هذه التقوى وشـــــعائر هذه العبادة •

والصوفية الفنية كما قومها العقاد •• هى التى تتلقى الحب أنواعا فتخلص منه برحيق كرحيق النحلة من شتى ومختلف الرياض • وتجد ترجمة لهذه الكلمــات فى قصـــيدته « الصبية والشيخ » التى نشرها فى ديوانه « حواء والشاعر » •

فتـــــاتى ، أحبـــك حب الأب — وحـــب الصـــــديق بـلا مأرب
كـــذاك أحبـك حب الرجـــال — ولكنـــــــه ليس بالقـــــلب
عـواطف شـــتان ما بينهــــا — فان أخـف واحـــدة أكـــــذب
توحـــد ما بينهـــا فى هـــواك — ولا شىء فيـــه بمســـــتغرب
ففيـــك أنوثـــة كل الانــــاث — وفيـــــك بــراءة كل صبى
فــلا تعجبــى ان هفــا لك حسى — وقلبــى وعقـــلى ، لا تعجبـــى
يهـــز كيـــانى حب العشـــــق — وحـــب الصـــــديق وحـب الأب
فان تنصفى فانصفينى جميعــــا — والا تشـــــــعب بى مطلبـــــى
فاعشـــق طـورا بحسى وطـــورا — أحـــب بـــلا لهـــب ملهـــب
وأشرك فى الحب ، والحب دينى — ومـــا الشرك طبـعى ولا مذهبـــى

ويذهب العقاد ويلتقط من شعر صدقى الكثير ، ينهيه بقوله : وفى الحق أن شـــاعرنا الذواقه هو خـــير ما يمتحن فى فن الشـــعر العربى فى مزيته الكبرى ، وهى مزية « السليقة الغنائية » التى سلمها له أصحاب الدعاوى الفنية منذ مولده على نغمات الحداء •• ثم عادوا يكابرونه فيها كلما وازنوا بينه وبين فنون العرائس من ربات الملاحم ، أو ربات المسارح ، أو ربات الحكمة والبيان ، على اختلاف الأوزان ، أو بلا أوزان ــ ألا تعتبر كلمة بلا أوزان هنا اعترافا من العقاد بالشعر الحر الذى طالما أحاله على لجنة النثر للاختصاص بعد أن نشر صــلاح عبد الصبور مقالا يعترض ويثبت أن الشعر الحديث موزون ، تحت عنوان » والله العظيم موزون « الا يكون العقاد بذلك قد ذبح الأوزان فى محراب صديقه وتلميذه عبد الرحمن صدقى ، ويردف العقاد قائلا : فان عروضنا العربية لتتسع لكل نغمة من أنغام الشعر اذ هى اتسعت على شروط شــــاعرنا الذواقة لخوالج النفس ، وخواطر الذهن ، ولطائف الذوق ، وقد حمل الشاعر أوزاننا

نغمات « الباليه » الراقصة فحملتها وخفت بهـا على أطراف أصابعها ٠٠ فاذا حسبنا ثراء الشعر العربى بما يزيد عليها من نفائس هذا الديوان « حواء والشاعر » فلنحسب بينها أنه آية من أصدق الآيات على أن الشعر العربى حداء خالد ٠٠ لأنه يؤدى رسالة الحداء على أجملها من قوافل هذا القرن العشرين ٠

وكأن العقاد هنا يردد كلمات صدقى عن نفسه بنصها ٠٠ ذلك أنه كان عندما ينشر لى قصيدة يتوقف عند بعض المقاطع والأبيات ليقول لى انتبهى الى أثر الأوبرا والأوبريت والسيمفونى فى شعرى وكيف تهبط الكلمات من عل وترتفع الى الهامات كصوت (التينور) أو (السوبراو) أو البالرينه الرشيقة ٠

وعبد الرحمن صدقى من الأدباء الذين يمدحون أنفسهم أثناء الحديث أو فى نواحى حياته الأخرى ، مهتم بارواء نفسه من بحر الرواء دائما ٠٠ الذى وافته منه بعض الدفقات سواء من صديقه العقاد ـ كما قرأنا ـ او صديقه الذى كان قد رحل سليمان نجيب ـ أو صـديقه الأوحـد « على أدهم » الذى بقى له ٠٠ وكان يزوره فى مكمنه كل يوم خميس ٠٠ فكان دائم الثنـاء والتقويم الجميل لكل انتـاج وأفعال من هم حوله أو رحلوا عنه ، حتى شمل استحسانه للتمايز ٠٠ الا أنه لم يبلغ قول الشاعر العربى :

قلبـــى وثـــاب الى ذا ، وذا   ليس يـرى شـــيئا فيأبـــاه

يهيـــم بالحسن كمـــا ينبـغى   ويرحـــم القبـــح فيهـــواه

أذكر أنه قال لى : ان قراءة « على أدهـم » واسعة ومتشعبة تماما كقراءاتى ولكنها جـد مختلفة المنحى ٠٠ واذا التفت الى زوجته (نازلى) وكان اسمها (التى) قبل أن تسلم ٠٠ فيقول لى : انظـرى الى قوامها وحيويتها ٠٠ انها لا تترك يوما الا ولعبت فيه الرياضة ٠٠ لاحظى أرديتها المتناغم ألوانهـا ٠٠ بمثل هذا التناغم نظمت بيتى ٠٠ ها هى الكتب المتراصه تتجاذب أطراف الحديث مع الصـور المعلقة (وأكثرها لجارهم الفنان محمد صبرى) ٠

ويستمر استحسانه لزوجته فى كل ما تعمل ٠٠ « ترتفع هـذه النبرة عندما ندخل لتناول الطعام ٠٠ فانه يلقى أولا بنظرة شاملة على المائدة ثم يلفت نظرى الى تنسيقها ٠٠ وبعد ذلك ينعطف على كل جزء يثنى عليه ويقرظه ٠٠ فعندما يتوقف عند (السـلطة) مثلا يقول ٠٠ لاحظى أن الخضروات فيها لم تغادرها الحياة حتى بعد التقطيع والتقشير ٠٠ ذلك أن « التى » على حزمها فى كل الأمور رقيقة اليد على الخضروات ٠٠

وتغمز لى هى بعينيها كناية على أن صدقى كبير القلب شديد الحدب على زوجته الأولى وعروس ديوانه الأول « من وحى المرأة » وكانت هى أيضا بغريب الصدف ايطالية كذلك ٠٠ تتوارد قراءاتى وتتداعى ٠٠ فأجد أن عبد الرحمن صدقى فى ذكرياته عن السينما فى عدد قديم من مجلة الهلال سنة ٧١ قد كتب أنه شغف فى بداية ذهابه للسينما بالايطاليات وبعد ذلك تعاطف مع الأمريكيات والانجليزيات ٠

وهذا مصـــداق لقول ابن حزم فى ترجمته عن نفسه أثناء حديثه عن المحب وأنه اذا أحب صــفة فى محبوب له لم يستحسن بعـدها الى غيرها مما يخالفها ٠٠ فيقول : (١) دعنى أخبرك أننى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ٠٠ ولو أنها كانت على نور الشمس أو صورة الحسن نفسه ٠٠ وانى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت لا تؤاتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة ٠ ذلك أن حياة صــدقى ٠٠ كما عرفنـــاها ٠٠ لم يتزوج الا ايطاليتين كاللائى خفق قلبه البرىء اليهن فى السينما وهو بعد صبى ٠٠ وان كان بعد ذلك يجد فى صحبة الشابات عزاء فى كهولتـــه وشيخوخته والهاما لفنه ، وشيئا غير قليل من ارضاء لرغبته فى أن يظل شابا دائما٠٠ فهو كما عشق فى طفولته بعد الايطاليات الأمريكياوت وغيرهن ٠٠ فانه بعد فقـد عروس ديـوانه الأول وزواجـــه الثـــانى لم يســـلم من امتحـــان الحيـــاة له بالفتنــــة بعـــد الفتنة ٠٠ وكلهــا فتنة الأنوثة الخـــالدة ٠٠ تتراءى متجســـدة فى بنـــــات حواء ٠٠ على اختــلاف الأنمــاط فى الحسن والشـــمائل ٠٠ فنجده فى ديـوان « حواء والشاعر » ينشــــد القصـــيدة تلو القصيدة فى حـــواء البيضاء فى حريم الشرق القديم ، وحواء الوديعة السمراء على ضفاف النيل ، وحواء الرشيقة الشقراء بين حلب ودمشق ٠٠ وحواء المتقلبة الأطوار والأهواء ، وحواء فى البادية العربية ، وحواء فى مصايف الاسكندرية ٠٠ وأخيرا وليس آخرا حواء الفقيدة فى ذكرياتها الجديدة حيث نراه لا يزال هائما يبحث عنها فى الظلام ، حتى اذا حل به الاعياء وجد نفسه عند باب السماء ٠٠ وهنا يطلع الفجر الروحى ٠٠ فاذا بالشـــاعر غائب الحس فى غمـرة الوجد الصوفى ٠ وقد أفضت به الرحـــلة ٠٠ رحلة العشاق فى الأعماق ــ الى غايتها ٠ ويكاد انتاج صدقى ــ وهو قليل بالنسبة لهامته الفكرية ٠٠ يتطابق مع ما يعتمل فى نفسه من تعاطف لمحبى الأرض جميعا ٠٠ فهو قد جمع « ألوانـــا مــن الحب فى الأســــاطير والحب العالمى ٠٠ » ٠٠ وفى فصـــل (فى طلب النـــور) من كتـــابه (الشرق والاسلام) فى

(★) كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسى ٠

أدب جوته ٠٠ حيث سافر الشــاعر الى (ويمار) شاخصا الى الجنوب فى طلب الشمس والدفء والنــور يجدد بهـا شبابه ويحلم فى أحضانها بالحب ٠٠ وقد طالعــه فى صــبيحة يــوم هجـرته « بقوس قزح » شاحبا غارقا فى غمرات الضباب ولكن الشاعر يحول هذا القوس المتعدد الألواء الى فأل حسن : كذلك أنت أيها الأشيب الصحيح البنية الشديد العنفوان ٠ لا عليك ان شاب مفرقك ، فان العشق لا يزال من قسمتك » ٠ ولقد قدر لجوته بالفعل أن يستعيد شبابه ويتحول الى خلق جديد حين لقى الآنسة مريان يونج التى رأى فيهـا زليخة المصرية فى صـحبة أحد الأغنياء الذين زاروه فى مهجزه « ويزبادن » ٠

وقد اختار الشاعر لمعشوقته الاسم الشرقى المشهور « زليخة » ولكنه أبى أن يتسمى « يوسف » ابتعادا عن دعوى الشباب والحسن ، وآثر أن يتخذ اسم « حاتم » مثال السماحة والجود عند العرب ، اشارة الى أن الشاعر قد وهب قلبه للحب تماما كالشاعر عبد الرحمن صدقى ٠٠

وكما برأ صدقى بودلير من تهمة « الرجيـم » التى ألصقها به بعض نقاده ٠ فقد كشف عن جوانب صوفية فى شخصية أبى نواس من خلال قراءة متأنية لأشعاره ٠٠ وقد قال يوما أنه وهو يكتب (الحان الحان) جاش وجدانه بقصيدة لم يكملها ولن ينشرها ٠٠ مطلعها :

وخمرة قد أحلت حيث لا شـجن   وحرمت لشــجى فى دار أحـزان

و ٠٠ أتذكر أننى قلت له يومها انها قصيدة كافرة فمزقها أمامى ؟ ٠

واذا عدت لوصف صــدقى لزوجته الأولى ومعايشتى أنا لزوجته الثانية ، أجد التمايز الصارخ بينهما ٠٠ فبينما كانت الأولى كما يحكى ٠٠ هامسة فى مشاعرها وتمعنها فى الثقافة ٠٠ رأيت الثانية عملية متجاسرة فى كل تصرفاتها وكلماتها ٠٠ يحكى لى مثلا عن الأولى أنها كانت عندما تقرأ وتقع عيناها على مقطع شف فيه المعنى وأجاد الكاتب ، ويكون هو يقرأ أو يكتب ٠٠ فانها لا تقاطعه لتقرأ عليه ما أعجبها ، باستعراضـة فجه ٠٠ وانما تؤجل ذلك لمناسبة مواتية أخرى ٠٠ أما الثانية فقد قرأت أنا لها مرة ردا على كلام نشره أنيس منصور فى أخبار اليوم حول الزوجات الأجنبيات كزوجة عبد الرحمن صدقى ـ الثانية طبعا ـ وكيف أنهن قد يحببن كلابهن أكثر من أزواجهن ٠٠ فردت عليه « التى » فى نفس المكان قائلة : اذا كان كل الرجال مثلك ٠٠ فان لى الحق بالفعل أن أحب الكلاب أكثر من الرجال ـ وعندما عاتبتها يومها على هذا الشطط : ألم تكونى قاسية على أنيس منصور ، الذى نشر ردك على سبيل الطرافة ليس الا ، قالت : ذلك أن أنيس منصور ينحو دائما نحو التعميم ٠٠ انه شاهدنى

أسأل صدقى فى نهاية طعامه ·· هل ستأكل هذه القطعة من اللحم ؟ فقال لا ·· فرفعتها من أمامه لأعطيها للكلب ·· فهل هذا يدل على أننى أحب الكلاب أكثر مما أحب زوجى ·

قالت هى ذلك مع أن عبد الرحمن صدقى نفسه كان يردد على مسمعى دائما إن الأجنبيات أنانيات وليس فيهن شىء من الغيريه والايثار عن نفسه·· كالشرقية التى تجنب أحسن قطعة من اللحم أو الحلوى الى ان يعود زوجها على العشاء أما الأجنبية فتبقى أجمل الأشياء لنفسها ·· وان لم تصل الى حد تفضيل الكلاب على كل حال ·

ورغم أن زوجة صدقى الأولى لم تعتنق الاسلام ·· فانها على فراش الموت قد رجت ذويها أن يرثها صدقى فى استحقاقها من مال أبيها ــ وكان غنيا ــ وقد بروا بوعدهم ·· أما الثانية ·· فعندما استقر بها المقام فى مصر ، كان أول شىء فعلته هو دراســـة قانون الأحــوال الشــخصية للمسلمين ·· فقررت أن تعتنق الاسلام ·· ويوم ذهب بها الشـــاعر عبد الرحمن صدقى لإشهار اسلامها ·· تهلل شيخ الأزهر وسألها عن سبب اسلامها ؟ وهو يتوقع أن تقول شعرا فى حسنات الاسلام وهباته على المرأة ·· ولكنهـا ردت عليـه بواقعية صارمة ·· اننى أسلم كى أرث زوجى ·· فقد عرفت من دراستى للشريعة الاسلامية أن الميراث يكون فقط مع اتحاد دين الزوجين فى الاسلام · من هذه السيدة الأريبة عرفت شيئا غاب عنى ·· وأنا دارسة للقانون وابنة عالم أزهرى ومأذون أيضا ·· وعندما جلست أسألها بعد وفاة صدقى عن نصيبها فى (الفيــلا) التى تسكنها قبل وبعد وفاة صـــــدقى ·· قالت لى : ان لى فى الفيلا بادىء ذى بدء النصف ذلك أننى كنت قد بعت مصوغاتى واشتركت فى شرائها مع صدقى ·· أضيفى الى النصف ثمنا آخرا وهو نصيب المرأة فى تركة زوجهــا مع جزء آخــر وهو مؤخر الصداق · فيصبح لى أكثر من الثلاثة أرباع ·· وأستفهم ما الذى جــاء بمؤخر الصداق فى هذه الحســبه ؟ فتجيب ·· ذلك أن المؤخر يقتضى عند أقرب الأجلين ·· فما دمت لم آخذه لأننا لم نطلق ·· ومات هو عن تركة ، ولا تــركة الا بعد سداد الديون ·· فان مؤخر الصداق كدين شرعى أول أثقال التركة المتوجب استحقاقها ·

وعلى الرغم من اختلاف طباع الزوجتين ، فانهما قد أوقعتا صدقى فى شباك الزواج منهما ·· لأنه لم يكن يحب أن يكون البادىء فى أى شىء ، وقد حدثنى بأن زوجته الأولى رغم رقتها ·· هى التى بادرته وقبلته يوما عند سفره ·· وتقول لى الثانية انها وهى عائدة من عملها بأمريكا اللاتينية على ظهر باخرة وقفت بها عند جنوه لترى والدتها وأختها وتكمل

مشوارها الى عملها الجديد ببيروت ·· وعندما صنعد صدقى بقامته المديدة وتقاطيعه الوسيمة وسمرته الجذابة · شد انتباهى فأسررت الى أمى وأختى ·· اننى سأتزوج هذا الفرعون ·· وعندما سألاها كيف ؟ قالت انها ستوقعه فى شباك حبها ·

وتقول هى لى ·· انها لما وجدته منكبا طوال الرحلة على قراءة الكتب ·· عرفت المنقذ اليه ·· ذهبت واشترت كتابا ·· واستلقيت تحت الشمس ممسكة به ضاحكة وربما كان مقلوبا ·· وعندئذ اقترب هو منها يسألها ماذا تقرئين · فأطلقت عليه كل سهامها المدخرة و ·· كانت الباخرة قد وصلت الى بيروت فتركت له عنوانها وسهامها فى قلبه ·

وعاد صدقى الى القاهرة ليحكى لصديقه سليمان نجيب ما حدث ثم أنشد يقول :

هوينتك منذ رأيتك تخطرينا ... على مرح كأنك ترقصينا
على شطئان بحر الروم تلهو ... غواربه وترتحل اللحونا
فما حملقت فى عينيك حتى ... عدانى سر عينيك الحنونا
وان اللحظ يكمن فيه حتفى ... وفى عينيك لاقيت الكمينا

أشار عليه سليمان أن يرسل فى طلب زيارتها الى القاهرة ·· وتقول هى أنها لكى تحبك شباكها وتدللها وتظاهرها بأنها غير عازمة على الزواج ·· فقد حضرت بحقيبة صغيرة ·· ويسألها سليمان نجيب بالنيابة عن صدقى عن بقية أمتعتها ·· فتجيب بأن الرسالة طلبت منى الحضور للزيارة فيؤكد لها سليمان نجيب بأن صدقى أرسل لها بغية الزواج ·· فتمثل هى دور المترددة ثم تقبل الذى كانت تطمح اليه وكأنه رجاء موجة لاستعطافها ·

واذا كان قد خيل لنا ظاهريا أن صدقى أحب الاثنتين بتمايزهن بدرجة واحدة فان شعر الرجل ليفصح العكس ·· وان لهذا التباين أثرا غائرا فى نفس الرجل ·· جلاه شعره أو رد فعل التباين ·· ذلك أنه كتب الشعر لأول مرة أثر وفاة زوجته الأولى ·· « من وحى المرأة » بينما لم يوجه للثانية الا بعض القصائد المتفرقة فى ديوانه الثانى « حواء والشاعر » الذى حوى نماذج كثيرة لحبيباته ، بل انه لم ينس عروس ديوانه الأول فى قصيدته « الذكرى العشرين » التى يستهلها وينهيها بهذه الأبيات الآسفة على ذكراها ·· ويعتذر لها عن زواجه الثانى :

شقيقة روحى حل عيد زواجنا ... وقد حال عيدا للأسى والترحم
أتى فهجرت الدار أنيسها ... وجئت على أعتاب قبرك أرتمى
شقيقة روحى ، لا تخالى شريكة ... تشارك فى قدس المكان المعظم
لا قسمت : حبى ما يزال كعهده ... وقلبى وان اعرست غير مقسم

ويدل هذا على شدة وفائه لزوجته الأولى ·· ومن المؤكد أن الثانية كانت تشعر بهذا ·· وقد تجسد ذلك على المستويين الواقعي والخيالى ·· فقد حكت لى « التى » عن أزمات نفسية تلم بصدقى ·· ان شعر بأى خلل فى جسده ، ذلك أنه كان يضن بأن تورثه هذه الأوربية بما فى ذلك ميراثه من زوجته الأولى ·· التى كانت تذهب كل يوم أحد من أول كل شهر الى الكنيسة الايطالية ·· تصطحب شقيقة الزوجة الأولى ، ثم تنطلقا لجمع ايجار العمارتين (ميراث الفقيدة) ·· لقد كانت هذه الأزمات تقلب حياته رأسا على عقب فتجعله وهو الشاعر المحب لبيته ·· يخرج من هذا البيت طوال النهار ثم يعود ليلا كابى الوجه مكدود التقاطيع معفر الثياب ·· فكانت « التى » تقول له ان الأعمار بيد الله ·· أو تترك له رسالة مطولة على فراشه تسهب فى شرح هذا المعنى بكثير من الأمثـال ·· وتقول التى انه فى الأخير تنفرج أساريره ويواصل الحياة بحلوها ومرها ·

واذا كان شعور الزوجة الثانية يتمايز غيظا على الأولى رغم وفاتها ·· وأن هذا المذاق المر فى نفس الثانية واقعى ·· فان وقعه فى الخيال قد تجسد فى أحلامها يوم مرض صدقى ·· فقد روت له عن رؤيتها فى المنام طيف زوجته الأولى جالسة عند طرف الوسادة على رأسه ·· وأنها حين انزعجت وارتفع عويلهـــا فى النوم ، طمأنتها الفقيدة أن لا هدف لها من الزيارة الا عيادته ·· ثم دعتهـــا الى الجلوس على رأسه على طـرف الوسادة المقابل ·

ومن عبث الأقدار ، أن تموت الأولى الرقيقة اثر نوبة ألمت به وخافت عليه منها ، بينما مات هواثر نوبة قلبية خوفا على الثانية ·

واذا كان سليمان نجيب قد دفع صدقى لمعاودة الحياة الزوجية من جديد فان صدقى قد أوسع مكانا رحبا فى قلبه لصديقه ، احتفظ فيه بكل ما آثره به من الأشياء الجليلة واللفتات الرائعة ، وعندما كان شاعرنا يكلمنى عن صديقه سليمان نجيب كان يصفه بالشهامة والقدرة على صقل الانسان الخام ·· وعندما استفسر ·· يحكى لى أنه عندما عين ــ رجلنا ــ وكيلا لدار الأوبرا ·· وكان سليمان رئيسا لها ·· وحان موسم العرض ·· وتوجب السفر لاستقدام الفرق ·· بعث سليمان نجيب للمسئولين يطلب السفر وأنا معه ·· ولكنهم ردوا ·· بأن سفر واحد منكما يكفى ·· فكتب سليمان من جديد ·· فليكن السفر للوكيل لأنه الرئيس المقبل ·· فجاء ردهم هكذا « وأمام شهامة الرئيس نوافق على سفره مع وكيله » وسافرنا معا ·

وهنا تبدت عبقريته فى تشكيل الظروف ·· يقول : حيث أن بدل السفر كان ضئيلا لا يسمح لنا الا بالنزول فى فنادق متواضعة ·· فانه

كان يوم ابرام العقود مع الفرق الكبيرة ‥ يجعلنا نترك حقائبنا فى الفندق المتواضع لننزل فى فندق غاية فى الفخامة ‥ ثم يضيف : ان ذلك يجعل مظهرنا مشرفا أمام الفرق أولا ‥ وثانيــا يجعلنا نتذوق طعم الترف ولو لليلة واحدة ٠

والشاهد ان عبد الرحمن صدقي وفى لكل من بادره بادرة حلوة فى حياته ‥ حتى وهو على أعتاب (١) الموت يقول : كانت تخيم على غــرفة رقادى ، بل فى البيت كله سكينة حزينة ، مثل سكينة المقابر ‥ ولكننى كنت لا أستشعر السآمة ‥ فالسكينة حبيبة الى نفسى ٠

وفى وسط هذه السكينة أحسست بحركة غير اعتيادية وبعض اللغط فى البهو ، ثم خطوات عارمة فتية فى اتجاه غرفتى ، ثم طلعة سمراء تنكب على رأسى وتترك على جبهتى الشاحبة قبلة مشفقة رحيمة ‥ فادرت رأسى فى تؤدة من الضعف والوهن متطلعا ، فاذا صاحب هذه الأريحية العاطفية أحد وزراء الدولة ، انه على رأس الوزارة التى أعمل بها ‥ وقد لقيته على هذه الصفة مرات معدودات ‥ ولا أحسب التوفيق كان حليفا لى فى تلك اللحظات ٠

وها هو يذكرنى فى مرضى ، ويأبى الا أن يعودنى على كثرة الشواغل والمهام الرسمية ‥ وقد أخذ مجلسه الى جانب فراشى برعة وهو ســاهم متأثر ‥ وقد تركتنى هذه العاطفة الكريمة فى حيرة عظيمة ‥ ثم زاد من حيرتى خفاء هذه المكرمة عن الزملاء والناس أجمعين فى بلد لا تخفى عن الناس فيه خافية ‥ وكان من هذا جميعه أن تضاعف ثقل الدين فى عنقى ‥ ولكننى لا أجد اليوم بدا من احترام ارادته على الرغم مما أحس به من حاجتى الى التخفيف من دينى والخــروج من حيرتى باعلان فضــله وشكره ٠

عندما الححت عليه السؤال عن هذه الشخصية فى أخريات أيامه ‥ قال لى هامسا ‥ انه الدكتــور طه حسين وكان وزيرا للمعارف وكنت ـ أى صدقى ـ موظفا مبتدئا فى مكتبه ٠

ذكريات وذكريات ‥ كانت تتداعى فى خواطر الرجل وتشرق على حياته الهادئة وهو بمكمنه فى آخــر أيامه وزواره ندرة ٠ أذكر يوما فى احدى زياراتى له يوم جمعة لأنى لم أكن قد زرته يوم الأحد كعادتى ‥ اذا به يتهلل فرحا ومرحا هو يستقبلنى قائلا : الله لقد أنقذت حياتى من الموت يا عايدة ، قالها وقد شاب صوته نبرة حزن عميقة ‥ تنبى عن

(★) على عتبة الموت من ص ١١٧ : ١٣٠ ديوان حواء والشاعر الذى تم طبعه بدار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ ٠

تحرقه فى وحدته ·· رغم ولعه بالقراءة ·· فتأسفت له عن عدم حضورى يوم الأحد الفائت لاستحكام أزمة المواصلات فى مصر وعدم وجود (التاكسيات) ولما كان يوم الجمعة هو ميعاد زيارتى للأستاذ العلامة محمود محمد شاكر وهو بمصر الجديدة أيضا ·· فقد عرضت أن أصحبه اليه ·· فقال بتردد ·· ولكن ليس قبل أن تعلميه بذلك ·· أو تبقى معى ·· فاتصلت بالأستاذ شاكر أعتذر له بحجة أنى سأقضى النهار مع صدقى ·· فرد هو ولماذا لا يتفضل هو بزيارتى ·· فتهلل وجه صدقى وصحبنى اليه ·· وبهذه الطريقة اختصرت يومين فى يوم واحد··· فكنت أستقل تاكسيا يوم الجمعة من الروضة وأمر على منزل عبد الرحمن صدقى ثم نذهب الى الأستاذ شاكر · حيث صار صدقى من جلساء ندوته الاسبوعية · كأغلب تلامذة العقاد ·

ومن الغريب انى بهذه الطريقة أيضا أخرجت صدقى من حرصه المعهود حيث كان يدفع أجر التاكسى منذ أن انطلق من الروضة ·· مع أنه قبل ذلك كان يطلب منى ثمن كتبه حتى التى كان يهديها الى وعلى سبيل المثال ديوانه « حواء والشاعر » ·· وعندما استفسرت منه عن هذا التناقض ·· دافع عن موقفه بحجة أن بالديوان قصائد مهداة الى ومن ثم توجب بذل عبء الشراء ·· وقد يرجع حرص صدقى السابق الى أنه لم يدرب على اعطاء المصروف كأى أب أو أنه كان يدخر لزمن أصبح لا يثق ببقائه فيه ·· وربما لأنه كان لا يملك الا مرتبه · وأجور مقالات تأتى أحيانا ·· ولا تأتى كثيرا بينما دخل تركة زوجته الأولى التى تستأثره زوجته الثانية لا علم له بمصيره ·

فى سنة ٧١ بدأ فى كتابة مذكراته ثلاث مرات · ولم تتم فى احداها ·· وعندما بدأ فى كتابة اعترافاته فى عالم المرأة ·· وتفرغ فى الحلقة الثالثة للحديث عن أصله التركى ·· والمرضعة التى حلت بمنزلهم لارضاع أخته كرمز لأول لقاء به مع امرأة غريبة ·· توقفت بعد ذلك لأكثر من سبب : كان يقول لى بأسى هل يتصور رئيس التحرير اننى سأهجم على موضوع المرأة دون تمهيد أو تأهيل ·· ومرة ثانية كلفه كامل زهيرى بكتابة مذكرته فى دار الأوبرا ·· لكنها أيضا توقفت بعد عدة حلقات ·· وهكذا المرة الثالثة ·

ودرجة درجة تناقصت كتابات الرجل فى الصحف والمجلات ··

وتمرد طلبة معهد الفنون المسرحية على طريقة تدريسه ·· فهو يدرس الجذور بينما هم يطلبون القشور ·· وأصبح لا يغشى المجتمعات على حبه لها ·· لأنه لم يدع اليها ·· وكأن النهر الذى يشرب منه أدباء قومنا نهر النسيان فى أساطير اليونان ·· وهكذا افتقد الصديق والصاحب فى آخر أيامه ·· الا من الأستاذ على أدهم الذى كان بدوره يغيب عنه لزيارة

أولاده فى أسبانيا وغيرها ·· ويتركه وحيدا الا من زيارتى ·· لذلك كان اصطحابى له الى بيت الأستاذ شاكر طاقة واسعة أدخلت النور والبهجة الى حياته كما أدخلت السعادة الى جلساء الندوة لظرف حديثه وذكرياته العذبة ورقة مسلكه ودماثته ومجاملاته التى كان يسبغها على كل فرد فيهم ·· فقد صافح الشاعر محمود حسن حسن اسماعيل قائلا : أهلا بالشاعر الفحل ·· ان الكلمات فى شعرك وكأنها تنحدر من عل ·· تحرك الساكن وتطير بالمتحرك ، أما بعد أن جلس الى مائدة الطعام وتذوقه ·· فقد التفت الى (أم فهر) زوجة صاحب البيت العلامة محمود محمد شاكر قائلا : اليوم عرفت من الذى سيطهو لنا الأكل فى الجنة · هذه هى السماحة ·· أو أهم ملامح شخصية شاعرنا ·

كان من الممكن أن يفضى به هذا الموقف الجاحد من جيله الى طريق اللعنة ·· فيحرق مكتبته كما فعل « أبو حيان التوحيدى عندما مر بمثل هذا الموقف ·· ولكن صدقى كسول حتى على الحقد ·· نشيط فى نسيان الاساءة ·· كان وهو على أعتاب الموت ·· شديد الحفاوة بهذه المكتبة ·· فيقول : لم يكن خاطر الموت يفزعنى ، وانما كان يحز فى نفسى انى أموت قبل أن أشفى غليلى من القراءة ·· ان خزائن كتبى زاخرة بعشرات المئات من المؤلفات المختارة فى أكثر من لغة ولم تترك لى الوظيفة فسحة من الوقت لدراسة الجزء الأكبر منها ·· وهنا على ذكر خزائن كتبى ، ذكرت أنى اقتنيت معظمها بالشراء من مخلفات من سبقونى الى دار البقاء ــ وسرح بى خيالى فتخيلت كتبى ــ بعد موتى ــ مبعثرة فى أسواق الوراقين تتناقلها أيدى الباعة من أنصاف المتعلمين ، وتطرح فى كل مكان مطارح الهوان ·· أما كان أولى لو أوصيت بها لدار الكتب حين كان فى العمر متسع ·

وعندما توفى صدقى فى مارس ٧٣ ·· ولم أكن قد كتبت مقالا عنه فقد نشرت فى مجلة الاذاعة مقتطفات من مقاله « على عتبة الموت » وما يتعلق منها بأمنية اهداء مكتبته ·· وذلك تحت عنوان « عبد الرحمن صدقى ·· عاشق الحياة يفارقها الى لقاء وصفه فى رثاء نفسه » ، ومن الغريب أن يتصل بى الورثة يسألونى : هل ترك الرجل وصيته لديك ؟ ·· فقلت : لا وانما نشرها فى ديوانه « حواء والشاعر » ·

ورغم ان القانون ·· لا يعتبر مثل هذه الأمنية وصية ملزمة لأحد ، فالمدهش حقا هو التزام زوجته وباقى الورثة بتنفيذ هذه الأمنية الوصية ·

وبالنيابة عن كل أبناء مصر الذين سيفيدون من هذه الثروة ــ أشهد من معايشتى له وقراءة أعماله بأن صاحبها كان واحدا من جيل الموسوعيين على ندرتهم ·· ــ تلك كانت رسالة الشكر التى وجهتها دار الكتب والوثائق القومية الى السيدة نازلى وأشقائه وعلى رأسهم الدكتور عبد الرزاق صدقى ــ وزير الزراعة السابق ــ أردفتها بعد الأربعين بلجنة فرز وتعبئة لمكتبته !

وعندما ذهبت لأسجل هذه اللحظات تنبهت لوقوع شيء غريب في نفسي ، ذلك ان هذه الزيارة قد تكون المائة أو تزيد ٠٠ الا أنني قبلها لم ألاحظ أن للمقاعد أرجلا أو للفرش والستائر أحرفا ٠٠ وهكذا افتقدت الأشياء قلبها وروحها بغياب الشعاع الهادي الذي كان يحتضن كل شيء فتناثر كل شيء ووضحت أطرافه ٠

أرفف الكتب التي أخليت من محتوياتها تبدو كتوابيت غادرتها (المومياءات) الكتب هنا وهناك تبدو كبقايا الحفريات ٠٠ هذا الكتاب بلا غلاف ٠٠ جنبته اللجنة الى حين ٠٠ فانكمش على نفسه محاولا التواري عن الأنظار اذ كثيرا ما رأيت الرجل الذي فقدناه يقلب صفحاته ولكن في حرص شديد ٠٠ ويحمله باهتمام كوليد ٠٠ لقد أشعرني كل ذلك يومها بخيبة أمل لرحيل هذا الشاعر الذي ترك كتبه مباحة لمن بعده ٠

وقد ظلت هذه المكتبة حبيسة الصناديق منذ سنة ٧٣ ٠٠ رغم أن الدكتور محي الدين صابر كان قد عرض عليه ــ صدقي ــ أيام كان صابر وزيرا للتربية والتعليم بالسودان ٠٠ أن يشتريها لبلده بخمسين ألف جنيه ٠٠ ويتسلمها بعد وفاته ٠

وفي آخر مقال عنه بمجلة الدوحة القطرية نوفمبر سنة ٨٠ ٠٠ وجهت صيحة الى الأستاذ الشاعر صلاح عبد الصبور ٠٠ رئيس الهيئة في ذلك الوقت بتهيئة قاعة عبد الرحمن صدقي للقراء والمستفيدين ٠

وعندما وصلت الى أرض الوطن بعد غربة طالت في الكويت ، كان توجهي الى الدكتور عز الدين اسماعيل ــ الذي كان يرأس الهيئة ــ وعندما سألته عن أخبار قاعة صدقي قال : بأن فكرة القاعات الخاصة ليست عملية ٠٠ فأنا مثلا لم أفكر يوما في دخول هذه القاعات في مكتبة جامعة القاهرة !

وقد يكون الدكتور عز الدين اسماعيل على حق ٠٠ الا أنني ابتلعت كل رغبة لي بتكوين لجنة لجمع الهوامش والملاحظات حول قواميسه وكتبه واستخلاصها للاستفادة بها من قبل الدارسين والمترجمين ٠٠ قلت لنفسي يومها اذا كانت المكتبة قد ضمت الى المكتبة العامة ٠٠ فعسى أن يعثر عليها أحد المخلصين ٠

مجلة الدوحة القطرية

محرم ١٤٠١هـ/نوفمبر ١٩٨٠ م ٠

صلاح عبد الصبور

بين إمارة الشعر والتطبيع

لعمرك ما أنسى طفيل بن مالـــك بنى عامر اذ ثابت الخيل تدعـــى
وودع اخـوان الصـــفا بقـرزل يمـر كمريخ الوليـــد المفـــزع

أوس بن حجـر

جالت هذه الأبيات فى وجدانى وفى خواطرى ووكالات الأنباء تذيع نبأ وفاة شاعرنا الفذ صلاح الدين عبد الصبور ٠٠ الذى ولد فى ٣ مايو سنة ١٩٣١ واستشهد مساء ١٥ أغسطس ١٩٨١ ٠٠ وهو فى الخمسين من عمره ٠

لقد جاشت هذه الأبيات بالذات فى وجدانى ٠٠ لأن صلاحا حملت مواقفه الأخيرة على غير حقيقتها ٠ بل ان الهجوم الذى ترتب على خطأ وسوء الفهم قد عمل على رحيله المبكر ٠ والأعمار بيد الله وتعددت الأسباب والموت واحد ! ولعل فى شرحنا لمواقفه الحقيقية هنا الثبت والبرهان (*) ٠

يسأل الانسان نفسه ما هى خمسون سنة فى عمر جبل أو شجرة أو محيط ، بل ماهيتها فى عالم يتحرك فيــه شيوخ الثمانين وكأنهم أبناء العشرين ؟ لأنهم عثروا على طوق النجاة من الاستشهاد كحسين فوزى ،

(★) عدد يوبيل مجلة الآداب الفضى صدر فى شهر ديسمبر (كانون أول) سنة ١٩٧٧ ٠

وتوفيق الحكيم مثلا • أيكون ذلك مصداقا بأن الزهور والعبقرية والصدق لا تعيش طويلا •

ويعز المصاب حين يتذكر الانسان ما قاله صلاح يوما بتواضعه المعهود للمجلات والصحف « انني مازلت فى بداية أعمالى » هذا القول يتحول الى حسرة تعصر القلوب عندما نقرأ خطابه الأخير لرئيس تحرير مجلة الآداب البيروتية فى يوبيلها الفضى والذى وجهه هكذا « الى د• سهيل ادريس •• والى كل من يهمه الأمر » واستهله بقوله : « وقد لا تعلم يا عزيزى سهيل وقد لا يعلم أحباؤنا من القراء الذين أولونا حبهم هذا الزمن الطويل اننى لم أمسك بالقلم منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات الا لخاطر عابر ، أو نفثة حبيسة » ، وربما كانت الخاطرة والنفثة هما فحوى ومضمون قصيدتيه الى مجلة العربى الكويتية • وسنتحدث عنهما فيما بعد •

نسيت ان أقول لكم ان هذا الخطاب من صلاح كان قد أرسله من الغربة والضياع بعد استلامه لعمله الجديد مستشارا ثقافيا بالسفارة المصرية فى نيودلهى أثر مبادرة الرئيس السادات لزيارة اسرائيل ، عاد الى مصر بعد أربعة سنوات فى فترة عصيبة كانت تمر بها مصر داخليا عربيا ودوليا •

فماذا يصنع الشاعر صلاح ؟ •• لقد حوى خطابه الحزين للدكتور سهيل تحليله للسياسة العالمية فى هذا الوقت اذ قال : « السياسة الغربية عصيبة على التحليل ، لا تنسجم معطياتها مع مناهج التاريخ ، والسياسة العربية لا نسق لها ، وانما هى وقائع مفردة توشك ان تكون عشوائية • وكأن (صلاح) يريد ان يوضح لسهيل ان خطابه وان كان من الهند أو السند ، فلم يكن اختيارا حرا بل هو واقع فرضته عليه ظروف قهرية اذ يقول : انك لا تدرى كيف يقف الفرد عاريا منزوع السلاح أمام (١) مؤسسات الدولة الشمولية •

وها قد مرت سنوات على ، ثم ينهى هذا الخطاب المرير بقوله :

أما أنا •• فاننى لائذ بصمتى حتى أجد ما أقول ! •

ونحن اذا ربطنا بين هذه المقولة التى ختم بها صلاح رسالته « أما أنا فاننى لائذ بصمتى حتى أجد ما أقول ، وبين ما قاله فى صلب هذه الرسالة نفسها » : اننى لم أمسك بالقلم منذ ما يزيد على ثلاث سنوات الا لخاطر عابر ••• أو نفثه حبيسة يتأكد ظننا أو ما ذهبنا اليه من انه كان يقصد بالخاطره والنفثة القصيدتين المنشورتين بمجلة العربى الكويتية أولاهما فى أكتوبر تشرين أول ١٩٧٨ وكانت من نيودلهى •• وهى خاطره بعنوان « اجمال القصة » •• ويهيىء لنا انه كان يناجى فيها حبيبته مصر فيقول :

(١) يقصد بالطبع وضع مصر فى هذا الوقت •

« كانت تدعونى بالرجل الرملى
وأناديها بالسيدة الخضراء
وتلاقينا فى زمنى الشفقى
وتفرقنا ٠٠
لا تسألنى ٠٠ ماذا يحدث للأشياء
اذ تتصدع
أو للأصداء
اذ تهوى فى الصمت المفزع ٠
لكنى أذكر أنا ذات مساء
كنا قد خادعنا منجل حصاد الموت
غافلنا صيحة ديك الوقت
أفرغ للوحة كأسا ٠٠ أرجوك
هذا اجمال القصة ٠

أما ما النفثة أو القصيدة الثانيـــة التى نشرت بالصدفة فى أكتوبر « تشرين الأول سنة ١٩٧٩ فكانت اثر عودته الى مصر من نيودلهى ٠٠ أسماها « عندما أوغل السندباد وعاد » ٠

ينتشى السندباد وبرأى الزمان يعود
اليه ٠٠ ويغفى ويثبت فيما حوت عيناه من رؤى
وما احتملت من ظلال البلاد
وما احتملت من شجى كامن أو أسى مستعاد
ويبحر فى عرقه ودماه ، ويرسى بشط
الزمان البعيد القديم
ويعدو ويعدو
يضحك السندباد لصورته وهو يعدو
كان بعض الأماسى ثوبا صفيقا من الزيت
والقار ٠ الريح ساكنة كالزجاج ٠ على وجهها
البارد المستطيل تخثرت الظلمات كدم
أخلفت وعدها السحب ، لم تتفتح
حدائقها عن زهور النجيمات ولم يرد البدر
وانحللت هباء
ويثقل نفسك ما حملت من رؤى
وما احتملت من ظلال البلاد
وما احتملت من شجى كامن ، أو أسى مستعاد

ويهيء لنا ان القصيدة تصور حالة عودته الى مصر ٠٠ والحيرة تدوم فى نفسه ٠٠٠ وكأن على قلوب أقفالهـــا ٠٠٠ عهد اليه بمنصبه السابق فاستشار فلم يحرك ساكنا فيه ٠٠ فلم نسمع انه افتتح مسرحا ولم نره فى صورة يقص شريط معرض وظل يواصل الأيام دون أن يعيشها ويزدرد المواقف ولا يتمثلها يكظم ولا يبوح حتى فاض الحزن على سيماه فشاب شعره وتغضن وجهه وثقل قلبه ٠٠٠ يسائل نفسه الحيرى ٠٠ هل يقبع فى بيته ٠٠ هل يخلع نعليه كما صـــور هو نفسه المتصوف بشر الحافى ويمضى فى الصحراء ولم يدركه أحد ٠٠ ولكن هل يترك أسرته للريح ٠ وماذا يصنع للرياح من حوله الا ان يناجيهـا كما ناجاهـا أبو الطيب « الرأى فوق شـــجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى » انتظارا لطلوع فجر ٠٠ يســتطيع أن يلتقط فى ضوئه جدائل عبقريته من بئر الصدأ والضياع ٠

المبايعة بامارة الشعر

ولما رأت السلطة عن طريق أجهزتها وعملائها ٠٠ ان صلاحا ما زال صامتا ٠٠ فقد وجدت فى مناسبة الاحتفال بذكرى « أمير الشعراء أحمد شوقى » فرصة لاستمالته عبر الدعوة لمبايعته أميرا للشعر العربى الحديث ، فربما تكلم يشكر المحتفلين ٠٠٠٠ فدعت جمعية الاقتصاد والعلوم السياسية القاهرية الى اقامة المهرجان فى الحادى والثلاثين من أكتوبر تشرين الأول سنة ١٩٨٠ ٠٠٠ ولكن صلاحا رفض هذا الاحتفال بأكثر من اباء ٠٠٠ تماما كما سبق وأوقف سلسلة مقالات للويس عوض ٠٠٠ عرض فى بدايتها امارة الشعر على صلاح سنة ١٩٦٦ ٠

صلاح رحمه الله والحق يقال كان يعرف قدر نفسه قبل غيره ويعرف قدر الساخرين منه والحاقدين عليـــه ســــواء على مقهى ريش أو مقهى ايزافيتش ٠٠ أو أعداء الشعر الحديث والعقاديين والمتربعين ٠

وهذا وذاك يدلنا كم كان صلاح عبد الصبور حذرا بطبعه ٠٠ ولكن لا يمنع حذر من قدر ٠٠ فقد طغت على صـــحافة الخليج وأغلب البلاد العربية موجات سب له وتنكيل ٠٠ ليس فقط قبل استشهاده بل بعد ساعات منها أيضا ٠

و ٠٠ على سبيل المثال ما كتبه سميح القاسم فى (الرأى العـــام الكويتية بتاريخ ١٩٨١/٥/٦ تحت عنـــوان (أمير الشعراء صـــلاح عبد الصبور) يحلل فيها الاحتفال الذى كان مزمعا اقامته فيقول أولا (تكريم الشاعر صلاح عبد الصبور من قبل السلطة الحاكمة فى مصر تقدير له على مواقفه وولائه للسلطة وأطروحاتها الانهزامية ٠ فالشـــاعر عبد الصبور يقف بحزم ٠٠ بحكم منصبه الوظيفى أمام الثقافة الجادة ، والمثقفين الملتزمين بقضايا الجماهير ، سواء عن طريق منصبه الوزارى أو رئاسته للهيئة العامة للنشر أو اشرافه على بعض المجلات الثقافية) ٠

وقبل أن أناقش سميح القاسم فى القسم التالى من أقواله أتساءل من أين أتى بتعبير : (وكما هو معروف عنه أى صلاح فى الوقوف بحزم الى جانب الثقافة الجادة) وأنا لا أعرف روائيا أو قاصا أو شاعرا أو باحثا جديدا فى مصر الا وكان صـــلاح هو الذى دفـــع بعمله الى المطبعة ٠٠ اذا عددت أسماء هؤلاء الأدباء الذين أدلوا بحقيقة أفضال صلاح عليهم وبتقديم أعمالهم لما اتسع لهم هذا المكان ، ثم نعود الى ما برر به سميح القاسم بقاء صلاح فى منصبه القديم فتراه يقول :

« تفويت الفرص على مثقفى المعارضة وكتابها فى الداخل للتعرض لانحرافات النظام المذهلة ، والهائهم ٠ وذلك عن طريق زجهم فى معركة جانبية ومحاولة جر أقدام بعض الشعراء العرب الآخرين الموجودين خارج مصر والذين تستهويهم هذه الألقاب لابعادهم عن الكتابة عما يحدث فى مصر الآن » ويردف سميح القاسم ــ لا نقصد وضـــع المثقفين المصريين الملتزمين فى مرتبة أو مصاف هؤلاء بقدر ما نريد توضيح الأسباب التى حدثت بجمعية الاقتصاد والعلوم السياسية لهذه الدعوة ٠٠ وتعرض المثقفين المصريين لمثل هذه الدعوة أيضا ، لا ينطلق من مفهوم الدفاع عن أحقيتهم فى هذا المنصب بل لتعرية توجهات السلطة وتعرية مثقفينا الذين يحاولون الظهور بجلود غير جلودهم « ثم ينهى ب « اذا عدنا الى أشعار شوقى التى يستحق عليها الانصاف ومبايعته بالامارة ٠٠٠ فسنجدها فقط فى تلك الأشعار التى كتبها بعد عودته من المنفى بين عامى ١٩ ، ٢٣ » !

وعلى قسوة هذا الكلام وعن شهيد الكلمة ٠ وبعدها عن الحقيقة برمتها فان وقعه يخف ويطير ٠ فقد كان صلاح ما زال فى الدنيا اماما أدمى روحى حسرة وندامة ازاء الكلام الذى كتبه « أحمد مطر » فى صحيفة القبس الأحد ١٩٨١/٨/١٦ أى بعد يـــوم واحـــد من وفاة صــــلاح تحت عنوان « صـــلاح عبد الصبور يموت ثانية .» لأنه غرس ســـهامه المسمومة ولحـــم الشهيد ما زال طريا ٠ ولا نقول له اذكـــروا محاســـن موتاكم وانما للموت حرمة ، والانســـان يتعجب كيف أحكمت هذه اليـــد على ذلك القلم ليكتب هذه الأوصاف عن شـــاعر لحظة وفاته « فكيف يمكن لشاعر حقيقى ان يصدق مثل هـــذه النكتة ؟ ــ يقصـــد امارة الشـــعر والتى عرفنا كيف انبرى صـــلاح الى الغائها ــ ثم يردف وكيف أمكنه ان يستسيغ امتطاء الحمار فى عصر الفضاء ؟ وكيف أمكنه النوم بعد هذه الطعنة ؟ » ٠

هل نستطيع بعد هذه السخريات المريرة من الشهيد ان نتقبل قول أحمد مطر : « فى الخالدين روح شاعر جلد بالكلمة وجه السلطان ٠

ــ وهو يردفها ــ ، فعاقبه السلطان بنفيه خارج روحه وبجلده فى

ساحات أوطانه العامة بسيف (التدجين) وامعن فى معاقبته فى جلسة سرية بتهمة البراءة · ولف على عنقه حبل امارة الشعر فى عصر قنبلة النيوتروجين · فتدلى من مشنقته تلك مبتسما راضيا سعيدا ·· فما أبشعه من اعدام ·· وما أتعسه من معدوم « أو تصدق كلمته (رحمة الله عليك يا صلاح ــ وهو يردفها ــ ، كيف فاتك أيها الشاعر الموهوب ان تدرك ان السلاطين اذا دخلوا قرية أفسدوها ؟) ونقول ان صلاحا كان من القلائل الذين فطنوا الى انه « لا يفسد أمر العامة الا السلطان الفاسد » كما عبر فى مسرحيته الحلاج · ولكن الظروف لم تمهله أن يقولها فاحكم كتمانها حتى مات بها · لقد عاد صلاح من سجنه فوجد التدجين والتطبيل والتطبيع على أشده ·· فماذا كان أمامه الا أن تستمر حالته التى وصفها للدكتور سهيل ادريس : (أما أنا فانى لائذ بصمتى حتى أجد ما أقوله) وصلاح ينبؤه به : (انك لا تدرى كيف يقف الفرد عاريا منزوع السلاح أمام مؤسسات الدولة الشمولية) ·· ونحن نسأل مطرا ــ اذا كان زميله سميح قد كتب فى آخرمقاله : (اذا عدنا الى أشعار شوقى التى يستحق عليها الانصاف · فهى تلك التى كتبها بعد عودته من المنفى بين عامى ١٩ ، ٢٣ ــ مبايعة الامارة ــ فهل انتظرنا نحن على صلاح هذه السنين ؟

لا لم ننتظر بل رحنا نحكم حبل المشنقة حوله ادانة له على ما لم يقله أو يفعله ··· فماذا كان أمام صلاح ازاء هذا الركام واللجاج ·· الا ان يموت لكى يترك كلماته ·· كما سبق وعبر على لسان بطله الحلاج فى مسرحيته وفى مثل وضع مصر كان يقول :

كأن من يقتلنى محقق مشيئتى
ومنفذ ارادة الرحمن
لأنه يصوغ من تراب رجل فان
أسطورة وحكمه وفكره
كان يقول : ان من يقتلنى سيدخل الجنان
لأنه بسيفه أتم الدورة
لأنه أغاث بالدما اذ نخس الوريد
شجيرة جديبة زرعتها بلفظى العقيم
فدبت الحياة فيها ، طالت الأغصان
مثمرة تكون فى مجاعة الزمان
خضراء تعطى دون موعد ، بلا أوان
وحين سلمه السلطان للقضاة
ورده القضاة للسلطان
ورده السلطان للسجان

ووشجت أعضاؤه بثمر الدماء
تم له ما شـــاء
هل نحرم العالم من شهيد ؟
هل نحرم العالم من شهيد ؟ »
واذا كان اخوان الحلاج الأصفياء قد قالوا بعد استشهاده :
« ايكافأ انا فارقناه
وفرحنا حين ذكرنا أنا علقناه فى كلماته
ورفعناه بها فوق الشجرة
ـ وسنذهب كى نلقى ما استبقيناه منها فى شق محاريث الفلاحين
ـ ونخبئها بين بضاعات التجار
ـ ونحملها للريح السواحة فوق الموج
ـ وسنخفيها فى أفواه حداه الابل الهائمة على وجه الصحراء .
ـ وندونها فى الأوراق المحفوظة بين طوايا الثوب .
وسنجعل منها أشعارا وقصائد »
واذا كان أحد أصحاب الحلاج قد تساءل :
« قل لى ... ماذا كانت تصبح كلماته
لو لم يستشهد » .

فاننا أصدقاء صلاح .. يحق لنا بعد الرد على الهجمة الشرسة من كتاب الخليج أن نسأل سؤال الشبلى صاحب الحلاج .

(يا صاحبى وحبيبى
« أو لم ننهك عن العالمين
فما انتهيت
قد كنت عطرا نائما فى وردته
لم انسكبت ؟
وهل يساوى العالم الذى وهبته دمك
هذا الذى وهبت)

وان نضمن بقية قول الشبلى .. ولكن بصيغه هم ، أوجهها لكل من تهجم على صلاح قبل وبعد وفاته فتكون : رباه لا أستطيع أن أمد ناظرى يجول فى روحى وفى خواطرى لو كان للذين هاجموه بعض يقينه لكانوا منصوبين قبله على مشانقهم .. لكنهم استبقوا أعمارهم حين امتحنوا .. وازبدوا وأربدوا .. مع أنهم هم الذينَ قتلوه .. وهم الذين اغتالوا تاريخه وشخصيته .

وحسبى ــ لذلك ــ أن الذى مات كمدا فى الخمسين لأشرف ممن بلغوا الثمانين .. ولكنهم استبقوا عمرهم .. ويخفف من رحيله المفاجىء ان صلاحا كان يشعر ويحس بأن أيامه فى الأرض قليلة اذ كتب يوما :

ينبئنى (١) شتاء هذا العـــام — اننى أمــوت وحـــــدى
وان قلبى ميت منذ الخريـــــف — منذ هــوت أول أوراق الشـــجر
وقد يقول الصحب مجلسه كان هنا — وقد عبر فيمن عبر برحمـــة الله

مشارف الخمسين

بعد نشر هذه اللمحة الخاطفة عن الشاعر الراحل فى ١٩٩١/٨/٢٣ بجريدة الوطن الكويتية سألنى الأصدقاء هل هذه النبذة هى كل حصيلتك عن صلاح الذى كان لقاؤك الأول معه عام ١٩٥٨ ! ان كل ما كتبته انصب على تسفيه آراء من شجبوه أخيرا ·· ثم تركت عمق معرفتك به للريح ·· قلت : ولكنى سجلت بعضها على كتاباتى « من مذكرات شاهدة ربع قرن ·· لا سيما فى مقالى « أنا والآداب » أجابوا ان هذا وذاك زوايا ·· وليست كاملة ، فلماذا لا تكتبين عنه لمجلة الدوحة ، سيما وكان قد بدأ بها متتابعاته عن « مشارف الخمسين » ·· فى زماننا الشعرى الأول ولم يتمها ·

رحت أتأمل ما قد كتبته عنه ·· وما كتبه هو فى هذه المتتابعات لأربط بينها وبين معرفتى به ·· فوجدتنى كثيرا ما استشهدت بشعر صلاح فتأكد لى اننى ما فعلت ذلك الا لأن أشعاره كانت مع أغلب أعماله أشبه ما تكون بسجل حياته ···· فلم يكن يترجم فيها لذاته فقط بل كان يرثى فيها نفسه أيضا ، وهى خصيصته من أهم ملامح ابداعه من الطفولة الى المراهقة حتى الاكتمال·· اذ يعد شاعرنا من الشعراء القلائل الذين بدأت لحظات ابداعهم مع بداية حياتهم الشعرية ···

ويشير الى هذا ما كتبه فى متتابعته التى اختار لها عنوان « مشارف الخمسين فى زماننا الشعرى الأول » حيث قال كانت لكل من محبى الشعر الصغار فى زماننا كراستان · واحدة يثبت فيها ما تفيض به قريحته من الشعر ، وأخرى ينسخ فيها ما يروقه مما يقرأ فى الصحف والدواوين ، وكانت كراستى الأولى تتسع وتضيق يوما بيوم ، فقد كنت لا أكاد أرضى عما أكتبه من الشعر الا بعد أيام من كتابته ، ثم ما ألبث أن أكتشف ما فيه من نقص أو خطأ أو تقليد مكشوف · فأمزق عندئذ أوراقا من الكراسة ، حتى لم يبق من بعض هذه الكراريس الا جلدتها ، وتجد فى شـــعره ما يعبر عن ذلك ، ففى قصيدة بعنوان « عذاب الحرف » نشرت بمجلة الآداب فى يناير كانون ٢ سنة ١٩٥٨ ·

سأحكى قصتى للناس ، للأصــحاب ، للتاريخ ان أذنت مسامعه الجليلة لى ·

---

(١) تقطيع هذه الأبيات ليس منطقيا · فأنا أكتب على عجل فور سماعى النبأ ·

وأعلم أنكم كرماء
وانكمو تحبون القريض ، وأهل الشعر
وانكموا ستغتفرون لى التقصير عن سبق الى التعبير
وعن تدوير ما يمتد فى الدنيا الى كلمات
وعن بسط الذى يلتف فى نفسى الى كلمات
وعن تنغيم هذا الزمن الموحش موسيقى
وعن وحشة موسيقى السماء بقلبى الموحش
وأعلم انكم كرماء

وانكم ستغتفرون لى التقصير ٠٠ ما كنت أبا الطيب ولم أوهب ـ كهذا الفارس العملاق ـ ان اقتنص المعنى ولست أنا الحكيم ٠٠ رهين المحبسين من ثغب ولست أنا الأمير يعيش فى قصر بحصن النيل يناغيه مغنيه ٠

شفيعتى أنتموا للشيخ ٠٠ هذا الأبد الموهوب
لكى يحفظ فى واعية الأيام اسما ساذجا
للغاية بجنب الفارس العملاق والشيخ الضرير وحامل الراية ٠

هذا عن استشهاداتنا بشعره ٠٠ أما وداعه بأبيات كثيرة من مسرحيته « الحلاج » فتعود الى ما سبق ان قاله هو عن صلته بها : بعد ان فسر لماذا كان البناء والشكل فيها على ما هو عليه (أما القضية التى تطرحها ـ الحلاج ـ فقد كانت قضية خلاصى الشخصى ٠٠ فقد كنت أعانى حيرة مدمرة ازاء كثير من ظواهر عصرنا ٠٠ وكانت الأسئلة تزدحم فى خاطرى ازدحاما مضطربا ٠٠ وكنت أسأل نفسى السؤال الذى سأله الحلاج لنفسه : ماذا أفعل ؟ وهنا تتناول المسرحية قضية دور الفنان فى المجتمع ٠ وكانت اجابة الحلاج هى ان يتكلم ويموت ٠ فليس الحلاج عندى صوفيا فحسب ولكنه شاعر أيضا ٠٠ والتجربة الصوفية والتجربة الفنية تنبعان من منبع واحد ٠ وتلتقيان عند أزمة الفنانين الحديثة ٠٠ وحيرتهم بين السيف والكلمة ٠٠ بعد ان يرفضوا ان يكون خلاصهم الشخصى بطرح مشكلات الكون والانسان عن كواهلهم هو غايتهم ٠٠ وبعد ان يؤثروا ان يحملوا عبء الانسانية عن كواهلهم ٠ وكانت مسرحيتى مأساة الحلاج معبرة عن الايمان العظيم الذى بقى لى نقيا لا تشوبه شائبة وهو الايمان بالكلمة) ٠

لقد أسمى صلاح مسرحيته مأساة الحلاج « الكلمة والموت » فماذا فيها عن الكلمة وعن الموت ؟ وهل أودت الكلمة بالشاعر الحلاج الى حتفه ٠٠ ؟ يقول صلاح : (أما عن مسرحيتى الحلاج فهى بطل وسقطته ، والسقطة ٠ ٠سقطة تراجيدية كما فهمتها عن أرسطو نتيجة لخطأ لن يرتكبه البطل ولكنه فى تركيبه ٠

وباعث الخطأ هو الغرور وعدم التوسط ٠٠ وسقطة الحلاج مشهد البوح بعلاقته الحميمة بالله ٠٠) ٠

فعندما تكأكأ رجال الشرطة حوله يناجى مريديه ٠٠ تصبو له الشدباك من كلماته فما ان تفوه :

أراد الله ان تجلى محاسنه ، وتستعلن أنواره
فابدع من أثير القدرة العليا مثالا ، صاغه طينا
والقى بين جنبيه ببعض الفيض من ذاته
وجلاه ، وزينه ، فكان صنيعه الانسان
فنحن له كمرآة ، يطالع فوق صفحتها
جمال الذات مجلوا ، ويشهد حسنه فينا
فان تصفو قلوب الناس ، تأنس نظرة الرحمن
الى مرآتنا ، ويديم نظرته ، فتحيينا
وان تكدر قلوب الناس يصرف وجهه عنا
ويهجرنا ويجفونا ٠٠٠٠٠٠ »
عندئذ قاطعه أحد رجال الشرطة :
ولكن شيخنا الطيب ، هل ربى له عينان
لكى ينظر فى المرآة ؟
وسأله آخر :
كيف اذن تظن الله
بلا نعت ولا تشبيه ؟
وأردف ثالث :
أتعنى ان هذا الهيكل المهدوم بعض منه
وان الله جل جلاله متفرق فى الناس ؟
وأكمل رابع :
فانت اذا اله مثله ما دمت بعضا منه ؟

زلزلت هذه الهجمة الشرسة الحلاج من رأسه حتي قدمه ٠٠ ولم تترك له فرصة فى التأمل والحذر فقال :

رعاك الله يا ولدى ، لماذا تستثير شجاى
وتجعلنى أبوح بسر ما أعطى
الا تعلم ان العشق سر بين محبوبين
هو النجوى التى ان أعلنت سقطت مرؤتنا
لأنا حينما جاد لنا المحبوب بالوصل ٠ تنعمنا
دخلنا الستر ، أطعمنا وأشربنا
وراقصنا وأرقصنا ، وغنينا وغنينا

وكوشفنا ، وكاشفنا .. وعوهدنا وعاهدنا
فلما أقبل الصبح تفرقنا ،
تعاهدنا ، بأن أكتم حتى انطوى فى القبر)
عندئذ طوقه رجل السلطة ليقول له أحدهم :
« كفى يا شيخ هذا القول عين الكفر »
عندئذ استشاط الحلاج :
« عين الكفر .. ويلك .. هذا القول لى فاسمع
وان كنت سألقى الهول لو كشفت وجه السر
أجل لا . ، بل ويلتى ، جرجرت من زهوى الى حتفى
ولكن كيف .. هل أترك هذا اللفظ ملقى فوق أثوابى
اذن فاسمع ، وقل فى الأمر ما ترضاه
لقد أحببت من أنصف
فأعطانى كما أعطيت »
فأحاطته الشرطة وأمسكوا به ليقولوا لمريديه
« يا أهل الاسلام .. هذا شيخ زنديق
فلنأخذه للسجن » .

افتراءات ما بعد الرحيل

ورغم أن ما تفوه به الحلاج هو حال من أحوال الصوفية الا انه يعبر فى أحوالهم بما نال . أو كما قال صلاح عنه (الحلاج) فهو حين ارتكب هذه السقطة أباح للناس دمه ، بل وأباح الله دمه .. اذ أفشى سر الصحبة .. فسقطت مروءته أمام الله . لقد جرجر الحلاج من زهوه الى حتفه . كما حدثنا بنفسه » .

واذا كان هذا ما التقطته عندما عدت لكتابتى الخاطفة عنه .. فان عودتى الى ما كتبه هو نفسه فى متتابعاته أصابنى بالفزع والهول .. ذلك انه أعادنى الى ما نرى انه محض افتراء . وهو ان الانسان يشعر بدنو الموت وان لم يصدقه المحيطون به ــ فأنا عندما قرأت متتابعاته أو أنفاسه الأخيرة ــ الذى توج صلاح عبد الصبور بها ابداعه الأدبى ــ كما قال معد أعماله الكاملة ــ لم أدرك على وجه اليقين انه قد يلقى ربه قبل ان يتمها ، وربما عمل انكارى لهذه الحقيقة انه كان ما زال ملء السمع والبصر . لكنى عندما عدت اليها بعد وفاته آمنت ان هذا الافتراء ما هو الا الحقيقة بعينها . ان كل عذاباته طفت فوق هذه الكتابات ولو استطعت ان أدلل على ذلك لنقلتها بنصها .. ومن ثم فانى أحيل اليها وأذكر أبرزها هنا ايجازا .. حتى أستكمل متتبعه سياق حياته عندما استشهد فى مقالته الأولى (العجوز والجريدة) على وطأة الشيخوخة على نفسه بهذه الأبيات :

وهت عزاماتـــك عنـد المشـيب ... ومـا كان من حقهـا إن تهـى
وأنكرت نفســك لما كـــبرت ... فلا هى انت ولا أنت هـى
اذا ذكرت شـــهوات النفــوس ... فما تشهى غـير ان تشتهـى

فقد أردفها بقوله : وأذكر انى ما أحببت الجناس وغيرها من المحسنات اللفظية كما أحببته فى هذه الأبيات ٠٠ علقت بذهنى من عهد الصبا ، ولعلى لا أذكر شاعرها ٠٠ ولا أريد أن أعتمد على الظن ، فيتصـدى لى عندئذ محقق عالم ثبت طويل الباع ، فيصوبنى ويسخر منى ومن جهلى ٠

ولا شك أن ما أردف به ليدل على ان ما عاناه فى حياته الأدبية من النقد الجائر ليجعله يدروء حتى فى خياله ٠٠

انظر اليه وهو يؤجل ذكر صبواته الى زمن لا يثق بمجيئه ٠٠ فيقول:

« اما صبواتى فلن أتحدث الا عما فعلت بنفسى وعقلى ، تاركا ما دون ذلك للجلسة الذاهلة الوحيدة على مائدة المقهى ٠٠ ان امتد العمر ٠٠٠ » ٠

أما عندما تكلم عن سطوة أبى العلاء المعرى عليه فى شبابه وصدقه المفقود فى حياتنا حتى تمنى صلاح ان لو كان أحد تلاميذه أو خدامه ٠٠ فلعله يجنى لقاء ذلك علما أو أدبا أو خلقا ٠ فقد قال صلاح: وتمر الأيام من بعد ، وندرك ان الطريق الذى اختاره أبو العلاء شاعرا وانسانا أكبر من قامتنا التى حناها الزمان ، وأنظف من عصرنا الذى لطخه الكذب الشائع فى الأبواق ، فلنقنع اذن بمحبته دون ان نكلف أنفسنا التأسى به ٠٠

ومن الغريب ان قناعة صلاح بأنه لم يحقق شـيئا متميزا ٠٠ قد انسحب حتى على توفيق الحكيم ٠ فنجده يقول :

« لقد كنا قديما نتناشد نثر توفيق الحكيم كما نتناشد الشعر ٠ وها نحن الآن نلقاه فنحدثه ٠٠ وها هم أولاء بعض الكتاب يقرنون بين اسمه وبعض أسمائنا ، فلنقنع بذلك من الحياة حظا ٠ صلاح اذا كان يشعر ان بندول ساعته البيولوجيـة يكاد ان يتوقف وان دورة الأفلاك ستحيل الحول عليه ٠٠ فتدينه كما أدان غيره ٠٠ لذلك فانه راح يبرىء من ادانه ــ بقلمـه هو فيعتذر عن سبق خطئه فى الأربعة الكبار (طـه حسين ــ عباس العقاد ــ توفيق الحكيم ــ ابراهيم عبد القادر المازنى ٠٠ الذى كان قد غربل أعمالهم فى كتابه الشهير (ماذا يبقى منهم للتاريخ) ٠٠ الذى كتبـه فى شرخ شـبابه وجسـارته ٠٠ متمثلا بشطرى بيت أبى العلاء المعرى :

وانى وان كنت الأخـير زمانـه ... لآت بما لم يستطعه الأوائـل

ثم تحول قبل غروب شمس حياته الى شطرى بيت آخر لأبى العلاء نفسه يقول :

لا تظلموا الموتى وان طال المـدى   انى أخاف عليكمو ان تلتقـــوا

فهو عندما كتب فى شبابه عن شعر العقاد قائلا : (ولو انصف العقاد نفسه لقال عن الشعر كما قال بعض القدماء ، وأظنــه الخليل ابن أحمد حين سئل لم لا ينظم الشعر ، فأجاب بما معنـــاه ان ما يرضاه منه لا يتيسر له ٠ وما يتيسر له لا يرضاه) ٠ فقد عاد يقول فى متتابعاته عن العقاد :

« معذرة ، فقد أوشكت حين كتبت هذا الرأى القاطع ان أضيق بنفسى ، فما العقاد بهين فى الميزان ٠٠ فانظر فى شعره الآن فأجد وسط الرمل والحصى والتراب بعضا من التبر اللامع ٠٠٠ » ٠

وهكذا فعل مع بقية الأربعة الكبار ٠٠ الى أن قال : وها قد مرت السنوات وأصبح ما وراءنا من الحياة أكثر مما أمامنا ، وقادنا النظر المنصف الى ان ندرك ان هذا الجيل العملاق قد صنع فى الأدب العربى صنيعا بازخا ٠

فما هى المحن والاحن التى مرت على حياة صلاح وجعلته يتخلى عن بيت أبى العلاء الأول ليتحصن ببيته الثانى فى أقل من ربع قرن ٠٠ وماذا نسميه ؟ هل هو من قبيل النكوص أم انه اسلوب استعطافى ؟ ٠ أم هو نتيجة للربط بين التغيرات الاجتماعية المتلاحقة من ناحية ، وازدياد فى اضطرابات السلوك والشخصية من ناحية أخرى ؟ مع وضعنا فى الاعتبار انه شاعر ٠٠ والشاعر يكون غريبا وســط ما يحيط به من الحقــائق فلا غرو ان تحدث فى آرائه النقـــائص ، التى تستوجب منه التعديل والتمحيص عندما يتأمل معنى حياته ، أو يشعر بأن غروب شمس حياته وشيكة ٠٠ زد على ذلك ما قيل ان شعر الرجل قطعة من كلامه ، وظنه قطعة من علمه ، واختياره قطعة من عقله ٠٠ فلماذا اختار صلاح ان تكون أولى مسرحياته تنتمى الى مسرح الاستشهاد والقداسة ، الذى تنتسب اليه أيضا مسرحيات (التعزية) الفارسية ، ومسرحية « القديســـة جــون لبرنارد شو ، و « رجل الله » لجان أنوى ٠٠ بل تلتحم أيضـــا مع شكل المأساة ٠٠ وكلنا نعرف أن المأساة تخضع وتهذب عناء العزيمة وصلف التصميم ، وتعلم الانسان ان فى الدنيـــا من أمثاله كثيرين ٠٠ ذلك لأن المأساة تعكس فى المرآة أحاسيس الغير وأفكارهم وتفتح خزائن القلوب البشرية ومن شأن المأساة كذلك انها تخلق توازنا بين الانفعالات البشرية ٠

واذا كان هذا كله يحدث لمشاهدى المأساة ٠٠ فما بالنا بمبدعها ٠٠ أو الذى لجأ اليها ٠٠ وما هو المخزون فى قلبه وتموج به نفسه ٠٠ فأراد أن يوازنها بكتابته لها ٠

لنعد الى حياة صلاح ·· ما قاله وكتبه عنها وما قاله الأصدقاء ·· فربما هدانا كل ذلك لكتابة سيناريو ما نتخيله عنها ·

ولد شاعرنا الفذ فى احدى قرى محافظة الشرقية (الزقازيق) · نشأ الفتى فى تلك البيئة الريفية الأصيلة ، يشده ويقربه منها استعداد شخصى لقول الشعر والقراءة ·· وقد ألقت الكتب القليلة سواء فى مكتبة أبيه أو مكتبة البلدية أو ما كان يشتريه ـ كما ذكر فى متتابعاته بمجلة الدوحة ـ ضوءا كافيا على سنوات صباه المتقدمة فى الزقازيق أو المتأخرة فى القاهرة التى نزح اليها طلبا للعلم بقسم اللغة العربية بجامعة (فؤاد الأول) · القاهرة الآن ، وتؤكد هذه المتتابعات وجود مؤثرات أخرى على حياته منها تردده على المقاهى التى يتجمع بها الأدباء (كمقهى محمد عبد الله بالجيزة فنان الشعب المرحوم زكريا الحجاوى) وشغفه برؤية من تأثر بهم وهو فى القرية من أمثال محمود حسن اسماعيل وابراهيم ناجى ·· كما ذهب الى محل جروبى ليرى على محمود طه ·· الى جانب كتابين تعلق بهما وهو صغير واعتبرهما من المحددات الرئيسية لميوله واتجاهاته ، أول الكتابين وأحقهما بالتقديم هو كتاب (المنتخب فى أدب العرب) وقد جمعه وشرحه طائفة من أساتذة الأدب على رأسهم الدكتور طه حسين · وكانوا يوزعونه مفرقا على طلبة المدارس عاما بعام فى المرحلة الثانوية · والثانى (مختارات من شعر اللغة الانجليزية) « كانوا يوزعونه فى الجيل الذى سبقنا من طلاب المدارس ، فأدركنا نسخا مستعملة منه » على حد قوله ·

ينبئنا صلاح من واقع الطرائف التى كان يحكيها أو التى كتبها ان مرحلتى التحصيل ـ فى الزقازيق أو القاهرة ـ أو التدريس نجدهما براء من أى مآسى أو أحزان فقد كتب عن أولاهما تحت عنوان (جماعة الضحك القديم) : لعلى لم أضحك ضحكة صافية منذ وهن الحبل بينى وبين مدينة (الزقازيق) مسقط رأسى ، « ومغدى صباى » ، « ولم يكن هذا الضحك ضحكا ساذجا أبلها ، بل كان ضحكا عميقا ينبع من ادراك مفارقات الوجود والاطلال عليها بالعين الساخرة والقلب الدافىء ، وأنا الآن أذكر أصحاب الصبا فينهمر على من شذاهم عطر يملأ أرجاء الغرفة ، وقد فصلت بينى وبينهم بيداء لا يسرى بها نجم ولا يشقها ضوء بيداء شاطئاها الحياة والموت » ·

أما عن سنوات تحصيله فى القاهرة ·

فقد كتب عنها : « وكنا فى الجامعة نتحلق حول شيخنا وأستاذنا المرحوم أمين الخولى » حتى اذا انفضت دروسنا نتجمع فى احدى مقاهى حى عابدين ·· كانت جلستنا موزعة بين قراءة كل منا لأصحابه ما أفاض

الله عليه به من قول شعرا أو قصا أو نقدا ، وبين لعب النرد ، ثم طلب الطعام من عربة يد كانت تقف ازاء المقهى ٠٠٠٠ حتى اذا أغلق المقهى أبوابه تحولنا الى حي الحسين ٠ فجلسنا فى مقهاه القديم ، مقهى الفيشاوى ٠٠ ولا تسألنا متى كنا نستذكر دروسنا ٠٠ وقد كانت عادتى ان ألم بالمنهج في بضع ليال قبل الامتحان ٠٠٠ وواقع الأمر ان ساعات نهارى كانت معظمها تسكعا فى مكتبة الجامعة ، أو جلوسا على درجاتها التي حولناها الى رواق للمناقشة الأفلاطونية أو السخرية السقراطية ، بين ذلك كله كنت أزور ناجيا اسبوعا بعد اسبوع » ٠

فى نادى المعلمين

واستمر فى زيارة الشاعر ابراهيم ناجى الى أن صار مدرسا للغة العربية ويقول فى ذلك : « كنت عندئذ مستمعا محبا لشكواه ، وكان لدى ما أشكوه له ، فلم أكن مدرسا ناجحا بحال من الأحوال ، وكان مفتشوا اللغة العربية ومعظمهم من قدامي رجال التعليم حين يزورونني فى الفصل يضيقون بما يخالون من اهمالى وقلة بضاعتى من العربية ٠ حتى ان أحدهم كتب فى تقريره عنى اننى لا أصلح للتدريس ٠٠ فقد كنا ، السادة المفتشون وأنا ننتمى الى مدرستين مختلفتين ، هم من أبناء دار العلوم القديمة وأنا من أبناء كلية الآداب ٠٠ وكان مما يهون على الأمر عندئذ صحبتى لمجموعة مدرسى اللغة العربية في ما بين الحصص ٠٠٠٠ وكان حديثنا المرح يتنقل بين أفانين من القول ٠٠ وكان سمرنا الليلى فى ذلك الزمان ، وقد أصبحنا جميعا معلمين فى المدارس فى نادى المعلمين بميدان الأوبرا ، وهنـــاك تعرفنا ، وهنا أظن الأوان قد حان ان أقدم اليك مجموعتنا بأسمائهـــا وبما جرت به عليها أحوال الزمان ٠ كانت هذه المجموعة التى عرفت فيما بعد بالجمعية الأدبية المصرية مكونة من فاروق خورشيد الروائى دارس التراث الشعبى العربى ، عز الدين اسماعيل الناقد ووكيل كلية آداب عين شمس فيما بعد ، وعبد الغفار مكاوى القصاص الفيلسوف المترجم ، عبد الرحمن فهمى الكاتب القصاص السينارست ، وكان فى ذلك الوقت موسيقيا أيضا ، وأحمد كمال زكى الشاعر الناقد ٠٠ وها أنت ذا ترى ان ثلاثة تدكتروا وصـــاروا أكاديميين وثلاثة اختاروا ان يكونوا كتـــابا لا يحملون الا شهادة لا اله الا الله وشهادة الليسانس ٠

وتعرفنا فى نادى المعلمين بأستاذ كريم وكان معلما رفيع القدر ، وأديبا عالى الصيت ، وهو المرحوم محمد فريد أبو حديد ورعانا أبو حديد وضمنا تحت جناحيه الوارفين ولعله هو الذى أصلح ما بينى وبين وزارة التربية والتعليم التى كان هو وكيلها ثم مستشارها الفنى حتى فارقت

هذه الوزارة لا آسفا ولا مأسوفا عليه باستقالتى منها فى أكتوبر ١٩٥٧ ، أى بعد ست سنوات من العناء الذى لا يهون من أمره الا قليلا من المرح العابر » .

هذا ما كتبه صلاح بمتابعته .. وانى أتوقف عنده لا لأثبت فقط ان عناء هذه المرحلة لم يكن بالعناء الوجودى ، الذى ألم بحياته حتى أفضى الى كتابة مأساة الحلاج .. ثم وفاته كمدا .. بل لأتوصل الى بداية هذا العناء متكئة على جمل مما سبق أن ذكرهم سلفا وهى : (وها أنت ذا ترى ان ثلاثة منا تدكتروا وصاروا أكاديميين ، وثلاثة اختاروا ان يكونوا كتابا لا يحملون الا شهادة لا اله الا الله) وشهادة الليسانس ، ثم الجمل التى وصف بهما صنيعة محمد فريد أبو حديد وكيف أصلح ما بينه وبين وزارة التربية حتى فارق هذه الوزارة باستقالته منها فى أكتوبر ١٩٥٧ .

وأتوقف عند استقالته عام ٥٧ .. لأقول اننى تعرفت على صلاح فى بوفيه كلية الآداب سنة ١٩٥٨ .. اثر نشر مراجعتى له فى بريد القراء بمجلة الآداب البيروتية . وكان متزوجا حديثا من الصحفية نبيلة ياسين (التى كانت تعمل بمجلة البوليس .. ثم أصبحت مقدمة برامج وكاتبة سيناريو بالتليفزيون رحمها الله) وقد صـــار شاعرا لامعا .. وكاتبا بمجلة روزاليوسف حيث زرته بعد ذلك فى موقعها القديم بشارع محمد سعيد (حسين حجازى) الآن .. بدليل انى بدأت مراجعته الوجلة بـ « فاذا لم يستطع الشاعر العظيم ان يعرف ما هو الشعر .. فمن اذن يستطع » .. فهل كان شاعرا كبيرا وهو ما زال معلما .. وصحفيا أيضا ؟ ان هذا يدل على انه صاحب طاقة كبيرة مع شاعرية فياضة حقا .

لقد ذكر صلاح فى نفس المتتابعات ان الأستاذ أحمد أمين بتوصية من الأستاذ فريد أبو حديد .. عهد بتحرير مجلة الثقافة ـ التى يملكانها ـ الى صلاح وصحبه ، حيث كتب صلاح : وهكذا أصبحنا بين أغسطس ٥٢ ، فبراير ١٩٥٣ مسئولين ، ونحن فى أوائل عشريناتنا عن مجلة الثقافة ، نجمع مادتها ، ونرتبها ونعد رسومهـا ، ونكتبها . بل ونرمى حروفها أحيانا ، ونبيع بعض أعدادها أحيانا أخرى ، وأذكر اننى كتبت فى هذه الفترة قصتين قصـيرتين .. قد تستهوى قراءتهما الباحث فى تاريخى الأدبى ان كان لى تاريخ ، كما نشرت فيهـــا أول قصيدة لى فى الشكل الشعرى الجديد وهى قصيدة (أبى) .

ولا شك ان عمله فى تلك المرحلة المبكرة من العمر بجانب شاعريته اللامعة ... كانا سببا فى لفت أنظار الكثيرين اليه . وهنا أتذكر ما سبق ان حدثنا به من أنه دلف الى الصـــحافة من باب نشر قصيدته (شنق زهران) .. وليس قصيدته (أبى) وهذا يدل انه قفز فوق مرحلة أكملها

بالرجوع الى جملته الثانية التى قال فيها عن محمد فريد أبو حديد : « ولعله هو الذى أصلح ما بينى وبين وزارة التربية والتعليم » ذلك ان أبا حديد عندما أصلح بينه وبين وزارة التربية قد جعله مدرسا للعربية بالمدرسة الألمانية بالزمالك ٠٠ فقد قال لى صـــلاح ٠٠ انه ذهب يوما ـ الى هذه المدرسة ـ متأخرا خمس دقائق فجاءه لفت نظر ادارى وخصم ، فانتظم بعدها فترة وفى يوم لاحت عينه الى ساعته وهو على أهبة الدخول للمدرسة ٠ فعرف انه تأخر نصف ساعة ٠٠ فولى ظهره لها ٠٠ ثم استقال بعدها ٠٠ مما يدل على ان سيف الوقت المرفوع فوق حرية صلاح كان السبب الذى حال بينه وبين مواصلة التدريس ـ كما سيكون حائلا بينه وبين اتمام الدكتوراه التى سخر من حامليها ٠٠ وهى التعبير الساخر الوحيد الذى أتى تحت سن قلمه وهو يكتب آخر أعماله ٠٠ وهذا يستدعى منى الترتيب لشرحه ٠٠ ذلك ان صلاحا هذا الصابر الصـــامت دائما المتواضع على طول حياته ، نعم فقد عرفت صلاحا خجولا يكاد يتوارى عن الأنظار حتى لو كانت الأمسية الشعرية قد أقيمت له ٠ بل انه عندما يقرأ شعره يكاد يطمس بريقه درءا للتهليل والتكبير ٠٠٠ وانه لا يرفع قامته الفكرية سخرية وحبـا الى فى وقتين ، وقت تواجده وسط خلصائه فى الجمعية الأدبية ـ الذى سخر من دكترة بعضهم ٠٠ والوقت الثانى عندما يختلى بشعره كتابة ومراجعه ٠٠ كان لا يعترف بتاج الا الشعر والكلمة ٠٠ ويوما أقنعته زوجته سميحة غالب أم ابنتيه مى ومعتزة ٠٠ ان يعد رسالة دكتوراه ٠٠٠٠٠ فسخر كثيرا وامتثل أخيرا ٠

ولما كان عليه قبل اعداد الرسالة ان يمر بدبلومين فقد تلكأ ان يعود الى مقاعد الدرس ٠٠ فاصطحبته زوجته ودفعته دفعا لدخول الكلية وعرفت بعد ذلك من زميلى الدكتـــور محمود الشريف (الأستاذ الآن بجامعة قطر) وكان من طلبة هذا الدبلوم ٠ ان الدكتورة سهير القلماوى دخلت عليهـــم قاعة الدرس ، وبدلا من ان تجلس للمحاضرة وجـــدوها تزف لهم ان الشاعر صلاح عبد الصبور سيكون بعد لحظات زميلا لهم ٠٠ ودخل صلاح على استحياء ، وأخذت زوجته فى كل أوقات المحاضرات تحسه على الذهاب لأن للدبلوم نسبة غياب ٠٠ ويوما فيوم وهنت قدرته على الانتظام فانقطع عن الذهاب ـ لاسيما انه وجد دراسات أدبية كثيرة عن شعره بدأت تقدم للجامعات لنيل الماجستير أو الدكتوراه ليس فى مصر وحدها ٠

الشعراء الميتافيزقيون

انقطاع صلاح اذن يؤكد كراهيته للألقاب ٠ أما الدراسة نفسها فلا ، لأن صلاحا لم يكن شاعرا فقط ولا مسرحيا فحسب ٠ بل كان مثلا فريدا فى مثقفى العرب ٠٠٠ ولا يقتصر الأمر وحده على العربية وإنما هناك جانب

آخر من المسألة وهى شغفه بتعليم اللغات فقد انتظم باختياره فى الحصول على دبلوم الانجليزية من الجامعة الأمريكية ، وبعدها الفرنسية من المعهد الفرنسى وحاول كذلك بمعهد جوته الألمانى ويوم انقطع عن دراسة الألمانية بعد أن انقطع للتدريس فى المدارس الألمانية فقد قال لنا لقد اكتشفت ان الانجليزية وجدت لكى يكلم الانسـان بهـا سائقه والفرنسية ليكلم بها حبيبته أما الألمانية فليتكلم بها مع حصانه .. وبما انى فارس قديم لا يحتاج لحصان .. فمن باب أولى الا أتعلم لغته .

وهو وان انقطع عن اجادة الألمانية فهو لم ينقطع عن الثقافة الألمانية فقد أثبت فى متتابعاته أو كشف حسابه مع الزمن انه اذا كان الدكتور بدر الديب قد قرأ معه ت س اليوت فان صديقه الدكتور عبد الغفار مكاوى هو الذى حدثه عن مجموعات من الشعر الأوربى ، وكان أولهما مجموعة مترجمة الى الانجليزية من شعر الألمانى ربرترماريا ريلكه شاعر رومانتيكية أوائل القرن العشرين .

ويضيف صلاح : « وكما يحدث فى الحياة ان يقودك صديق ، كذلك يقودك الأدباء الذين تقرأ لهم الى أصدقائك الجدد ، ومن قراءة اليوت وشعره ونقده ، عرفت من يحبهم من شعراء الميتافيزيقية الانجليزية) .

أما أوقاته السعيدة الأخرى - التى نريد ان نلمح اليها قبل ان نخوض معه معترك الصحافة - والتى كان يقضيها وسـط خلصائه فى الجمعية االأدبية فسنراه وسطهم يوم حصل على جائزة الدولة التشجيعية عن مسرحيته الحلاج حيث قام صديقـه فاروق خورشـيد .. يتحدث عنه فقال : من المعروف ان التاريخ الشعرى لصلاح تاريخ لاحتضان مجلة الآداب البيروتية للشعر الحديث والتى نحتت صورة صادقة للشعر الحر ، باحتضان باقة من شعرائه من كل أرجاء العالم العربى بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتى ونازك الملائكة من العراق ونزار قبانى وأدونيس من دمشق وخليل حاوى ويوسف الخال من لبنان وغيرهم كثير ، ولقد ولدت دواوين صلاح الثلاثة الأول فى الغربة : -

(الناس فى بلادى) ، « وأقول لكم » ، « أحلام الفارس القديم » ثم مسرحية الحلاج من بعدها .

وقد تطور صلاح عبر الناس فى بلادى الى الحلاج كثيرا .. لقد بدا جميلا منه ان يكتب قصيدة غنائية يعبر فيها عن آلام شعبه « الناس فى بلادى » وجميلا أكثر ان يفلسف فيها الحياة (أقول لكم ، وان يخرج من ثوب المغنى الى ثوب المعلم فيكون الديوان الثالث « أحلام الفـارس القديم » ثم تتبلور الدراما الى أن تكون مسرحا فيه تخطيط ودراسة وتمهيد ضخم ، فالدراما تستند الى ثقافة لا يمكن ان نطلبها من شاعر .. فوصوله

الى هذه المسرحية هو لحظة الخروج من الطفولة الى الرجولة ، فالمسرحية كالرواية ·· هى عمل النضج ·· ان صلاحا أخذ على نفسه بالمعاناة من أجل التعبير الصادق والعناية بالتراث الأدبى ، فجاء عمله جامعا بين الشعر والدراما ·· ان الحلاج تعلن هنا ان المسرحية الشعرية مسرح أولا ثم شعر ثانيا ·· بعد ان كان المسرح من شوقى الى عزيز أباظة الى الشرقاوى فى بعض فصول مسرحياته ·· شعرا أولا ثم دراما ثانيا · وربما كان السبب فى هذا انهم كانوا شعراء قبل أن يكونوا مسرحيين ·

وبالرغم من أن هذه المسرحية بداية دخول مجال جديد للمسرحية الشعرية ، فانه قد حدث بشأنها مناورات فى كواليس لجنة جائزة الدولة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، وكان من الممكن أن تتأخر لتحصل على جائزة تشجيعية تختصه بها « مجلة الآداب » · ولكن الضمير الأدبى للجنة تيقظ فى آخر لحظة فأخذت جائزة المسرح مع مسرحية الفريد فرج (حلاق بغداد) بعد ان حجبت جائزة الكتابة للأطفال) · وان كانت مؤسسة المسرح لم يشعر ضميرها الأدبى بعد بخطيئتها فى عدم تمثيل هذه المسرحية ·· فان « مأساة الحلاج » سيكتب لها ان تمثل على مسارح بيروت اذا أنشأ الدكتور سهيل ادريس مسرحا » (١) ·

وبعد هذه المداعبات الساخرة ، تكلم الدكتور شكرى عياد وكيل كلية الآداب السابق ـ بعد أن انضم كراع للجمعية الأدبية فقال فى كلمة رقيقة موجزة : « الحقيقة أن تعثر هذه المسرحية راجع الى أن العمل الجيد دائما فيه جدة ·· والجديد من عادته أن لا يتقبل بسهولة ·· ولكن رغم ذلك يفوز أخيرا ·· وربما كان عدم التقبل الأول أفعل فى القبول (اللاحق) فمسرحية الحلاج فيها من الجدة الكثير ·· فهى تطوير طبيعى وجميل نحو الغناء المسرحى ·· ثم أشار الى أن المسرح اليونانى قد سبق بشعر غنائى » ·

ثم قرأ الدكتور النويهى (وهو من المنتسبين للجمعية الأدبية) ، ترجمته الانجليزية لقصيدة صلاح (أغنية فى فيناء) وقال : انه وجد مشقة فى ترجمتها · فآمن ان الشعر هو ذلك الشىء الذى يترك عند الترجمة ، ومع ذلك فقد ذكر ان أساتذة جامعة « فولبرايت » أعجبوا بها عندما اطلعوا عليها وقالوا : ان الشعر الأصيل الجيد يبقى شىء منه بعد الترجمة » ·

---

(١) تيقظ الضمير الاذاعى والمسرحى بعد ذلك فأخرجها الأستاذ بهاء طاهر للبرنامج الثانى : (الثقافى) ، وقدمت على مسرح دار الأوبرا (القديم طبعا) · اخراج الأستاذ سمير العصفورى ·· مدير مسرح الطليعة الآن ، ١٩٦٨/١٩٦٩ ·

ودعا المحتفون المحتفى به للكلام ، فتكلم صلاح عن تجربته المسرحية فقال : « لم أحاول في الحلاج أن يكون تطور الشعر فيها تطورا للشعر المسرحي العربي ، وليس انكارا ، فأنا قرأت شوقي وأباظة والشرقاوي ، انني راغب في تأصيل نفسي ، لذلك حاولت أن أذهب الى المنابع الأصيلة للشعر الكلاسيكي ·· لذلك فدين الحلاج لليونان أكثر من دين العرب ·· فأنا أعلم بعض الشيء عن نثر القرن العشرين ومسرح شكسبير وتعقد مواقف شخصياته ·· ولكنني أحترم المسرح الكلاسيكي عندما يقدم لنا خيطا واحدا يدخلنا الى المسرحية ، انه يركز لنا الشخصيات مرسومة بعناية ·· وعندما تنمو فنموها لا يجيء نموا شكليا ·· بل نموا فنيا ، وكل خلجة في الشخصية تسكب نفسها في وضوح على المسرح ·· وهذا هو فهمي للمسرح ، وهذا ما يجعلني أضيق بالمسرح الاجتماعي ، ومناقشة القضايا الكليــة وأميل الى تكثيف العواطف ، قد يكون في هذا اسراف ولكنه الواقع الحقيقي الذي يجب أن يعود اليه المسرح فمسرحية (انتيجونا) اليونانية ، الشخصية والموضوع محددان ، وقانون الله الذي يوصي بدفن الموتى أقوى من المرســوم الملكي الذي أصــدره (كريون) بعدم دفن (أوديب) الذي فعلته (انتيجونا) ·

ورغم هذا الاعتراف الصريح من صــلاح ·· فان عديدا من المقالات النقدية ، لـ · مأساة الحلاج « راحت وآبت لتثبت تأثـر صـلاح بالمسرح الكلاسيكي القديم منه والحديث نذكر منها على سبيل المثال مقال الأستاذ (فاضـل تامـر) المنشور في الآداب بالعدد التاسع أيلول سبتمبر تحت عنوان « عبد الصبور ومسرح اليوت ، بين مأساة الحلاج وجريمة قتل في الكاتدرائية » التي حاول فيها مضاهاة المتصــوف العراقي الحلاج · والأسقف توماس بيكيت مستشار هنري الثامن الذي عينه رئيسا للأساقفة ليحسم الصراع بين السلطة الزمنية التي يمثلها الملك وبين السلطة الدينية التي تمثلها الكنيسة ·· الا أن بيكيت سرعان ما تنكر للعرض وانضم في الصراع القائم الى الكنيسة واســتقال من منصب المستشــارية ورفض الاشتراك في تتويج ابن هنري الثامن : وعارض التشريعات الدستورية الجديدة · وجميع المحاولات الداعية الى تقليص نفوذ الكنيسة مفجرا بذلك الصراع بين الكنيسة والحكم » ·

ولكن الأستاذ (فاضــل تامر) عاد في آخر مقالته لينصف صلاحا فكتب : « وهكذا ينسدل الستار الأخير على مأساة الحلاج التي تكتسب خلاف مسرحية اليوت ، صفة الشمول والقدرة على الانسحاب على الواقع الانساني المعاصر ·· لأن الحلاج متصوف ثار لصالح الشعب المظلوم كله ضد السلطان الظالم الأمر الذي يحدث في كل زمـان ومكان ·· بعكس مسرحيــة اليوت التي تــكاد تنحصر ضمن اطارها التاريخي فقط ··

ولا يمكن أن تسقط ظلالها على واقع الانسان المعـاصر • ومن ثم فانهـا لاتحتل الا صرخة نجدة واهنة فى الدفاع عن قيم الكنيسة الانجليزية وعن امتيازاتها •• لذا فهى ذات دلالات محافظة لاتنسجم مع تطور الفكر والحضارة الانسانية بينما نجد مسرحية صلاح عبد الصبور تقف فى صف الانسان المناضل ، فى صف الفنان الذى يضع كلمـاته فى خدمة قضية شعبه العادلة •• لذا تغتنى بمضمون انسانى سليم يهديهـا القدرة على الحياة وتتواصل وتتجاوب مع مشكلات الانسان المعاصر عموما •

شـــنقه زهـران

لم يكن أمام صلاح •• بعد تقديم استقالته من المدرسة الألمانيـة الا أن يولى وجهه شطر الصحافة •• لأن له فيها خبرة سابقة وأوتادا ثابتة •• فقد ذكر لى أنه يوم نشر قصيدته الملحمية « شنقه زهران » كان الشاعران المرتطمان كامل الشناوى والدكتور لويس عوض يبحثان عنه فى كل المقاهى والمنتديات التى يتردد عليهـا ليهنئاه ويخبراه بانه شاعر فحل وليتبنيا سويا موهبته الكبيرة •

اذا فنحن نستطيع القول بأن الفترة ما بين عام ٥٧ الى غروب شمس حياته •• وان كانت أخصب فترات حياته عطاء فى مجال الشعر ـ حيث اعتبر أبرز شاعر حر فى مصر •• ميتافيزيقى النزعة ـ الى جانب ترجمته لكثير من الأعمال الفنية ••• وكتاباته النقدية والسياسية التى تشهد بها المجموعة الكاملة لأعماله •• والجوائز التى استحقهـا •• والمؤتمـرات والندوات التى دعى اليها فى مشارق الأرض ومغاربها ، ودراسة اللغات التى اهتم بها •• والدراسات والبحوث التى كتبت عنه •• مع تنقله بين ابهاء المجلات والصحف ، وأروقة وزارة الثقافة التى أصبح وكيلا لها ـ فقد كانت أيضا أصعب فترات حياته حيث واكبها كثير من الملابسـات والالتباسات •• التى استفحلت بسبب صمته ازاءها والتى صورها فى أول متتابعاته بقوله (اتقدم الآن نحو الخمسين ، ولو استطعت ان أولها ظهرى لأعود الى أيامى السابقة القديمة لفعلت ، فانا أحس بوطأة مقدمها وبينى وبينها سـنة أو بضـعة شهور ، فكيف لو سقطت فى هوتهـا مسلوب الحول) •

والحق أن احساس صلاح بوطأة هذه الفترة •• تعود الى أسباب عدة ، منها ماهو ذاتى لا دخـل للآخرين فيه •• ومنها ما هو غيرى •• يسأل عنه الآخر ••

يتعلق ما هو ذاتى •• باقترابه كعبقرى من دائرة النار مرة أو مرات فى حياته ـ ذلك الاقتراب الذى أذهله عن ذاته •• بحيث انه عندما عاد بعد هذا الاغتراب المخيف الى عالمه العادى ظلت هذه الأقباس التى حازها

مشتعلة فى نفسه بل وانعكست على رؤيته للحياة · وعلى تصرفاته اليومية العادية ·· أو كما عبر هو : « ولن يستطيع شاعر وصل الى قلب دائرة اليأس العميق أن يبتسم بعد ذلك » ·

والدليل على أن صلاحا وصل انى قلب دائرة اليأس العميق الذى لم يبتسم بعده ·· هو تحسره على الفترة التى سبقتها ·· اذ كتب : (آه لنا عندما نحلم بعودة الزمن المفقود ·· أين هو الزمن الذى كنا نستطيع فيه أن نعانق أجمل الأفكار ، وأصبا الأمانى ، وأكثر الكتب اغراء واغواء ·· أسأل نفسى أحيانا لماذا لم أكتب بعض كلماتى المجنونة الباعثة على الجنون حين كنت ممتلئا بها) ·

حكى لى الدكتور عبد الغفار مكاوى عن كيفية تعرفه بصلاح فى هذه المرحلة من جنونه ـ قال كنت متأهبا للصعود الى مكتبة جامعة فؤاد ·· فشاهدت طالبا على سلمها وقد وقف وكأنه تمثال على قاعدته ·· يتحلقه مريدوه وعارفوه وهو يقول أنا « اللات » و « العزى » معا ·· فأعجبت به ·· وصادقته ·· بل وآثرت أن يسكن معى ولم أكن أتوانى عن مساعدته فى أبسط أحواله المعيشية ·· ويردف الدكتور عبد الغفار ·· انه لم يشهد طالبا فى الكلية خلف ظهوره دويا كذلك الذى خلفه ظهور الطالب محمد صلاح الدين عبد الصبور ·· ان تفتح شبابه توهج من أعماق احساسه بأنه انسان يحمل رسالة الارتقاء بالشعر حتى يبلغ بتأثيره أعمال النفس البشرية ·

أما أنا فقد كانت زيارتى الأولى لصلاح بمكتبه بمجلة روز اليوسف · لأسلم ومن معه فى الغرفة ثلاثة نسخ من ديوان الشاعر السودانى صلاح محمد صالح (غابة الأبنوس) واحدة لصلاح والآخرتين لزميله الأستاذ رجاء النقاش وكان قد ترك القسم الأدبى بمجلة الاذاعة لتوه والأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ـ وكان قد حضر الى القاهرة من بلدته (تلا) وعينه صلاح بالمجلة·· واحتضنه رجاء فى بيته حتى يعرف طريقه فى المدينة ·· وكنت أتعجب كيف يمتثل هؤلاء المشاهير لعمل التجويد ·· رغم أن صلاحا صار وقتها رئيسا للقسم الأدبى فى الدار وكاتب افتتاحياتها السياسية فى كثير من الأوقات ·· وقد عرفت من الأصدقاء أن صلاحا فى هذه المرحلة من حياته قد غازل الفكر الماركسى ·· ثم ما لبث ان انسحب حفاظا على فرديته ··وكلنا يعرف ما يكابده الخارج عن هذه الجماعة · فى ذلك الوقت ·· بعد ذلك حط به المقام بجريدة الأهرام ·· وظل فيها شهورا يتقاضى مكافأة أى دون مرتب معلوم ـ لأن هيكلا لم يكن قد حدد بعد المرتب الذى يستحقه علم أدبى مثل صلاح ·

فى هذه الأثناء اتصل الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة ـ فى حينها بصلاح ليوكل له الاشراف على ادارة التأليف والنشر ·· فقبل ··

وبسبب هذا القبول من صلاح ·· أصدر هيكل للعاملين فى الأهرام أمرا الا تنشر لصلاح قصيدة أو مقال أو خبر عنه مهما كان ، اذ كيف يقبل صلاح منصبا فى وزارة الثقافة ·· ويترك هيكلا والأهرام ·

ظل صلاح فى وزارة الثقافة ·· يتسلم فيها مكافأة وليس مرتبا ·· وهنا حثته زوجته وأيدتها ·· فى ان يخرج من سلبيته يوما ويطالب أن يعين على درجة ·· فيعادلوه بأقرانه فى السن والتخرج فى أى وزارة وبشق الأنفس فعل صلاح ·· فكان له ما أراد : ولأن وزارة الثقافة هذه كانت وزارة قلقه غير مستقرة ·· أوقات تنفصل بذاتها ويكون لها وزير · وأخرى تنضم الى وزارة الاعلام ويكون وزيرهما واحدا ·· وكان كل وزير قادم يغير موظفيها فقد زاد اللغط والحقد واللجاج على صلاح هذا القادم من الصحافة ·· وزاد هذا وذاك عام ٧٥ ·· حين أضيف لمنصبه تحرير مجلة (الكاتب) ذلك الأمر الذى قبله على مضض ـ حتى أن اسمه لم يتصدرها بعد أن استقال أو أقيل منها الأستاذ أحمد عباس صالح فانهال على صلاح السخط والحقد من كل صوب سواء من التقدميين أو المحافظين ·· رغم أن صلاحا لم يكن له فى ذلك أى ذنب ·· لأنه حتى لو كان رفضها فقد كان غيره سيقبلها ·· فقالوا ان هذا الموقف هو أحد المسامير · فى نعش صلاح الفكرى · قالوا وقالوا حتى طغى قولهم على ما قاله مالك فى الخمر ·· وصلاح صامت لايدخل فى جدل أو يحمل الحقد لأحد ·· فرئاسة تحرير مجلة لم تكن بالنسبة له حلما أو مطمحا · وأتذكر أنه يوم ترك الأستاذ أحمد بهاء الدين الكتابة فى مجلة روز اليوسف ورئاسته تحرير صباح الخير عام ١٩٥٥ الى جريدة الشعب ـ أى بفارق عشرين سنة بين الحدثين انحصرت رئاستها اما فى صلاح عبد الصبور أو كامل زهيرى ·· فأخذ كامل يستقطب الكتاب من حوله ويجاملهم ليحوذ رضاهم برئاسته ·· وصلاح غير عابئ بهذا المنصب أو غيره الى أن جاء يوم عرف كل من فى الدار ان الرئيس الجديد ليس منهما ·· بل من خارج المرشحين ممثلا فى فتحى غانم ·

وقد دل أول مقال كتبه صلاح فى مجلة الكاتب ·· عما عاناه فى تلك الفترة حيث كان يدور حول شاعر ظلمه زمانه ·· تحت عنوان : (تصفية حسابات اللورد بايرون) ويستعرض فيه مراحل تلطخ حياة بايرون بالجريمة والعشق الى أن توفرت ناقدة لأعماله وحياته حيث فندت حقيقية وخلصت منها بقولها : لقد كنا جميعا مخطئين فى تقديرنا للورد بايرون الذى كان بلا نظير ، لقد كان أفضل الرجال وأقلهم أنانية ، وانى لأخول اننى لم أعرف انسانا لا يعد وحشا مفترسا بالمقارنة له ·

ولأن سوء فهم مواقف صلاح استمر معه الى آخر العمر · فقد استمرت سمة رفع الالتباس عن المظلومين الى آخر ما كتبه وهى متتابعاته

على مشارف الخمسين حيث يحدثنـا عن كيف تغيرت الحياة فى ناظرى محمود حسن اسماعيل بعد ١٩٥٢ · وبخاصة وقد نقلته الحكومة الجديدة من عمله بالاذاعة الى التدريس وهو عبء لم تطقه روحه القلقة ·· تنكيلا به لاصداره ديوانا عن الملك فاروق ·· ذلك الديوان تعس الحظ الذى لم يطبع الا طبعته الأولى ·· بل ان محمودا نفسه كما قال صلاح :

« كان يفزع لذكر ذلك الديوان كأنه ثمرة خطيئة قديمة » ·

ثم يردف « والواقع أن شعر محمود حسن اسماعيل فى الملك نمط من أروع الشعر فهو ليس شعر مناسبة واستجداء فلم ينل محمود من الملك شيئا يذكر كما حدثنى فيما بعد ، ولكن هذا الشعر شعر محبة فلقد خيل لمحمود ذات يوم أنه جدير بأن يقف من فاروق موقف المتنبى من سيف الدولة ، وخيل له وعيه السياسى المحدود أن الحياة لابد أن يكون فيها ملك وشاعر ، وان ما هو غير ذلك هباء وهواء · ولعل مما ساعد « محمود » على هذا التصور أمران ، أولهما أنه نشـأ فى ظل التراث العربى ، وكان أقرب الشعراء اليه هما المتنبى وأبو تمام وكلاهما من كبار الشعراء وكبار المداحين ، وثانيهما ان محمود حسن اسماعيل كان يلوذ فى مطلع شبابه بزعيم الأحرار الدستوريين فى مصر محمد محمود صاحب القبضه الحديدية وهو سليل أسرة من أعرق الأسر المصرية · وهو أيضا الخصم الأول لمصطفى النحاس زعيم الوفد ·

ولقد قاده حبه لمحمد محمود باشا الى مدح فاروق · ولم يكن مدحا بما جرت به العادة عند أوساط الشعراء ، ولكنه مدح عالى القدر من الفن ملىء بالصور البيانية الرائعة ·· جليل الايقاعات والوشى الموسـيقى · ولم يستأثر (فاروق) فى هذا الديوان الا بثلاثين صفحة من صفحاته التى تجاوز المائتين أما بقيتهـا فهى حـديث شاعر يخلع على الطبيعة أثواب خياله ، ويتغنى بمواجده وأحزانه ، وهو الى ذلك يمتلك قدرة لا تطال على تكوين الصورة الشعرية ولم عناصرها على غير ما ألف جيله من الشعراء حتى ليكاد يصدق فيه ما قيل عن أبى تمام من أنه قد تجاوز عمود الشعر التقليدى الى عمود شعرى جديد ·

انصاف النفس من البيوت

ومن الشعراء الذين أنصفهم صـلاح من نقادهم صديقه الشاعر ابراهيم ناجى فحين قال الدكتور طه حسين عن ديوانه الأول سنة ١٩٣٤ : « هو شـاعر حب رقيق ولكن ليس مسرفا فى العمق ، ولا مسرفا فـى السعة ، ولا مسرفا فى الحب الذى يحرق القلوب تحريقا ويمزق النفوس تمزيقا ، شعره أشبه بما تسميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التى تذهب بك كل مذهب ، وتهيم بك فيما تعرف وما لاتعرف من أجواء » ·

وقال فيـــه العقـــاد : (انه شـــعر الضعف المريض والتصنيع والرخاوة) • بينما كان تعليق صلاح : ولعل هذا الحديث عن ناجي يقودني الى القول ان الشعراء يجب أن يعصموا أنفسهم من النقاد ، فليس ألزم للشاعر من كلمة سقراط القديمة (اعرف نفسك) ، وليس الشعر دربا واحدا يمضي فيه الشعراء شاعرا أثر شاعر ، ولكن دروبا عدة ومسالك متباينـــة •

وبهذا الفهم وحده ، يكون ناجى هو أرق العاشقين وأصدقهم فى عصرنا الحديث •

ومن الشعراء الذين أنصفهم صلاح كما أنصف نفسه منه ت • س • اليوت حيث بدأ دفاعه عنه من مقولة ستيفن سبندر — ان اليوت جمع بين ضدين أولهما الطابع الروحى السلبى لعالمنا المعاصر ، وثانيهما الطابع الروحى الايجابى للتقليد الذوقى فى العالم القديم • فرد عليه صلاح قائلا وانى لأرى الآن بعد مرور الزمان أن اليوت لم يكن هروبيا ولا رجعيا •• فلم يكن اتكاء اليوت على الماضى الا رغبة فى عرض الحاضر بفقره الروحى عليه •• لكى يكون ذلك دافعـــا لأبناء الحاضر أن يتجاوزوا املاقهـــم الروحى والفكرى •

أما انصاف نفسه من اليوت •• فقد أنهى متتابعاته فكتب يقول : « ولقد شغل كثير من النقاد بالمقارنة بين مسرحية اليوت الشعرية (جريمة قتل فى الكاتدرائية) وبين مسرحيتى (مأســاة الحلاج) حتى غدا هذا الموضوع أحد الموضوعات الرئيسية فى الأدب المقـــارن فى جامعاتنـــــا العربيـــة •

وقد يفزع غيرى لهذا الموضوع ، ففيه اتهام بالمحاكاة أو السرقة مما ينفى أصالة الشاعر • ولكن رجلا مثلى قرأ نظرية اليوت فى الموروث الأدبى لابد أنه قد نقد هذه الحساسية المريضة ، فليس التراث الا حلقات ممتدة منها لاحق من سابق ، ومتعلم من معلم •••

ولعل أكبر أثر لاليوت فى تفكيرى هو أثره كناقد ، فهو اذا طعن بعض رصفائه فى شاعريته •• مثل روبرت جريفز الذى كتب عنـه اسوأ مايكتب ، هو ناقد مجمع على ثقافته ونفاذ فكره وعمق حاسته • ومن المستطاع بلا شك أن يضاف اسمه الى أســـماء النقاد الكبار أصحاب النظريات النقدية ، مثل أرسطو ولسنج وكولردج — وريتشـــــاردز وغيرهم •

« ولكن هذا حديث متعجل ، فلنتمهل له ولأمثاله قليلا فى اطلالة قادمة » • ولما لم يكن هناك اطلالة قادمة •• ذلك ان هذه المقـالة هى

آخر ما خطته يداه ٠٠ فاننا نلمح الى أن انصاف صلاح نفسه من اليوت لم يكن مجرد كلام فقط ٠٠ حيث أيده بترجمة مسرحية « جريمة قتل فى الكاتدرائية » بالذات لسلسلة المسرح العالمى التى تصدرها الكويت ، حتى يتأكد من لا يجيد الانجليزية وجه التشابه بينهما والاختلاف ٠٠ ولأن ترجمة اليوت كمفكر فقط وفيلسوف عصيبة ، فما بالنا بترجمة مسرحية الكلاسيكى الجديد ؟ ٠

الترجمة والذبحة الصدرية

أرهق صلاح فى هذه الترجمة لأنه بذل الكثير من جهـــده وراحته فجعل صلاح بجانب أوضاعه وجيله معه ـ هدفا للذبحة الصدرية اللعينة التى أودت بحياته لتداخلها مع ظروف المبادرة والتطبيع ٠

ورغم أن صلاحا قبل وفاته كان قد عرف أن سلسلة المسرح العالمى قد أدرجت المسرحية فيما سينشر عام ٨٢ ٠٠ الا أنه فى مرضه قد أرسل وبالحاح خطابا الى المجلس يرجوه بصرف مردودها ٠

ولما كان توقيع صلاح الذى كتبه فى مرضه للمرحوم حسين اللبودى ـ سكرتير التحرير ، غير مضاه للتوقيعات السابقة لصلاح وهو معاف ٠٠ فقد بذل الأستاذ حسين اللبودى جهودا مضنية فى دهاليز وزارة الاعلام وملفات المجلس الوطنى حتى عثر على توقيع سابق لصلاح مشابه لتوقيع توكيله الأخير ٠ فأرفقهما بها ٠٠ وحصـــل على الأجـر وأرسله لصلاح ، وتلك من مصـــادفات الحيـــاة التى واجهت المغفـــور له ـ الثالث ـ فـوزى العنتيـل ٠

وقد يتعجب القارىء لالحاح صلاح بطلب أجره ٠٠ فنقول للعلم ٠٠ ان صلاحا لم يدخر مليما واحدا فى البنك ٠ رغم أن لديه زوجة وابنتين ٠٠ ذلك ان صلاحا الى جانب علمه الغزير المتدفق وقدراته الابداعية المبكرة ، واحساسه المرهق بكل همسة جمال وادراكه العميق للروح التى تملى على الفنان ما يقدم ، كان الى جانب ذلك سخيا كريما بين صفات الانسان فيه يمتثل لرغبات أسرته وأصدقائه فى كل مايشغفون ٠٠ فقد كانت كل نزهاتنا أصدقائه ومريديه من جيبه الخاص ارتفع ثمنها أو انخفض ٠٠ فعاش مفلسا دائما ٠ ولم تتغير هذه الصفة فيه منذ بدأ يصعد ســـلم المجد ٠٠ واذا عدنا الى شعره وجدنا تسجيلا لذلك لاسيما فى قصيدته الحب أتذكرها لأنها نشرت فى عدد الآداب الذى راجعته فيه حيث يقول :

حملت الحب للمحبـــوب ثم دنوت من قلبـــه
وقلت له ٠ أتيتك ٠٠ لاكبر النفس لاتيـــــاه
ولا فى الكم جوهـرة ، ولا فى الصـــدر وشحت
ولكنـــى انســـان فقير الجيب والفطنـــه

ومثـل الناس أبحث عن طعامى فى فجاج الأرض
وعـن كوخ وانســـان ليستر ما تعـــريت
وحين أدار لى وجهـــا شريف اللمح والصـــوره
تغنيـت ٠٠ تغنيـت

وعندما حصل صلاح على جائزة الدولة التشجيعية عن مسرحيتـــه مأساة الحلاج فقد بدا منه العجب والعجاب ٠٠ فى التصرف بمردودها ، لقد حصل منها صلاح على خمسمائة جنيه وهو مبلغ كبير سنة ١٩٦٧ ٠٠ ولكن لأنه ممن يصادقون الناس رغم خلاف الرأى بينه وبينهم ـ كما أكدت مقالة أدونيس فى تأبينه ـ فقد أولم بقيمة الجائزة ثلاث ولائم ـ لايصدق رغدها انسان ٠٠ أتذكر أن الدكتور عبد الغفار مكاوى يوم وليمته مع أصدقائه فى الجمعية الأدبية تساءل : هل هذا ديك رومى أم خروف خرافى ٠٠ فضحك الجميع ٠٠ ثم تبع هذه الوليمة وليمتان لأصدقاء صلاح الذين لايؤمنون معه ان الخلاف لايفسد للود قضية ٠٠ وقد صارت هذه الولائم بعد ذلك مثلا يتردد على الشفاه كدليل على المروءة والكرم لاسيما الكاتبه الصحفية صافيناز كاظم التى كانت تتندر بهذه الخصـــال فى المجالس والمنتديات الأدبية ٠

وعندما أتاه والده من الزقازيق للتهنئة ٠٠ همس فى اذن صلاح أنه عثر له على قطعة أرض يكفى مردود الجائزة ليكون مقدما لها ٠٠ فرد عليه صلاح بأنه أولم بها ثم استدان ٠٠ فغضب والده عليه وتركه عائدا الى الزقازيق ٠٠

وربما كان فى جوده الغامر واسرافه وافلاسه الدائم هذا مربط الفرس ٠٠ حيث أنه لم يستقل من منصبه لأنه ليس له مورد كمـــا أراد له من أسموا أصـــدقاءه الذين انصب كل هجـــومهم عليه وحـــده وهل كانوا سيكفلونه لو فعل ٠٠ هل كان صلاح هو المتاح لهم هجومه لشدة تواضعه وصمته الدائم عن التفاهات ٠٠ وهل اســتقالوا هم حتى يحذو حذوهم ٠ أم كان عليهم ايقاف ترقرق الدماء فى عروقه ليجرى فى عروقهم هم ٠٠ فهاهم اقتسموا ما تصـــورونه ثراءه المنصبى ٠٠ وها هم يتربعون على العروش فى ظل السلام والحداثة والابداع ٠

ان من استكثر تصرف الشاعر قالوا الكثير فهل أدركه من أحاط بالشاعر الفقيد ٠٠ رغم أن من بينهم شعراء ٠ حسبى أربعة شواهد أو مداخل لفهم الشاعر غابت عن ادراك جلاديه :

ـــ المرء يزعج الشـــاعر اذا طلب منـــه شيئا ليس بينه وبين الشعر وشيجة ، فهل كان فيما طالبوه به ٠ أو ما واجهوه به ٠ ظلال من

الشعر في زمن غير موات للشعر .. الشاعر فيه لائذ بصمته .. الا أن يموت .

— « ان كل وعي يخالف طبيعة الكائن يقلق الشاعر بل يحطمه » . فهل كان صلاح فيلسوفا أو رجـل دولة ؟ حتى يطالبوه بموقف لم يتخذوه هم .

— ان على الشاعر الا يكترث لأمور الدولة لأنه يقف دوما موقفا خاطئا ضد زمانه الذي يعيش منه » .

— ان الشاعر يدرك الكون بشعوره والشعور لايفهم الا طبيعة الأشياء ولوازمهـا .

لقد تعاكست الخيوط وتمزقت بين الشاعر ومن حوله وهكذا مات صلاح بعد عودته من الغربة .. فحق القول : « ان الشاعر غريب حتى وسط أصاقائه » . وقد أعاد موته الكاتب الساخر محمود السعدني الى أصدق مشاعره .. فكتب في غربته بجريدة السياسة الكويتية يقول :

« مات صلاح عبد الصبور ، مات الفارس القديم ، ولكن المأساة أنه مات بعد أن ماتت أحلامه .. ولقد كان الفارس القديم يحلم بأن يمتطى صهوة حصانه وان يمتشق حسامه وان يرفع صوته ضد الطغاة .

وأن يكون يوما نائبا عن التعساء في برلمان الأبدية : ولكن الحياة سارت عكس مايشتهى الفارس القديم . كبا حصـانه وانكسر سـلاحه والتوى لسانه وسكت عن الكلام الفصيح .. ولم يحتمل قلب الشـاعر الرقيق الانقلاب العنيف فانفجر فجأة .. وهكذا ودع صلاح عبد الصبور دنيانا وهو بعد على مشارف الخمسين : ولقد شعرت لحظة سماعى نبأ وفاته انني فقدت جزءا من نفسي .

أما الشاعر أدونيس فقد كتب في رثاء صلاح . « صلاح عبد الصبور وأنا من جيل واحد . بل من عمر واحد تقريبا ، ليس بيننا كتابة أو سياسة أو أي شيء مشترك .. ولكن كل شيء مع ذلك يؤلف بيننا . ففي لحظة الشعر خصوصا لحظة الموت ذلك الشعر الآخر ، يتمزق حجاب المغامرة ، حجاب الخصومة والتنافس والكراهية .

هل نحتاج دائما الى الموت لكي يوثق الصداقة ، ولكي يبقيها حارة كأنها لا تفارق المهد الذي نشأت فيه ؟ بل كأن الموت الذي يختلج الحياة هو نفسه الذي يعلمنا ان نحب الحياة وان نحب الحياة والشعر .

سلاما لصلاح عبد الصبور أخا وصديقا في الشعر .

هذا ما قاله كل من استوعب موت صلاح ٠٠ أما أنا التى لم يواتيها زمن فهم أجواء هذا الموت وظروفه وملابساته لعدم وجودى فى مصر انذاك٠٠ فاننى أشعر أن كل ما كتبته الآن عنه محض (خربشه) وان استحاله تصديقى لوفاته يمسك شديدا بقلمى ٠٠ فلا أستطيع أن أعبر عن ذكريانى عنه ٠٠ أو شهادتى الكاملة عنه ٠٠ أو الحساسية التى اندلعت بينه كرائد للشعر الحر فى مصر ٠٠ وبين رائد الرواية فيهما الأستاذ نجيب محفوظ متمثلة بما قاله صلاح عن معرفته الشخصية بتوفيق الحكيم : « أما ما دار بينه وبينى من حديث قليل أو كثير خلال عشرين عاما من المعرفة ، وما أحببت منه وما كرهت ، فذلك للزمان وطى الذكريات الخاصة » ٠٠ غير انى أستطيع القول بأمانة وتجرد أنه كان ملهما فى شعره ، مستشفا بوعى لكل ما حدث له ٠ لاسيما فى مسرحيته الحلاج ٠٠ التى وصفها بأنها خلاصة الشخصى ٠٠ فهى حقا ترجمة حرة لطبيعته ، وواقع وأصداء ٠٠ دلالة وأعماق ٠٠ لقد كان تعليق ابراهيم مريد الحلاج على رؤية صفية ٠٠

يامولاى ٠
فى عصر ملتاث ، قاس ، وضنين
لن يصنع ربى خارقة أو معجزة ، كى ينقذ جيلا من هلكى
قد ماتوا قبل الموت
وكانت رؤية الحلاج هى :
فستأتى آذان تتأمل اذ تسمع
تتحدر منها كلماتى فى القلب
وقلوب تصنع من ألفاظى قدرة
وتشد بها عصب الأذرع
ومواكب تمشى نحو النور ، ولا ترجع
الا أن تسقى بلعاب الشمس
روح الانسان المقهور الموجع

سـنـاء جمـيـل

.. أو عندما يكون سيزيف امرأة سعيدة

يرى الفيلسوف « البيركامو » أن الممثل ينحدر من سلالة بطل المحال سيزيف ·· صاحب الصخرة المتدحرجة الى أسفل يوميا ·· وقد تم لكامو هـذا الربط عنـدما اسـتبدل الصخرة بالدور المسرحى الذى يؤديه الممثل كل يوم ولا ييأس من ذلك بل يفرح ويسعد ·· ومن ثم فهو سيزيف الذى يظفر باعجاب الجماهير ·· ولا تلبث الشهرة التى نالها أن تعلو وتنتشر حتى تهبط وتتصاعد هباء تذروه الرياح ، انهما يعانيان تجربة الحياة كأعمق ما تكون وفى كل تجربة يذوقان طعم الفنـاء ·· ويتوج رأسيهما مجد يعرفان زواله ·

قد يتساءل المتتبع لمذكرات شاهدة ربع قرن ، هل كانت تلك الفترة من معايشتى خالية من الاقتراب من الفنانات أو اننى استبدلت منطقة ــ الهجر ــ خلالها بالبعد عن الكتابة عن النساء ·· رغم أن احداهن قد أملت مذكراتها بمجلة آخر ساعة ، وذكرت اسمى فى مناسبات عبر أحداث حياتها ؟

ورغم أن هناك بعض الأقوال النظرية تزعم أن صلة المرأة خـــارج بيتها بالرجل تكون أكثر من صلتها بالمرأة ، أما ما حدث معى فقد تم فى ظروف مختلفة ، ورغم أنى ابنة عالم أزهرى فان دخولى معهد الفنون المسرحية حتم على متابعة الحركة المسرحية ليلا لأن الدراسة كانت تتطلب ذلك ، وكان يصحبنى أخى يوســف الشريف الكاتب الصـحفى بمجـــلة

روز اليوسف يصحبني كما لو انه محرم وأصحبه في سهراته كمرافقه . وعلى الرغم من أن رغباتنا كانت متوافقة في الذهاب الى تلك المحافل والمنتديات ، الا أنها كانت متناقضة في الاياب ، نظرا لأن عمله ولقاءاته في عوالم الفن والسياسة كانت تتم ليلا ، فكان لا يستطيع أن يعيدني ليلا الى المنزل ثم يعود الى عارفيه ، مما جعله يشترط على أن أذهب معه الى حيث مشاغله واهتماماته فكان شرطه هذا مدخلى الى مجتمع الرجال ، ثم بعد ذلك توسعت دائرة معارفي فشملت الفن والأدب وسواء مع الرجال أو النساء ٠٠ ولا شك ان دور يوسف كان كما عصى البلياردو التي لمست الكرة الأولى لتلمس الثانية فتعود الى الثالثة والرابعة ، والى أن حقق هو هدف الكتابة عن ظرفاء هذا القرن وكانت البداية بالشاعر كامل الشناوي عام ١٩٨٠ رغم أنه كاتب سياسي ، تبعه عام ١٩٩٠ في مجلة روزاليوسف بالكتابة عن بقيتهم وراحليهم زكريا الحجاوي ، عبد الرحمن الخميسي ، عباس الأسواني ، جليل البندار ، الشيخ عبد الحميد قطامش ، الشاعر طاهر أبو فاشا وآخرين ٠ مع أني عزمت عن الكتابة عنهم الا انه كان الآسبق لأنه كان أعرف مني بهم ، ثم تمكنت أنا أيضا من الكتابة عن بعض مشاهير هذا القرن في عدة مقالات ، تناول كل مقال شخصية من هؤلاء المشاهير ، وانى أطلب المعذرة اذ كانت هذه المقالات افتقرت الى المنهج والى ترتيب السرد ، وهو ما يتطلبه الكتاب المتكامل وليس بمقال يحيط بشخصية من هذه الشخصيات ٠٠ وانى عازمة ان شاء الله أن أفعل ما فعل أخي بكتاب عن العلامة محمود محمد شاكر كخطوة أولى ٠٠

واذا كان ذلك يدل على أننا اخوة نهفو الى متلبس الفنون قبل الفنون ذاتها ٠٠ أي أننا نحتفي بالخاص قبل العام ٠٠ فان هذا لا يبعدنا عن القراءةوالاطلاع ٠٠ فان النور يأتي من خلال الحوار والمعايشة مع هؤلاء المعروفين ٠٠

ولقد كان أخي يوسف ٠٠ هو المحرك أيضا ـ الذي شبك معارفي القديمة وأوصلها بمعارف جديدة حتى بالنسبة لمجتمع الفنانات ٠٠ فأنا مثلا كنت أهيم من يوم أن وعيت بالممثلة المشهورة (كريمة مختار) بفعل أحداث الحياة ٠٠ ولكنها لم تكن قد احترفت فن التمثيل بالطبع ـ ولهذا قصة طويلة نأتي اليها في فرصة أخرى ـ وانما كانت زميلة لابنة عمي الكبرى في المدرسة الابتدائية ٠٠ وجارة لنا في السكن ثم انتقلت أسرتها الى آخر شارعنا ، ولما كان هذا مشوارا مطوحا بالنسبة لطفلة ٠٠ فقد اكتفيت بمشاهدتها لماما ، وتصرفت مع دخولي الى معهد

الفنون المسرحية بالممثلة الشاملة عايدة عبد الجواد . التى تجيد الفنون السبعة ببراعة لكنها لم تمثل الا مسرحيات قليلة على خشبة المسرح القومى أشهرها (بداية ونهاية) اعداد نثرى عن قصة نجيب محفوظ ثم (جميلة بوحريد) – الشعرية – لعبد الرحمن الشرقاوى .. ثم اعتزلت المسرح وقبعت خلف ميكرفون الاذاعة .. فقد أيقظت عايدة صداقتى بكريمة مختار بعد طول انقطاع فتعرفت فى منزلها على الممثلة سناء جميل، وكانت بين ثلاثتهم صداقة سرعان ما تفرقت من جراء اختلاف الأمزجة ، فرغم تميز كل واحدة منهن بميزة ، الا أن هذه الميزات جميعا مصبها مجال التمثيل وهو واحد .

ثريا يوسف

كانت معرفتى بسناء فى بيت كريمة اذا محض صدفة عابرة .. ولكن أخى يوسف هو من وضع لها أوتاد الصداقة ، فقد صادفها فى أحد مناسباته الصحفية فتجاذبا أطراف الحديث فذكر اسمى فأعطته سناء موعدا للقاء بها فى منزلها .

فرحت عندما أتانى أخى بميعاد هذا اللقاء ، فقد كنت معجبة بشخصيتها الفنية .. ولكن خاطر الصداقة معها كان غير كامل الأركان .. فقد كنت فى السنة الأولى من دراستى بالمعهد وكلية الحقوق عام ١٩٥٧ وهى سناء جميل الممثلة الاذاعية والمسرحية والسينمائية المشهورة – فلم يكن التليفزيون قد بث برامجه عام ١٩٦٠ وكانت أثناء ذلك قد تركت الأدوار الفرعية – فى السينما والمسرح وكذلك الأدوار الضاحكة مع فرقة « ساعة لقلبك » والتى كانت تبدؤها بعبارة (ألا لو .. ألا لا) فى دور الخوجايه كناية على اجادتها للغات الأجنبية بطلاقة . حيث قامت بأداء الأدوار الجادة فى دروب الفن استهلتها بمسرحية « زواج فيجاور » التى كتب الدكتور طه حسين عنها مقرظا .. فاحاطتها الأضواء واقتفى الصحفيون أثرها .. فعرف محبوها وأنا معهم قصة حياتها وكيف تركت (ثريا يوسف) بلدتها (ملوى) بالصعيد قادمة الى القاهرة بصحبة شقيقها وزوجته بعد أن فقدت والديها .. فالتحقت بمدرسة (الميرديه) وعلى مسرح هذه المدرسة اكتشفت ثريا موهبتها فى فن التمثيل .. فدلها العارفون على معهد التمثيل ، الذى كان جديدا فى هذا الوقت ، الا أنها لم تعلن ذلك خوفا من عائلتها المحافظة .. ولما كنا فى بلد لاتخفى فيه على الناس خافية ، فقد اكتشف شقيقها هذه الفضيحة ، فطردها من المنزل ، فى ليلة كانت القاهرة فيها تحترق يوم ٢٦ يناير سنة ٥٢ وتحترق أحلام الفتاة فى الاستقرار .. وكانت خلال وجودها بالمعهد تعرفت على بعض زملائها ، فاستطاعت أن تبيت ليلتها عند أحد

زملائها وهو سعيد أبو بكر وزوجته الأجنبية فمكنتها هذه الزوجة أن تعمل فى أحد بيوت الأزياء صباحا ٠٠ وتواصل دراستها بعده ـ فقد كان المعهد مسائيا ـ واستطاعت ثريا يوسف فى هذا المعهد أن تتعلم وتجيد العربية اجادة تامة ٠ ومن هذا الحماس والتقدم فقد لمح العميد ـ وكان زكى طليمات ـ على البعد ، أن أضواء الشهرة الفنية لابد أن توافى هذه الفتاة حقها يوما ٠ فاقترح عليها أن تغير اسمها من ثريا يوسف الى سناء جميل حتى يلحق الاسم الجديد بالمستقبل الآتى :

هكذا بدأت سناء مشوار الفن ، وليس من قبيل الدفاع عن صديقتى التأكيد أن هذه القصة التى سمعتها على لسانها وأوردت قرينات لها قصصا أخرى مشابهة عنها لم تكن أى منها مكررة وانما هى حقيقة مشرفة لها وواعدة بالعطاء كفيضـــان النيل كل عام ٠٠ ذلك ان مشـــارف الخمسينيات التى عاشتها سناء وما قبلها ٠٠ وكانت المنعطف الحقيقى فى تاريخ منطقتنا كما كانت السبيل لاكتناه معالم الدرب الذى سارت عليه مجتمعاتنـــا الحديثة بعد ذلك ٠٠ فهى مرحلة ما نسميها التحرر الوطنى والمواجهة العربية للنفوذ الأجنبى ٠٠ وكان تحرر المرأة العربية ودخولها ميدان الجامعات والعمل من بين هذه الموضـوعات ٠٠ حتى أن فن التمثيل قبل هذه المرحلة كان قاصرا على الرجال وهم القائمون بالأدوار النسائية ٠٠ ثم تدرج الأمر الى احتراف اليهوديات لفن التمثيل ، ولكن عندما طلب سعد زغلول من جورج أبيض بعد أن عاد من باريس ، أن يعنى بالتمثيل العـربى ٠٠ فألف فرقـة تمثيل بالعربيـة ابتـــدأت بتقديم مسرحيـة من فصـــل واحد كتبهـــا الشـــاعر حافظ ابراهيم ومثلتهـــا السيدة دولت أبيض زوجـــة جورج أبيض ـ وكان قيامهـــا بهذ الدور جديدا مايزال على المصريات ـ ودخل الحركة المسرحيـة بعده شـــوقى وتوفيق الحكيم ، فكتبوا مسرحيات طويلة ٠٠ ومازلنـــا نذكر مسرحية شـــوقى « الست هدى » التى قام فيهـــا بدور الست هدى الممثـــل الفذ فؤاد شفيق شـــقيق الممثل حسين رياض ٠٠ مما جعـــل الحكومة تهتم بهذا الفن فقامت بتأسيس الفرقة القومية سنة ١٩٣٠ ٠٠ فكان ظهور فكرة انشـــاء معهد التمثيل عـــام ١٩٣٤ ٠٠ ولما كانت الفتيـــات عازفات ـ بحكم التقاليد ـ عن الالتحاق به ، فقد تقرر لهن مقابل مادى كحافز :

كنت أعرف الكثير عن سناء وأشهد أنها وما زالت ٠٠ تنجح دائما فى اعطاء المسرحية كامل تأثيرها المأساوى أو (الكوميدى) ٠٠ فعندما تظهر فى المشهد المسرحى أو (الكادر)السينمائى تكون سيدتهما طيلة وجودها وظهورها ٠٠ لأنها عندما تمثل تكون قسمات وجهها المعبرة تختلج مع كل كلمة تنطقها ٠٠ يتبدى هذا أكثر فى الأدوار البالغة التعقيد كدورها فى مسرحية (بيت من زجاج) ذلك أن صوت سناء يحوى مختلف الطبقات ،

فهو يتراوح بين العذوبة الهامسة والحديث العادى ، وبين النداء الملتاع ٠٠ والصراخ المتفجر ٠٠ فكل كلمة تنطقها تحمل ذوب مشاعرها ووجدانها ٠٠ وبهذا جميعه تبهر الناس وتهزهم من الأعماق ٠٠ فيتعلق الجمهور بشفتيها وهى تبكى أو تضحك ٠٠ وكأنها تبكى أو تضحك بالفعل على مصير البشرية وليس الجمهور فقط ٠٠ حدث ذلك فى مسرحيـــة (سلطان الظــلام) لتولستوى ترجمة فتحى رضوان ٠ وفى المشاهد التى كانت تظهـــر بها سناء كان الناس يضحكون مع ضحكها الهستيرى والدموع تنســاب من عيونهم ٠٠ فحولت المسرحية من مأساة عاصفة الى كوميديا دامعة ٠

ونظرا لهذه الموهبـة فان سناء لم يكن يهمها أن يكون الدور الذى تقوم به دور فتــاة أو عجوز ، جميلة أو قبيحة ٠٠ كمــا يشترط بعض الممثلات ، كما لا يعنيها أن يكون الدور بطولة أو دورا ثانويا لأنها بقدراتها تستطيع أن تحول أى دور يسند اليها الى دور بطولة ٠

ان أداء سناء جميل فى أغلب أدوارها ٠٠ يذكر جمهورها المثقف الواعى بتلك المشاهد الآسرة ٠٠ التى طبعت فى مخيلته عن ممثلات العالم الأفذاذ (أنا منيانى) ، (جان مورو) ، (سيمون سينوريه) ، ويجعلنا نتأكد مما قرأناه فى الترجمات الذاتية لهؤلاء المشاهير ، وكيف يتجسد أثر رجع صدى ما شاهدوه وسمعوه من الفنانات الموهوبات على أعمالهم اللاحقة لهذه الرؤية وهذا السماع ٠٠ يعيد الى ذاكرتنا ـ على سبيل المثال ـ أحاديث المخرجين الروس (ســـتانسلافسكى) والانجليزى (جــوردن جريك) ٠ عن الراقصة (ايزادورا دانكان) ورقصها ، وكيف قربهما هذا الاعجاب بهذه الراقصة وهذه الشخصية الى بعضهما البعض ٠٠ فأخرجا معا مسرحية (هاملت) لشكسبير ٠٠ فبلغا فيها ذروة النجاح وكان من نتيجة هذا النجاح ، أن طافا بها عواصم الفن فى العالم ٠

يذكرنا أيضا بما كتبه (فاجنر) فى ترجمته الذاتية ، عن سماعه للمغنية (فلهمين) وهى تؤدى (فيدلو) لبيتهوفن ، وكيف أعاد له صوتها ثقته فى مقـــدرته وحاســته الموسيقية ، حتى أنه كتب لها رسالة يقول فيها : « أنه لو أصبح له شأن فى يوم من الأيام فى الموسيقى ، فان هذا الشأن الذى سيصله يرجع الى سماعها يوما من الأيام ٠

وربما يكون من سبق الأحداث أن أقول ان السينما والمسرح المصرى يذكر لسناء أدوار مثل « ليدى ماكبث » ، « بيت من زجاج » ، « الناس اللى فوق » و « سلطان الظــلام » وفى السينما ٠ « بداية ونهــاية » ، « المستحيل » ، « حكمتك يارب » ، « توحيدة » ، « وامرأة قتلها الحب » ٠ أما التليفزيون فقد بدأت سناء أعمالها فيه بتمثيلية « الصمت » وهى تجربة فريدة ليس لسناء وحدها ، بل على مستوى العالم الفنى ٠٠ ذلك أن ممثلات متناثرات فى العالم قد أطلعن بمفردهن بعمـــل كامـل ٠٠

(كبيتى ديفز) في مسرحية (قبل الافطار) ليوجين أونيـــل ٠٠ والتي تصور زوجة متسلطة تستفز زوجها للاستيقاظ السريع ٠٠ والبحث عن العمل ٠٠ لأنها كلت من العمل منفردة ٠٠ كل ذلك وهو لايستجيب ٠٠ وعندما تذهب بعصبية لاستعجاله ٠٠ وتزيح ستار حجرة النوم ٠٠ يراه المشاهدون معلقا فى مشنقة ٠٠

أما تمثيلية الصمت ، وكما هو ظاهر من اسمها ٠٠ فان سناء قامت فيها بالعمل كله ٠٠ مع أنها فتاة خرساء ، أى أن سناء غطت عملا بكامله ليس عن طريق (منـــولوج) خارجى أو حديث مع زوج مختف وانما بصمتها ٠

الصمت والبطولة السينمائية

ذلك أن هذه التمثيلية تصور لحظات تقاطع فيها ما كان متوازيا على طول مراحل حياة هذه المسكينة بعاهتها ، وظروفها ٠٠ فلم تجعل هذه التقاطعات والتخبطات ٠٠ تحتفظ بتوازن رأسها ٠٠ فهى تسترجع مع المشاهدين قصة اضطهاد زوجة أبيها لها وهى طفلة ٠٠ ثم تتابع الصور فتطغى عليها مشاهد أخرى ، وقد بلغت المراهقة ٠٠ ثم صراعها المستميت مع هؤلاء المجرمين الذين حاولوا الاعتداء عليها ٠٠ لأنهـــم يثقون أنهـــا لن تعترف على جرمهم لكونها خرساء ٠٠ ويخترق ذلك وتلك شظايا الوعى حين ينظر لها المحيطون نظرتهم للفتاة الممسوسة غير المخلوقه ٠٠ وتتسع حلقات سوء الفهم المضروب حول هذه الفتاة ٠٠ فينغمر مشاهدوها معها فى خضم حياتها المتداخلة ٠٠ ان هذا الدور جمع بين التداعيات والمونولجات الداخلية ، التى تطفو على سـطح مخيلة الفتاة البكماء فيستعصى عليها النطق به ، كما اشتمل على الخيال ٠٠ حيث كانت تتخيل أنهـا تهمس بما يدور فى خلدها ، فتصرخ ملتاثة به مرات ٠٠ فتتخبط ثم تسقط فى النهـاية ٠

لقد أحاطت سناء كل هذه السياجات المحيطة بالبطلة الخرساء ٠٠ التى تعانى من أطماع الناس وظلمهم ٠٠ فاذا هى تؤديهـا بشـــمول الطبيعة البشرية فى كل زمان ومكان ٠٠ فألقت بذلك نورا يضىء لكل مشاهد جنبات حياته المعتمة ٠٠ لذا جاء بكاء سناء ووقوعها الأخير وكأنه حال المشاهدين جميعا ٠ واذا كان هناك شك فى قول النقاد ٠٠ بأن دور سناء فى تمثيلية الصمت هذه ، كان المدرسة التى تخرجت منها سميرة أحمد فى فيلم (الخرساء) بعد هذه التمثيلية ٠٠ فان هذا الدور كان وراء تصريح صلاح أبو سيف (مخرج الشعب) : بأن سناء جميل خير من يقوم بالأدوار غير العادية فى السينما المصرية ٠

وقد حقق قولته هذه ، عندما اختارها لدور (نفيسة) بطلة قصة

نجيب محفوظ (بداية ونهاية) و (الزوجة الثانية) لرشدى صالح ٠٠ بل ان الدكتور لويس عوض الأديب والناقد المعروف كتب عن حلم طالما راوده وداعب وجدانه وهو أن يترجم (الأورستيه) للكاتب المسرحى اليونانى الكلاسيكى (اسخيلوس) والمكونة من (أجاممنون) و (حاملات القرابين) و (المحسنات) وأن تقدم هذه الثلاثية على المسرح بالطريقة التى كان اليونانيون القدماء يقدمون بها هذه المسرحيات الخالدة ٠٠ ولم يقف حلم الدكتور لويس عند هذه الخطوط العريضه ، بل تناول أيضا التفصيلات الدقيقة ، ورسم فى خياله صورة كاملة لتحقيق هذا الحلم ، بأن تقوم سناء جميل بدور (كليتمنرا) وسميحة أيوب بدور (الكترا) ، ومحسنة توفيق بدور (كاسندرا) ٠

وعندما واتت د ٠ لويس ـ بعد أن شاهد سناء فى تمثيلية الصمت ـ أن يترجم أولى حلقات ثلاثيته الحلم (أجاممنون) ، أخل مخرجها كرم مطاوع بحلم لويس عندما بدأ توزيع الأدوار ، فأعطى دور (كليتمنرا) الى سميحة أيوب بدلا من سناء جميل ٠ وكان اعتذاره عن تحقيق حلم لويس أن سناء كانت تقوم بدور (شهرزاد) لتوفيق الحكيم على المسرح القومى فى نفس وقت عرض (أجاممنون) على مسرح الجيب ٠٠ ولم يفلح رجاء لويس لكرم وهو مخرج العملين أن يفرض على سميحة دور شهرزاد ، لأنها ستقوم بدور الكترا فى هذه الثلاثية بعد أن يترجم الدكتور جزأيها المتبقين ٠٠ وتتفرغ سناء لدور كليتمنرا ، فهذا هو الوضع الطبيعي لقدراتهما ٠٠ وخيال المترجم الذى هو أقرب للواقع ٠٠ وخيال جمهور المشاهدين أيضا !

لقد أعطى هذا التبادل نتائج غير مرضية للمسرحيتين والبطلتين ولكنه ملمح أصيل فى شخصيتهما ٠٠ ذلك أن سميحة تريد أن تطلع بأداء أدوار غير محلية ـ كالتى تقوم سناء بأدائها ـ بينما سناء تريد أن يحبها جمهورها لا من واقع أدائها للأدوار الغربية ٠٠ بل فى أدوار شرقية قريبة الى البيئة المصرية ٠٠ وهذا ملمح بسيط من شخصية المغترب الذى يهفو أن ينغمر من خلال عمله بالمجموع المحيط ، وهو ما سأجليه أو أستجليه بعد تعرفى على شخصيتها ٠

كانت سناء ـ وما تزال ـ عندما زرتها تسكن شقة متوسطة الاتساع فى الطابق الثالث من عمارة فى شارع قصر المنيل ٠٠ تطل على الفرع الشرقى من النيل المحيط بجزيرة الروضة ٠٠ يشرف على قلعة صلاح الدين ويعانق مصر القديمة برمتها ٠٠ وكانت لديها عربة (فيات) قديمة يسميها المصريون ـ نصف كم ـ لأن بابيها يفتحان للجانبين ـ ويوم زاد دخلها وباعتها وجاء المشترى ليتسلمها ٠٠ بكت سناء بحرارة وهى تنظر فى أرجاء عربتها وتتحسسها وترفع ناظريها للمشترى وتعتذر

له بأنه يشق عليها بالفعل فراق هذه العربة ٠٠ لأنها صاحبتها أشواطا من مشوار الفن الصعب الطويل ٠٠ تمسح دموعها وتبشره بأداء مسرحى بأن هذه العربة سوف تحقق معه مشوارا مأمولا له ٠٠ ثم ترجوه الاعتناء بها ٠

بعدها ذهبت سناء لشراء عربة أخرى ٠٠ واختارت ماركة (أنجليا) ثم توجهت الى مصفف الشعر ٠٠ لتقص شعرها ٠٠ وتأتى الى لتقول : انظرى لقد قصصت شعرى (انجليا) حتى يكون الانسجام تاما بينى وبين عربتى الجديدة ٠

فى هذا الجو تولدت الصداقة سريعا بينى وبين سناء ، فقد كانت غير متزوجة ، وأنا مازلت طالبة ٠٠ فتأكد أمام ناظرى أن كل معلوماتى السابقة عنها ــ أو الوجه الذى يراه الجمهور ــ لم يكن يمثل سوى الوجه الثانى لشخصيتها ، ليس فى الشكل أو الأداء ، بل فى المضمون على الأخص ، ذلك أن حديث سناء الشائق فى مثل تمثيلها جاذبية ، فهى بارعة فى التمثيل على المسرح الكبير ــ الحياة ــ بأكثر من عبقريتها على المسرح الصغير التمثيل ، أذكرها مثلا وهى تقود عربتها وعند المنعطفات أجدها تميل برأسها وجسدها نحو الهدف ٠٠ وكأنها هى التى ستنعطف وليست العربة ٠ وسناء بارعة فى التقليد كما هى بارعة فى التمثيل ٠٠ أذكر مثلا أنها كانت تقلد الصحفى اللبق مفيد فوزى عندما قدم اليها أول مرة سنة ٥٨ لاجراء حديث لمجلة صباح الخير ٠٠ وكيف تتسارع خطواته فى هدم حاجز الغربة بينه وبين الشخصية التى يتحاور معها ، تقلده وهو يسحب سيجارة من علبة الشخصية التى يجرى معها الحديث ٠٠ ثم يبدأ بتهويمات تؤكدها حركاته ولفتاته ، ليعطى لديها الاحساس الأكيد بأنه يريد أن يعايش موضوعه بحق وحقيق قبل الكتابة عنه ٠٠ حتى يشع الصدق من كلماته وكلماتها ٠

كاتبة متناقضة

أذكر أيضا أنها قلدت كاتبة ـ لا داعى لذكر اسمها ــ كانت ... عرضت عليها احتساء المشروبات الروحية لكنها اعتذرت بعدم الشرب ، وعندما أقدمت الكاتبة على الشرب قلدتها سناء فى حركاتها المتناقضة ، حين كانت تتكلم كأنها واعية تماما ٠٠ بينما هى تتمايل من السكر ، وقد أرادت سناء بهذه الطريقة أن تقول بأنه اذا كان هؤلاء الكتاب يمثلون ، فانها قد برعت فى تقليد أسلوب تصرفاتهم ٠٠ وهكذا سناء فى حياتها منتبهة لكل شىء وكل شىء يسليها ٠٠ وفضولها لايرتوى أبدا من التجول بين النماذج البشرية المحيطة بها لتتوقف على كل ما هو أصيل أو مزيف فيهم ٠٠ وهذه الصفة قد اكتسبتها سناء وبلورتها وحدت شفرتها حياتها المنفردة (سولو) كما كان يحلو لها أن تقول ، وتطلب مثل هذه الحياة وتنتقى منها ما يسلى ٠٠ لذلك فان العزلة نفسها والضياع

ذاته كانا يبدوان لسناء كثيرا تجربة هامة يجب أن تعاش باستمتاع ومذاق خاص !

في يوم رأس سنة من أيام عزوبيتها ·· دعوتها أنا وأخي يوسف لقضاء احتفال هذه المناسبة بمنزل المخرج توفيق صالح ·· وكان عذبا هو الآخر لكنها أبت الا أن يوجه هو لها الدعوة ·· ولكي نرغبها في صحبتنا شرحنا لها أن أغلب كتاب مصر ورساميها يعتبرون بيت توفيق بيتهم الثاني ·· وتعاظمت نبرتنا فأخذنا نصف لها طرافة هذا المنزل ·· وكيف أن جدرانه قطعت ظاهرة الفتور بين الفنون التشكيلية والفنون اللفظية ·· حيث اشترك في تذويق هذه الجدران رسامو مصر مع كتابها ·· فجمعت كل المذاهب الفنية من الكلاسيكية الى الحوشية ، بجانب الشعر الموزون المقفى والشعر الحر حتى الشعر الذى يقرأ من الشمال الى اليمين·· ومع كل هذه المقبلات رفضت سناء أن نصطحبها ·· لأن جمع الكتاب والرسامين ما يزال غريبا عليها ·

وفي اليوم التالي سألتها : كيف قضيت ليلتك ؟ قالت : « جلست هنا في البهو ، وعلى الأرض ·· صوت المذياع يأتيني من غرفة النوم ·· ولكنه يأتيني وكأنه أصداء لعالم بعيد ، الناس فيه متواشجين ملتحمين ·· ليؤكد لي أنني هنا وحدى أبكي وأفيق على وحدتي ·· » لقد أعاد هذا الوصف الى ذهني ·· كل تأثير أعمال كافكا دفعة واحدة ·· لأن سناء بهذا الوصف أكدت أنها تحفر وحدتها في نفسها وتثبتها وكأنها تقول كما قال كافكا للحزن : سأفتقدك لو أنك فارقتني هذه هي ظاهرة الصراع الساحق بين سطوة القوة ، وعزلة الفرد المغترب في عصرنا الحديث ··

ومن الغريب أن هذا الشعور ·· استمر فترة قصيرة — حتى — بعد زواجها الناجح من الكاتب الصحفي لويس جريس رئيس تحرير مجلة (صباح الخير) فلم يستطع لويس أن يستل شعرة الحزن هذه من نفسها ·· الا بعد أن تأكد أنه حزن غريزي أو وراثي ·

من المعروف أن سناء أملت مذكراتها الى مجلة آخر ساعة في العام الماضي أذكر ذلك بمناسبة ما روته عني في هذه المذكرات وأنني كنت السبب في معرفتها بلويس ، فحق لي أن أصوب بعض ما جاء في هذه المذكرات التي لحق النسيان بعض وقائعها ·· لاسيما الأقوال التي أفضت بها للويس كي ترغبه في الدخول الى عالمها بالزواج طبعا : تقول أنها قالت للويس : انني أعيش وحدى ·· لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ·· فلماذا لا تدخل عالمي ·· حتى يكون عالمنا واحدا مشتركا ·· انني بهذا سأجد رجلا أتكىء وأرتكز عليه حتى لا تنزلق قدمي ذات مرة فلا أجد من يحملني أو يداويني أو يواسيني » ·

والحق أنني التي كنت أردد على سمعها صباح مساء مثل هذه

الأقوال وبترتيب الكلمات أيضا ·· كي أقنعها بالزواج الذى كانت ترنصبه دوما قبل لويس ·· ذلك أنها كانت ترفض الزواج كمطلق ·· ولم يكن ذلك منها تشبثا بالوحدة فقط ، بل لأنها كانت أيضا خائفة على قدراتها التمثيليــة من التكلس الذى ربمــا حـدث من جـراء رتابة الحيــاة الزوجية ·· فلا تستطيع بعده أن تمثل المحبة والمحبوبة ·· فكنت دوما أهمس فى أذنيهــا ·· من أن هــذا يتم فعــلا فى الزيجـــات التقليدية أما زواجها من انسان وكاتب رقيق مثــل لويس فسيكون منبعا لطاقات رائعة من التناغم والتفاهم والتكامل !

وقد اعترفت هى بكلامى بعد زواجهــا من لويس ·· لدرجة أنها تبنت أقوالى السابقة كما أسلفت · لأن لويس كان لها نعم الزوج وأخلص سمير ·· لقد كنت متأكدة وأنا أقنعها بنجاح هذه الزيجة مستندة لأقوال متعــارف عليهــا مثل توافق النار مع الماء ·· ذلك أننــا اذا شبهنا سناء بحيويتها وأحاسيسها الملتهبة بالحيوية مثل النار ·· فاننا نجد لويس بهدوئه وتفهمه الهادىء أشبه بترقرق المياه ·· لقد تم التوافق فى هذه الزيجة ليس لدرجة أن تتبنى سناء كلماتى السابقة لها ·· بل الى حد أن تتصل يوما بكامل الشناوى ·· وهو ما هو من تحبب الفنانين له لدرجة التدله ، لكى تقطع علاقتها به ·· ذلك أنه عرف عن كامل الشناوى ولعه بتدبير المقالب ·· ولذلك عندما اتصل بسناء ذات يوم فى ساعة متأخرة من الليل ليسألها عن لويس ، وكان لويس قد أعلمها قبل مغادرته المنزل بأنه سيقضى السهرة مع كامل الشناوى ، انزعجت وعلى الفور تأهبت للنزول للبحث عن لويس ·· فوجدته يصعد السلم ، فسألتــه أين كنت فأجابها بأنه كان فى المكان الذى أعلمها به من قبل ·· فصعدا معا ثم اتصلت سناء بكامل الشناوى لتسمع ضحكاته من خلال سماعة التليفون فرحــا بنجاح مقلبه ·· وعندئذ وضعت سناء السماعة ايذانا بانقطــاع الصداقة بينها وكامل الشناوى وهو الذى كان رأس على قائمة النجوم المدعوين لحفل زواجها الى جانب احسان عبد القدوس وأحمد بهــاء الدين وفتحى غانم ومحمود السعدنى ــ الا·انه بزهم جميعا بدوره فى احياء تلك الليلة جميعا بحديثه العذب ودعاباته الساخرة وانشاده الرائع لبعض قصائده العاطفية·

عندما يرحل الزوج

ورغم حبها الملتهب الملهوف للويس والانغمار فيه ، لم تتوقف أمواج الوحدة أو التوحد فى نفس سناء عن ملاطمة شواطىء الغربة التى حفرت لنفسها أخاديدا فى نفس سناء منذ طفولتها ·· أذكر يوما مرا على لاصطحابى لتلبية دعوة للسهر مع بعض الأصدقاء ·· فنشب الحديث أثناء الطريق حول احدى المشهورات التى توفى عنها زوجها وكيف أصبحت مسكينة بعد فقده ، فوجدت سناء تقول فجأة بعصبية : اننى لا أتحمل مثل هذا الموقف لذلك فعلينا أنا ولويس أن ننفصل قبل حدوث هذا الموقف ·· يجب

على كل منا أن يوطد نفسه على تحمل الوحدة الاختيارية قبل أن يفرض علينا الموت هذا الوضع جبريا • تحير لويس لحظة قبل أن يتدبر ما قالته سناء •• والذى لايخرج البتة عن خواطر وتداعيات غير مبهجة •• ونابعة من أصل نشأتها •• ثم وحدتها التى تطاول زمنها ••

والحق أن هذه الكلمات لم تكن من سناء محض مزاج خاص أو تحصيلا لخواطر أو تداعيات •• وانما مزاج شخصى لا يغادرها حتى فى أشد لحظاتها تألقا مع بداية حياتها السعيدة مع لويس •• وها هى تعلنه بعزمها على السفر الى الاسكندرية حالا وبمفردها •• ورغم غرابة هذا الطلب المفاجىء لم يكن أمام لويس الا الموافقة •

عندما سألتها بعد عودتها : هل كان هناك موعد سابق وضرورى الى هذا الحد • قالت : أبدا ذهبت فقط الى الاسكندرية ، حتى أقود عربتى وحدى فى الطريق الصحراوى •• أصرخ أبكى أضحك أقول لنفسى أننى مازلت حرة •

سناء اذن تعتبر الزواج خيانة لوحدتها •• وهذه المشاعر التى تنتابها هى بالضبط ما قصدت به الوجه الأول للعملة •• أو صورة سناء الحقيقية التى لا تظهر أمام الجمهور - لتداخل هالات الاعجاب بهالات تألقها فى الأداء •• ووقوفها على المسرح على مسافة بعيدة عن جمهورها •• ولكن هذا الوجه يظهر بجلاء فى منزلها •• ويشهد عليه جدرانه •• فى هذه الهدأة تستطيع غربتها أن تتنفس الصعداء بعيدا عن الجمهور والزملاء •• ترفع رأسها ليتجسد أمامك وبوضوح النموذج الكامل للانسان المغترب ، ينكمش أوقات اذا شعر أن هناك عيونا غريبة ترقبه ثم يعود للظهور بعد مغادرة هذه العيون •

أذكر يوما صحبت لها الكاتبة السودانية خديجة صفوت وأسرتها فى زيارة أولى •• فرأيت سناء تتخطر أمامهم وسط التبلوهات التى رسمت لها بريشة فنانين مختلفين وبين العديد من الجوائز وشهادات التقدير عن أدوارها فى السينما والمسرح والتليفزيون •• الجمع المتحقق بها مبهور سعيد ، بينما تكشف لى كمراقبة لهذا المشهد •• أن سناء تمارس على زوارها كما على مشاهديها تأثيرا حاسما وان لم تكن تستمد منه أى غرور لأنها كانت تعزو موهبتها - كما كانت تقول - الى هالة تطفو حولها منذ المهد •• أكثر مما تعزوه الى الصدفة • ولكن هذا المشهد الطافى سرعان ما يخمد - كما قلت - بعد خروج الزوار أو انفضاض الجمهور ويتبدى بدلا منه تشاؤم يلامس الوسواس •

أذكر يوما من أيام الصداقة الأولى سنة ٥٨ •• ذهبنا لمشاهدة العرض الخاص لفيلم بطولتها الأول فى السينما (بداية ونهاية) أمام عمر الشريف

٠٠ ونخبــة من الممثلين والممثلات من جيــل العمالقة ٠٠ وما أن انتهى العرض حتى رأيت فاتن حمامة وعمر الشريف يتقدمان نحوها ويهنئانها ، فاتن وهى تشب على أطراف أصابعها وتقول : أنت أعظم ممثلة فى مصر والله يا سناء » ويوافقها عمر الشريف على هذا الرأى وهو يشد على يدها ٠٠ وبعد أن تلقت سناء التهنئة الحارة من جميع حضـور العرض ٠٠ تستقل عربتها فى الطريق الى منزلهـا ٠٠ وتفسر لى السر الكامن وراء التهنئة الحارة التى تلقتها من فاتن حمامة ٠٠ وأنه يعود بالدرجة الأولى ٠٠ الى العناء الذى صادفته أثنـــاء تمثيلهـا لهذا الدور ٠٠ ولابد أن عمر الشريف قد أخبرها بذلك ٠٠ خصوصا ذلك المشهد الذى ظهرت فيه سناء وقد طرحت أرضا بين سيقان عمر الشريف التى تخشبت غضبا ٠٠ نتيجة لصفعة على وجهها من عمر الذى كان يمثل دور أخيها الضابط الذى ذهب الى قسم البوليس ليتسلم أخته العانس نفيسة ــ سناء جميل ــ بعد أن ضبطت فى بيت سىء السمعة ٠٠ لقد ظهرت سناء فى هذا المشهد الآثر للجمهور ٠٠ لأن هذه الصفعة أفقدتها السمع بأحد أذنيها ٠

وافقت سناء على تفسيرها ٠٠ لأنها دفعت سمعها فى سبيل لقطة سينمائية صورت كما جاء غشم عمر ٠٠ الذى لم يكن قد مثل منذ فترة طويلة ٠٠ فوضع فى صفعته كل الطاقات المختزنة فيه ٠٠ وكان باستطاعتها ايقـــاف التصوير واستحضار طبيب يداوى آثار هذه اللقطة فى لحظتها ٠٠ ولكن ما أن وصلنا الى منزلها حتى وجدتها تنهــار على أول مقعد صادفهـــا ٠٠ وتسألنى : أرأيت كيف أهانتنى فاتن ياعايدة ؟ تحيرت واستفهمت : هل أهانتك فاتن ياسناء لأنها أقسمت أنك أعظم ممثلة فى مصر ؟ فوجدت سناء وقد وقفت على أقدامها وكأنها تحاكمنى وتقول : نعم أهانتنى ٠٠ فسألتها كيف ؟ فأجابت : أن تقول لى سيدة الشاشة الأولى كلمة عظيمة معناه انهـا أعظم منى ٠٠ بل انهـــا تقف فوق أكتـافى ٠٠ هكذا تفهم سناء الأمور ٠٠ من وجهة نظرها الكابية للوجود ٠

لقد حدث هذا الحوار الغريب بيننا سنة ١٩٥٨ ٠٠ ولكنى بعد أن تخرجت سنة ١٩٦١ وعينت بالشركة العامة للسينما ، وكان رئيســـها صلاح أبو سيف مخرج فيلم بداية ونهاية نفسه فقد سألته عن صحة فهم سناء لكلمة الثناء التى حيتها بها فاتن ليلة العرض ٠٠ فقال ان فاتن كانت تقصد شجاعة وجرأة سناء فى الاقدام على أداء دور نفيسة القبيحة الوجه ٠٠ المعقدة الشخصية الموصومة بسوء السمعة ثم نجاحها فى هذا الدور ٠٠ لأن فاتن كانت قد فكرت فى القيام بهذا الدور ثم أحجمت فى آخر لحظة ــ بعد تصوير أحد المشــاهد ــ خوفا على جمهورهـا المعجب بجمالها وبساطتها وبراءتها ٠

لم أكن أنا بالطبع بحاجة الى الانتظار من سنة ٥٨ الى سنة ٦٢ حتى

يؤكد لى صلاح أبو سيف تشاؤم سناء وتفسيرها المنقلب للأمور ·· والذى يصل أحيانا الى حد التطرف ·· أو غربتها التى تقرب الى حد الوحدة المعذبة ·· بل الى حد أن صوتها كثيرا ما ينشرخ بالبكاء وهى تشكو لى أنها لم تدعى للتمثيل على خشبة المسرح القومى منذ زمن طويل ·· فرغم أنها كانت تمثل لهذا المسرح بدون مقابل تقريبا ، الا أن سناء مأخوذة حتى العظام بمغامرة التمثيل عليه ـ رغم كثرة العروض التى تتلقاه من خارجه ـ أما رفضها لبعض أدواره فيرجع الى أنها لا تتناسب مع ما تشعر به من قدرات فنية ·· وهى لذلك تتمنى أن يترك لها ـ وقد وصلت الى ما وصلت اليه ـ اختيار المسرحية التى تود هى أن تمثلها ·· وهى تبرر ضرورة اختيارها لأدوارها ·· بأنه يحقق لها التوازن والرضا والاشباع للجمهور ··

سناء كما ترى اذن ·· تربط بين تلقائيتها فى التمثيل ودرجة اعجاب المشاهدين ·· ورغم اجادتها للأدوار المعقدة والغريبة فانها لاتريد أن تثبت فيها ، بل تتشوق بعدها الى غيرها · لأنها ـ كما تقول ـ عندما تمثل وفقا لآراء المخرجين الذين يوزعون عليها أدوارا قدمتها تشعر أن دوافعها وميولها قد أحبطت ·· فتمثل بضجر ·· ويحولها نفاذ صبرها هذا من سيزيف السعيد الى سيزيف التعيس ·· وتتمثل تعاستها فى هذه الأوقات عبر عزوفها عن المجتمع وعن لقاء زملائها وزميلاتها ··

مرة ·· وفى لحظات تعاستها هذه ·· أسرت لى ـ انها لن تستعيد توازنها الا اذا مثلت مع المخرج صلاح أبو سيف ، لأنه من الذين يفهمون قدراتها الحقيقية ·· وفى اليوم التالى أخبرت صلاح بما طفر على سطح نفسية سناء بالأمس ·· فسألنى ما رأيك أن تقوم سناء بدور الزوجة الأولى فى فيلمه القادم (الزوجة الثانية) · قصة رشدى صالح ·· قلت له انها بالفعل أنسب من يقوم بهذا الدور ·· فذهبت لسناء أزف لها هذا النبأ السار ·· ففرحت أيما فرح وكأنه وقع عليها الاختيار والتمثيل لأول مرة فى حياتها ! على أن سناء فى صداقتها الحميمة ·· تتبدى دون مكياج أو أضواء فى أروع أدوارها ، وأصدقها ·· نعم فالصدق والبعد عن الزيف وعدم الخجل حتى من العيوب ، من بين المزايا التى وصلتنى من سناء ·· فهى مثلا عندما تنادى خادمتها فلا تجيب ·· تلتفت الى لتقول : يظهر أن خادمتى فقدت السمع كسيدتها ·· ثم تتدارك ، وربما لم تسمع لأنها غارقة لأذنيها فى حب خادم الممثل عبد المنعم ابراهيم فى الشقة المواجهة ·

لا أنسى يوم خرجت معها ولويس ، أيام الخطوبة الأولى ·· وشربنا عصير القصب ·· فأحدثت رغوته خطا أبيضا فوق فمها · تصورت

للحظة أنها ستخجل وتمحوه بسرعة .. ولكن سرعان ما سمعتها تقول .
انظر « يالويس » كم هو جميل (شنبي) الأبيض .

أما يوم زواجها .. فانني وجدتها ما أن وصلت الى منزلها بعد عقد قرانها في الكنيسة حتى وجدت سناء تخلع حذاءها .. ثم القبعة .. وتستقبل المهنئين والكتاب بهذه الهيئة البسيطة التى تتناقض مع كونها ممثلة كبيرة في نظرهم وعروسا أيضا في ليلة زفافها .

ومن شدة صدق سناء .. فان الكثيرين لا يصدقونها ، أذكر يوما دخلت الى غرفة المخرجة مجيدة نجم مع السيناريست كوثر هيكل بمبنى بالتليفزيون .. وكان يجلس في الغرفة عدد من مقدمات البرامج بينهم مقدمات برامج (فايزة واصف ، آمال مكاوى ، سميحة غالب) . فواجهونى فور دخولى بعاصفة من التساؤلات حول سناء جميل ، فجلست بينهم وأيدتها جميعها .. فتعجبوا .. ثم فهمت منهن ان سناء كانت تحكى لهن منذ دقائق طرفا من حياتها فلم يصدقوها ، فأحالتهم على للتأكد من الحقيقة !

أما تصغير سناء لعمرها .. فمرجعه أنها لم تبلغ القمة بعد .. أنها تريد أن تؤكد أن عطاءها الفنى لن ينضب أو تصيبه الشيخوخة يوما ، ولن يعجزها عن بلوغ القمة دوما .. وهذا ما جعلها تسقط فى بؤرة الحسرة والضياع يوم أن ذهبت الى مهرجان دمشق المسرحى .. وفوجئت أن وسام الاستحقاق رفع فوق هامة غير هامتها ــ وهى قصة مؤثرة حكتها لى سناء وهى تقدم لى فى منزلها الدكتورة نجاح العطار وزوجها ــ ولم تكن قد أصبحت وزيرة الثقافة فى سورية بعد ــ والروائى الفذ حنا مينا ــ فتقول لى أنهم أروع الآدميين قاطبة .. وهم الذين حالوا بينى وبين الشعور بالانكسار والمهانة الذى كادا يحدثا لى ، عندما علما بحجب وسام الاستحقاق عنى . لقد شعرت أن جدران الفندق تكاد تضيق فوق صدرى وتكتم أنفاسى .. فى هذه اللحظة سمعت نقرا على باب غرفتى .. فذهبت أفتحه لأرى من القادم ؟ .. فوجدت أمام عينى خيرة أهل سوريا وروحها الوثابة .. نجاح العطار وحنا مينا يبشرانى بأن الوسام أعطى لغيرها لأسباب لا تعود الى الاقتدار فى التمثيل بل لاختلاف فى طريقة التفكير ..

هذه هى مشاعر المغترب عندما يكون عظيما .. وهذا ما كشفته صداقتى بسناء .. فالممثلة على المسرح يمكن تقييمها وتفصيلها وتفسيرها بصورة بعيدة عن واقعها الحياتى والنفسى .. لكن سناء جميل حين تغادر محرابها العلنى أو الجماهيرى وتعود الى منزلها وأصدقائها وعالمها الخاص سرعان ما تعود اليها ذاتها والى منزلها .. الى أصالتها .. فيتبدى جوهرها الأصيل ..

ملحق الثلاثاء ١٢ يناير ١٩٨٢
ملحق الثلاثاء ١٩ يناير ١٩٨٢ .
جريدة الوطن الكويتية

حسن فتحى

أعظم مهندس بيئى فى العالم

العمارة ضرورة حياة وتلبية لحاجات الأغلبية لا مجرد تراث حضارى أو قيمة ثقافية

يعتبر المهندس حسن فتحى أعظم مهندس بيئى فى العالم كله ٠٠ ذلك ما أقرته منظمة (اليونسكو) هذا العام ١٩٨٠ ، والتى قامت أيضا بانتاج فيلم وثائقى عن سيرة حياته وأعماله ٠

وحسن فتحى ليس مهندسا معماريا فذا ، أو فنانا عبقريا فحسب ٠٠ بل انه أيضا من المبتكرين ٠٠ الذين وعتهم ذاكرتى (كنيقولاس شوفر)(١) الفرنسى ٠٠ وغيره أولئك الذين تمكنوا من مزج ابداعهم بالمعنى الأبدى للوجود ٠٠ ووجهوا فنهم لخدمة البسطاء وراحتهم دون تكلف ٠٠ وجعل الطبيعة بما فيها من نفع وجمال تستهوى أفئدتهم ٠

حين تزور حسن فتحى فى منزل الســنارى بحى قلعة صلاح الدين

---

(١) (نيقولاس شوفر) مهندس معمارى ٠ وفنان شامل ٠٠ فرنسى ٠٠ أعطاه وزير ثقافة فرنسا السابق (أندريه مارلو) ومن بعده وزراء الاسكان والتعمير اليد الطولى فى هذه المجالات باعتبارها أعلى صوت مهندس معاصر فى باريس ٠٠ فهو لا يتكلم عن الضرورة الآنية أو المستقبل القريب فقط بل انه يتكلم عن مستقبل الحياة البعيدة بعد سنة ٢٠٠٠ ٠٠ ومن المعروف أن آراءه التى أخذ بها ٠٠ الا تشيد ناطحات سحاب داخل باريس ٠٠ وأن تكون مكان الناطحات حولها ٠٠ فتكون باريس القديمة وسطها كعكة ٠٠ أما الناطحات التى كانت قد بنيت داخلها فيجب ازالتها ٠٠ وقد كسب أصحابها قضايا الازالة ٠٠ بحجة أن الكعكة تحتاج الى شموع وسطها ٠٠ ومن رأى شوفر أن مدن المستقبل البعيد لابد من اقامتها فوق جسور علوية شفافة وأن تترك الأرض جميعا للزراعة ٠

المطل على قاهـرة الألف مئذنة تصافحك نسمات الفضاء اللانهائى وعبـير أجوائه المصفى عليك بلا حواجز عمرانية ٠٠ تشـعر برطوبته وطراوته فتهدأ بعد طول هجير من صـحراء المعاصرة بيئة وبناء ، يعيد مسكنه الى ذاكرتك بيت أجدادك أيام خصوبة الأيام وعطائها ٠٠ فتتنسم عطر الأحباب فى الذاكرة البعيدة ٠

سـلة الخبز الخيزرانيـة تحفظ له طزاجته ٠٠ (القلل) الجميلة التكوين والمنظر تبرد المياه بعيدا عن الثلاجات الحديثة وأصلح منها للارتواء الآمن ٠٠ الوسـائد الأرضية المتنـاثرة هنا وهناك تجلب لك الراحـة والبساطة ٠٠ أما اذا وقفت معه لتطل من شرفة بيت السنارى على قاهرة المعز ٠٠ فان الانغمار الكامل سيلحقك ٠٠ حيث يطوف بك حسن فتحى فى النبع الرائق للفن الذى ليس له بداية ولا نهاية ٠٠ انك تعيش الساعة عمرا كاملا ٠٠ والعمر كله ساعة ٠

يسكرك هذا جميعه فلا تتبين هل تسبح أنت معه ، مع الفن أم التاريخ مع البشر أم مع الكائنات ، مع الدين أم مع الأساطير ، مع الشعر أم الموسيقى ٠٠ حسن فتحى يمور بك بين سرائر الأشياء وجواهرهـا فتنبجس آياتها شلالا فى روحك ونفسك ٠٠ فتجدك تلهج تأملا وهمسا صوفيا ، حتى الطين يحببه لك حسن فتحى حين يتساءل لماذا يأنف الناس الطين ، مع أنه الطبيعة المكثفة للوجود ، عناصره هى أقدس عناصر الحياة ٠ التراب ، الماء ، الشمس ٠٠ منها جبل الله خليفته فى الأرض ٠٠ من الطين الزرع ومن الطين الخليقة ، فالكينونة التى تنبثق ابتداء من الطين والنفخ من روح الله هى التى تحمل مثل هذا التعقيد الشديد ، الذى يستعصى على العقـل البشرى ، لأنه قوته وأكبر منه « هو أعلم بكم اذ أنشـأكم من الأرض » ٠

الحمار المظلوم

لماذا يظلم الناس مثلا هذا الكائن الظريف (الحمار) مع أنه أبدع من الحصان وأذكى ٠٠ ان ظهوره فى شوارعنا وحوارينا ، يثير نغما أثيريا يسرى الى النفس الذكية فيبهجها وينفض عنها كل الأقوال غير المحببة التى التصقت بهذا الكائن الأليف ٠٠ فتشعر بأنه بالفعل أقرب الحيوانات لواقعنا المستقر وبيئتنا الحميمة ٠٠ وهذا يوحى بل يؤكد ٠٠ أن تاريخ وجود الكائنات متوافق مع طقسها وواقعها الحضارى ٠٠ فقصة استجلاب الحصان الى مصر معروفة من أيام أحمس وطرده للهكسوس بعد أن جلبت الأفراس الى أرض (تميرا) ليعدوا العدة وليحاربوا الهكسـوس بنفس

سلاحهم موصولا به ابتكارهم للعربة الحربية ·· وبنفس السلاح ـ الخيول ـ كسر العرب شوكة الصليبيين ·

وقبل أن يأخذنا الحوار الشيق مع حسن فتحي ـ الذى يشوبه الحزن عند الكلام عن الآثار الجانبية للسد العالى ·· من نحر ومياه جوفية على الآثار المصرية ـ وضرورة تدارك هذه الآثار قبل فوات الأوان ـ نعرض لاتجاهه ورؤاه فى الفن المعمارى ·· ذلك أن المهندس حسن فتحى الفنان يرى ، على خلاف الاتجاهات السائدة فى سياسات الاسكان السائدة فى العالم الثالث أن مثل هذه العمارة ، التى توفر الحاجات الجسمية والروحية للسكان ··· لن تكون الا تطويرا للتراث ·· الذى بدوره تلبية طبيعية للبيئة ، كما أن هذه العمارة لا تتم الا بخامات أو مواد هذه البيئة نفسها وهى فى بيئة العالم الثالث ، الحجارة والطين ، وبتغيير طرق الانشاء أيضا التى تستخدم فيها مواد البناء باسراف يبعدنا عن البساطة ويرهقها ماليا حتى نعود الى احترام الطبيعة من حولنا فى الأطوال والأبعاد بما يتمشى مع المنظر المحيط ، وما فيه من منشآت حديثة أو قديمة ، بحيث تبدو العمارة فى النهاية ككيان عضوى مترابط الأجزاء تنبع منه وحدة فنية متسقة ·

يرى حسن فتحى ان استخدام المواد المحلية سيحل بلا شك جميع أو أغلب المشاكل الاقتصادية التى تعانيها البلاد الناهضة من جراء اعتمادها على منتجات البلاد المتقدمة تكنولوجيا ، فضلا عن أنه يمكن ببعض المعونة الفنية التى يقدمها المهندسون المعماريون ، ترقية الطاقات الخلاقة فى فنون البناء والانشاء التى يملكها البسطاء فى هذا العالم الذين ارتبط عملهم ببناء العمارة الشعبية فى الريف والصحارى بهذه المواد منذ مئات أو آلاف السنين ، وقاموا بتزيينها بنقوشهم الأصيلة ـ كمنازل النوبة ـ والمهم هو التصميم العام للبناء ، وهذا التصميم يجسد مقدرة المهندس الخلاقة ، أما المواد من حجر وطين وخشب فهو لا يخلقها بل يخلق طريقة جديدة لاستعمالها ·

وهذا كله يفسر لماذا أدرجت العمارة فى قائمة الفنون ، لكنها فنون تطبيقية تتحقق بها ذات الفرد وذات الجماعة مع علوم الهندسة ، لأنها تحتاج هذا العلم فى استلهاماتها للتقدم البشرى ودراستها فى الحضارات المختلفة عبر الآثار التى خلفتها وتثبت ذلك وتؤكده حاجات البسطاء

ان العمارة فى العالم كله ليست رمزا لكل حياة وبيئة فى هذا العالم ، وليست فقط للمحافظة على التراث الحضارى كقيمة ثقافية

انشأها الأسلاف ومجدوا بها الحياة حين كانت العمارة مرتبطة بالقداسة ، ولكنها تحقيق لحاجات الغالبية العظمى من البسطاء ، اجتماعيا ومناخيا وحضاريا · انها ضرورة حياة ، وصون الكرامة الانسانية والطريق الى تحرير قدرات الانتاج ، فاذا تخلينا عن استكمال الشروط المقررة لاقامتها · خالفنا ضميرنا العلمي نفسه فلا تتقدم المدينة نحو أملها المنشود ·· واذا كانت آراء المتحمسين للمواد التجارية المصنعة تذهب الى أنه بعد بناء السد العالى لم يعد هناك طمى لصناعة الطوب الأحمر - مع أن هناك آلاف ملايين الأمتار المكعبة والأطنان من الطين الذى يغطى الوادى ، وهناك ٦٠ فى المائة من مبانى الريف التركى فى الأناضول بنيت بالطوب الأخضر كما أن هناك سهول لومبارديا بايطاليا بل هولندا الواقعة على سطح البحر ·· وقد استعمل الطوب الأخضر فى عمارتها - اذا كان المتحمسون يقولون هذا ، فان أهم مشاريع حسن فتحى التى لم تر النور بعد ·· هى حفر بحيرة صناعية لاستخراج الطمى الذى يصنع منه الطوب ، لأن طرق استخراج الطين من الأرض كما يقوم بها الفلاحون الآن غير سليمة ·· اذ أنهم اما يقشطون السطح الخارجى الذى يحتوى على أهم وأثمن المواد العضوية والأزوت اللازمة لخصوبة الأرض عبر عملية التجريف - أو أن يقوموا بحفر البرك بجوار القرى حيث تمتلىء القرى بالبعوض والناموس ·· الذى يجلب معه الأمراض ·

ولا يخفى على أحد من المتخصصين أن أربعين جامعة ومعهدا للانسانيات فى أمريكا وغيرها قد قررت تخصيص مادة تعليمية عن الطرق الهندسية وسياسات التعمير بعد صدور كتاب حسن فتحى (العمارة للفقراء) الذى كان نتاجا لمشروعية لاقامة قريتى (القرنة) و (باريز) ·· الأولى وهى القرنة فى الأقصر ·· كبيوت لرعاة الآثار ، ولكنهم لم ينتقلوا اليها لأسباب كثيرة منها احترافهم سرقة هذه الآثار التى يحرسونها ·· وهذه القرية هى التى كتب عنها الروائى (فتحى غانم) قصته (الجبل) التى أخرجت للسينما والثانية قرية باريز فى الواحات الخارجة ولم يسكنها من بنيت لهم ولصالحهم ، لتقاليد راسخة تحول بينهم وبين التغيير !

لذلك أوقفت بعدهما وبعناد واصرار مشروعات حسن فتحى الرائد ·· مما دعاه لاعداد دراساته المعمارية بعيدا عن الأوساط الرسمية والعلمية فى مصر واجرائها فى تونس ·· فربما لا اعتراض هناك على العمارة الانسانية باعتبار « أن زامر الحى لايطرب » على حد المثل الشعبى !

العمارة النوبية

وعندما دعى حسن فتحى أخيرا الى اقامة مشروع تتخطى به مصر نقطة الصفر التى وقفت عندها مشروعاته للتعمير وبحوثه ·· اختار لها

حسن فتحي منطقة (كوم أمبو » خاصة وأن أهلها من النوبيين المهجرين بعد قيام مشروع السد العالى ، وكونهم ممن انحصرت فيهم تقنيات البناء التقليدية ، وما زالوا صادقين فى استعمال هذه التقنيات المهددة بالزوال السريع ، والتى ان زالت ، زالت الى الأبد ٠٠ فتوصل بذلك الى ما أمر الله به أن يوصل فى التعمير الريفى والحضرى على السواء ٠

ان هناك ميزات لا يستهان بها لاختيار منطقة كوم أمبو لاقامة المشروع الجديد ٠٠ أولها الطابع المعمارى والفنى ، ذلك أن الطابع المعمارى التقليدى قد اندثر من الريف المصرى ما عدا الوجه القبلى ٠٠ وهناك قرية غرب أسوان بناها أهلها بأنفسهم بالقرب من مواقع العمل بمصانع الفوسفات ٠٠ وقد أتت جميلة وأصيلة فى عمارتها ٠٠ وتفوق قيمتها ما بناه المهندسون المعماريون المحدثون أنفسهم ٠٠

يستل حسن فتحي من بين أوراقه صورا للعمارة النوبية ٠٠ ثم يقول لى : تأملى فى هذه العمارة ٠٠ انهم لم يفتحوا النوافذ على الشارع ٠٠ لماذا ؟ لأن ما نراه فى الخارج ما هو الا سور يحيط البيت من كل الجهات وتعلوه فتحات ٠ أما البيت ذاته فملىء بالفتحات السفلية والعلوية ٠٠ ولم يكن هذا قصورا وانما تفهما عميقا للبيئة والمكان ٠٠ ولذلك اذا دخلت البيت النوبى ــ والحرارة شديدة فى الخارج كما تعرفين ٠٠ تجدك وقد أهللت على منزل شمالى مكيف ومبرد بلطف ٠٠ لأن هذه النوافذ الداخلية ، والعالية فى السور ٠٠ عملت على تنقية هوائه وانسيابه ٠٠ وليس للشكل والأبهة التى نفعلها الآن سعيا لجمالية معينة ٠٠ وردت الينا حتى لو كانت تعارض طبيعة البيئة ٠٠ واذا كان العربى فى جبال اليمن قد فتح عددا من النوافذ فى عمارته حتى لتبدو من البعد ناطحات سحاب ٠٠ فانه لم يفتحها عبثا بل بفلسفة تتمثل فى فتح بعضها فى شهور معينة وفتح الأخرى فى غيرها من الشهور ٠٠ وكأنها نوافذ بوصلوية ــ نسبة الى البوصلة ــ تتبع حركة الشمس واتجاهات الرياح ، ومن ثم تمكن الانسان اليمنى بواسطة هذه النوافذ من تخفيض شدة الضوء والحرارة ٠٠ حتى تصل النسمات العذبة لسكانها لطيفة فى ضيائها !

أما شدة الضوء والحرارة التى ربط به البعض تخلفنا ، فهى لاتعدو مجرد خدعة وجهل فليس البرد عنوان التقدم ، ولا الحرارة مجلبة للتخلف ٠٠ انما التقدم فى الاقتدار على محاورة الطبيعة ، لقد أخضع القدماء التكنولجيا لاقتصاديات الأهالى على كل المستويات ففازوا بالعراقة التى نحياها ٠

غضب الصخرة :

الحديث مع حسن فتحي يجرى مباشرة وبلا مداورة ٠٠ ولكنه لا يفقد الهدوء الرويه أبدا ٠٠ فعندما تلتقط عينـه جامع السلطان حسن من شرفة منزله ينتقل بالحديث سريعـا قائلا : تأملي ! انه أقـدم بكثير من جامع الرفاعى المواجه له ٠٠ ولكن ألا تلاحظين جدة القديم ٠٠ وقدم الحديث الذى يرمم كل سنوات ٠٠ وهنا يتدفق قائلا : ان جامع السلطان حسن مثلا روعى فى اختيار أحجار بنائه ، توجـه كل صـخرة منهـا ومكانها السابق فى الجبل الذى قطعت منه موقعها من الشمس والهواء والمطر ٠ ان الصخرة التى اقتطعت من جبل شرقى لابد أن يأخذ نفس اتجاهها السابق عند عملية البناء ٠٠ والتى اقتطعت من جبل غربى أو جنوبى أو شمالى ، لابد أن يكون لهـا نفس الاتجاه ، لأن الصخرة التى تكونت عبر قرون بعيدة على أن تشرق عليها الشمس صباحا ٠ لابد أن يضعها البناء نحو المشرق ٠٠٠ فلو أنه عاندها ووجهها نحو المغرب ٠٠ لغضبت وغادرها رواءها وخلودها ٠٠ وهكذا تعدى كل حجرة صويحباتها فيبلى البناء ويتداعى خلال فترة أقصر من عمره الافتراضى !

هذه هى الفلسفة والحكمة التى انتهى اليها القدماء ٠٠ لذلك بقيت الأهرامات والآثار ــ ولذلك تبلى الآثار اذا انتقلت من مكانها الذى نشأت فيه ٠٠ وهكذا كانت عملية نقل معابد أبو سنبل وفيلته على نفس هذا النسق ، ألم تذهبى الى متحف اللوفر ، انهم نقلوا طقس مصر الى الجناح الذى تقبع فيه آثارنا ٠٠ ان جو ميدان الكونكورد الفسيح هو الذى أبقى المسلة المصرية فيه ٠٠ وسيبقى كل شىء فى الحياة اذا روعيت معه طبيعة تكوينه الأولى ٠ وامتحنت أيضا خصائصها ٠٠ هل تعرفين أن كل حجرة فى الهرم ٠٠ قد امتحنت بالحقن قبل أن توضع فى مكانها ؟ ٠ ذلك أن التكلس يحدث أحيانا فوق أسطح رخوة كأسطح الثمرة ٠٠ ومن ثم تكون هذه الصخرة مهما مر عليها من حقب معرضة للانحناء ٠٠ هذا هو سر المسلة الفرعونية الناقصة بالأقصر القائمة على الأرض بالعرض !

ان للكائنات آية ٠٠ فالذى يتخيله الناس جمادا مرتبط بوشائج سحرية مع الخلائق الأخرى من شمس وحر ، وقمر وبرد ، وهواء وعواصف ورطوبة ٠٠ انهم يتحاورون بلغة الطبيعة والفطرة المبثوثة فى الحياة ٠٠ وحين يتحاور مع هذه العناصر الملتحمة انسان غير درب ٠٠ يجسد ما فى ذهنه بعيدا عن معرفة أسرارهـا ٠٠ تجد هذه العناصر وكأنها تعـامله بطريقته عبر التآكل والانهيار ٠

لقد نشأت الفنون فى أول الأمر كمحاولة لمحاكاة الواقع وخدمة من يعيشون فيه ، ولا مانع من أن تعمل هذه المحاكاة على تحسين الواقع لكى يبدو

أكثر جمالا مما هو عليه . لم تكن هذه المحاكاة ترفا وانما جزءا لا يتجزأ من ذات الجماعة والفرد .. لقد أجاد الفنان القديم محاكاة واقعه لأنه كان ممتثلا للطبيعة !

ثم يلتفت حسن فتحي يواجهني بوجهه الشـــامخ الأصيل الملامح ويواجهني قائلا :

اننا عندما نشاهد هذه المحاكاة الآن نخالها ابداعـا من عنديات الفنان ، في حين أن هذا الابداع ليس الا من قبيل التجويد في الصيغة .. وما نخاله ابداعا وبيانا كان عند الفنان القديم صيغة وتقريرا .

تأصيل الجديد :

والشاهد أن حسن فتحي الذى يدعو للرجوع الى الماضي واجترار تراث الأقدمين .. انما هو في حقيقة الأمر من محبي الماضي وتأصيل الجديد في تربة القديم . مؤمن بأن الأصـالة طريق للابتكار والابداع في حضن القديم .. لذلك يرى أن الصحراء الآن أصبحت متنفسـنا الوحيد .. بعد أن ضاقت المناطق الآهلة بمن فيها وما عليها .. والا سيكون الوضع في غاية السوء لجيل المسـتقبل .. ان عالم المستقبل مختلف عن عالم اليوم .. لذلك يرى حسن فتحي بالنسبة لمدن المستقبل أن تخطيطها يجب أن يتم على أساس يسمح لها بتحمل أى عدد من السكان .. فلابد أن يمتد التخطيط منها في جميع الاتجاهات .. على أن يتوافر لها المرافق اللازمة مثل السوق والمدارس والحدائق العامة والمشاتل التى تنتج الملايين من الأشجار المختلفـة والتى تناسـب كل موقـع وكل موسم .. لجعل الطبيعة بما فيها من نفع وجمال تستهوى أفئدة ساكنيها وان يتم اختيار الملاهي ودور العبادة على مسـيرة لا تزيد عن ربع ساعة على القدم .. كل ذلك حتى لا تتكدس المدن الى حد الانفجار ، على الشاكلة التى وصلت اليها في الوقت الراهن كثافة السكان في القاهرة .. وأغلب عواصـم الشرق الأوسط ، وآسيا .. وبعض العواصم الأوربية .

يقول مبتئسا أواخر قرننا العشرين هذا .. أصبح الاسكان أخطر المشاكل التى تواجه مستقبل الانسانية ، تماما كالطاقة والغذاء .. ولحل هذه المشاكل تعقد المؤتمرات وتطبع الكتب وتنشر المقالات في الصحف على سبيل التنوير والدعوة للمشـاركة في مواجهة المشكلة على أوسع نطاق .. نجدهم يطمئنونا بأن علمـاء العالم يتوصـلون الى حلول أكيـدة وبدائل ، مثل حقن الأرض بالبترول أو التشغيل الذاتي الكترونيا .. أو الطاقة الشمسية .. يحدث ذلك بالنسبة للغذاء حيث نقرأ عن النتائج الناجحة للتهجين والهندسـة الوراثيـة والزراعة داخـل الصوبات ،

هذه بعض من آراء حسن فتحى ٠٠ نرجو أن يضعها أهل الاختصاص فى بلادنا فى دائرة الضوء لكى تناقش على كل المستويات ، بحكم ارتباطها الحميم بالمجتمع وبمكوناته النفسية والذهنية ، حتى نصل فى عالمنا العربى ، الى الحلول المثلى لتصميمات العمارة الانسانية المفتقدة ـ وسط هذه المبانى الأسمنتية الصماء ـ فتصميمات حسن فتحى ذات أصول عربية نتطلع اليها لتشييد أبنيتها ٠٠ قبل أن تندثر معالم المدن الحضارية ولا ندرى لماذا ؟

وأخيرا نتساءل ٠٠ الا يستحق حسن فتحى بما وصل اليه كقيمة حضارية عبقرية وما ناله من شهرة عالمية ٠٠ حيث أصبح وهو فى هذا السن (٨٠ عاما) أعظم مهندس بيئى انسانى فى أربعة أركان المعمورة ، أن ينشىء له ذوو الشأن وأصحاب القرار معهدا يتولى هو الإشراف عليه ليدرس فيه المبادىء التى نذر حياته لها ازاء ارساء مبادىء وأسس العمارة الانسانية على قواعد سليمة ، كى يشحن بفكره وعلمه وتجاربه وبروحه وأصالته روح المبدعين من بعد تقدما وأملا ٠

ملحق الهف ٠٠

ملحق الخميس ـ صحيفة الوطن الكويتية

٢٥ ديسمبر ١٩٨٠

(★) نشرت (الوطن) بعد نشر هذا الموضوع بعام ٠٠ أى ١٩٨١ صورة للمهندس البيئى حسن فتحى فى مؤتمر للمدن الجديدة بايطاليا وهو يهدى تصميما لمنزل يقام للمدن التى يهددها شبح الزلازل مما يؤكد أن حسن فتحى ٠٠ هو أعظم مهندس بيئى فى العالم !

السـرقة بالموافقـة :

أذكر أن معرفتي بالمهندس حسن فتحي كانت أوائل الستينيات ، وكان رائدى ودليلى الى بيته أستاذنا الكاتب والمفكر محمد عودة الذى طالما كتب عنه ودافع عن نظرياته في فن العمارة ٠٠ عمارة الحجارة التراثية ٠٠ وعمارة الطين للسواد الأعظم من الشعب الذى يعيش في العراء أو داخل زرائب البهائم سواء بسواء !

وجدته عابدا متبتلا فى محرابه ، لا يمل ـ رغم احباطاته ـ مواصلة رسالته وتنوير الجهلاء الذين استلبوا سلطة التخطيط العمرانى وفلسفة البناء فكان سوء المصير والتشويه الذى سرى مسرى النار فى الهشيم بطول مصر وعرضها ، لكنه أبدا لم يفقد الأمل فى اسـتعادة العمارة المصرية سابق أصولها وأصالتها ، ولذلك وسع صدره وجهده وماله جيل واسع من المعماريين الشبان الذين آمنوا بنظريته ٠٠ وظلوا أوفياء لها وامتدادا لرؤاه وفلسفته عبر عمارة الطين والحجر وهندسة القباب التى بدأت تنتشر الآن فى كثير من المواقع الريفية والصحراوية ٠٠ وتنتشر أكثر فى القرى السياحية على سواحل البحرين الأبيض والأحمر !

كان الأستاذ محمد عودة يقول عنه دائما : سوف تلطم مصر الخدود وتشق الجيوب بعد رحيل حسن فتحى قصرت هذه الفترة أم طالت ٠٠ وسوف تقام له الاحتفاليات والمؤتمرات والتماثيـل وترصـد الجوائز لتكريمه والاشادة برؤاه ونظرياته وأصالته وحلوله الحضـارية المبتكرة لحل مشكلة الاسكان فى مصر والعالم الثالث من قبيل نقد الذات ٠٠ ولكن بعد فوات الأوان !

وهكذا كلما ذهبت الى حسن فتحى يساورنى الشعور بالمطاردة والفرار من زحام الزيف الذى نعيشه وعبث الأقدار المكتوب على جبين مصر ، فيعيد الى الاطمئنان والأمل فى اجتياز مصر مشاكلها ومصاعبها ، حتى اننى سـألته يومـا : وماذا عن التشـويه العمرانى ٠٠ ومتى يمكن ازالته ؟ وقال بهدوئه المعهود : بعد فترة تتراوح ما بين خمسين الى أكثر وهى العمر الافتراضى لأى عمارة حديثـة فى مصر ٠٠ لكن المشـكلة أو السـؤال بعد ذلك هل يأتى من يصحح ويعيـد لمصر جمالها وبهاءها العمرانى ؟ ثم يجيب قائلا : أنا على يقين ان هذا الموعـد آت حتما عندما

تكتشف مصر انه لا يصح الا الصحيح ·· وان المكابره التى استمرت طويلا كانت وبالا وسخاما وبثمن فادح ·

دول عديدة فى آسيا وفى أمريكا اللاتينية استدعت حسن فتحى للاستفادة من تجاربه ونظرياته ·· وذهب اليها مع فريق من المصريين البنائين العظام ·· وهناك أقاموا معاهد ومراكز تدريب تحت اشرافه وأنشأوا كراسى جامعية ما تزال تحمل اسمه حتى الآن اعترافا بفضله ونبوغه ورؤاه الخلاقة فى مجال العمران واسكان الفقراء !

يوما زرته كالعادة بلا ميعاد سابق حين شاهدت فريق عمل تليفزيونى كلف من قبل احدى الجامعات الأوربية لتصوير تحقيق موسع استمر عشرة أيام وشمل عدة حوارات معه ومواقع العمران التى شيدها ··

كان المحاور أستاذا فى العمارة ·· وكانت أسئلته التى وجهها لحسن فتحى غاية فى الدقة والاستقراء الواعى لكل تفاصيل نظرياته المعمارية ، وبعدها عدت الى زيارته وسألته : هل تقاضيت أجرا فى مقابل هذا الوقت المضنى والمعلومات الثمينة التى أوليت بها فى هذا التحقيق السينمائى أو التليفزيونى وابتسم قائلا : لم أتقاض مليما واحدا وكنت الخاسر فى العملية ·· اذ كثيرا ما استضفت هذا الفريق من جيبى الخاص ·· انهم لصوص لسرقة أفكارى ·· لكن ما حيلتى والعمر يجرى ولا أحد فى بلدى يقبل على بضاعتى مجانا فما بالك بسرقتها !

نفس المشهد تكرر للمرة الثانية عندما زرناه مع الأستاذ محمد عوده ، ووجدنا عنده أمريكية شابة غاية فى الجمال والحيوية تقوم على خدمته وترتيب أثاث بيته وتنظيم مكتبته ·· وعندما لمح عودة لصديقه الصدوق مستغربا الأمر ·· قال : اللصوص يتتابعون !

بعد فترة طويلة من الغياب ·· زرته فى منزله ·· فى باحة الطابق الأرضى شاهدت مجموعة كبيرة من المهندسين الشباب منكبين على رسم لوحات هندسية وهو يتابع أعمالهم ·· وصعدنا الى الطابق الثالث الذى يسكنه ·· حيث طلب من خادمته العجوزة التى ظلت الى جانبه فى أخريات حياته ــ اعداد الشاى « كومبليت » مصحوبا بالحليب والفطائر ·· خيل الى انه عاد الى شبابه وهو يحكى لى عن مشروع عمره ، ونهض يشرح أمامى التفاصيل على خرائط هندسية كبيرة معلقة على الجدران ·· وقال ان شركة فنادق هندية كبرى تعاقدت مع الحكومة على تأجير جزيرة فى أسوان لاقامة قرية سياحية على الطراز النوبى يتم بناؤها من الطين وقد وافقت الحكومة على التأجير ووافقت الشركة على المشروع وتسلم بالفعل مقدم الأتعاب وشرع فى تنفيذ الرسومات الهندسية ··

بعدها قرأت فى الصحف عن تراجع الحكومة عن تأجير الجزيرة وسحبت موافقتها على المشروع لأسباب غامضة ‥ ولم أشأ زيارة حسن فتحى فى هذا التوقيت العصيب حتى تمر الأزمة التى كان لها ولاشك انعكاساتها السلبية على حالته النفسية والجسمانية ‥ مرت أيام قليلة حتى دهمنى خبر وفاته ‥

يرحمه الله ‥ وأسفا على زمانه ‥ زمان القمم الشوامخ من السياسيين والمعماريين والزراعيين والكتاب والأدباء والمفكرين والفنانين الذين بذلوا الجهد والعرق والدموع حتى تظل مصر مرفوعة الهامة موفورة الكرامة حرة الارادة وقبلة لكل العرب ورمزا لأول حضارة انسانية فى التاريخ !

نجيب محفوظ

معه .. وعنه

كتبت عن نجيب محفوظ مرتين فى مناسبتين مختلفتين .. الأولى للآداب البيروتية سنة ١٩٦٧ بمناسبة زيارة سارتر لمصر ، ونشرة لقصة حوارية بعد أن كان الحوار قليلا لديه استمساكا بالعربية .. وظهور روايته أولاد حارتنا عن دار الآداب . الثانية : نشرت بجريدة الوطن الكويتية عقب اللغط الذى حدث بعد معاهدة كامب ديفيد وكانت سنة ٨٠ استهللت الأولى بتجربة أن تجرى حديثا مع انسان تربطك به علاقة عمل أو صداقة قديمة وتعرف الكثير من جوانب حياته .. فأنت تريد أن تنتزع منه مالا تعرفه ومالا يعرفه متلقى هذا الحديث .

كان هذا ما يدور فى ذهنى وأنا أتوجه للقاء أديبنا الكبير نجيب محفوظ ليحدث قراء « الآداب » .. وصلتى القريبة بالأستاذ نجيب ترجع الى أعوام مضت عملت فيها عضوا للجنة القراءة بمؤسسة السينما التى كان يرأسها قبل أن يتولى آنذاك رئاسة المؤسسة كلها . فقد حظيت فى هذه الفترة بمعرفته أكثر من ذى قبل والاستماع اليه عن قرب بشكل مستمر ، وبمناقشته فى كثير من قضايا الفكر والأدب التى تشغل الانسان العربى المعاصر وبمتابعة التحقيقات واللقاءات التى أجرتها معه صحافتنا ومجلاتنا الأدبية .

وقد ترددت فى البدء ، اذ من المفروض أنى من الذين يعرفون أديبنا الكبير عن قرب وبشكل حميمى فكيف أواجهه اذن وكأننى غريبة عنه ؟ ثم انى كنت أخشى الفشل فى هذه المهمة التى أجتازها لأول مرة ،

فأضيع وقته الثمين الذى وهبه لمؤسسة السينما محاولا الارتفاع بمستواها وتحريرها من القيود التى تعوق تحقيق ما نرجوه لها من أهداف . ولكن مقابلته اللطيفة لهذه التجربة ـ منى ـ وبسمته المشجعة التى تعكس ما بقلبه الكبير من تفاؤل ساعدانى على أن أطرح عليه كل ما يعن لى من أسئلة .. وعندما بدأت الحديث ، عاد فسد كل السبل التى تجعله يتكلم عن منصبه الجديد أو عن روايته الجديدة التى تدور أحداثها فى اليمن . أو حتى الرد على تفسيرات النقاد لقصته « أولاد حارتنا » التى نشرتها دار « الآداب » أخيرا .

أما المقالة الثانية فبدأتها بـ « يشعر المرء بصعوبة وحيرة عند محاولة الكتابة عن الأستاذ نجيب محفوظ ، لأن عشرات الرسائل الجامعية قد قدمت عنه ، وأجريت معه مئـــات المقابلات .. كتبوا عن المنتمى عنده والرمز والرمزية لديه ، الحب الثورة ، الحياة والموت ، الجريمة والقدر .. مصر القديمة والحديثة .. أعمال كثيرة قدمت له على المسارح وفى دور السينما ، وكذلك بالاذاعة والتليفزيون .

ماذا يقول المرء فيه بعد ذلك جميعا ؟ اننى أحجم حتى عن نشر دراسة مطولة كتبتها عن التحولات فى أدبه بعد ١٩٦٧ حيث وجدت أن الجنون هو الوسيلة الوحيدة للتلائم مع تخبطات الحياة وسقوط معول القدر الغاشم على الانسان والأشياء ، بعد أن كانت عرى التفكير العلمى لا تنقطع فى أدبه . يهيأ لى أن كل ما بذلته فيها من جهد وما وصلت اليه من نتائج ربما تكون قد تداعت اليها أفكار آخرين فى بلد ما عـربى أو غـــربى فكتبوها ونشروها عنه ولم أقرأها أنــا .. ثم اننى كتبت عنـــه مقالا سابقا ، كما كتبت المادة العلمية لفيلم تسجيلى عن حيـــاته كان النجدة للتليفزيون يوم حصوله على جائزة نوبل .

اننى أكتب عنه اليـــوم فقط لأن ادامة ذكـر اسمه مقرونا باسم توفيق الحكيم تثيرنى ـ وليست ثورتى هنا من نوع ثورة حافظ ابراهيم عندما صرخ فى الكتاب والصحفيين يوما : هل أنا وشوقى « سميط وبيض » حتى تديموا اقران اسمنا « شوقى وحافظ » بمناسبة وغير مناسبة .. ان ثورتى على تكرار اسم نجيب مصحوبا باسم توفيق الحكيم وله رأى فى غاية الوضـــوح من موضوع المبادرة يجعلنى أشفق على بعض قراء نجيب الذين فقدوا ثقتهم بأنفسهم وبدأوا يعيدون النظر فى أدبه اليوم على هدى ما قيل أنه قاله !

أنا لا أناقش هنا عما اذا كان الأستاذ نجيب على صواب أو خطأ فى هذا الموقف أو عكسه ، بقدر ما أريد أن أنوه الى أن الفلسفة التى اختطها نجيب لنفسه فى الحياة .. وتجعل كل تصريحاته وأقواله الشفهية ، وحتى

مقالاته وآرائه التى يكتبها بتكليف ، لا ترقى أبدا او تكون آراءه الحقيقية .. فلسفته هذه تجعله مجادلا محاورا فى اتجاه مجامله السائل .. وغير مفصح أبدا عن رأيه الحقيقى .. كلام نجيب كما يقول العامة كلام للصرف .. أو كما يقول السودانيون كلام ساكت . أقول هذا من منطلق معرفتى لنجيب طالبة مراهقة مبهورة بأدبه .. وشابة أتردد على ندوته فى الأوبرا .. ثم مكتملة وموظفة معه وتحت رئاسته سبع سنوات ، وبعد ذلك وهو على المعاش فى دار جريدة الأهرام .. وحجرته فيها تجاور حجرة توفيق الحكيم وفى هذا الصيف شكا لى - وكنا بالاسكندرية - من ارتفاع نسبة السكر فى جسده .

ومن قبل ومن بعد فاننى جعلت أسرتى كلها من عشاق نجيب محفوظ بل من المحيطين بنا يطلقون على أسرتنا « مجانين نجيب محفوظ .. بل همت أحدى الصحفيات .. يوم حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ترسم لنا صورة قلمية .. جعلتنى فيها المايسترو الذى يقود أفراد الأسرة للتدله فى حب صاحب الجائزة .

كنا كأسرة قبل أن يذهب كل منا فى طريق ..نتكلم بقاموس نجيب محفوظ ، أسير مع أخت لى فى الشارع .. فتغمزنى وهى تشير لشاب سمين : ها هو ياسين مقبلا علينا .. وأروح فى التذكر هل بعائلتنا شخص بهذا الاسم .. وقبل أن أعثر أجدها تكمل .. ياسين الثلاثية .. فأبتسم .. نمر مثلا أمام محل (أبو شقرة للكباب) فأجد الأخرى تلفت نظرى للشرفة التى تعلوه وتقول : « منزل حبيبة رقية لاظ) فى السراب .. ثم تردف ألم يكن من ساكنى منيل الروضة وهو طالب بمدرسة العقادين بمصر القديمة .. اذا كان يسير على كوبرى محمد على .. فتكون هذه الشرفة فى مواجهته .. لقد انغمروا فى الثلاثية مثلا لدرجة انهم وزعوا شخصيات أسرة أحمد عبد الجواد على أفراد أسرتنا .. فنادية التى تصغرنى وزع عليها دور خديجة ذلك إنها سليطة اللسان .. اما نعمات التى بعدها فقد حظيت بدور عائشة لجمالها .. وعطيات التى بعدهما اختصت بدور نعيمة ابنة عيشة - ذلك أنها كانت تشكوا من آلام فى القلب .. وبعد تزوجت وحملت وحان وقت وضعها .. تلقيت مكالمة فحواها اننى مطلوبة من قبل العمل لسفره خاطفة .. فما كان من نادية أو خديجة الا وضعت يدها على الهاتف تغلقه وهو تقول : عطيات ستلد غدا .. فكيف سنجمعكم .. ويوسف أو كمال عبد الجواد فى اليمن وصالح بالاسكندرية .. ألم أقل لكم انها سليطة تتوقع الشر قبل وقوعه ... وذائبة الى اذنيها فى الثلاثية . من الغريب أنهم وزعوا دور احمد عبد الجواد على والدى .. ربما للوسامة والمهابة التى يتمتع بها ، دون أن يدروا أنهم بذلك اضافوا الى والدى شبهة الدنجوانية دون أن يدروا .. والدتى ووالدة كل جيلى كانت أمينة دون أى تحريف ولا أنسى اننى كنت أعرف فى أى فصل تقرأ اخوتى فاذا وجدت احداهن تبكى بحرقة أعرف على الفور أنها تقرأ الفصل الذى صور فيه الأستاذ نجيب موت فهمى . وأتذكر سخط اختى السليطة على وفاة فهمى عندما قالت رغم حبها الشديد لنجيب محفوظ .. انها لا تتورع أن تقذفه بحجر لو أنها شاهدته يمشى فى الشارع تحت شرفتها .

ومن أغرب ما حدث بالنسبة لخديجة الأسرة .. أنها عندما تزوجت كانت تعامل

وجدتنى فى المقالين قد بدأتهما بالحيرة والتردد ٠٠ مما يدل على انهما الحالتان اللتان تتجاذبان من يكتب عن الأستاذ نجيب وقتها ٠٠فما بال من يكتب عنه الآن وبعد حصوله على جائزة نوبل وقد لف هدير الثناء على أدبه العالم ٠٠ فحصل بجدارة على وسام النيل من الدرجة الأولى ٠٠ وتيقظت السلحفاه ـ أى جامعاتنا المصرية ـ فأفردت جامعة القاهرة التى تخرج من قسم الفلسفة فيها (الندوة الدولية ـ نجيب محفوظ والرواية العربية من ١٧ : ٢٠ مارس ١٩٩٠) دعت اليها النقاد من أنحاء العالم ، غربه وشرقه ، فتناولوا أدبه من كل جوانبه ٠٠ من التراث الى المعاصرة ٠٠ ومن الزمان الى المكان ٠ والسياسة والفن ٠٠ والانتماء والاغتراب ٠ تقنيات السرد وعشرات أخرى من الجوانب الثرية ٠٠ لم يكتفوا بالقدرات البشرية فى اثبات غناء وتنوع أدبه ٠٠ بل استعانوا بأحدث الأجهزة (كالكومبيوتر) لدراسة فلسفة المنحنى التكرارى لطول الجملة فى اسلوبه ٠٠ كما لم تفلت دراسة النحو منهم فكتبوا عن دور السياق فى تقدير المحذوف فى جملته الروائية ٠

★★★

ماذا يكتب المرء بعد هذا كله ٠٠ يهيىء لى ان الطريقة المثلى لعرض تجربتى المتواضعة مع هذا العملاق ٠٠ هى ان اختصار بعض جوانب الموضوعين التى كتبتهما قبل حصوله على جائزة نوبل ٠٠ ربما شهدت أننى قد توجته قبلها لاسيما وقد اعتبرت نفسى مكتشفة له حيث قلت فى الأولى وأنا بصدد الحوار الذى أجريته معه لينشر بالآداب عام ٦٧ « ووجدت نفسى فى هذه الفترة الوجيزة ، استعرض تاريخ معرفتى بهذا العملاق ٠٠ ورجعت الى خمسة عشر عاما مضت ، بدأت بقراءتى قصة « زقاق المدق » التى صحت بعدها فى أخوتى «وكنت صغيرة» : أنا اكتشفت لكم أعظم كاتب فى العالم ، واسمه نجيب محفوظ ٠ وبدأت أبحث عن أعماله ـ فى ذلك الوقت ـ وأعيش معها ٠ واذا قدر لى أن أصور مبلغ انبهارى بهذا الكاتب فى هذه المرحلة من حياتى فلن أجد أبلغ من أن أستعير قول أختى الصغيرة : « لم أكن أتصور أن نجيب محفوظ بشر مثلنا الا عندما عملت أنت معه ورأيت توقيعه على أوراقك ٠

حماتها بنفس ما كانت تعامل به خديجة الثلاثية ٠ وعندما نقلت هذا لنجيب محفوظ ضحك عاليا ٠

نسيت أن اقول لكم انهم وزعوا على دور عايدة شداد ربما لأنها سميتى ٠٠ ولكن بالرغم من ذلك فقد أطلق على وصفها خلال مرحلة من حياتى ٠٠ ربما كنت على صداقة مع العديد من جنس الأدباء الخشن وعندما يفاتحونى بحبهم أوضح موقفى ازاء الالتزام بحدود الصداقة فحسب ! ٠

كان هذا أول لقاء لى مع أدب نجيب محفوظ سنة ١٩٥٢ أما لقاؤه هو ذاته فقد تم بعده بحوالى خمس سنوات أى سـنة ١٩٥٧ قبل التحاقى بالدراسة العليا حين عرفت أن له ندوة أسبوعية يوم الجمعة فى كازينو الأوبرا ·· ورجوت مشاهدته لكننى تهيبت ·· ولما كانت دار الأوبرا تقيم حفلات سيمفونية بقرشين ونصف صباح الجمعة ·· وكنا نذهب اليها ·· وأثناء خروجنا مرة ·· أشـار الى أخى يوسف على سـلم لولبى يعلو كازينـو الأوبـرا وقال : هذا السـلم يفضى الى ندوة نجيب محفوظ ، فعدت أقول لنفسى مادمت سـأراه من بعيـد فلا مجـال للوجـل ، وبالفعل استجمعت شـجاعتى وتأهبت مع أخى لأن أخوض التجربة ·· وما أن تسلقت السـلم وخطوت الى داخل الصالة التى يجلس فيهـا الأسـتاذ نجيب وسـط خلصـائه حتى قام واقفـا يستقبلنى ، وكانت المسافة بينى وبينه تحتاج لعدة خطوات اجتزتها بصعوبة ، لأن خوفى بل خجلى جعل ساقى تتصلبان · وصافحنى نجيب محفوظ بكلتا يديه ، وأجلسـنى بالقرب منـه ·· مسحورة بحـديثه وقهقهته التى تعلو بصخب وسخرية تعليقا على بعض ما يقال ·

أذكر يومهـا ، أن جـاء محـام يتصدى للدفاع عن رجال قتلوا زوجاتهم (١) ، ويريد أن يستعين بآراء المفكرين فى تبرير دفاعه · وبعد أن سرد بعض تفاصيل هذه القضايا ·· وضح أن القتلة أقدموا على جريمة القتل بعد مشاجرة الزوجات مع حمواتهن ، فقـال الأسـتاذ الناقد أحمد عباس صالح ، وهو من المقربين للأستاذ نجيب ، للمحامى : عليك بالتركيز فى هذه القضايا على أن القتلة يعانون من عقدة أوديب ·

فاستفسر المحامى عن هذه العقدة ، فقيل له انها تعنى تعلق الولد بأمه · عندما صاح نجيب محفوظ ضـاحكا وهو يحذر المحامى : اياك والاعتماد على هذا التفسير والا حكم القضاء بسجن أمهاتهم · ودوت القاعة بضحك الحاضرين · ثم باغتنى الأسـتاذ نجيب يسـألنى عن رأيى فيما قيل ، فاضطربت بشـدة : نجيب محفوظ يسـألنى ؟ ولكن أذنه الصاغية بانتظار الاجابة لم تعطنى فرصة للتردد فقلت له على الفور :

فى رواية الأخوة كرامزوف فصل كامل للدفاع عن (ميتيا) المتهم بقتل والده يقول فيها محامى الدفاع : لا يجب على المحامى الاعتماد على علم النفس فى دفاعه القضائى ، لأنه سلاح ذو حدين ، فالواقعة الواحدة من وجهة نظره ـ ممكن أن تتخذ مرة أداة لتأكيد الحدث وأخرى لتنفيه ·

---

(١) فى سنة ٥٧ كانت الموجة قتل الازواج لزوجاتهم على عكس موجة هذه الايام حيث نسمع عن الزوجات اللاتى يقتلن ازواجهن ·· ترى هل هو تطور سلبى لحريات المرأة ؟

.. ولا أعرف بالطبع كيف جاء حديثي ولا كيف كان صـــوتي ، بل كل مالاحظته أن تذكرة الأوبرا التي كنت أمسك بها للاستئناس لحظة الكلام كانت ترتعش بين أصابعي بشدة ٠

بعد ذلك اليوم أخذت أتردد بانتظام على ندوته ، فتكشفت لى من خلالها القدرات اللانهائية للسخرية والمجاملة التى يتمتع بها نجيب محفوظ ٠ وأذكر أنه حضر ذات يوم المخرج السينمائى صلاح أبو سيف الذى كان قد أخرج فيلم (بداية ونهاية) عن قصة للأستاذ نجيب ٠ وقد تخلص المخرج فى نهاية الفيلم من البطل بأن جعله ينتحر غرقا وراء أخته نفيسة .. واختلف الحاضرون حول تفسير المخرج لنهاية البطل ، ولكن الأستاذ نجيب أيد صلاح أبو سيف ـ وهما متفقان دائما : نجيب يكتب وصلاح يخـرج ـ ووجدتنى أقول للأستاذ نجيب :

يا أستاذ نجيب سبق أن كتب الأستاذ أحمد عباس صالح تفسيرا لنفس الرواية .. ورأى أن البطل ليس وصوليا ـ كما قال النقاد ـ ولكنه طمـوح وأنه فى طموحـه يمثل الثورة ، وانـك وافقتـه يومئـذ .. فنظر الى مبتسما يمازحنى بما قلته يوم لقائنـــا الأول : كل تفسير له حلان ٠ وعرفت من يومها أنه يؤمن بأن على الكاتب أن يقول مايريد قوله فى روايته ومهمته تنتهى عند آخر كلمة فيها .. كما يؤمن بأن المخـــرج أو الناقد فنانان آخران يجب أن تتاح لهما فرصة حرة ليعبرا عن فنهما كل وفق رؤاه وقناعته ! ٠

سخرياته العذبة

عرفت فيه المرح والسخرية والمجاملة من خلال ترددى المتقطع على ندوة الأوبرا ٠ أما معرفتى به كموظفة معه فكانت شيئا آخـر .. لقـد شاهدت بأم عينى كيف يكون الفنان منظما ودقيقا فى عمله .. رأيت كيف يزاوج الفنان بين العمل الحكومى والكتـابة الأدبيـــة ٠ ان نجيب محفوظ هو الصخرة التى حطمت ما يوصف به الفنان عادة بالاهمال والتحـــرر من القيود ، ان حياته مصـداق لقول المسيح « أجهـدوا للدخول من الباب الضيق » .. فهو يرى أن الوظيفة لا تقيد الفن ، بل تحرره .. وتنعكس هذه النظرة على جميع أعماله (١) ٠ فهو يقف دائما بجانب البطل الدؤوب الذى يسعى سعى النملة وينتصر دائما لنماذجه العاملة ، ويمجدها ٠ ففى روايته (خان الخليلى) كان البقاء لأحمد عاكف الانسان المتوازن المثابر وكان الزوال والموت لرشدى العابث الأرعن ٠ وفى القاهرة الجديدة كانت الحياة الحرة لعلى طه الذى لا يحيد عن الدعوة بأن يكون الخبز للجميع ،

---

(١) قبل النكسة .. وفى دراستى عنه .. التقطت تحولات كثيرة فى أدبه ٠

وكان الانحدار والاندحار لمحجوب عبد الدايم المستهتر الذى يهرب من مواقف الحياة الايجابية الشريفة بفلسفة و (طظ) وفى (بداية ونهايه) كان البقاء لحسين الذى ضحى بتعليمه الجامعى فى سبيل تربية أخوته ، وكان الموت لحسنين الأنانى الذى يدوس فى طريق طموحه كل القيم الاجتماعية والأحاسيس البشرية · وفي الثلاثية نرى خديجة لا تستسلم للحزن والقهر لأن لها أنفا كبيرا وجسما نحيلا · بجانب جمال أختها عيشة ، بل تعمل باخلاص ـ عندما تساوت ظروفها بأن تزوجا أخوين ـ على استقلال حياتها عن حياة حماتها ، ولم توافق على أن تسمى الأمور بغير أسمائها فتنادى حماتها بلفظ (نينه) لأنها ليست أمها بالفعل · ولا تركن للكسل والتدخين التى استمرأته عيشة · لذلك امتلأ جسمها فدارى أنفها الكبير وأنجبت (أحمد وعبد المنعم) أو الاخوانى والماركسى قطبى الحياة السياسية والفكرية فى مصر فى هذه الآونة ·· وتدمرت حياة عيشة ·· ومات زوجها ·· وابنتها وهى تلد · حتى أن الضابط الذى كان يحبها فى شبابها لم يتعرف عليها عندما حضر للتفتيش عما اذا كان أخوها كمال يخفى منشورات فى منزل العائلة ـ لأنها عادت الى منزل والدها بعد أن فنيت عائلتها ·· بل وسألها عن (محبوبته) عيشة لأنه ظنها أم كمال وعيشة ···

ان نجيب محفوظ يخالف نظرة سومرست موم الى العمل التى انعكست فى معظم انتاجه ولخصها فى قصته « النملة والصرصار » وهى تصور بالصدفة أخوين أولهما النملة كان يجد فى عمله كمحام وقاض طوال صيف حياته لكى يحصل على معاش محترم فى ختام حياته أو شتائها ، أما الثانى الصرصار فكان عابثا لم يأبه باكمال تعليمه ·· وعاش عبئا على أخيه ·· يرتدى ملابسه ، بل ويقترض من أصدقائه ويوفى الأول هذه الديون ·· ومع ذلك صادف مليونيرة مسنة فتزوجها وسرعان ما توفيت تاركة له ثروة طائلة ·· وكتب موم فى معنى هذه القصة : انه ينتصر للصرصار الذى يغنى صيفا وشتاء ، بل وأردف بأن كل نملة دؤوب تغرينى بأن أدوسها بقدمى ·

نجيب محفوظ بجهده ومثابرته وصل الى ما وصل اليه ·· ومن يرد أن يقف على مدى هذا الجهد والمثابرة ·· فليقرأ بداية قصصه ولتكن قصته (ثمن زوجة) التى نشرتها مجلة الهلال فى الستينيات ·· تحت مقدمة تقول : « هذه قصة مجهولة للكاتب الكبير نجيب محفوظ لم ينشرها فى أى مجموعة من مجموعاته القصصية ، وهى احدى القصص التى تكشف لنا خطوات البداية عند نجيب محفوظ ، وقد كتب نجيب هذه القصة سنة ٣٨ ، وتحكى عن مهندس حديث الزواج دخل ليحلق شعر

رأسه ووجد الأسطى واجما على غير عادته ٠٠ فســـأله عن السبب ٠٠ فأجاب الأسطى بأنه يرتاب فى شاب مخنس ٠٠ يجلس أيام الأسبوع الا الجمعة على مقهى قريب من صالونه ٠٠ وما أن يخرج المهندس الى عمله الا ويصعد هذا الشاب الى مسكنه ٠٠ وكان المهندس ـ على شبابه ـ رزينا ثابتا بمنحى أمين عن الرعونة والطيش ، فعض على شفتيه السفلى كعادته كلما ارتبك ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ وسأل الأسطى : ألم يره خارجا ؟ وهل حضر هذا الصباح ٠٠ وعندما أجاب الحلاق بالاثبات مؤكدا بنعم شكر له مروءته ورجاه أن يفتح عينه حتى يعود اليه فى الصباح ٠٠ ويصف الأستاذ نجيب هذا الزوج واسمه حمدى بأنه شاب فى الثلاثين من عمره يلفت الأنظار لضآلة حجمه ورقة أعضائه وشحوب لونه ، ولكن كانت تلمع فى عينيه نظرة تدل على حدة الذكاء ، وكانت ذقنه تلتوى التواءة يعرف بها ذوو الارادات الحديدية ، وكان أخص ما يعرف به الهدوء والرزانة والبرود فلا يذكر أحد معارفه أنه رآه مرة منفعلا أو متهيجا لحزن أو فرح ، ولكن لم يكن طبعه هذا ضعفا أو جبنا فانه يغضب اذا انبغى له الغضب ولكن على طريقته فى الغضب ، فلا هياج ولا سب ولا شجار وانما عقاب صارم أو انتقام مهول ، هكذا يتقدم فى حياته (كوابور الزلط) بطيئا رصينا ولكنه لا يقاوم ولا يبقى ولا يذر ـ أقفز على سطور وأكتب نص ما كتبه الأستاذ نجيب ٠٠

المهم أن حمدى ٠٠ أخذ يسترجع حاله مع زوجته من بداية الخطوبة ٠٠ فاتضح له برودها الذى ظنه وقارا ٠٠ وحمده لها ٠٠ ثم تربص لها مع عشيقها بالفعل ٠٠ وضبطهما فى الفراش ٠٠ وكانت المرأة (زوجته) فى جنونية من الرعب ٠٠ فجسدها يرتجف ووجهـــا يصفر وعيناها تتسعان ، وقد سحبت اللحاف على جسمها بحركة عكسية ولبثت تنظر الى زوجها وكأنما تنظر الى شيطان رهيب ٠٠ أما الشـــاب فهم بالجرى الى ثيـــابه الموضوعة على (الشيزلنج) ولكن قدماه تسمرتا فى الأرض فجمد فى مكانه ٠٠ من العجيب حقا أن الزوج لم يغشه الجنون ولم يندفع الى الانتقام كما يحدث عادة ٠٠ بل هبط عليه جمود غريب ٠٠ وسأل زوجته : (أتخجلين من الظهور أمامى عارية ؟) وتحول الى الشـــاب ، فصاح به هذا بصوته المرتعش المحموم : « الرحمـــة دعنى أرتدى ثيابى وأفعل بى ما تشاء) فقال له ساخرا : هل يروقك أن تموت فى ثيابك ؟ فصاح الشاب مولولا : (الرحمة أنا فى عرضك) فقـــال بلهجة رقيقة : ارتد ثيابك أيها الشاب ولاتخش أذى) ٠٠ بعد أن ارتدى الشبـــاب ملابسه ٠٠ مد له الزوج يده مطالبا بالثمن ٠٠ شده الشاب ٠٠ ولكن الزوج أخرج محفظة الشاب وأخذ منها ريالا ثمنا لمتعته ٠٠ فاشـــتد الارتباك بالشاب ، ورأى الزوج يوسع له الطريق ٠٠ فانفلت خارجـــا

لا يصدق أنه فاز بالنجاة والتفت الزوج الى زوجه فقال لها ارتدى ثيابك ياسيدتى واطردى عنك الرعب فلا خوف عليك ولا أنت تحزنين ٠

وكانت المرأة فى أول عهدها بالفضيحة كالمجنونه من شدة ما يعذب نفسها من الخوف والرعب والعذاب ، وقد توسلت اليه مرتاعة وهى تبكى أن يطلقها ويستر عليها ، ولكنه قال لها : أمجنونة أنت ياعزيزتى ؟ ٠ ومضت الأيام ووجدت نفسها وهى لاتدرى تتفانى فى خدمته والسهر على بيته وتوفير الراحة له بحماسة الخاطىء الذى يعالج جرح ضميره بالتكفير والتعذيب ٠٠ ولبثا على حالهما والأيام تحث السير وكل منهما يتظاهر بالألفة ٠٠ حتى كان يوم دعا فيه الزوج جميع أهله وأهل زوجته الى مأدبة غذاء وبذل لاعدادها فوق ما تحتمل قدرته حبا وكرامة ٠٠ وشارك الضيوف فى الأحاديث بشهية ٠٠ وقد توقف عن الكلام بغتة كأنما تذكر أمرا هاما ٠٠ ثم دس يده فى جيبه فأخرج ريالا ، جعل يقلبه فى يده ثم أعطاه حماه وهو يقول : انظر الى هذا الريال ياعماه أتراه مزيفا ؟ فأخذه الرجل وجعل يقلبه ٠٠ وقال : كلا يا بنى انه صحيح لاشك فيه ٠٠ هل رفضه أحد ؟ واختلس الزوج نظرة الى زوجه فرأى وجهها مصفرا يحاكى وجوه الموتى ، فابتسم وقال : لم يرفضه أحد ياسيدى ولكنى أردت أن اطمئن عليه لأنه محور قصة عجيبة قد يروقكم جميعا سماعها على لسان زوجتى ٠٠ وانصرفت الوجوه الى الزوجة وقد تضاعف اهتمام الجميع وتوقعوا جميعا قصة شائقة ٠٠ أما الزوجة فكانت فى حالة يرثى لها من الذعر والارتباك ، وقد جمعت قوتها المشتتة وقامت وشقت طريقا بين الجالسين الى باب الحجرة ، فاحتجوا على قيامها وحاول البعض منعها ولكنها قاومت الأيدى وهى تقول بصوت خافت مضطرب : انتظروا دقيقة ٠٠ ساعود فى الحال ٠٠ وولت خارجة وعينا زوجها تتبعانها بنظرة قاسية ٠

وينهى الأستاذ نجيب القصة بـ « يستطيع القارىء أن يستنبط الخاتمة المروعة » فانه لاشك يقرأ كثيرا فى الصحف عن اللاتى يرمين بأنفسهن من النوافذ العالية فيسقطن مهشمات مشوهات ، ولعله اذ يقرأ هذه الأخبار المقتضبة يتساءل عن أسبابها الخفية ويذهب به الحدس كل مذهب ٠ فهذا سر واحد من أولئك المنتحرات ، وأنه ليؤسفنى أن تنتهى القصة الى هذه النهاية المحزنة ولكن ما حيلتى وقد بدأت بتلك البداية الأسيفة ؟ ٠٠

والحق أنه لا تقع على تبعة بدايتها ولا نهايتها فهكذا يرويها بطلها المحزون الذى غدا لا يفارق الحانة ليل نهار ٠٠ وكم تمنيت لو كان كاتبها

كما كان راويها · لأنى وأسفاه لا أستطيع مهما أحاول أن أبلغ بعض ما بلغ من صدق الرواية وقوة التعبير ·

رسالة الى صديق

ان مقارنة هذا الأثر القديم ·· بأحدث ما كتبه نجيب محفوظ ·· ترسم أمام أعيننا وبدقة ·· تدرج صعوده نحو القمة ·· وترسم بموازنة سيناريو متخيلا عن الخطة التى اتكأ عليها فى هذا الصعود ·· بعزيمة لا تفتر وبثقة أكيدة فى بلوغها ·

ومما لا شك فيه أن قصة ثمن زوجة هذه ·· كتبها الأستاذ نجيب وفق السيناريو المتخيل عنه فى الفترة التى قال عنها : كنت أكتب القصة وأجودها ثم أقدمها للأستاذ سلامة موسى ·· الذى يقرأها ويضعها فى سلة المهملات وهو ملتفت يقول لى : ستصل ولكن بعد ·· وهكذا · وهى الفترة التى تأرجح بندول ابداعه بين الأدب والفلسفة ، ذلك أننا لو رجعنا الى شباب نجيب محفوظ نجد أنه قام بمحاولات يتلمس فيها طريقه الأدبى ·· فقد عالج الشعر فى مرحلة مبكرة من عمره ، وذلك على أثر تجربة عاطفية مر بها ، ثم اتجه ــ بحكم دراسته الفلسفية ــ نحو الدراسات الفلسفية حتى أنه هم بتحضير رسالة الماجستير عن فلسفة الجمال ، غير أنه ما لبث أن مر بأزمة ابداعية واجه فيها على حد تعبيره ، أخطر مرحلة فى حياته ، وفى ذلك يقول : كنت أمسك بيد كتابا فى الفلسفة ، وفى اليد الأخرى قصة طويلة من قصص توفيق الحكيم أو يحيى حقى أو طه حسين · وكانت المذاهب الفلسفية تقتحم ذهنى فى نفس اللحظة التى يدخل فيها أبطال القصص من الجانب الآخر · ووجدت نفسى فى صراع رهيب بين الأدب والفلسفة ·· صراع لا يمكن أن يتصوره الا من عاش فيه · وكان على أن أقرر شيئا أو أجن · ومرة واحدة قامت فى ذهنى مظاهرة من أبطال « أهل الكهف » الذين صورهم توفيق الحكيم ، (البوسطجى) الذى رسمه يحيى حقى ، والفلاح الصغير الذى لا يعرف من الدنيا أبعد من حدود عيدان الغاب المنتصبة على حافة الترعة فى رواية (الأيام) لطه حسين ، وأشخاص كثيرون من أبطال قصص محمود تيمور وكلهم كانوا يسيرون فى مظاهره واحدة ·· وقررت أن أهجر الفلسفة وأن أسير معهم ·

على أن قرار دارس الفلسفة ليس كمثله قرار ·· يفلق الشعرة ·· ويحسب المكسب ·· ويدرء الخسارة ·· حتى يهيىء لى أن نجيب محفوظ قال لنفسه ·· ان هؤلاء الرواد جابوا عوالم كثيرة ·· فبأى العتاد سأتجاوزهم ·· اننى أملك حقا الأرضية الفلسفية ·· وان كنت الآن قد غلبت الابداع على الفكر ·· وسيحتوى الأدب الفلسفة عندى ·· فلابد أن أحول الأفكار والتأملات فيها الى شخصيات ورموز تتفجر بالحياة فى أدبى ·· ثم وقف هنيهة ·· وعاد يقول مرة أخرى ·· وهل يكفى هذا ؟

وكل من سبقني غازل الفلسفة • كل منهم على قدره •• لابد اذا من معين آخر •• آه •• نعم انني قررت أن تكون مصر محور كل أعمالي •• اذن فلابد أن أدرسها منذ فجر الضمير •• ثم الطبقات الاركيولجية التي ترسبت فوقها عبر العصور الى اللحظة المعاشه •• ولابد أن نجيب بعدها قرر شراء مجامع كثيرة لغوية وسياسية وفنية •• و •• و •• تعينه في تنفيذ خطته التي لن يحيد عنها •• وقد وضع في اعتباره أنه موظف ولن يستغني عن الوظيفة •• فلابد من برنامج يومي •• وليهجر القصة كما هجر الدراسات الفلسفية التي واكبت مرحلتها ، ليقوم برحلة في عالم الرواية • وقد عبر عن ذلك بقوله : في الرواية تجد اللحظة أو الموقف الواحد الذي تمتاز به الأقصوصة فيها تجد التحليل والنقد كما في المقال ، وتجد الحوار والموقف الدراماتيكي كما في المسرحية ، وفيها متسع للتعبير والخيال الشعري وتوافر الاستعداد لهما كما في الشعر •

بل ان في الرواية امكانات الوسائل التعبيرية للأحدث كالاذاعة والتليفزيون ، وبينما نجد في كل شكل فني مجالا محددا للتعبير لا يستطيع الفنان أن يتجاوزه ، فان الرواية لا حدود تحدها فهي شكل أو « فورم » لا نظير له •

وهكذا كتب نجيب محفوظ رواياته الثلاث الأولى وهي (عبث الأقدار) سنة ١٩٣٩ ثم (رادوبيس) عام ١٩٤٣ ثم (كفاح طيبة) عام ١٩٤٤ وكلها روايات تاريخية استلهم فيها التاريخ المصري القديم •• ووفقا لهذا السيناريو لا يمكن اعتبار هذه الروايات التاريخية عن مصر القديمة أو حتى ترجمته لكتاب مصر القديمة •• جذور نجيب محفوظ الانعزالية ـ كما عبر أحد الذين أسهموا بكتاباتهم في التعريف والتنوير بأدب نجيب محفوظ وهو الأستاذ أحمد عباس صالح •• أو انها أعمال تنضوي تحت عنوان احياء ذكرى الفرعونية باعتبارها الأصل المصري الصحيح •• ولا هي أيضا اثبات انتماء مصر لثقافة حوض المتوسط •• بقدر ما هي محاولة لدراسة مصر منذ فجر التاريخ •• وقد كان في نيته أن يتسلسل الى العصر الروماني واليوناني والقبطي والاسلامي الا أنه وجد أن العمر ربما لا يوافيه على هذا التدرج والتمهل •• فنشر في العام الذي تلى نشرهم أي في سنة ١٩٤٠ روايته الشهيرة (القاهرة الجديدة) في مقابل (مصر القديمة) وان كانت تعني من ناحية أخرى انتهاء رحلته في الزمان الماضي لتبدأ في المكان والحاضر في أحياء القاهرة حديثها ثم قديمها ويكتب لصديق له عن هذه المرحلة فيقول : كان في الماضي يعذبني الطموح الى معرفة الأشياء جميعا أما الآن فبحسبي فكرة أو خاطرة لأعيش فيها كيفما أشاء • واشباع ظمئي الشديد للفن ، فاذا كان مسرح (القاهرة الجديدة) بين حي السرايات

لأن موضوعها كان حياة طلبة الجامعة وسكان الأحياء الجديدة فى القاهرة ٠٠ فان (خان الخليلى) كان هو المكان الذى هاجر اليه بعض سكان القاهرة خوفا من الحرب وتبركا بسيدنا الحسين ٠ وكانت هـذه المرحلة تتميز عن سابقتها بالروح النقدية واتقان الصبغة الروائية شيئا فشيئا حتى تتضح فى (بداية ونهاية) ثم تبلغ ذروتها فى ثلاثية (بين القصرين) آخر أعمال هذه المرحلة ، وهى الرواية التى زاوج فيهـا بين (الرواية التاريخية والاجتماعية) اذ تناول فيها ثلاثة أجيال من حياة احدى الأسر المصرية ٠٠ تبدأ قبل الحرب العالمية الأولى وتنتهى بانتهاء الحرب العالمية الثانية ، وكأنما نحن بازاء رجعـة الى المرحلة الأولى مع عدم التخلى عن الاتجاه الذى ساد فى المرحلة الثانية ٠

لقد تسنى لنجيب محفوظ فى هذه المرحلة ٠٠ أن يقوم بدور المؤرخ وعالم الاجتماع الذى يـروى عن مصر التى خرجت من العصر المملوكى ودخلت العصر الحديث تحت ظل أسرة محمد على ٠٠ كبناء تام يتطور وله جذور فى التاريخ القريب والبعيد والأرض تبدو ثابتة راسخة فماذا هو فاعل اذا وقد قامت حركة ضباط الجيش فى يوليو سنة ١٩٥٢ ٠

فى مؤسسة السينما

فى البدء كاد نجيب محفوظ يكف عن الكتابة ٠٠ معتقدا ـ على ما يبدو ـ أن دوره قد انتهى بقيام الثـورة التى غيرت وجه مصر التى يعرفها تغييرا جذريا سياسيا واقتصـاديا وعقائديا ٠٠ ولكن مرور الأيام كشفت له أن ما حدث لم يكن نهاية المطاف أو محطة الوصول بمصر الى بر السلامة ٠٠ ومن هنا عاد يمسك بالقلم لكى يساعد فى الكشف عن صورة الذات لمصر وللمصريين ٠ فـكتب (السـمان والخـريف سنة ٥٨ واللص والكلاب سنة ٥٩ ٠٠ والطريق سنة ٦٣ ٠٠ والشحات عام ٦٤) ٠

فى هذه الفترة من مراحـــل تطور نجيب محفوظ الروائى ، بدأت العمل معه بلجنة القراءة بمؤسسة السينما ـ وربما عملت الألفة معه عن كفى عن ابداء آرائى فى أعماله كما كنت أيام ندوة الأوبرا ٠٠ ذلك اننى وجدته فى يوم سبت ـ أى بعد نشر احدى حلقات أعماله يوم الجمعة فى الأهرام يسألنى : ألم تقرئين ما كتبته أمس ؟ ٠٠ فارتبكت وقلت : نعم قرأت فرد : ولماذا لم تكلمينى عنه ؟ ٠٠ وعندها فقط بدأت أســجل له ملاحظاتى ٠

وأذكر أننى قلت له عن السمان والخريف : انك فيها عبرت تعبيرا دراميا ناجحا عن ضياع جيلك من خلال أزمة عيسى الدباغ أحـد كوادر الوفد ٠٠ حين وجد نفسه معزولا عن العمل السياسى والكفاح من أجل مصر ٠٠ بزعم أن ماكان يكافح من أجله قد تحقق ٠٠ والذى كان على وشك أن يصاهر قبل الثـورة أسرة ثرية على صـلة بالقصر ٠٠ ولكنها رفضته

بعد قيام الثورة ثم وجد أن ابن عمه الضابط الذى برز مع الموجة الجديدة هو الذى حل محله ٠٠ وكأن نجيبا يريد القول ان طبقة الضباط تؤصل نفسها بالانتساب الى الأسر الثرية ٠٠ حتى يبدو وكأن حكمها لمصر هو استمرار للحكم السابق ووراثة له ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ وعندما تبنت مصر الاشتراكية بعد قوانين سنة ١٩٦١ ٠٠ تمر نفس أزمة الدباغ بعمر الحمزاوى الذى كان ينتمى الى أحد التنظيمات الشيوعية التى ضربها عبد الناصر فى يوم رأس سنة ٦٠ حيث يجد عمر نفسه يغرق فى عمله ليحقق من خلاله النجاح الشخصى ٠٠ الثروة والحياة الأسرية بعيدا عن العمل السياسى ٠٠ تاركا اياه للطبقة الجديدة التى ورثته ، وكم كنت أسأله عن شخصية عمر وصديقه الشهم عثمان الذى ضحى بنفسه وسجن ولم يعترف قط باسم أحد زملائه فى التنظيم وهل هو فلان ٠٠ أو فلان ٠٠ ممن نعرفهم من الشيوعيين فكان يسألنى بدوره ٠٠ ترى ٠٠ هل فلان هذا الذى ذكرتيه بمثل هذه الشهامة ؟ ٠٠ وهل (٠٠٠٠) الذى تعضيه أنت دور عمر قد شعر يوما أن حياته بلا معنى وبلا هدف ٠٠ حتى انه جـرب شتى الطرق ابتـداء مـن أقصى المادية المتمثلة فى الأحاسيس الجسدية ، الى أقصى الروحية المتمثلة فى الوجد الصوفى ومحاولة التوحد مع الاله خالق الكون ٠٠ وعندما أجد نفسى عاجزة ومحرجة عن اجـابة تساؤله ٠٠ أصرف الحديث الى دفة أخرى فأقول : ان لحظـة الكشف الصوفية التى مرت بعمر فى نهاية الليل وقرب بزوغ الفجـر فى الخلاء اللامتناهى ، كانت رائعة ٠٠ وقد أعادت الى ذهنى مقاطع من التـوراة لاسيما سفر التكوين ولكن أزمتـه تتبلور وتكشف عن نفسها ٠٠ خاصة بعد خروج عثمان من سجنه ومواجهته له فيشعر بأنه لم يعد له دور فى مجتمعه ٠٠ ولهذا يترك شخصيته تتحلل وتتلاشى تاركا الموقف لعثمان الذى يأخذ الموقف الايجابى بأن يشارك فى المسيرة بل ويعدل من اتجاهها اذا استطاع ٠٠ وربما كان هذا تعبيرا عن موقف الشيوعيين الذين اتخذوه داخل المعتقلات أثر قبولهم لحل تنظيماتهم والنضال من داخل تنظيم الثورة الممثل فى الاتحاد الاشتراكى ٠٠ لاسيما وعثمان قد بدأ يغازل ابنه عمر ٠٠

قلت للأسـتاذ نجيب ٠٠ عرجت فيما بين السـمان والخريف والشحات — على نقـد مزاعم مثقفى الطبقة الجديدة الممثلة فى الصحفى ب (اللص والكلاب) الذى يدعى أنه مخلص لقضية الاشتراكية فى حين أنه يضيق ذرعا بالشعب ومطالبه ممثلا فى سعيد مهران ٠٠ الذى يحتار بين زعيمه الروحى الشيخ جنيد شيخ الطريقة الصوفية ، وبين ما كان يعتبره قائده السياسى ٠

وتنتهى به حيرته الى أن يثور ٠٠ ويمارس العنف الذى يجبن عنه الصحفى المثقف الذى خان مبادئه ٠ وتنتهى حياة البطل الايجابى الوحيد

فى هذه المرحلة (بالكلاب الممثلة للسلطة تطارد سعيد مهران باعتباره (لصا) • (بعكس الوردانى الذى قتل بطرس غالى فى مرحلة سابقة واعتبره بطلا شعبيا •• وان كان كلبا بالنسبة لسياسى مرحلته على حد مقولات بعض المؤرخين !

وتدرج بنا الحديث الى روايته « الطريق » فقلت ان الأسماء فيها هى الآراء •• فالشعب المصرى (صابر) الحائر فى البحث عن ذاته وطريقه فى الحياة تأخذ طابعا ميتافيزيقيا •• فيكاد البحث عن أبيه (سيد سيد الرحيمى) يأخذ شكل البحث عن الله لكى ينقذ ابنه « صابر » من الانقياد والغواية والجريمة التى تتمثل فى شخصية (كريمة) ويمنحه (الهاما) باختيار الطريق القويم •• ولكن النظرة المتشائمة السائدة عنده التى أسميتها (مرحلة البحث عن الذات) تجعل الرحيمى غير رحيم بعبده ومنصرفا عنه لا يهتم بأمره ويتركه لكى يسقط فى النهاية فى هوة الجريمة ••

وانه فى (الطريق) يكاد يسير فى نفس الطريق الميتافيزيقى فى (أولاد حارتنا) التى تمثل بحثا عن جذور الذات على مدى التاريخ الطويل الذى بعث فيه الرسل والأنبياء لهدايتنا •• الا أن نزعته الى التشخيص تغلب عليه وتجعله صراع الانسان للوصول الى الايمان من خلال الدين تارة والعلم تارة أخرى الى دراما كونية هائلة تنتهى بمقتل الجبلاوى واختفائه على يد (عرفة) الذى يمثل العلم •• مما ألب عليه علماء الأزهر فى مصر ـ وكان والدى منهم ومعهم فى هذا الرأى ـ حتى توقف السحار عن نشرها فى كتاب •• كما منعنى والدى من الذهاب الى ندوة محفوظ فى كازينو الأوبرا من باب التحوط من أفكاره !

اكتشاف الذات

بعد هذه الرحلة الطويلة التى اجتازها الأستاذ فى محاولة اكتشاف الذات والكشف عن شخصية مصر وما تعرضت له بعد هذا التغيير الجذرى الناجم عن ثورة يوليو وما حفلت به من متغيرات •• بدأ ان نجيب قد وصل الى قناعة بأن الطريق الذى تسير فيه مصر الثورة تكتنفه الشكوك ويحيط به الظلام •• فتبدأ فترة اعتبرتها تركيز أو بلورة لمرحلة (اكتشاف الذات) أسميتها « تكشف الذات » التى بدأت بدا بها رواية « ميرامار »•

وها هى مصر ممثلة فى (زهرة) الفلاحة البسيطة الشجاعة ترفض أن تخضع للقهر كما فى الماضى الاقطاعى ، وتقاوم محاولة تزويجها من فلاح فى سن جدها ، وتهرب الى الاسكندرية لتعمل فى بنسيون (ميرامار) وفى البنسيون تتعرض لمحاولات كثيرة لاحتوائها والسيطرة عليها ـ اقطاعى ، صحفى وثرى عجوز ، وشاب شيوعى ـ ولكن لا يمنع حذر من قدر •• فها هى تقع فريسة للشاب (سرحان البحيرى) الممثل للسلطة

الجديدة المتجسدة فى الاتحاد الاشتراكى يبهرها وعوده فتسلمه قيادة نفسها .. فاذا به يتكشف عن أفاق سياسى وانتهازى كبير ، يستغل منصبه فى اختلاس وتهريب (الغزل) من المصنع الذى يعمل به .. وحين ينكشف سره لا يجد أمامه بدا من الانتحار تاركا زهرة تواجه مصيرها التعس .. ولا تنهار .. ومحصنة ضد الخداع والانخداع تبدأ تكتشف طريقها دون وصاية من أحد .

تلك كانت رؤاى وتفسيراتى آنذاك لأعمال أستاذى نجيب محفوظ التى كنت أبثها على مسامعه ابان عملى تحت رئاسته وأذكر أن الأستاذ نجيب أيام مناقشتى اياه حول رواية « ميرامار » تحديدا .. اننى استفززته ــ على مايبدو ــ لدرجة أنه كاد يباهى بشجاعته .. لاسيما عندما قلت له .. كان عليك أن تطيل فى نقدك للاتحاد الاشتراكى من كل جوانبه لاسيما وشخصية سرحان البحيرى قد تشابكت فيها وتقاطعت كل عيوب هذا النظام .. اذا ما أن نطقت بذلك حتى وجدت الأستاذ نجيب ينفعل بشدة وهو يقول لى : أنت تقولين لى ذلك وأنت تطرقعين أصابعك غير مسئولة .. ان فى كل سطر فى نقد هذا النظام نذيرا بسجن أو اعتقال عام بأكمله .. أما يوم قطع سرحان البحيرى شريانه بيده فقد دخلت فورا على الأستاذ نجيب وأنا أقول : كيف تقتل مثل هذه الشخصية نفسها .. ان سياق الواقع والقصة معا يقول انه كان يستحق جائزة على سرقته وليس انتحاره ومن الغريب الذى لم أجد له تفسيرا الى الآن ان الأستاذ نجيب قال لى : انك لا تعرفين شيئا مما يدور حولنا اننى قتلته بأمر .. ترى هل أتاه أمر من السلطة أن يجعل سرحان البحيرى يضع نهاية لحياته أم مجرد الهام . أم هى نصيحة من المشرفين على النشر بجريدة الأهرام ؟

تداعى هذا القول فى خاطرى بعد ذلك يوم سألته لماذا لا نقرأ لك أعمالا جديدة .. فقال ان له عدة روايات فى درج مكتب على حمد الجمال المشرف على النشر فى جريدة الأهرام والذى اعتذر عن عدم نشرها لصالح نجيب محفوظ .. وأراد هو انكاره يوم رددت على مسامعه ما كنت قد عرفته عن لقائه بالرئيس جمال عبد الناصر يوم افتتاح المقر الجديد لجريدة الأهرام عندما سأله الرئيس : اننا لا نقرأ لك هذه الأيام .. ورد هيكل على الرئيس بأن الأستاذ نجيب يكتب هذه الأيام قصصا تودى به الى أبى زعبل .. ورد الرئيس على هيكل تقصد الناشر ؟ وبعدها اعترف نجيب محفوظ أن عبد الناصر ــ على حد اكتشافه للحقائق كان يتابع ابداعاته ويدافع عن حقه فى ابداء آرائه !

واذا كان قد صور فى ميرامار فشل بل مهزلة المثقفين . فقد صور دآلهم باجتماعهم فى عوامة يتعاطون المغيبات ويمارسون الثرثرة فوق

النيل ·· وما كانت العوامة الا سفينة متقاعدة شدت بأوتاد الى الاستيداع على شاطىء النيل ·· وعندما تحاول صحفية شابة أن تخرجهم عن سلبياتهم ليقوموا بعمل ايجابى ق·· يصدموا بسيارتهم بريئا ·· فيفيقوا من ذهولهم على نكسة ١٩٦٧ ·· أى بعد فوات الآوان على تداركها !

بعد النكسة يفقد أغلب المثقفين ـ وبينهم نجيب ـ عقولهم ، من هول الصدمة ، فيذهلوا وتبدأ مرحلة نقد الذات عنده بمجموعة (تحت المظلة) ·

بعد صدور مجموعة تحت المظلة وكان الأستاذ نجيب قد ترك عمله كرئيس للجنة القراءة التى كنت عضوا فيها ليتولى رئاسة المؤسسة كلها حيث أوكل رئاسة اللجنة الى الأستاذين عبد الرحمن الشرقاوى وسعد مكاوى ، أتذكر أننى دخلت عليهما اللجنة ليسألانى فى نفس واحد أين كنت أمس ·· قلت : لماذا ؟ قالوا : كنا نحتاجك · قلت : في أى شىء ؟ قالا لقد كانت المباحث هنا للتحقيق مع الأستاذ نجيب بعد القبض عليه ·· سألت في لهفة : ماذا ؟ ·· قالا : لقد اتصلنا بالدكتور ثروت ·· فأوقف عملية القبض · بعدها دخلت على الأستاذ نجيب أسأله عما حدث ·· فنفى كل ما سمعته ·· فهو لا يريد لهذا الأمر أن ينتشر فيتحقق ·· ومع ذلك فهو يقول للآن ان السلطة لم تفهم رموزى ·· أى فئة الموظفين وليس عبد الناصر !

قلت للأستاذ نجيب أيامها ·· وكانت مجلة الآداب البيروتية قد أصدرت عددا جديدا بعنوان (طريقنا الجديد » ·· حوى استفتاء شاملا عن أسباب النكسة ··· ونشر بين مواده قصيدة نزار قبانى (هوامش على دفتر النكسة) و (بيان ٥ حزيران لأدونيس) و (النكبة المتجددة لجاك بيرك) ·· و (ننتظر من سارتر موقفا واضحا) ـ ذلك أنه كان قد أعطى بيانا قبل النكسة بأن اسرائيل لن تعتدى ·

وهكذا عندما قدمت هذا العدد للأستاذ نجيب وكانت النسخة الوحيدة التى وصلت مصر ·· قلت له : سأكتب عنك موضوعا بعنوان (تحولات نجيب محفوظ · والهجرة فى أقاليم النهار والليل » · فاستفهم وقلت : لأن من يقرأ (بيان ٥ حزيران) التى نشرها أدونيس فى هذا العدد ثم ينام سيرى (تحت المظلة) فى شكل الحلم أو الكابوس ·· وانه بالرغم من اختلاف ما تعالجانه من صنوف الأدب ـ نجيب فى الرواية وأدونيس فى الشعر ـ فانكما تتفقان فى المضمون الفنى وتحولاته النفسية الموازية لأوضاع شرقنا العربى وهو واحد ·

ذلك أن عناوين أعمالهما قد تتلاقى أحيانا فى اللحظة الفنية المواكبة للتحول مثل رواية نجيب محفوظ (المرايا) ، ومسرحية أدونيس

(المسرح والمرايا) وقد تتكامل كما فى بيـــان أدونيس وتحت « مظلة » نجيب محفوظ ٠

استمع الأستاذ نجيب بامعـــان أو قل بمجاملة وهو يتصفح عدد الآداب ٠ لكنى عندما حاولت استرجاع عدد الآداب فى نهاية يوم العمل ٠٠ ٠٠ رفض اعادته ٠٠ فقلت ولكنـــه العدد الوحيد المطلوب تسليمه لناقد الأبحاث ٠ تمسك به وقال : سأغضب منك بالفعل لو لم تتركيه لى الى الغد ٠٠ فاستسلمت لأنه كان غارقا بالفعل فى قراءته ٠

بعد سنة ١٩٦٧ ٠٠ ترك الأستاذ نجيب لجنة القراءة ليتولى رئاسة المؤسسة كلها ــ كما أسلفت ــ وكنت أجلس اليه لماما ٠٠ بعد ان قرر ترك الهيئة وتولى رئاستها مؤقتا بشرط أن يعفيه الدكتور ثروت عكاشة منها عندما يجد من يناسبها ٠٠ وعندما وجد هذا الشخص استقطبه الدكتور ثروت كمستشار أدبى وفنى له ٠٠ فترك المبنى كله وقبع بغرفة أنيقة تعلو حجرة الوزير ب (قصر عائشة فهمى ــ مجمع الفنون لآن) ، وعلى غرار بيت شوقى « كم جئت ليلى بأسباب ملفقة » ٠٠ كان أغلب الصحفيين العرب عندما يحضروا لمصر يتصـــلوا بى لكى أدبر لهم لقـــاء بالأستاذ نجيب فأصحبهم اليه ٠٠ وتلك كانت فرحتى استعادة لقاءاتنا الحميمة وحواراتها الممتعة !

توكيل بالحوار والتوضيح

وعندما فكر ادونيس فى اصدار مجلة مواقف سنة ١٩٦٨ ٠٠ أرسل تلميذه سمير صايغ ٠٠ خصيصا ٠٠ لأدبر له مقابلة من الأستاذ نجيب ٠٠ وقد كتب سمير هذه الواقعة ٠٠ وأنه قرأ على الأسئلة التى سيطرحها على الأستاذ نجيب ٠٠ وكيف واجهته بأن كل هذه الأســـئلة ســـبق للأستاذ نجيب الاجابة عليها ٠٠ فمزقها على أن أساعده فى ادارة الحوار ٠٠ الذى طال ساعات حتى احتل ملزمة كاملة من مجلة (مواقف) ٠

سأله سمير أولا : هل ستعيد النظر فيما كتبته بعد الخامس من حزيران ؟ وهل يدعو هذا الظرف لأدب جديد ؟

فأجاب الأستاذ نجيب قائلا : أعتقد أن أى حادثة كبيرة لابد من أن تترك أثرها فى الأعصاب وفى الاحساس عند النـــاس جميعا ، وبالتـــالى يجب ان يتغير الأدب ٠٠ هذا طبيعى بعد هزة عنيفة كهذه الهزة ٠٠ ولكن بماذا يبدأ ؟ وكيف ؟ هذا عائد بالطبع الى موقف الفنانين ، هناك شخص تضربه على رأسه فيضربك على رأسك ، شخص آخر يقول هذا غير مهم ٠ شخص آخر يغرق فى الحزن ، وآخر ينطوى على نفسه ٠٠ هذه المواقف كلها ردود فعل لشىء واحد ٠ السؤال الآن ماذا سيغلب على أدبنا ؟ طبعا أنا أتمنى ولا أؤرخ : ان على الأدب أن يعكس أثر الخامس من حزيران

بشكل ثورى ايجابى كشفى • يفحص بعمق عيوبنا التى أدت الى هذه النكسة ، وفى الوقت نفسه ، يثير الهمم ويدفع الانسان العربى الى الخروج عن هذه الدوائر •

ولما كان سمير يسجل الحوار على المسجل •• فقد انبريت أقول له فى تدفق ــ وكأنى المعنيه بالحوار لا الأستاذ نجيب أو أنى صوت الدفاع عنه وتفسير أعماله ــ اذا كان أدونيس قد أنهى بيان خمسة حزيران ب (الشعر الأدبى بامتياز هو اليوم •• شعر التوتر الحارق بين الأطراف • ففى هذا التوتر علامة الاستقصاء الأغنى والأقصى • وفيه دعوة الى أن يكون الشعر تجربة تتعانق فيها الشهادة بالموت والشهادة بالنطق : تجربة تتخطى تناقضات الفكر والحياة معا ، وتكون بشارة خلاص من الوضع الانسانى الميت ، بشارة بنهاية الانسان القديم من أجل ولادة انسان جديد آخر ، يكون الطبيعة وما وراءها ، الحضور والغياب فى آن ••) فان أدب الأستاذ نجيب بعد ٦٧ •• يمزج بين التاريخ قبل النكسة •• والتاريخ بعد جرح عميق لا يمكن تجاوزه •• أو القفز فوقه •• ولابد من المرور به واختراقه لأنه جرح يشطر التاريخ الى قبل وبعد وسيكون استبطان هذا الجرح شرطا للخلاص • فمن عجز عن اختراقه ظل وراءه فى ضفة الماضى الأخرى •• ولن يدخل المستقبل الا روايات تستبطن هذا الجرح وتلامس وجودنا •• سواء كان محورها الحب أو الفرح أو التأمل هذا الجرح يطرح وجوده من الأساس على بساط البحث •• عبور الجرح قد تطهر وتغير • وعبوره يعنى أن نعانق الفجيعة ، أن تسمر عيوننا عليها ، أن نبحث ، أن نملأ الجرح ملحا •• ونرفض المخدر •• فنحن فى حاجة الى هذا المطهر ، ولا غنى عنه ان أردنا الخلاص •• ولذلك أحسب فى نتاج الأستاذ نجيب الأخير تغيرا ملموسا •• انه أدب صريح للغاية •• فمن (تحت المظلة) نراه •• وهو الذى عرفناه دائما مع الانسان المتعقل يمجد العمل يتمسك بالوظيفة يتأمل ويبحث •• يرى الموت عقوبة للانسان السيء •• والنجاح فى الحب جائزة للانسان الفاضل •• وكأنه العلمانى والغيبى فى آن (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فى اعتدال وعدم انحياز • كما فى التوازن الشديد فى ابنى خديجة الشيوعى والاخوانى وقد ضمهما السجن •• أولهما لأنه يعرف الله والثانى لأنه ينكره •• وكأنه بيده ميزانا حساسا •• أوزانه هى التاريخ والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس •• فنهاية كل فرد عنده نتيجة مبررة للهزات التى مر بها هذا الشخص و ••

من عجب أن الأستاذ نجيب ظل صامتا وهو يصغى لشهاداتى عنه دون أن يبدى موافقته أو اعتراضه •• ولذلك واصلت الحديث قائلة : اننى

أرى موقفه فى « تحت المظلة » وأعماله بعدها وكأنه يتجه نحو الانسان المدفوع بشحنة من الجنون ليعبر عن رأيه ويصرخ فى وجه هذا العالم لينطلق ·· حتى لتستطيع أن نطلق على هذه المرحلة ·· ليست مرحلة الصدمة والذهول ·· بل وانكسار صورة الذات أيضا ·· انظر مثلا قصته (الوجه الآخر) فهى على قصرها تحمل كل ملامح التغيير عنده وهى تصور صراع مرب فاضل بين صديقين اخوين نشآ فى بيت واحد ·· أحدهم عثمان يشغل وظيفة هامة رئيسية فى جهاز الأمن والآخر (رمضان) شيخ « منصر » كما يحلو لبعض ـ ، ريح هوجاء تعصف الوجوه بالطين والتراب ·· ويمثل نقطة سوداء دامية فى حياة شفيقه وحياة أسرته بعد أن هربت عروس أخيه عثمان مع رمضان ·

ثم واصلت حديثى قائلة : عندما يرشح عثمان رئيسا للمنطقة التى يمارس فيها أخوه سطوته ·· يطلب من المربى ـ صديق الطرفين ـ أن يرجو أخاه رمضان أن يسلم نفسه معلنا توبته ، فلعل ذلك يخفف من عقوبته ، أو يبعد عن طريقه بالوسيلة التى يختارها · وهكذا عندما أبلغ المربى هذه الشروط لرمضان رفضها ·· فبدأ التحدى وعرف انه لا مفر من أن يفقد أحد أحب رجلين الى قلبه ·· ورغم أن موقف الحياد بينهما لا يهضمه ضميره ·· وانه لابد من الانحياز الى عثمان ·· الا انه كلما أحرز رجال عثمان انتصارات حاسمة على أوكار رمضان ·· داخلته كآبة ·· حتى أنه عندما طلعت الصحف فى الصباح بصورة رمضان وقد خر صريعا مضرجا بدمه ·· قال : (رنوت الى الصورة طويلا حتى شعرت بالدمع يدب فى أعماق عينى ، وحنقت وامتلأت بالحنق ·· ولكنى لم أدر علام أحنق وازدحمت مخيلتى بالقوى الكونية المدمرة كالزلازل والبراكين والأعاصير والشهب والفيضانات والجراثيم ، ولم أدر هل أتذكرها على سبيل التشفى أو لأعرف موضعها بين الخير والشر) ·

هكذا زلزل مقتل رمضان صديقه المربى الفاضل ·· الى حد التهاب مفصل ساقه ·· وعندما زاره عثمان ·· أشار عليه أن يستشير طبيبا ·· لكنه رد عليه : (سأجد دوائى عند الأشباح ، سأنبذ التربية والقواعد والطقوس لقد ابتعت لوحة وعلبة ألوان وأقلاما وفرشا ، سأعمل مصورا ، مصورا أعرج ـ بعد التهاب ساقه ـ وقد جئت بامرأة عارية كنموذج ! ثم أزاح الستار عن باب الحجرة المجاورة · فتبدت النموذج عارية وهى تنظر اليهما بهدوء وتحد ، وضحك من كان مربيا فاضلا وقال لعثمان : لعلك تسأل عما أدرانى بقواعد الرسم وأصوله ؟ حسن ·· لن يعرقلنى شىء ، سأقبض على الأدوات وأدمر كل شىء ·· لقد أضعت أيامى فى صحبة العقلاء ، سألهو بالأشياء العقيمة ، سأنصب شراعى فى مهب العاصفة ·

سأسحق مقتنياتى وأقذف بها للرياح ، وسأعرض عن العقلاء الشرفاء ، وليجرفنى الدوار ، فليكونوا سعداء نافعين ، ولأكن مجنونا مخربا وليتقبلنى الشيطان و .. و .. ثم مضى بعزم نحو الفتـــاة العارية وأسـدل الستار وراءه) .

قلت لقد اخترت الوجه الآخر لأنها علاقة بين شقيقين انحاز نجيب لأعقلهما قبل ٦٧ .. وخالف نظرته بعدها .. مما يجعلنا نؤكد أن مشاعره ورؤاه وهو فى الســابعة والستين كانت من القــوة بحيث تنـاثرت المرآة اللاقطـــة للأســتاذ نجيب ـ بدليـــل إن روايتيـــه الأخيرتين (قلب الليل) ، « حضرة المحترم » تنتهى الأولى بهمس البطل (لتمتلىء الحياة بالجنون المقدس حتى النفس الأخير « والثانية كان الموت نهاية البطل الذى يعلق عليه الأستاذ نجيب بعبارة « ولعل من محاسن الصدف أن القبر الجديد قد جاز رضاه تحت ضوء الشمس » .

وقلت : لعل الأســتاذ نجيب محفوظ يوافقنى عندما اخترت هـذا النموذج ـ فى (الوجه الآخر) من مجموعته تحت المظلة ـ وهو بسيط لأن الرمز واضـح .. ووضـــوحه يعبر عن فكرة عامة .. ولكننا نقابل النموذج المعقد الذى يشــبه الحلم أو الكابوس فى القصـــة التى تحمل المجموعة اسمهـا (تحت المظلة) لأن الأســتاذ نجيب يعبر فيهـا تعبيرا مباشرا عن حالتنا بعد النكسة . ولأن التعبير المباشر فى الفن غير وارد كما انه غير متاح فى المجتمع الذى نعيش فيه فان الأستاذ نجيب يلجأ الى لغة الحلم فى صياغة الأفكار والتعبير عن الرغبات اللاشعورية المكبوتة باسلوب مقنع . حيث من المعروف أن أحد الميكانيزمات الرئيسية التى يلجأ اليها الحلم فى هذا السبيل ميكانيزم التفكيك .. أى تفكيك صورة واحدة أو رمز واحد وتوزيعه على عدة شخصيات تقوم بدور واحد لشخصية ما .. فقد فكك الأستاذ نجيب شخصية البطل الكبير المسئول عن النكسة فى خمس شخصيات هى المخرج السينمائى والمخبر والحرامى الذى يتجرد من ملابسه .. فيصفق له مطاردوه ثم الخطيب ومضاجع الموتى .. ولأن الأستاذ نجيب لا يريد لنا أن نستمرىء الحلم فانه يحوله الى كابوس لكى يوقظنا من غفوتنا ويهزنا بعنف كى نستفيق .

والتقطت أنفاسى حتى أستكمل رؤياى لموقف الأســتاذ قائلة : هناك تحول آخر حدث فى أدب نجيب محفوظ بعـد النكسـة ألا وهو عودته الى القصة القصيرة .. وقد قال لى تفسيرا لذلك أنه لم يعد قادرا على الانقطاع عن النـاس وعن الحياة لمدة ثلاث سنوات كما حدث أيـام الثلاثية .. وانه محتاج يوميا للذهاب إلى مقهى ريش مثلا ـ لاحتيـاجه أن يرى الناس ويحس بنبض الحياة فى مجتمعه الجريح ..

ثم إن القصة القصيرة التى عاد اليها الأستاذ نجيب ليبث كقصصه

السابقة فى (همس الجنون) مثلا ·· وذلك انه فى القصص الجديدة لجأ الى أسلوب الحوار ـ الذى طالما جافاه خوفا من السقوط فى العامية ـ ونتبين أن هذا الحوار قد حل محل السرد الروائى الذى كان يتيح له الفرصة لابداء رأيه فى الأحداث والأشخاص · وهو ينسب حوارياته بعد سنة ١٩٦٧ الى شخصيتين (أو أكثر) لكى يتبادلا الرأى ويتصارعان فى جدل عقلانى هدفه الوصول الى الحل السليم ·· وكثيرا ما طال به هذا الموقف الى ما هو أكبر من حجم القصة الى ما يشبه المسرحية ·· وكأنه يقوم بعملية طرح ما بنفسه من صراع وتوزيعه على أكثر من شخصية · أو كأنه يريد أن يشترك كل القطاعات المفكرة فى هذا الحوار فى هذه اللحظة غير العادية من حياة مصر ·

وما ان انتهت من تسجيل هذه الملاحظات ·· إلا ووجدت الأستاذ نجيب يعلق مبتسما : الحق اننى موافق بل معجب بما قالتــه السيدة عايدة ·· وفى الحقيقة أنا كتبت ولم أفسر ، وبكل أمانة وصدق لم أكن أدرك أن شيئا ما قد تغير بالنسبة الى أعمالى الأخيرة ·· ربما يكون هناك رابط بين هذه الأعمال · وعلى النقاد والقراء لا على مهمة اكتشافه ·

· ورغم اسهامى فى سرد شهادتى الا أنها بالطبع لم تكن على هذا النحو من الافاضة ·· وذلك اننى اعتمدت فى اعادة تسجيلها على الذاكرة والتوثيق معا ·· الا ان محرر مجلة « مواقف » الذى نهض بهمة اجراء الجوار مع الأستاذ نجيب لم ينشر الا بعض ما أبديته من ملاحظات وتفسير ـ من وجهة نظرى ـ ازاء مراحل ابداعات نجيب ·· الا اننى حين عاتبته لنشر ما قلته مبتسرا قال ان أدونيس سأله : هل دفعت لك تكاليف رحلتك الى مصر لكى تحاور نجيب محفوظ أم لتحاور عايدة الشريف ؟ فأجـــابه بأنه اتبع ارشاداته خطوة خطوة ·· وهو أن يتصل بى لأصحبه لاجراء الحوار ·· فابتسم أدونيس وأرسل لى بعد ذلك يستوضح عن أشياء غامضة فى حوار نجيب محفوظ !

طبيب نفســــه :

على كل فان ما قلته من الآراء فى تلك الجلسة لم أشرع لها الا بطلب من الأستاذ نجيب أو لسكوته كون السكوت علامة الرضا ·· حيث كانت أهميتها وجدوهــا دافعا لغنى الحوار عبر مبـادرة الأستاذ للرد عليهــا وداعية مرة لابدائه الســخريات وأخرى مفجرة للضــحكات على طــول الخط ·· وهذا ما سنعرفه عندما أعود الى سرد موضوعى عنه ، والذى تركته عنــد المقطع الذى قلت فيــه : بذلك المجهــود والمثــابرة وصل نجيب محفوظ الى ما وصل اليه ·· فقد قلت بعده انه وضــع لنفســه برنامجا شاقا فهو مثلا يكون فى عمله فى الثامنــة الا الربع صبــاحا ، ولا يغــادر مكتبه مهما حدث الا فى الثــانية الا ربع ·· والقهــوة التى

يحتسيها خلال النهار في المكتب — لها ميعاد أيضا · فهو يحتسى كوبا منها في الساعة العاشرة وآخر في الساعة الثانية عشر · أما التدخين فلا يزيد أبدا عن أربع سجائر ، والا دلت الزيادة عن ظرف طارىء ، وحتى تعاطيه الأدوية يتبع نظاما · فقد عثرت ذات يوم على قرص دواء ملقى تحت كرسيه ·· فالتقطته وسألته في اليوم التالى : « هل هو قرص عبقرية حتى أتعاطاه وأكتب ولو قصة قصيرة ؟ » فضحك وقال : « انه قرص ضد البرد يحمله له الدكتور محمد يوسف نجم كل شتاء ·· وغياب هذا القرص منه بالأمس سبب له بعض الارتباك · وعندما سألته عن علاج السكر الذى يتعاطاه قال : انني نصحت بعدم تناول الأنسولين ·· كما نصحت بأخذه ولكنى قررت أن أعالجه عن طريق المشى لمسافات طويلة ·· ووجدت أن الطريقة التى اخترتها هى المريحة لى ·· فالانسان طبيب نفسه الأول ·

وقد يكون الأستاذ نجيب قد أقنع نفسه بأنه طبيب نفسه ·· لانه لا يحب أن يهدر وقته عند الأطباء والتحاليل وخلافه أو لأنه يحب أن يحيا متخففا من الارتباطات غير يومى زيارة أمه واجتماعه بالحرافيش ·· كما انه لا يميل أبدا للفخفخة على جميع الصعد (فأرديتــه) مثلا لا تندرج تحت أى طراز رجالى وانمــا لأنها توفــر له الراحة أو تناسبه فقط ·· ويهنىء لى انه لم يغير الترزى الذى يصنعها له منذ القدم حرصا على الوقت أيضا ·· وكرهه للبهرجة يصاحبه فى العمل أيضا ·· فباستطاعته أن يدير أى عمل بأقل الأفراد وأقل المكاتب ·· أذكر يوما من عام ١٩٦٦ عين الأستاذ ســعد الدين وهبة بمؤسسة السينما ليكون رئيسا للمكتب الفنى ولم يكن للمؤسسة رئيس ، فكان الأستاذ نجيب يقوم بدور الرئيس مؤقتا الى أن يعين رئيس وتشاور مع الأستاذ سعد عن كيفية تكوين المكتب الفنى ·· فاشار اليه نجيب أن يكتب تصوره ·· ويوم عرض الأستاذ سعد على الأستاذ نجيب هذا التصور ·· شعرت بالاستغراب فى عينى الأستاذ قال : انها هيئة كاملة — وليست مكتبا فقط — حتى انه لا ينقص سوى الاشراف الصحى ·· كيف نعين كل هؤلاء الموظفين ؟ ·

والاستقامة فى داخل الأستاذ نجيب يتبعها حبه للاستقامة خارجه فاذا ترك زميل مقعده فى غير المكان الذى تعود الأستاذ أن يراه فيه ، قام على الفور باعــادته اليــه ، وكأنه يحمل فى عينه « برجــلا ومسطرة » بل ينتابه نوع من القلق اذا أنا أمسكت المسطرة الموضوعة على مكتبه والذى يستعملها لفتح الكتب ، لأن وضعها الصحيح هو الوضع الأفقى أمامه ، ويكاد فى أحيان كثــيرة يقول لى : « ضعى المســطرة فى مكانها واعرضى الرواية التى ستناقشيها معى » ولكنه يحجم ، ويظل قلقا ·

وعلى المستوى الواسع لدقته فإنه يبدأ كتابه قصته الطويلة عادة فى أول يوم من شهر أكتوبر ، وينتهى منها فى شهر مايو ثم يترك نفسه من مايو الى نصف يوليو ليكتب قصصا قصيـرة ـ وقد كتب منها ما يغطى السنتين القادمتين اذا صـادفت النشر ، ثم يأخذ أجازته ويقضيها فى الاسكندرية ·· والاسكندرية مسرح لبعض أعماله التى كان آخرها روايته (ميرامار) وهو اسم حقيقى لمقهى فى الاسكندرية بل ان هناك صحفية كتبت تحقيقا مع نزلائه ، أبطال نجيب الحقيقيين ـ وقد اشتهر اسم ميرامار حتى انك لو سرت فى شوارع القاهرة وأى مدينة عربية ستجد اسم ميرامار وقد كتب على واجهات محلات كثيرة ·· مرة للملابس وأخرى لأحذية وثالثة لمطعم ورابعة ·· وخامسة ·· وهو عندما يكتب عن الاسكندرية يجعل طقسها ومناظرها لازمة الأهمية فى أحداث القصة وانعكاسها على سلوك أبطاله ·· لكنه لا يلتحم بالشكل الكافى كما جـاء فى رباعية (داريل) عن الاسكندرية (التى لم أقرأ منها الا جزئين وتركتنا دار الطليعة معلقين فى انتظار بقيتها » واذا كان هو قد وصف طقس الاسكندرية ·· فلا يمكن لأحد النقاد أن يدرجه بين من نادوا بأن ثقافة مصر تتبع ثقافة البلاد المتوسطية مثل (كامو) مثلا ·· حين يخالف سارتر الذى لم يورد فى قصصه أى وصف للطبيعة والمكان لأنه نذر كل أعماله للانسان وحده على حد قوله ·

نجيب محفوظ أورد الطقس لأنه مخالف لعقر داره فى القاهرة ، وذلك انه هو نفسه وأبطاله لا يذهبون الى الاسكندرية ·· الا كهجرة أو هرب من ظرف ما ·· (حر القاهرة صيفا تستشعره نفسه) والظروف السياسية والاقتصادية والبحث عن عمل ·· أو لاستيداعهم عن العمـل كمـا حدث مع أبطال ميرامار ·· وعيسى الدباغ فى السمان والخريف و ·· و ··

رسـالة الى صـديق

قد قضى نجيب فترة طويلة من حياته الوظيفية فى وظائف رتيبة بوزارة الأوقاف أو فى مجلس الأمة ، وبدأ يكتب الرواية مع مجموعة من أصدقائه ومنهم عادل كامل المحامى والكاتب محمد عفيفى وقد كتب أولهم قصته الأولى عن اخناتون باسم (ملك من شعاع) والأخرى عن الرسامين الماركيسيين الأول باسم (مليم الأكبر) ورفضتها جائزة المجمع اللغوى مع قصة نجيب محفوظ (السراب) لانهما يعالجان (امور الحياة العادية) ـ هذا ما كتبته سنة ١٩٦٧ ـ على حد علمى ـ الا إننى وجدت الأستاذ نجيب فى رسالة له حول هذا الموضوع لصديقه الدكتور أدهم رجب الذى كان يدرس فى لندن فيقول : (استدعانى سكرتير اللجنة الأدبية بالمجمع اللغوى أنا والأستاذ عادل كامل وقال لنا ان اللجنة قررت تأجيل البت فى نتيجة مسابقة القصة وستعلن عنها من جديد وأدلى الينا بالمعلومات الآتية :

١ ـ قررت اللجنة أولا أن تختار قصتى وقصة عادل لتمنحهما الجائزتين على أن تنظر الأمر فى جلسة أخرى من حيث الترتيب ٠

٢ ـ فى الجلسة الثانية قال العقاد : ـ ولم يكن قرأ قصة عادل ـ ان قصة عادل شيوعية صريحة ٠ وبعد مداولات تقرر اخراجها ومنحى الجائزة أنا وثالث ـ وربما كان الثالث هو محمد عفيفى الذى كتب مجموعة قصص بعنوان (أنوار) ٠

٣ ـ اعترض العقاد أيضا على قصة الآخر على اعتبار انها ليست بقصة فنية ٠ ولم توافق اللجنة على أن أمنح الجائزة بمفردى ٠

ويعلق الأستاذ نجيب على ذلك فيقول لصديقه : من ذلك ترى ان فن واحد وعدم فن الثانى ضيعا على الجائزة وعليه ستعاد المسابقة ٠٠ ثم قال السكرتير ان اللجنة تطلب :

(أ) من عادل أن يغير روح الرواية ؟؟

(ب) ومنى أن أصور فلسفة الخيانة فى قصتى ـ السراب ـ أى لا يكفى أن أكتب عن خيانة زوجته من وجهة الرواية السيكلوجية وانما ينبغى أن أحكم عليها من الوجهة الأخلاقية وليحيا يوسف وهبى ٠ وبطبيعة الحال قررت الا أعود الى شىء اسمه لجنة أو مسابقة ٠

فما رأيك ؟ ألست معى بأنى ظلمت وبأنى أظلم كرامتى أكثر اذا تقدمت مرة أخرى ؟) ٠

ولان العقاد كان سبب حجب الجائزة عنه فقد كتب رأيه فيه لصديق عمره : وتسألنى عن العقاد قل هو رجز من الشيطان ٠٠ هو عضو شيوخ (معين) وصاحب سيارة وكاتب فى أخبار اليوم بـ ١٥٠ جنيها فى الشهر ٠ وأظن الآن عرفت رأيه فى المعاهدة ٠

لكن نجيب تراجع فيما بعد عن قراره بألا يدخل أى مسابقة فقد تقدم لجائزة هدى شعراوى وفاز بها ٠٠ كما كتب لنفس الصديق سنة ١٩٤٧ : (عن أخبار الكتابة لا تسل ، جمود سياسى ، وضيق شامل ، وأقلية فى الأفراح ٠٠ تعلم أنى أكتب لك هذا الكتاب وضباط البوليس معتصمون بحديقة الأزبكية مطالبين بكادر جديد وهم يهتفون ومعهم بعض العساكر « ليسقط النقراشى عدو الأمة » فهل سمعت هذا من قبل ؟ والبلد معتبرة فى حالة طوارىء وتسلم الجيش زمام المحافظة على الأمن حتى تحل المشكلة ٠ ومن ذلك تجدنى فى خوف على ثروتى لانى أحتفظ بها عادة فى جيبى اذا لم تكن نسيت !

والأدب أخبـاره أحسن وقد اشتركت في مسابقـة القصة بالمجمع اللغوى (أعلم انك ستغضب لهذا الخبر) ولكنى كنت فى حاجة ماسـة لنقـود فقدمت القاهرة الجديدة وخان الخليلى وزقاق المدق · ومنحنى المجمع ١٥٠ جنيها مصريا كانت عزائى على التقارير الجاهلية التى قرأتها عن القصص · ولكن يالله ماذا أصنع ؟ لست أريد أن أستذل قلمى فى التهريج الشعبى، والأدب الحقيقى لا يأتى الا بالديون · وقد كان مما شجعنى أن تيمور بك دخل مسابقة العام السابق · والحق انه لولا العقاد والمازنى لبرمت منى الجائزة ، ومن أخبارنا أيضا أن العقاد سئل عن القصاصين الثلاثة الأول فقال : الحكيم وتيمور والعبد لله · وسألوا بيرم التونسى فوضعنى فى الأول · وكانت النتيجة ان توفيق الحكيم كتب مقاله فى أخبار اليوم يهاجم القصة وما يسمونه أدب الحياة ويقول انه فن نسوان وان الأدب الحقيقى هو الفكر ومن ساعتها وكل أصدقائى ينادوننى قائلين (يا مرة) ·

واذا عدنا الى استكمال موضوعى عنه وعن أصدقائه عادل كامل ، محمد عفيفى اللذين بدءا معه كتابة القصة ·· نجد أن نشاطهما قد انحسر بعد رفض المجمع لقصصهما ·· وعاد أولهم للمحاماة ، وانصرف محمد عفيفى الى الصحافة والكتابة الساخرة ·· ربما لأنهما شعرا فى هذه اللحظة أن مقارنتهم بنجيب سـوف تستمر ·· وربما سخرا من هذه الفكرة لاسيما ونجيب محفوظ كان قد أعلن لصديقه وربما لكل أصدقائه : أنا الآن أكتب رواية ربما كانت « العمل المتـاز » لى وأخشى ألا أكتب مثلهـا فى المستقبل · وأرجو أن تكون أقوى قصة مصرية بغير استثناء وسـوف ترى · وهى عن المرحوم شكرى ابن أختى · وفى رسالة أخرى قال له : قرأت هذا العام رواية الحرب والسلام · ولن يرتاح لى بال حتى أكتب قصة مثلها أو ان شاء الله تكون قريبة منها · وان كنت أشعر أن زمن الروايات الطـويلة قد انتهى · يحسن بالكاتب فى عصرنا التجـويد والتركيز والا هجرته القلة المخلصة للكتاب وهربت الى السينما · بل انه فى رسالة ثالثة يكتب له : أعلم أن فكرة الملحمة الكبرى تداعبنى دائما ، وأقول لك بصراحة انى لن أبدأ فيها حتى أستطيع أن أكرس حياتى لها · وفى النية ان أطلب ـ بعد عمر ـ احالتى الى المعاش حين استحقه ، وهنالك أهب لمثل هذا العمل عشرة أعوام يكون فيها خلاصة حياتى الأدبية وختامها ·

أما قبل ذلك فعبث · تصور أن رواية كخان الخليلى يجب أن تعيش فى مدة عام وأكتبها فى عام فكيف برواية خان الخليلى جزء من عشر منها أو جزء من خمسة عشر ؟

وعن قمة وقيمة عمله يتطرق الى توفيق الحكيم فيقول فى رسـائله لصديقه ، يعجبنى اسلوب الحكيم · ربمـا لا يعجب المدرسة القديمة ·

ولكنه ذو روح وعليه لآلىء من اللمحات الخاطفة ولعله أجمل اسلوب عربى بعد المازنى وطبعا بعدى . أرأيت ماذا قال عن ثقافة الأديب ؟؟؟ أوافقه تماما وهكذا أعد نفسى . أما رأيه فى الفن الذى جعله ينفر من هكسلى (١) وجويس فأنكره وقد كتبت ردا مختصرا عنه سأرسله للرسالة لتنشره فى باب الرسائل ان كانت فاعلة وأرجو أن تطلع عليه على الأقل لأنه دفاع عن هكسلى .. ولا أخفى عليك ان رأى الحكيم طعننى فى الصميم لأنى من مدرسة هكسلى فى القصة وان كنت سأطعمها بالحادثة العادية المألوفة التى ليس فيها اغراب ولا مبالغة ــ هكذا كتبت (السراب) ومازلت راضيا عنها بل معجبا بفصول منها . ولو وجدت مثلها لغيرى لاشتريتها وقرأتها أما الروايات الثلاث الأخرى فمحال أن أقرأ مثلها الآن لو كان المؤلف غيرى ــ ربما كانت القصص الثلاث هى ــ (القاهرة الجديدة ، خان الخليلى ، زقاق المدق) أو بداية ونهاية أو تكون رواياته الفرعونية الثلاث ، وهو غير معقول .. لأنه كتب لصديقه ردا على نقده لرادوبيس مثلا يقول له : اذا أردت أن تقرأ فارجع الى دروسى التى أوضحتها لك فى أول هذا الجواب بغير أجر : ومهما تقل يا أحمق فرادوبيس « ستك وست اللى خلفوك » وأنا عارف انت ليه متغاظ منها ، ذلك ان أمك غيرانه موت وتظن انى ربما هجرتها وعشقت رادوبيس .. فشر يا دكتور كامب شيزار .. أتحداك أن تكتب فصلا من رادوبيس التى قال عنها الأستاذ صلاح ذهنى انها أحسن رواية من نوعها .. يا (...) يا (...) يلعن أبوك لأبو هكسلى .. ولازم تعمل للرواية دعاية عند زملائك حتى يخلصوا على كل النسخ . (وفى مرة سابقة نبهه لأن يسأل بائع الكتب بصوت عال عن أعمال نجيب محفوظ .. ليكون دعاية لأعماله) .

أما عن سبه لهكسلى .. فقد سبق أن كتب نجيب لهذا الصديق ولكن فى تحفظ ووقار معارضا رأيه السلبى فى رادوبيس .. وكثرة الموت فيها .. التى أبرزها له فى قوله : (هل كثرة الموت جعلتك تقارن على بيوسف وهبى ؟ الموت والانتحار ليسا بعيبين فى أى عمل فنى ، فبعض روايات شكسبير يحوى سبعة من المنتحرين انما العيب الانتحار المفتعل المتكلف .. ثم أنهى الرسالة بملحوظة أهم : « كتبت هذه القصة فى سنة ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ وسنى ٣٥ سنة فماذا كنب

---

(١) كان توفيق الحكيم انذاك محدود الفكر والاطلاع على حد اتهام بعض النقاد من حيث تقوقعه فى فتات الأدب اللاتينى نافرا من الأدب السكسونى .. ونفس المقابلة حادثة بينه وبين طه حسين والعقاد .. حتى أسمى النقاد العقاديين بالسكسونيين والطه حسينيين باللاتينيين .

هكسلى فى هذه السن وماذا كتب الدكتور أدهم بكامب شيزار ؟ وأرجو قبل الاجابة ان تنظر الى فوارق الظروف » وفى رسالة أخرى راجع نفس الصديق ٠٠ لأنه ألمح أن رواياته الأولى كثيرة الصدف فكتب له يقول « اعتدنا أن نعد كل ما لم يكن متوقعا من باب ـ المصادفة ٠ ولكن بالله عليك قل لى هل يقاس ما نتوقع بما لا نتوقع ٠٠٠ افرض انى خرجت لأرمى جوابى هذا فى البوستة فوجدتك الى جانب الصندوق ٠ فماذا فى هذه المصادفة مما لا يقبله العقل ٠٠ هل به استحالة ؟ هل به من شىء بعيد عن العقل ؟ ٠٠ ألم يفسر دارون التطور بالمصادفة ؟ ألم يحدث هاملت شبح والده ؟ ٠٠ ألم يظهر ابليس لفاوست ؟ فكيف تحاسبنى على ما هو أدنى الى الواقع ؟ » ٠

ونحن نرى ان الأستاذ نجيب كلما تطور وتثبت من خطواته نقد حتى أساتذته كهكسلى ٠٠ وحتى صديقه الدكتور أدهم رجب ٠ ففى أول صداقتهما كان يستنجد به ليحاوره ويلهمه ٠ ويعاتبه ان لم يفعل فيقول له : وكان ينبغى ان تتفضل بكلمة تزكى بها عن عينك وعافيتك وتجود بها على أديب ان لم تدركه انت وأمثالك أفلس ولم ينفعه صداقة السحار ولا صداقة باكثير ٠

ويهيىء لى أن علاقة نجيب بالدكتور أدهم نفسها قد وهت ٠٠ ربما قبل سفره الى انجلترا وانغماره فى دراسته وتأخره فى القراءة ٠٠ فنحن نجده وكأنه قد اعتبر ملاحظات صديقه على أدبه وقعت من قبيل النكوص لذا يمتحنه قدراته يقول : (١) عرف الفعل وأضرب مثلا لكل حالة ٠ (٢) أعرب ما تحته خط ٠٠ كتب محمد الدرس ٠ (٣) أكتب عن الشجرة خمس جمل مفيدة ٠ أما ما كتبه تعليقا على نقده وهو بانجلترا فهو (عزيزى ناقد رادوبيس : سألت نفسى هل من الضرورى أن أجعل من ردك موضعا للنقاش ؟ والحق أن فى الصورنية الا أتعرض لناقد برد وأن أستفيد من ملاحظات العالمين وأعرض عن سفه الجاهلين دون أن أحرك يدى بدفاع أو أن أضيع وقتى فى مهاترة ٠ ولكنك صاحب مودة وعهد ٠ و بمعنى آخر لك الشرف أن تكون صديقى وتلميذى ، فلا يجوز أن أعرض عن ملاحظة لك والسلام ٠

أتنبه الآن فأجد ان ما كنت أكتبه عن الأستاذ نجيب قد تداخل عن غير قصد مع ما نشره الدكتور أدهم رجب بمجلة (أكتوبر) عن مراسلاته الحوارية مع الأستاذ نجيب ٠٠ وقد حدث هذا عند حديثى عن ترك الأستاذين عادل كامل ومحمد عفيفى للكتابة الروائية ٠٠ حيث عاد الأول للمحاماة ٠٠ والثانى الى الكتابة الساخرة فى باب ثابت « آخر صفحة »

من مجلة (آخر ساعة) وان كان قد جمع بعضها فى كتاب (الجمجمة والتفاحة) ـ حيث كانت آخر جملة فى هذا السياق هى (وقد ظن بعض النقاد ان المرحوم محمد عفيفي هو (مصطفى المنياوى) أحد أبطال رواية الأستاذ نجيب (الشحات) • وقد دفع محمد عفيفى عن نفسه هذه التهمة فى بابه الثابت قائلا ان (مصطفى المنياوى) أصلع وأنه لا يزال فى رأسه شعر •

صداقات حديثـــة

اتسعت رقعـة صـداقات الأستاذ نجيب بعـد ذلك فى الخمسينيات وتنوعت وشملت المخرج (توفيق صالح) الذى أطلقوا عليـه فى تلك المرحلة ـ مخرج الجوائز ، لأن الفيلمين اللذين أخرجهما (درب المهابيل) الذى كتبه للسينما الأستاذ نجيب وفيلم (صراع الأبطال) الذى كتبه صلاح حافظ (١) عن وباء الكوليرا ـ نالا جوائز الدولة •• والممثل أحمد مظهـر •• والشاعر الرســام الفنان صلاح جاهين •• والرسامان رخا وبهجت ••. وغيرهم من الفنانين والأدباء والكتاب والعابرين فى حياته !

وقد أطلق هؤلاء على أنفسهم اسم « الحرافيش » ـ وقد اتخذ الأستاذ نجيب بعد ذلك اسم الحرافيش كعنوان لأحد رواياته ـ ولشدة الشبه بين ما يتخيله الناس عن جلسة الحرافيش يوم الخميس فى بيت أحدهم الا بيت الأستاذ نجيب •• وأبطال قصته « ثرثرة فوق النيل » ظنها بعض القراء قصـــة تسجيلية لاجتمـاعاتهم • وعندما سألته هل الممثل فى « ثرثرة فوق النيل » هو أحمد مظهر (فلان) قال : وأى ممثل لا تنطبق عليه هذه الأوصاف ؟ •• حدث ذلك عندما سألته عن الصحفية سمارة بهجت وهل هى فوزية مهران فكانت اجابته كسابقتها •

وسمة الهروب هذه تذكرنى بقوله ـ عندما فشــل زواجى وعرف الأسباب التى وراء هذا الفشل فى المرة القادمة لابد ان تعرفينى باختبارك لنتناقش حـــوله حتى لا يكون مصـــــيره الفشـــــل •• فصـــدقت كـــلامه •• وفى يـــوم من الأيـــام التى تلت ظهـــور رواية (أيـــام الانســـان السبعة) لعبد الحكيم قاســـم (٢) وأخذ المتحمسون له من النقاد يرشحونه كخليفة لنجيب محفوظ كما سبق للنقاد المتحمســين للطيب صالح بعد ان رشحوه بعد ظهور روايته (موسم الهجرة للشمال) ان يكون خليفة لنجيب أيضا فسألت الأســـتاذ نجيب : تقـدم لخطبتى

---

(١) من المصادفة انه مات اليوم ٦ فبراير ١٩٩٢ •

(٢) توفى الأستاذ عبد الحكيم قاسم سنة ١٩٩٠ •

عبد الحكيم قاسم ٠٠ فما رأيك فيه ؟ وشدهت لرأيه حين تأملني مليـــا ثم قال : ما دام لا يتعاطى الخمر كمدمن ٠٠ ولا يمـارس القمـــار ٠٠ فلا غبار عليـــه ٠٠٠ كدت أقول له ٠٠ وماذا كانت ســتقول جدتي لى ان كانت على قيد الحياة فى هذا الأمر أكثر مما قلت ٠٠ لكننى كظمت كل ما شعرت به وما وددت ان أقوله ٠٠ لم أرغب حتى تذكيره بوعده ٠٠ اذ كتب الفشـــل لهـذه الزيجـة رغم انى أبلغت الأســتاذ نجيب به فى حينه ٠٠ الا اننى وجدت جرس التليفون فى بيتى يرن ٠٠ وعنـــدما رفعت السماعة وجدت ان من يتحدث هو الأسـتاذ نجيب ٠٠ ووجدته يسألنى ٠٠ انه لم يعرف بأن مشروع زواجي من عبد الحكيم قد فشل ٠٠ وانه عرفه بالأمس فقط من جلسته على مقهى ريش ٠٠ قلت كان يهيء لى اننى أبلغتك ٠٠ ثـم تكلمنـــا عما صـــادفنى معه ٠٠ وانه يتخيـــل اننى أهتم بالمشاهير بأكثر منه ٠٠ فوجدت الأستاذ نجيب يقول لى : نعم صور له نقاده انه خليفتى ٠٠ ثم تصاعد صوته حدة ٠٠ » ولماذا خليفتى أنا بالذات ٠٠ أنا لم أنشر عن الريف (١) ٠٠ فلماذا لا يكون خليفة لأحد من مدرسته الفكرية (يقصد الماركسيين) ٠٠ قلت لنفسى لحظتها ٠٠ يا لك من صابر كاظم يا أستاذ نجيب ٠٠ أبعد ســنة وربما سنتين تدلى برأيك فى عبد الحكيم ٠٠ لذلك فقد اتخذت رأيا بينى ونفسى ان أتبع معه طريقة جديدة تجعله يفصح عن رأيه بشكل صريح وفورى ٠٠

وفى يوم كنا نتكلم عما يعانيه الكاتب حين يتصدى للتعبير ٠٠ وعن حاجته لعامل خارجى مساعد ٠ فسألنى : هل صحيح أن يوسف ادريس يتعاطى مخدرات تساعده على التعبير ؟ ٠٠ عندها استندت الى ظهر المقعد وأنا أنظر له فى عينه ٠٠ فأحرج ثم قال : الحق اننى سألت عباس صالح ٠٠ ونفى ٠٠ فابتسمت وأنا أقول يا أستاذ نجيب سبق أن قلت لى ان عباس صالح أكد لك ان يوسف ادريس يتعاطى فعلا ٠٠ فقال مرتبكا : الحق أننى أتلمس له العذر ذلك أننى كنت قبل مرضى أتعاطى كأســـين من الويسكى طوال جلستى للكتابة ٠٠ الا أنه أصبح لدى مناعة الآن ٠٠ قلت أنت أبو المناعة نفسـها يا أســـتاذ نجيب ٠ فرد قائلا ليست المناعة هنا الارادة ٠٠ وانما مرض السكر ، ولكنى مستعد لأن أجازف بنصيحة الأطباء بعدم الشرب من أجـــل التعبير الذى أتمنى أن أصـــل اليـــه ، فقط لو وافقتنى معدتى ولكنها متمردة أبدا ، ثم انبرى ــ بتأثير الاحراج ــ يقول لى : تصورى هذا العام عنـــدما جمع عادل كامل من كل حرفوش خمسة جنيهات واشترى ديـــكا روميا وشرابا احتفـــالا بعيد ميلادى ،

(١) كتب نجيب محفوظ فى مرحلة (ثمن زوجة) قصة عن الريف ولم يرض عنها سلامة موسى ٠

أقنعنى الحرافيش بأن أجعل كأس الويسكي المزدوج بجانبي أرتشف منه ولو بعض الوشفات ليشعروا انى معهم • وفعلت ولكن ما أن بلغت منزلى فى آخر السهرة حتى لفظت معدتى كل ما فيهـــا •• وذهبت الجنيهات الخمسة هدرا • وكان عشائى فى ذلك اليوم كيسا من الفول السودانى كنت قد اشتريته وأنا عائد سيرا الى منزلى •

ومن أصدقاء نجيب محفوظ خارج محيط الحرافيش الأستاذ توفيق الحكيم •• وهو الذى احتفل على رأس هيئة جريدة (الأهرام) بعيد ميلاد نجيب الخمسين • وعندما أهدته الهيئة (صينية من الفضة) قام توفيق الحكيم واســـتل من جيبه طقطوقة دقيقة جـدا من الفضة أهداها قائلا : « انها من الفضة الحرة ومن حر مالى » ومعروف ان توفيق الحكيم من أحرص أدبائنـا على المال • وعندما سألت نجيب محفوظ متى أصبحت وتوفيق الحكيم صديقين •• حكى لى قصة طريفة ••

كنت أقدم محاولاتى القصصية الى سـلامة موسى •• فلا يوافقنى عليها ويقول لى استمرّ ، فأنت لم تصل بهذه ، الى أن قدمت له قصـة (عبث الأقدار) فأعجب بها وأصدرهـا كعدد ممتاز من مجلة (المجلة الجديدة) ولفرحتى كتبت عليهـا اهداء فخيما •• وبعثتهـا الى توفيق الحكيم •• ومن العجب أننى وجدتها بعد أيام مع أحد أصدقائى ــ وكان خاله مهتما بأدب الشباب وصديقا لتوفيق الحكيم ــ فما ان وصلت توفيق الحكيم قصتى (عبث الأقدار) حتى أعطاها لصديقه قائلا : « اليك عملا تحبه) وأعطى الخال بالتالى القصة لابن أخته الذى أعطاها لى •• وهذا أيضا من عبث الأقدار ••

فقلت لنجيب : كان عليك ان تفعل كما فعل شو عندما وجد كتابا كان قد أهداه لأحد أصدقائه مرصوصا مع الكتب القديمة عند أحد باعتها ، فاشتراه ، وكتب تحت الاهداء الأول « أكرر اهدائى » ووقع (جورج برنارد شو) • فضحك وقال ان توفيق الحكيم لا يذكر هذه الحادثة •• ولا أذكره أنا بها • وتوفيق الحكيم يسدى نصائحه المالية دائما لنجيب محفوظ • فعندما حصل نجيب على جائزة الدولة التشجيعية عن الثلاثية ، وكان يريد ان يصرفها فى أوجه كثيرة نصحه توفيق الحكيم بأن يضعها فورا فى البنك حتى يضمن حياة رغدة لابنتيه عيشة (أم كلثوم) وفاطمة (فاتن) •• والأســتاذ نجيب مشغول بهذا فعلا •• ويقول انه قلب هندسة شقته المتواضعة فى العجوزة ــ كما قال هو ــ (١) لأن أحدا من الناس لا يعرف منزله ، ولا يزار هو فيه •• فهو يريد ان يبعد به عن جلبة الأصـــدقاء والصـــحافة ، وكان حتى وقت قريب يكتب على كتبه (غير متزوج) ــ ليهيىء حجرة لكبراهما • وكان قد فكر أن يبنى فيلا

(١) هذا قبل حصوله على جائزة نوبل حيث اجتاحت أجهزة الاعلام كل أركانه •

بالألف الأخرى التى تقاضاها عن رواية (أولاد حارتنا) من الأهرام ٠٠ فلم يمنعه توفيق الحكيم من ذلك ٠ ولكن ظهر ان المقاولين الذين أخذوا منه الألف كانوا عصابة من النصابين ٠ ويقول هو ساخرا ومعزيا نفسه : « لقد انتقم الجبلاوى لموته » ٠

فتيات معهد التربية

وولاء نجيب محفوظ لا يقف عند الأشخاص بل يتعداهم الى الأشياء أيضا ٠ فهو ما زال يلبس حمالة البنطلون ـ لم تكن موضة كهذه الأيام ـ وهو من الأدباء الذين يسيرون طويلا على اقدامهم ٠٠ وهو يسير من منزلة فى منطقة العجوزة الى مبنى التليفزيون فى ماسبيرو مقر المؤسسة القديم أو الى ميدان التحرير مقر المؤسسة الجديدة ٠٠ ويوم قلنا له ان هناك مشروعا لاقامة كوبرى يصل بين العجوزة وشاطىء التليفزيون ، انتفض فى حركة بريئة نافيا بأصبعه : « لا لن أمشى عليه ولن أغير طريقى الأصلى » قلت له : الكى لا تفتقد مواكب فتيات معهد التربية الرياضية اللائى يلتففن حولك معجبات يسألنك عما سيحدث فى الحلقة القادمة ـ اذا كانت له قصة مسلسلة بالأهرام ـ فلعل رفضك تغيير عادتك فى التزام هذا الطريق راجع لارتياحك الى أولئك المعجبات ٠٠ ولم يجد جوابا واكتفى بالابتسام للدعابة !

والصداقة تقوم بسرعة بينه وبين الأشياء ٠ كنا قد نقلنا من الدور الرابع فى التليفزيون الى الدور الثالث والعشرين منه ٠ وكان مقررا ان ننتقل مرة ثالثة لمكان ثالث لانفصال وزارة الثقافة التى تتبعها مؤسسة السينما عن وزارة الارشاد (الاعلام) التابع لها مبنى التليفزيون ٠٠ فوقفنا فى حجرته نبدى اعجابنا بمنظر القاهرة من أعلى ، فقال : « انى لا أشاهد هذا المنظر الذى تحكون عنه » فسألناه : كيف ؟ قال : « كيف يتأتى لى أن أعود عينى على منظر جميل أعرف عاجلا أو آجلا أنى سوف أحرم منه ؟ » ٠٠ فالمؤسسة ظلت سنة وأكثر بلا رئيس والبحث جار عن مكان ننتقل اليه ٠ اذ ما أن يرشح لها أحد ، حتى يبعث السينمائيون وغيرهم بلاغات يعددون فيها سيئاته ٠ حتى قال لى نجيب محفوظ : لم يعد المغتاظ من أحد أن يتهمه بالشيوعية أو أن يضع فى جيبه قطعة من الحشيش ، بل عليه فقط أن يشيع أنه مرشح لرئاسة مؤسسة السينما ٠٠ وبسبب هذه البلبلة التى أثيرت حول هذا المنصب ، لم يجد الدكتور ثروت عكاشة (وزير الثقافة وقتها) أجدر وأشرف من نجيب محفوظ المحصن ضد الشائعات والاتهامات ٠

ولعل الحوار المقتضب الذى أجريته معه عام ٦٧ قبل زيارة سارتر لمصر كان منطلقه السينما ٠٠ الذى كتب لها خصيصا الكثير (حكم القوى) و (ريا وسكينة) والأسطى حسن و (درب المهابيل) ، عن معالجة لقصة لسمورست موم ٠٠ ولو أنه يغضب من هذا التلميح !

س : يقول جان بول سارتر ان السينما أصبحت أحدث جهاز تعبير ٠ فهل كان لديك عندما دخلت مجال السيناريو وجهة نظر معينة تريد أن تحققها من خلال الفن السينمائى ؟

ج : الحق ان السينما آخر وأحدث أداة تعبير ، ولكن يجب أن نفرق بين أحدث وأهم فأنا أعتقد ان الكلمة المكتوبة لا يفوقهـا فى التعبير شىء ٠ فهي فى قدرتها على تصوير الظاهر والباطن والخارج والداخل لا تبارى بأى حال من الأحوال ، وأنا نذرت كل ما أريد قوله للكلمة المكتوبة ٠

س : هل أثرت كتابتك للسيناريو ، وهو يتميز بسرعة الانتقال فى أدبك المكتوب ؟

ج : من الجائز جدا أن تكون قد أثرت على كتاباتى ٠٠ وعلى كل فأنا أترك نفسى على سجيتها عند الكتابة ٠ والفيصل والحكم فى ذلك هو القارىء !

(هذا الرد يتطابق مع ما كتبه الأستاذ نجيب لصديقه أدهم رجب) : (ان شاء الله فى البريد القادم تصلك « القاهرة الجديدة » وسأودع أوراقها حجابا يقيها سم الألسن) ٠ أما عن السينما فقد انتهينا من سيناريو « مغامرات عنتر وعبلة » ورجعنا الى قواعدنا سالمين والحمد لله ٠ وكانت تجربة عرفت منها أمورا كثيرة من دنيا غريبة ما كنت أعرفها الا من الظاهر وعقبال ما أعملك سيناريو (الدكتور حسان) بعد عودتك من انجلترا وأنا باذن الله متربعا على عرش المجد مع شكوكو والكحلاوى وآسيا ٠٠ وكان (الدكتور حسان) بطل الرواية التى كان يكتبها هذا الصديق آنذاك أما أسماء هؤلاء شكوكو وغيرهم ٠٠٠ فترجع الى ان هذا الصديق سبق وحذره من كتابة السيناريو والا أصبح مثل هؤلاء ٠٠ خاصة والأستاذ نجيب عندما أبلغه بنبأ دخوله هذا المجال قد وقع رسالته ب (نجيب محفوظ كابرا) ناسبا نفسه ــ من باب السخرية ــ الى فرانك كابرا المخرج والسيناريست السينمائى الذى كان من ألمع معاصريه فى هذا الفن ٠ كما كتب عنوانه هكذا (طرف تلحمى فيلم) وكان تلحمى من أروج منتجى السينما فى الأربعينيات ٠

ثم عاد في رسالة أخرى يقول له : (وقد بلغنى أن الكافر ابن الكافر (٠٠٠) يفترى على كذبا عندك ويتهمنى بالتطور النهائى الى السينما فلا تصدق عدو الله ٠ وما كان لفنان صادق ان يهجر فنه لأى سبب من الأسباب ٠٠ ومتى كانت السينما تشبع فنانا ؟ انى اذا ساهمت فى عمل سينمائى (ولا يحدث ذلك الا فى النادر) فكما تذهب انت مثلا الى السينما دون ان تكون شغلك الشاغل) ٠ وفى حوارى مع نجيب محفوظ قلت له ٠

س : من المعروف ان لك انتاجا روائيا وانتاجا قصصيا ٠ فالى أيهما تميل ؟

ج : أنا أميل الى الانتاج القصصى سواء فى القصة القصيرة أو القصة المتوسطة وأراها مناسبة لما أريد التعبير عنه فى هذه الفترة ولعلى لم أكتب رواية منذ الثلاثية ٠

س : فأين اذن تضع قصتك (أولاد حارتنا) ؟

ج : أولاد حارتنا ، هى شىء بين الرواية والاسطورة أو هى ما يسمونه اليجورى ٠ (استعارة مجازية) ٠

س : ما هو أروع عمل قرأته يمثل هذا النوع ؟

ج : (كليلة ودمنة) و (حى بن يقظان)

س : هل تحن الآن للكتابة بهذه الطريقة مرة أخرى ؟

ج : احن ولكن ليس فى الوقت الحاضر ٠

س : أين مكان القصة العربية فى الانتاج القصصى العالمى ؟

ج : أنا أعتقد أن المكانة الأدبية للقصة لا تتعلق بالشكل أبدا (فينكوس كازنزاكى) مؤلف قصة زوربا مثلا يكتب باسلوب تقليدى ٠ وهو فى رأيى من أروع روائى العصر الحديث ٠ وعلى ذلك فتأخر الرواية العربية عن الكتابة الحديثة لا يدل على عيب ٠ ولعله دليل الأصالة ٠ ولا يعنى هذا من ناحية أخرى اننى أقول باقترابها من الأدب العالمى فهى ما زالت بعيدة عنه ٠

س : لك تجارب فى القصص القصيرة وهى ان تترك شعورك يكتب من غير تخطيط له من قبل كقصة (لونابارك) كما قلت لى مرة ٠٠٠ الا تبغى الرجوع اليها ٠

ج : مما لاشك فيه اننى سأجربها من آن لآخر ٠٠ وبخاصة فى القصص القصيرة ٠ وهنا أذكر انه عندما نشرت هذه القصة لم يكن الأستاذ نجيب يعرف لها معنى ــ أو هكذا قال لى ــ لأنه كان قد ترك شعوره يعبر دون تخطيط سابق ٠ ويقول هو انه بعد أيام من نشرها

شاهده أحد أصدقائه من بعيد فقال له : أعرف المغزى الذى يكمن وراء (لونابارك) فصاح الأستاذ نجيب بأعلى منه : انجدنى وقله لى لأقوله لمن يسألنى ·

س : الى كم لغة ترجمت أعمالك ؟

ج : الروسية ـ المجرية ـ الرومانية ، وتترجم الآن قصة (زقاق المدق) للفرنسية والانجليزية (كان ذلك عام ٦٧) وما عدا ذلك فاسمع عنه فقط ولا أراه ·

س : ما هو شعورك وانت تتسلم نسخة من عملك وقد ترجم ؟

ج : شيء من السرور · وليس الفرحة الغامرة · فالفرح لا يستغرقنى الآن ·

س : وما هو شعورك وانت ترى قصة طبعت بدون اذنك ؟

ج : بالطبع يختلف ، فهذا نوع من السرقة يثيرنى جدا ·

س : الا يخامرك مع هذه الاثارة شعور بالفرح لأن قراءك فى ازدياد ؟

ج : أعزى نفسى بهذا ، فالحقيقة ان المال زائل والجمهور هو الباقى ، ولكنى لا أريد أن أصرح بهذه الحقيقة حتى لا أجد كل أعمالى وقد زورت لتزيد فرحتى ·

س : من المعروف ان سارتر سيزور الجمهورية قريبا · فما هى أبرز جوانب سارتر فى نظرك ·

ج : جوانب سارتر كلها مثيرة للاعجاب ولعلها بحسب ترتيبها (الفيلسوف ثم المسرحى ثم الروائى) ·

س : ما هو أهم جانب فى زيارة سارتر ؟

ج : ان أهم جوانب لزيارة سارتر هو الجانب السياسى · فاذا نجحنا فى ان نثير اهتمامه بمشكلة اللاجئين العرب فاننا سنكون قد كسبنا نصرا عظيما ·

س : ولكن ما هو السؤال الشخصى الذى تود ان تسأله اياه ؟

ج : أريد أن أسأله : هل أضاف كتاب القصة الوجوديين الى التكنيك الموجود عند جويس ، وبروست ، وكافكا ؟

جاء هذا الحوار ـ لضيق الوقت ـ من غير أن أشفى نهمى للفوز بحديث صحفى معه ، فالحقيقة أننى كنت أريد أن أنطلق منه لقضايا فكرية وأدبية · ولكن انشغال الأستاذ نجيب الشديد ـ كان

فى الأيام الأولى لاستلام رئاسة مؤسسة السينما ــ ومقاطعة الزملاء لنـــا ليوقع على أوراقهم كل هذا جعلنى أشعر بضيق وقته ، فحملت أوراقى وشـــكرته ٠

مذابح حسن الامام

أما موضوعى الثانى عنه فكان بعنوان « اذا قال نجيب محفوظ شيئا فانما ليحتفظ لنفسه بأشياء وأشياء » ذلك اننى كتبته لأثبت ان كل تصريحاته وأقواله الشفوية ، وحتى مقالاته وآرائه التى يكتبها بتكليف ، لا ترقى أبدا ان تكون آراءه الحقيقية ٠٠ فلسفته هذه تجعله مجادلا محاورا فى اتجاه مجاملة الســائل وغير مفصح أبدا عن رأيه الحقيقى ٠٠ كــلام نجيب كما تقول العامة كلام للصرف أو كما يقول السودانيون كــلام ساكت ٠

ومن طول معرفتى به تأكدت ان رأى نجيب محفوظ ليس على طرف لسانه ، وانما يكمن تحت سن قلمه عندما يكتب فقط ٠٠ لقد وهب هذا الرجل كل ما يود ان يقوله للكتابة الفنية يؤازر هــذا المبدأ ويعضــده خصيصتان وهما المناورة والسخرية أو قل حب القفشـــات ، والظاهر انه طبــع على ذلك منذ الطفولة ثم اتبعها فى كل مناشــط حياته ٠٠ ويحضرنى هنا ما قاله عنه صديقه أدهم رجب فى عدد الهلال الذى صدر بمناسبة حصول الأستاذ نجيب على جائزة الدولة التقديرية : كان نجيب محفوظ لاعب كرة من طراز نادر أيام الصــبا ٠ كان محاورا ومنــاورا كرويا ٠٠ ولو اســـتمر لنافس على الأرجح حسين حجازى والتتش ومن بعدهما عبد الكريم صقر ثم الضظوى ، وأقول الحق وأنا أشهد للتاريخ اننى لم أر فى حياتى حتى الآن ــ وأنا مدمن كرة فأنا شاهد عدل ــ أقول لم أر لاعبا فى سرعة نجيب محفوظ فى الجرى ٠٠ كان أشبه بالصاروخ المنطلق ٠ وكان ذلك يلائم الكرة فى صباها ٠

واذا كان الجرى كالصاروخ المنطلق قد لائم الكرة فى صباهم ، فانه يناسب نجيب الى يومنا هذا ٠٠ وان كان قد استبدل الكرة بالحوار ٠٠ وبينهما ــ فى فترة تلمذته على الموسيقى مصطفى بك رضا ــ اختار العزف على القانون لأنه يوافق هوايته فى سرعة ضبط الأوتار فى نفس لحظة العزف ٠

هذا عن خصيصة المداورة ــ أما عن طبعة الســاخر وحبه لحبك القفشات فاننى أقسم ان باستطاعتى جمع مجلد ضخم لهذه القفشات التى صدرت منه طوال معرفتى به ٠٠ وان كنت هنا لا آتى بها الا فى المناسبات التى أكتب عنها ٠٠ وأضرب مثلا لذلك أننا اجتمعنا يوما لمناقشة عمل

ضيخم .. وما ان أصخنا السمع لقارىء هذه الرواية الا ووجدناه يرجو الأستاذ نجيب أن يخرجني من قاعة اللجنة وعندما استفهمت ؟ قال انها رواية على لسان مجنون جنسى .. قلت كان من الممكن أن يوزعها الأستاذ نجيب على باعتبارى عضوا فى لجنة القراءة .. كل هذا والأستاذ نجيب حائر بيننا .. وأخيرا رجانى ان أخرج .. ففعلت ثائرة وجلست فى الحجرة المجاورة أتميز غضبا كلمـــا سمعت همهماتهـــم .. وفجـــأة سمعتهم ينفجرون ضـحكا ثم صـمتوا هونا ما حتى خرجوا فســـألتهم لماذا انفجروا فى الضحك ثم صمتوا قالوا : فى منعطف من القصـــة .. قال القارىء مترددا ـ لا أستطيع أن أحكى هذا الموقف ـ فما كان من الأستاذ نجيب الا أن قام متجهـا الى البـــاب الذى يفصلنى عنهـــم وهو يقول بجدية أستأذن أنا كذلك فى الخروج لمجالسة عايدة .. فانفجروا فى الضحك ، قهقه الأستاذ نجيب هذه القهقهة التى لم أســمع صفاءها وجلجلتها من أحد قبله أو بعده .. انها ضحكة صافية مكركرة من الأعماق لا يضحكها الا من كان راضيا عن نفسه .. وعن عمله كان دوما غير مقصر فيه ولا متوان أو متهاون .. وكأنه يقول لقد أديت واجبى نحو عملى على أحسن وجه فلماذا لا أعطى نفسى الحق فى الضحك .

نعم فان المرء اذا استمع للأستاذ نجيب فانه لا يستطيع أن يحدد بدقة متى انتهى من مزاحه وبدأ جده ـ هو لا يخلط الجد بالهزل ـ ولكنه يعرف كيف يمزح بجدية شديدة ويعرف كيف يقول أشياء جادة على نحو يجعل المرء يتقبلها على أنها مجرد مزاح .

أذكر انه أيام انتظارنا لرئيس جديد لمؤسسة السينما .. ان جاء الزميل مسعود أحمد .. وقال لنا : لقد عرف من مصدر موثوق به .. انه سيعين للمؤسسة شخص ليس له علاقة بالسينما أو الكتابة أو الفن مطلقا .. فوجدنا الأستاذ نجيب يفكر مليا ثم رفع رأسه وقال بجدية : عرفته .. سألنـــاه من ؟ قال : حسن الامام .. وأردف لا تنطبق هذه الأوصاف الا على هذا المخرج .

تحيرنا .. لأن حسن الامام ذبح كثيرا من روايات الأستاذ نجيب بل وأساء أبلغ الاساءة الى أدبه من (زقاق المدق) الى (الثلاثية) ولكن لماذا لم يمانع الأستاذ نجيب ـ الى آخر حياة حسن الامام ـ فى ان يخرج آخر أعماله .

فى يوم آخر سنة ١٩٦٥ كنا نتجادل حول أزمة الأدب والأدباء فقال الأســـتاذ نجيب بجدية ان ثورة يوليو ١٩٥٢ هى التى أطاحت بالأدب والأدباء معا وكل ما ينتمى اليهم من بعيد أو قريب أيضا .. حدقنا فيه .. فقال على الفور : ـ وقبل أن تبدأ عمليـات الاسـقاط وخلافه ـ ضاحكا

ومؤكدا ـ نعم لأنها حققت كل ما كان ينادى به الأدباء فى أدبهم فضحكنا نحن أيضا وسقطنا بعده فى التأمل والريبة من أمر هذا الرجل الذى فسر صمته من سنة ٤٩ الى سنة ١٩٥٥ بشكل آخر ·· ثم تساءلنا : اذا لماذا يكتب الى يومنا هذا ، أليس هذا شيئا عجيبا ؟

يوم نشرت قصته (لونابارك) وجمعت تفسيرات النقاد عنها ·· سألناه عن المغزى ، فرد بحجة انه قرأ عن المدارس الجديدة التى تكتب من وحى القلم فجربها ·· ولكن هذا أيضا غير معقول !!

عندما كنت أزوره فى جريدة الأهرام ـ وهو على المعاش ـ ويسمع دبيب عصا توفيق الحكيم تنقر فى الردهة أمام حجرتيهما ـ يقول لى : الجرس ضرب هيا الى الحصة ·· أى الدخول للجلوس الى الأستاذ توفيق ·· فاعتذر فيرجونى وهو يضع يده على صدره ·· انه الآن يأسو اذا لم يزره أحد بل ويقول لى انك استقطبت كل الزوار · ادخل معى فأفعل على مضض ·· ويبدأ السيرك ـ وعلى عكس طبيعة توفيق الحكيم المتوجسة ـ توفيق الحكيم يقف بعصاته يصول ويجول ويهوش ويسأل : ماذا يعمل السادات ·· انه يذكرنى برجل أشبهه برجل المطافى الذى كلما أخمد النار فى الخيمة المهلهلة ·· اندلعت النار فى الجزء الآخر ··

ان الأحداث المتلاحقة تخرج الفيلسوف عن رشده ثم يسأل الحكيم : انت ايه رأيك يا نجيب ·· نجيب يبتسم مرة ويضحك أخرى ويصمت مرة ثالثة معتذرا بأنه لم يسمع ·· ولا أعرف ان كان هذا صحيحا أم لا ·· لا سيما وهو حقا لا يسمع جيدا ·· بل وأحيانا أقول له : أنت تسمع ما تريد فقط ··

وفى جلسته الصيفية بمطعم ومقهى « بترو » بالاسكندرية وبحضور توفيق الحكيم أيضا مع اناس من جميع التخصصات ·· اجد نجيبا يحاور الكل فى تفاصيل التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والسياسة والتكتيك والاستراتيجية ·· بينما توفيق الحكيم قد كل عن الملاحقة فانصرف عنا وسرح فى ملكوته ·· وعندما يستدرك الأستاذ نجيب يسأله : أين ذهبت ؟ فيجيب انه سرح فى أيام كان نائبا فى الأرياف وكذا ·· وكذا ·· كل هذا ليشدنا الى سماع ما يعرف بعد أن فشل فى مسايرة المحاورين فيما يعرفون ولا يعرفه !

فى الماركسية والعلمانية

على أننا اذا عدنا من هذه الحصيلة لخصائص الأستاذ نجيب الأصيلة الى آرائه فى أى من الماركسية والعلمانية مثلا ·· التى قال وقيل عن رأيه فيهما الكثير ·· فاننا نجده فى رسائله لصديقه أدهم رجب يتكلم عن

الشيوعيين كآخر : « أخبار الشيوعيين غطت عندنا على المعاهدة نفسها فضلا عن الأدب والسينما ·· فما تدرى يوما الا والبوليس يهجم على البيوت ويسوق الشابات والشبان الى السجون ، والشيوعيون أيضا يتكلمون عنه أيضا كآخر : فالدكتور عبد العظيم أنيس مثلا ذكر مرات انه رغم اختلافه فكريا مع نجيب محفوظ ·· الا انه قال ـ عندما رشح نفسه عن العباسية : ما دخلت بيتا على سبيل الدعاية الا وقالوا لى ان نجيب محفوظ ذكاه لديهم لكن رأيه الذى يعتد به مرحليا تجاه هذه وتلك من الشخصيات والقضايا لم يظهر الا فى الثلاثية وأيدلوجيا « فى قلب الليل سنة ٧٥ » ـ بل ان الدكتور عبد المحسن بدر اكتشف ـ أيام كان يعد رسالة للدكتوراه عن الأستاذ نجيب ويقلب المجلات القديمة ـ ان الأستاذ نجيب كتب مقالا عن الديموقراطية والاشتراكية عندما كان فى الثامنة عشر من عمره ونشره فى (المجلة الجديدة) التى كان يصدرها سلامة موسى ·· وفى مناسبة أخرى قال الأستاذ نجيب : أنا لست ماركسيا ولكننى اذا خيرت بين الاتحاد السوفيتى وبين الولايات المتحدة فاننى أختار الاتحاد السوفيتى · وفى عام ١٩٥٥ أجرى معه حديثا مندوب جريدة (الشعب) التى ألغيت وظهرت بعدها جريدة الجمهورية المصرية ·· نجد أن الأستاذ فيه وقد تحيز الى الكتلة الاشتراكية ثم برز هذا التحيز بعد عام ٦٧ وقال انه لولا الاتحاد السوفيتى لكانت مصر قد انهارت تماما ثم كتب على لسانه سنة ٦٩ ان مصلحة مصر تقع فى الارتباط بأمريكا فى الوقت الحالى · وفسر البعض حديثه بأنه ينوه الى أمور سياسية داخلية قد أدت الى حدوث القطيعة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى فلم يصبح أمامنا مفر من الالتجاء الى أمريكا·

بالنسبة للعلمانية نجد أيضا انها أخذت هذه الدائرة ·· فقد كتب فى (المجلة الجديدة) أيام كان طالبا بقسم الفلسفة مقالا عن (العلم والايمان) ثم انه كان يؤمن ـ طول بقاء ندوة الأوبرا ـ مع المنادين بالعلمانية بالمعنى المتعارف عليه ـ فصل الدين عن الدولة ـ وفى حواره مع المثقفين المصريين (خمس عشرة حلقة) المنشورة فى جريدة السياسية الكويتية سنة ١٩٧٣ ·· ينفى ضرورة فصل الدين عن الدولة بل قال : قد يكون التحرر من الدين ظلما للدين والعلم ·· لأن الدين قد يوفر حكما ديموقراطيا وأن هذا الفصل وان جاء مع الديموقراطية الأوربية ·· فقد جاء بسبب ان النهضة الأوربية قامت على أساس النزاع بين السلطة الدينية البابوية التي كانت تنافس الامبراطور ووراءه العلماء والمفكرون·· ولو رجعت الى الدين المسيحى لما وجدت كلمة واحدة ضد العقل أو ضد العلم · ومن هذا الانفصام تعانى الحضارة الأوربية ما تعانيه اليوم لأنها أنجبت العلماء الذين وصلوا الى القمر بدون ضمير دينى ·· ولو كان

علماء أوربا مسيحيين حقيقيين كما هم علماء حقيقيون ٠٠ لما اخترعت القنبلة الذرية ولكانت قوة الذرة وضعت فى خدمة الانسان وليس فى خدمة الرأسمالية والحكام ٠

أقوال ٠٠ وكلمات ٠٠ قد يحسبها المتتبع له تناقضا ويحسبها الآخر انها تتعلق فى الواقع بالتكتيك السياسى الذى يمكن بل قد يكون من الأوفق تغييره ، وقد خرج المثقفون بحوارهم معه بأن الآراء السياسية التى يقولها هدفها تجنب تعسف السلطة ٠ ولقد تباينت هذه التفسيرات والتحليلات لأنها اقتصرت على أقوال نجيب وتصريحاته وما كتبه بتكليف بينما تغاضوا عن فنه الأصيل الذى يتضمن رؤاه ومواقفه الحقيقية !

اقرأ قصته (قلب الليل) وهى ثانى الأعمال التى ظلت حبيسة درج المسئول (حضرة المحترم) لتجد رأيه فى الماركسية والعلمانية معا ٠٠ استمع الى بطلها جعفر الراوى الذى يحاور ذاته قائلا : اننى بصفتى جعفر الراوى ـ ولى الله ـ أعتقد أن مأساتى الخاصة قد نشأت من الصراع بين عقلى وبين ايمانى الراسخ بالله ٠ واعترضنى السؤال ، كيف تصبون ايمانك اذا أردت ان تجعل من العقل هاديك ومرشدك ٠

وعندما يكاشف زوجته هدى بهمومه تتعجب منه قائلة : « ماذا عن ايمانك اليوم يا جعفر ٠٠ نحن نتكلم عن القلب كنبع للايمان ، ان الله لم يعبده الا الانسان العاقل فالعقل فى الواقع هو أساس الايمان ولكن عجزه النسبى عن ادراكه ـ مع حرصه عليه ـ جعله يرجع الايمان الى عضو آخر هربا من التناقض » ٠

ورغم هذه الحجج فان التفكير أصبح جزءا لا يتجزأ من حياة الراوى ، لأن ما سمعه فى مكتبه ـ المحاماه ـ قد تحداه بعنف لا سيما ارتطامه بسعد كبير (الشيوعى) الذى عندما قرأ الأوراق التى سجل عليها الراوى أفكاره لإنقاذ البشرية لا فى مصر فحسب قال له رأيه : « سمك ، لبن ، تمر هندى » أى تلفيق ، أحلام يقظة ، خيال ٠ سأله الراوى بغضب : ماذا تتوقع ، رد كبير ان تقنع برأيى فى الشيوعية ٠٠ قال الراوى : انكم مسلوبوا الارادة والتفكير ٠ وعندما احتج كبير بأن الراوى يعرف على الأقل انهم جادون وأنهم يحملون رؤوسهم على أكتافهم وانهم يؤمنون بالانسان و ٠٠٠ و ٠٠٠ احتج الراوى بأنه يؤمن بالانسان أكثر منه ٠ فهو لا يصدق ان مؤمنا حقا بالانسان يمكن ان يقتنع بنظام دكتاتورى وانه جاد هو الآخر وعلى استعداد لحمل رأسه على كتفه و ٠٠ وتكوين حزب أيضا ٠

تتوالى الأحداث فيهمس ـ محسن سكرون ـ المغنى وصديق الراوى القديم فى اذنه بأن سعد كبير يريد بكلامه الثائر هذا ان يفوز بقلب زوجته هدى ـ رغم أن هدى تجاوزت الخمسين وكبير لم يتجاوز الثلاثين ، يتسلل هذا الكلام الى نفس الراوى ويعذبه أن سعد كبير أكثر

أصدقاء الراوى حماسا لمذهبه الماركسى ومن ثم تفاعلا مع مصيره ٠٠ وذو طبيعة حادة متماسكة ، شديدة اليقين بما يؤمن الى حد التعصب الأعمى ٠ ومن الذين يعملون بكل قواهم فى اتجاه واحد ولا يتوانى عن تحطيم خصمه بكافةالوسائل البلاغية والمناورات الغريبة التى تثير ثائرة من يحترم العقل ويقدسه مثل الراوى ٠

كل هذه المعرفة للراوى عن كبير ٠٠ تضلله لدرجة انه يلمح فى عينى هدى اعجابا به واستسلاما لجدله الحماسى العنيف ٠٠ وذات يوم ينحصر الاجتماع بينه وبين سعد كبير ويحتدم النقاش بينهما كالعادة ٠٠ فتجتاح الراوى المأساة وكأنها زلزال غير مسبوق بأسباب واضحة فاشتبكا فى صراع مخيف ، أسفر عن قتل الراوى لسعد كبير ٠ وأودع السجن الذى يخرج منه ليكتشف انه فقد الزوجة والأولاد وحتى جده تبرع بكل أمواله الى الفقراء ٠٠ هيىء له مع ذلك انه يستطيع استئناف الجهاد ٠ ولكن الصديق الوحيد الذى بقى له ، ينصحه بأن يدع ذلك ٠٠ لأن الزعيم يجب ان يحوذ شخصية ذات قوة وجاذبية ٠٠ فضلا عن أن ميدان السياسة حافل بالشخصيات ذات الحيوية ٠٠ وفى نهاية القصة ، نجدهما سائرين جنبا الى جنب ــ وكأن رأس الراوى يطن بحديث الليل الطويل فيهمس : لتمتلىء الحياة بالجنون المقدس حتى النفس الأخير ٠٠

وبعد هل صح زعمى ؟ بأن نجيب محفوظ يدخر كل ما يود قوله ليودعه فى الفن وحده ؟ وعلى هدى ذلك أقول : لننظر فى أدب نجيب الآتى فهو يحمل وحده حقيقة رأيه ٠٠ كما حمل (قلب الليل) رأيه فى كثير من الأمور التى ناور وحاور فيها وعرضها بحياد فى (الثلاثية) بين أولاده خديجة الشيوعى والاخوانى ، وكما حملت ميرامار رأيه فى الاتحاد الاشتراكى وكل العناصر التى تسرى نفسها وطنية كالرأسمالية ٠٠ الوطنية والشيوعية ورأيه فى الثورة ككل فى (ثرثرة فوق النيل) ومن قبله رأيه فى الشحات بالنسبة للوفد ٠٠ وفى قصصه الأخيرة حول سياسة الانفتاح عندما حاول البوليس معرفة الحقيقة حول ندرة النشل والسرقة فى مصر فوجد أن اللصوص قد نقلوا جهدهم للانفتاح ٠

نجيب محفوظ اذن لا يضيع جهده الذى نذره للفن وحده فى أن يصوب ما كتبه المحاور على لسانه ، اذا كان التغيير طفيفا فى آرائه لا يرفع قضية على المخرج لأنه حرف الشخصيات مادام أصلها موجودا فى القصة المكتوبة لا يتدخل نجيب الا اذا كان ما كتبه المحاور على لسانه صارخ المخالفة عما قاله ٠٠ واذا وجد فرصة مواتية لذلك ٠ وكما لاحظت فى حديثه الى

صحيفة « القبس » الكويتية عندما قدم نجيب حلين لأزمة فلسطين · البدولة الموحدة التى يقترحها ياسر عـــرفات والدولة المقترحـة فى قطـــاع غزة (الضفة الغربية والانسحاب من باقى أرض ١٩٦٧ وقال له المحاور : ماذا يحدث لو رفضت اسرائيل الحلين اللذين تقترحهما ؟ · قال : لا مفر من الحرب · وان كان تحفظ بضرورة مساعدة العرب فى دعم مصر والمؤهلة للدفاع عنهم ، وأن يسددوا كل ديونها ؟

وأخيرا ألم يحذر أديبنا الصادق يحيى حقى ســنة ٣٢ من خطورة أدب توفيق الحكيم على الشباب لأنه أدب يغلق عقولهم على الفرعونية بدلا من أن يفتحه على العالم العربى ·· وان يحيى حقى ظل يردد دائما قولته المأثورة « اننى ســعيد لأننى أحيــا فى العصر الذى يعيش فيه نجيب محفوظ » ·

ان هذا وذاك كان حصيلة الموضــوعين اللذين كتبتهما عن الأستاذ نجيب محفوظ قبل حصوله على جائزة نوبل ·· وعندما حصل عليها ·· انهمرت التداعيات والذكريات عن السنوات التى قضيتها أعمل معه ·· وجعلتنى أخالف كل من كتب أو قال ان مصر والعرب كلهم حصلوا على نوبل معه ·· لا ثم لا فنجيب محفوظ هو وحده الذى استحق هذه الجائزة عن جدارة ·· هو الذى سحب نفسه عن كل المهاترات وقتل الوقت فى السفسطائيات العبثية ·· تسابق مع نفسه وكثف نفسه للفن وحــده · واذا كان أحد حساده قال : لقد حصل نجيب محفوظ على الجائزة من أجل ستة لتسعة ·· أى أنه الزم نفسه بالكتابة يوميا من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة يوميا ·· فانها مقولة لصالحه ·· لأنه كان يكتب هذه الأوقات غير منتظر للوحى الذى يحركه ·· أى انه هو الذى حرك الالهام وليس هذا ببسيط لأنه فعل كمن أطبق كفه على جمر الحرمان من التسلية والثرثرة ·· رغم لذتهما ·

وأخيرا هل نقول ان الأستاذ نجيب محفوظ ولد فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩١١ ·· فى حى الجمالية والتحق بمدرسة العباسية الالزامية والحسينية الابتدائية والثانوية عندما تحولت الى مدرسة ثانوية ·· ثم قسم الفلسفة جامعة القاهرة · وهو أصــغر أبناء المرحوم السيد عبد العزيز ابراهيم السبلجى ، وكان مديرا لمحلات الجسين لتجارة النحاس ومكانه بيت القاضى المجاور لمسجد (سيدنا الحسين) ·

ملحوظة أخـــيرة :

انتهيت من وضع كتابى هذا « شاهدة ربع قرن » ، بينما يد أثمة قد امتدت من ظلمات الجهالة والغدر لاغتيال كاتبنا الكبير نجيب محفوظ . وتلك ظاهرة خطيرة ومؤشر على تراجع وعى الأمة ومدى تقـديرها لقيمة الثقافة والمثقفين فى زمن الرواج الانفتاحى السلعى الذى تجاوز اقتصاديات السوق ومعيار العرض والطلب الى الجور على الثوابت والمبادىء وانكار الحضارة والتفريط فى رموزها الأدبية والفكرية والسياسية والفنية ، فالى أى انحدار نحن منجرفون عبر التطرف والارهاب وبحر الظلمات !

لقد أنقذت ارادة الله ومشيئته حياة نجيب محفوظ من ردى الموت على يد تلك الفئة الباغية الظلامية ‥ وأحسب أن لارادة نجيب الفولاذية دور فاعل فى تشبثه بالحياة ‥ وأن دعوات كل العارفين لفضله وعبقريته الفذة فى مصر والعالم كانت معه ودافعا له على الشفاء . لأن اجماع الناس على حب انسان موصول بحب الله له و ‥

كلنا أمل وانتظار لفيض عطائك يا أستاذ نجيب ‥ فلتكن تجربتك مع الموت اثراء للحياة بفكرك وفلسفتك والتزامك وأخلاقيـاتك ومبضع قلمك .

فهرس

الموضــــوع	الصفحة

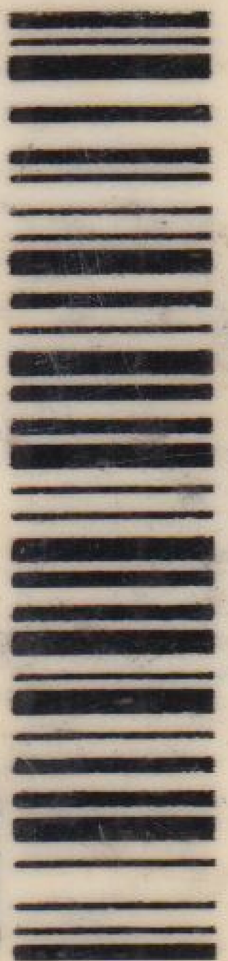
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٧٩٧٨

ISBN — 977 — 01 — 4510 — 6



يأتى هذا الكتاب شاهدا على عصر متواصل العطاء لكاتبة نشطة استطاعت ان تجمع عبر سطور هذا الكتاب شتات ذكرياتها الشخصية والعامة، من خلال مقالات وتحقيقات مثيرة للجدل والتأمل، حول عدد من المع نجوم الادب والفن والفكر الوطنى ، أقتربت منهم وعايشتهم، وسبرت اغوارهم ، وماوراء ابداعاتهم علي مدى ربع قرن ، ومن هنا يأتي كتاب ، شاهدة ربع قرن، سجلاً حافلاً بالمواقف والأحداث، والكثير من الاسرار الشخصية، التى يتعرف عليها القارئ لأول مرة حول هولاء الرموز الثقافية التى أسهمت بدوراً كبير على صعيد التنوير، والأبداع ، وتشكيل فكر الامة ، وضميرها، خلال فترة من أخصب تاريخها المعاصر وأكثرها صخبا وعطاء ونضالا .



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦٧٥ قرشا